العقل في القرآن الكريم وأثره في الفكر الإسلامي

الأستاذ الدكتور/ محمد عبد الرحيم البيومي

العقل في القرآن الكريم وأثره في الفكر الإسلامي

الأستاذ الدكتور/ محمد عبد الرحيم البيومي

للإنتاج والنشر والتوزيع
7 شارع الجمهورية ـ عابدين ـ القاهرة
جمهورية مصر العربية

ت: 01004093521 (202+)
01147208173 (202+)

الطبعة الأولى
1438هـ - 2017م

رقم الإيداع: 2017/25802
الترقيم الدولي .I.S.B.N
978-977-6214-70-5

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سلسلة البيان (16)
البيومي، محمد عبد الرحيم
العقل في القرآن الكريم وأثره على الفكر الإسلامي/
محمد عبد الرحيم البيومي
ط1 -القاهرة: الوابل الصيب للنشر والتوزيع،
.2017
تدمك : 978-977-6214-70-5
1- العقل.
2- علم الكلام الإسلامي.
3- الفرق الإسلامية.

الوابل الصيب للإنتاج والتوزيع والنشر
تراثنا .... أمانة في أعناقنا

العقل في القرآن الكريم

وأثره في الفكر الإسلامي

تأليف

أ.د محمد عبد الرحيم البيومي
عميد كلية أصول الدين (بالزقازيق)
جامعة الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة السلسلة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، آمين.

إن الفكر المتطرف يدفع إلى السلوك المتطرف، وحينما تأتلف فئة في المجتمع على هذا النهج تغدو كتوحش الخلايا السرطانية التي تفسد أعضاء الجسم وترديه، وقد كان التطرف سببا رئيسا في سقوط دول وتراجع حضارات في عالمنا المعاصر، ولذلك أخذت على عاتقها جماعة من العلماء المخلصين الغيورين على دينهم ووطنهم، وتحملت مسئولية الرد على الفكر المتطرف في الدين ، معذرة إلى ربهم ولعلهم يهتدون، فإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا .

وهذه سلسلة البيان تتوالى فكان أولها موسوعة الرد على خوارج العصر في خمس مجلدات، شملت الرد على الشبهات في محاور متعددة وجهات محيطة في الفقه والعقيدة والمناهج والأصول والحضارة . وتلاها منظومة القيم الأخلاقية ثم الصفات الإلهية بين الرازي وابن تيمية ثم فقه حب الحياة والسلف والسلفية بين التنزيه والتشبيه ثم حكاية الإرهاب ... إلخ.

والسلسلة مقسمة إلى حلقات ، حلقات عملت على الهدم، هدم الفكر المتطرف في الدين من جهة العقيدة والشريعة والأخلاق والمعاملات، وحلقات للبناء ، تبنى العقلية العلمية حسب النموذج الإسلامي، باعتماد التفكير المنهجي، وتقدير التراث وعلماء الدين.

ولن نكون من الخالفين أو القاعدين عن مواجهة هؤلاء النابتة، فنسأل الله أن ينفع بهذه السلسلة ويرد عن أمتنا هذه الفتنة التي تهدد أمنها واستقرارها.

أ.د علي جمعة

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعد ،،،

فإن النابتة من المتطرفين والإرهابيين ينكرون قيمة العقل بلسان حالهم ومقالهم، و ينظرون إليه على أنه ضِدٌّ للشريعة، و كأن الشريعة تستغني عن العقل أو تحاربه، أو تأتي بما لا يتفق معه .

أما أهل الله وعلماء الشريعة فيرون الإسلام أعلى قيمة العقل وحض على التفكر والتدبر، ويرون العقل والشرع كلاهما خلقٌ لله عز وجل، وآية من آيات قدرته وعظمته، وآيات الله تتعاضد ويؤيد بعضها بعضًا، ولا تتناقض أبدا، فالعقل السديد الذي فطره الله وأحسن خلقه لا يتناقض مع شريعة الله وحكمته وآياته وكلماته التي لا تتبدل ولا تتحول.

ولكن خوارج العصر يدعون أتباعهم إلى وضع العقل أسفل الحذاء؛ حتى يسهل عليهم السيطرة على مواليهم، وتتيسر قيادتهم، فيكونون كالأنعام بل أضل سبيلا، وهذا نوع من الطغيان على النفس الإنسانية التي وهبها الله العقل كي تفكر وتتدبر، فإن الطغاة في كل عصر وأوان يرغبون في تجهيل أتباعهم وإضلالهم عن الحق، حتى يصير قولهم الحقَّ الذي لا مرية فيه، ولا يجدون في أتباعهم مناقش أو معترض.

إن إمراء الدواعش يصنعون من أنفسهم آلهة يؤمن بها الأتباع، بيقين الجهلاء، فلا مناقشة ولا جدال، فحسبنا الله ونعم الوكيل .

أما أهل الله أتباع الحقيقة تتجه همهم إلى إزالة سحابة الجهل الذي يغشي العقل، فيكشفون للعالمين كيف جاء النبي صلى الله عليه وسلم بنور الحكمة، ونزل الوحي بشريعة عالجت شئون الحياة ، وتحدثت عن الماضي والحاضر والمستقبل.

ولم يجد البشر المعاندون والمؤيدون أي تناقض أو تعارض في كلام الله تعالى مع تحفز المعاندين وتكالبهم على التفتيش عن أية تناقض، وصدق الله حيث قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:82]

ولقد رأينا أن نتبع في سلسلة البيان بعد حديثنا في كتاب "درجات المعرفة ومكونات العقل المسلم"، وهو كتاب ثقافي بسيط، خاطبنا فيه المسلم ذا الثقافة العادية والمتوسطة، أن نخرج رسالة الدكتور محمد البيومي عن أثر العقل في رسالة الإسلام، وأثره على الاستدلال العقلي في علم العقيدة بين فرق الإسلام الفكرية الأشاعرة والمعتزلة والفلاسفة .

فأحسن المؤلف وأجاد وكشف عن درجات لإعمال العقل وإتاحة الفرصة لإعماله، ولن تجد ولو بعد طول تفتيش جماعة في تاريخ حضارة الإسلام دعت أتباعها إلى نبذ العقل ومحاربته ووضعه أسفل الحذاء إلا جماعة الحشاشين الباطنية الذين سكنوا القلاع والكهوف وأغاروا على دولة الإسلام وخلافته حينا بعد حين، ومن شابههم من خوارج العصر، فالأولى أمكن الله منهم وقضى عليهم، كما سيمكننا إن شاء الله من القضاء على هذه الفئة المنحطة التي شوهت الفكر وباعدت لحظة اللقاء الحضاري الذي يتصل فيها حضارة الأمس بالغد، فلعنة الله على الظالمين.

والله ولي التوفيق

وصلى الله على سيدنا ومولانا رحمة الله للعالمين محمد خير خلق الله

أ.د علي جمعة

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلق الله، وأشرف المرسلين سيدنا محمد عليه أفضل صلاة وأتم تسليم .

وبعد ،،

فقد مَنَّ الله سبحانه وتعالى عليَّ منذ سنوات بالحصول على درجة التخصيص (الماجيستير) والتي على إثرها توجهت بعون الله وتوفيقه لاختيار موضوع البحث والدراسة في مرحلة العالمية (الدكتوراة) حيث تجاذبتني أفكار شتى، وذاكرت في موضوعات عدة كدت أغيب في خضمها، وأغرق في بحارها .

وبعد أن جمعت بعضها قمت بطرحها على فضيلة أستاذي الجليل الأستاذ الدكتور: رشدي عزيز محمد حيث قام فضيلته بمناقشتي فيها ثم وجدت يده الكريمة التي اعتدت أن أراها لدي الملمات تمتد نحوي قائلا لي في أبوة حانية: أي بني قم وأنصت إلي. فقلت: كلي آذان صاغية أستاذي الجليل، فجلست من فضيلته مقام المتعلم من العالم والتلميذ من أستاذه والسائل من المسئول حيث قال فضيلته في نصحه الأبوي: أي بني ، إن ثمة موضوعات لا طائل من ورائها إذ إنها قتلت على مائدة البحث من شتى أطرافها، ولا فائدة ترجى في درسها، فلماذا لا تأخذ موضوعا حيًّا، تذب به عن بيضة دينك وحمي كتابك في وجه المتعالمين وأدعياء العلم ودجالينه، الذين يشيعون بين الناس وينفثون في روعهم أن العقل العربي والإسلامي في أزمة، وأن القرآن الكريم من معوقات التفكير الحر السديد، وقد تجانبوا الصواب فيما زعموا وافتروا؛ فبين لنا كيف نال العقل في القرآن من تكريم لم يسبق إليه كتاب قط ، ولن يطاوله كتاب من بعد، وبين لنا كذلك أمور العقيدة كما جلاها القرآن

الكريم في خطاب عقلي سهل مسير محبب للعقول والأذهان من القمة إلي السفح، وكيف أن لغة النقاش فيه كانت لغة العقل والمنطق المحفوفة بالحسنى واللين.

فاعكف يا بني على كتاب ربك حتى تجلي لنا هذه الموضوعات وغيرها من خلاله، دافعا به في وجه كل ضال في فكره ومنحرف في عقيدته، أنكر ضوء الشمس من رمد ولم يستسغ طعم الماء من سقم، هاتفا في أذن الزمان "هاؤم اقرءوا كتابيه" وليكن عنوان بحثك :

[العقل في القرآن الكريم وأثره في الفكر الإسلامي]

وإنما كان إيثار التعبير بلفظ العقل في عنوان البحث لعمومه وشموله من حيث إفادته الحديث عن منزلته ودلائله العقلية على الأمور العقدية في القرآن الكريم .

وعلى هدي من بيان أستاذي وتوجيهه أخذت أقرأ حول هذا الموضوع حتى أدركت من خلال حديثه السابق، ومن خلال قراءتي، أهمية هذا الموضوع ومدى الحاجة إليه، فاستخرت ربي سبحانه وتعالى ووجدتني مدفوعا إلي الكتابة فيه من خلال عدة عوامل من أهمها :

1. بيان سمو العقل ورفعته في القرآن .

2. الوقوف من خلال هذا البحث بصورة عملية في وجه دعاة التعصب الديني [1] الذين زعموا أن القرآن الكريم يعوق النظر العقلي الحر .

3. بيان الأمور العقدية بصورة سهلة ميسرة على ما ورد ذكرها في القرآن الكريم بعيدا عن التعقيدات الفلسفية والكلامية .

---

1 - التعصب الديني نزعة قادها نفر من المستشرقين ضد الإسلام والقرآن الكريم ويقف على رأس هؤلاء النفر تتمان فيكتور .

4. تجلية قضايا العقيدة في صورها الصحيحة بعيدا عن المؤثرات والأفكار الأجنبية التي اختلطت بها في بعض مراحل الفكر الإسلامي.

5. الوقوف على لغة الحوار والجدال والإقناع في القرآن الكريم سواء مع المؤمنين أم من المخالفين لنتخذ من ذلك نورا وهدي في ميدان الدعوة اليوم.

6. بيان الأسس التي تقوم عليها المعرفة الإنسانية كما يصورها القرآن الكريم .

وإذا كانت هذه هي أهم الأسباب والدوافع التي حدت بي إلى تناول هذا الموضوع فإن هذا البحث قد جاء مشتملا على :

مقدمة ، ومدخل ، وأربعة أبواب ، وخاتمة .

أما المقدمة : فقد تضمنت أهمية الموضوع ، ودوافع الكتابة فيه ، وخطة البحث ، والمنهج الذي اتبع في كتابته .

أما المدخل : فقد جاء بعنوان منزلة العقل في القرآن الكريم ، وفيه تم بيان هذه المنزلة من خلال عدة مطالب :

المطلب الأول : دعوة القرآن الكريم إلي النظر .

المطلب الثاني : محاربة القرآن للتقليد والمقلدين .

المطلب الثالث : دعوة القرآن إلي اليقين ونهيه عن الظن.

المطلب الرابع: التدبر في آي القرآن الكريم .

المطلب الخامس : القرآن الكريم وقضايا الفكر " الله ، العالم ، الإنسان " .

المطلب السادس : الحقائق الكونية والعلمية في القرآن الكريم .

المطلب السابع : القرآن الكريم والعقائد المخالفة .

المطلب الثامن : طرق المعرفة والاستدلال في القرآن الكريم .

المطلب التاسع : المتشابه في القرآن الكريم من بواعث التفكير العقلي .

المطلب العاشر : العقل أساس التكليف .

المطلب الحادي عشر : العقل والاجتهاد .

المطلب الثاني عشر : العقل أحد الكليات التي حافظ عليها القرآن الكريم .

وأما الباب الأول : فقد جاء بعنوان : الإلهيات في القران الكريم وأنماط ونماذج .

ويقع هذا الباب في فصلين :

الفصل الأول : الدلائل العقلية على الوجود الإلهي .

الفصل الثاني : الدلائل العقلية على الوحدانية .

وأما الباب الثاني : فقد جاء بعنوان : النبوات ودلائلها العقلية في القرآن الكريم أنماط ونماذج .

ويقع هذا الباب في فصلين :

الفصل الأول : أوجه الإعجاز العقلية في القرآن الكريم.

الفصل الثاني : الدلائل العقلية على إثبات النبوة في القرآن الكريم .

وأما الباب الثالث :

فقد جاء بعنوان : البعث بين الإمكان والوقوع .

ويقع هذا الباب في فصلين :

الفصل الأول : الدلائل العقلية على إمكان البعث في القرآن الكريم أنماط ونماذج .

الفصل الثاني : دلائل وقوع البعث في القرآن الكريم .

وأما الباب الرابع : فكان بعنوان : أثر العقل في القرآن الكريم على الفكر الإسلامي أنماط ونماذج .

ويقع هذا الباب في ثلاث فصول :

الفصل الأول : الإلهيات .

وقد اشتمل هذا الفصل على مبحثين هما :

المبحث الأول: أثر الدلائل القرآنية العقلية على إثبات الوجود الإلهي في الفكر الإسلامي وذلك عند مفكري الأشاعرة ، والمعتزلة ، والفلاسفة .

المبحث الثاني : أثر الدلائل القرآنية العقلية على إثبات الوحدانية في الفكر الإسلامي وذلك عند الأشاعرة ، والمعتزلة ، الفلاسفة.

وأما عن المنهج، فإنه تضمن عدة أمور :

1. الاستقراء: وقد استخدم في تتبع الآيات القرآنية المتعلقة بموضوع الرسالة.
2. التحليل : ومن خلاله تم تفسير النص القرآني للوقوف على المعنى المراد .
3. الاستنباط: استنباط الدلالة العقلية التي يمكن أخذها من الآية القرآنية على الأمر المراد للبرهنة عليه .

وبجانب ما تقدم كانت ثمة مناهج مساعدة استعنت بها عند الحاجة إليها :

1. المنهج النقدي.
2. المنهج الاستردادي التاريخي.
3. المنهج المقارن : وقد ظهرت الاستعانة به لبيان مدى تأثر الفكر الإسلامي بالدلالات العقلية التي أوردها القرآن الكريم بالنسبة لأمور العقيدة .

مدخل
منزلة العقل في القرآن الكريم

أولا : دعوة القرآن الكريم إلي النظر .

ثانيا : محاربة القرآن الكريم للتقليد والمقلدين .

ثالثا : دعوة القرآن الكريم إلي اليقين ونهيه عن الظن .

رابعا : التدبر في آي القرآن الكريم .

خامسا : القرآن الكريم وقضايا الفكر الله ، العالم ، الإنسان .

سادسا : الحقائق الكونية والعلمية في القرآن الكريم .

سابعا : القرآن الكريم والعقائد المخالفة .

ثامنا : طرق المعرفة والاستدلال في القرآن الكريم .

تاسعا : المتشابه في القرآن الكريم من بواعث التفكير العقلي .

عاشرا : العقل أساس التكليف .

حادي عشر : العقل والاجتهاد .

ثاني عشر : القرآن الكريم وتحرير العقل من الأوهام .

ثالث عشر : العقل أحد الكليات التي تحافظ عليها القرآن الكريم .

أولا: تعريف العقل

وللعقل تعريفات عدة هي بالرسم والفائدة لا بالحد منها.

1. هو ما يميز به الحق والصواب من الباطل والخطأ .

2. هو ما يعين على التجريد واستخلاص المعاني الكلية، وهو وسيلة المعرفة فيدرك الجزئي كما يدرك المعاني العامة .

وعرف في المصباح المنير بأنه غريزة يتهيأ بها الإنسان إلي فهم الخطاب، وعرفه الجرجاني بعدة تعريفات منها .

1. العقل : جوهر مجرد عن المادة يتعلق بالبدن تعلق تدبير وتصرف .

2. العقل والنفس والذهن بمعنى واحد ، وسمى عقلا لكونه مدركا، ونفسا لكونها متفرقة، وذهنا لكونه مستعدا للإدراك .

3. وعرفه الشيرازي : بأنه صفة يميز بها بين الحسن والقبيح .

4. وعرفه الصوفية: بأنه نور في القلب يستعد لإدراك الأشياء .

5. عرفه الفلاسفة والمعتزلة والخوارج: بأنه جوهر مجرد يدرك به الغائيات بالوسائط والمحسوسات .

6. عرفه الإمام الغزالي والمالكية: بأنه غريزة فطرية تشرق على النفس عند من سن التمييز ثم تنمو شيئا فشيئا بالتدرج إلي أن تتقارب بقرب الأربعين سنة.[1]

1 - شرح البيجوري ص 198 .

المطلب الأول

دعوة القرآن الكريم إلى النظر

إنَّ من السمات البارزة في القرآن الكريم دعوته إلي العلم والنظر والتفكر والتدبر والسعي في الأرض ومناكبها، سعى المتبصر لا سعى الغافل، وهذه الدعوة منبعها من كون الإنسان صاحب فكر، وعقل ، وَروية، وبصيرة، وبهذا امتاز الإنسان عن سائر الكائنات .

يقول صاحب كتاب مستقبل الحضارة: إنَّ من أوضح سمات القرآن الكريم التي أثارت انتباه الدارسين من رجال الفكر والباحثين من العلماء، هي الإشادة بالعقل، وتوجيه النظر إلي استخدامه للوصول إلي ما يفيد الإنسانية في مسيرتها عبر الحياة، ويشير القرآن الكريم إلى العقل، ومشتقاته، ومترادفاته، ومعانيه المختلفة في أكثر من ثلاثمائة وخمسين آية مستخدمًا لذلك كل الألفاظ التي تدل عليه، أو ترشد إليه، وتشير إليه من قريب أو من بعيد، من التفكر، والتدبر، والتذكر، والحكمة واللُّب، والنظر، والرُّشِد، الرأي والعلم والفقه و القلب والفؤاد، إلي غير ذلك من الكلمات، و الألفاظ التي تدور حول الوظائف العقلية على اختلاف معانيها، وخصائصها مما يعتبر إيحاءات قوية بدور العقل وأهمية بالنسبة للإنسان [1].

ومن ثم يمكن أن نقرر أن المتصفح والمتدبر لآيات ربه لا يكاد يرى سورة أو صحيفة في القرآن الكريم وقد خلت من ذكر العقل أو الثناء عليه، ومن ثَمَّ رأينا الدعوة التي

---

1 – د / أحمد عبد الرحيم السايح، مستقبل الحضارة الإسلامية ص48 ط روز يوسف سنة 1405 هـ وكذا، د / أحمد عبد الرحيم السايح، فلسفة الحضارة ص102 ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة 1989، و د/نديم الجسر القرآن والسنة في التربية الإسلامية ص49 ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة 1967.

حملتها الآيات القرآنية إلي النظر والاعتبار، ورأينا تلك الآيات وقد زيلت بقوله سبحانه وتعالى﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:44] ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:73]، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص:72]، ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام:50]، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام:152]، وغيرها من خواتيم الآيات وكأن القرآن الكريم بدعوته تلك يستثير العقول إلي التدبر والتفكر والاعتبار في الكائنات كلها ليعلم أنما هو ماثل وشاخص أمام الأبصار والعقول إنما هو الحق الذي لا مرية فيه فإن رَأى الإنسان فيه خلاف ذلك فليتهم بصره وبصيرته، يقول د/ عبد الحليم محمود :إن القرآن دائما يطالب بالنظر والتفكر والتدبر كما ورد في سورة الحشر﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[الحشر:2]، وكما ورد في سورة ق ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:37] وكثيرًا ما نجد الآيات تختم بـ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ .وكل ذلك يدل على أن القرآن يدفع الناس إلى استعمال العقل ... وكل ما ذكره القرآن الكريم من التفكير والنظر والتدبر إنما أراد به الاعتبار، وأراد أن يقول تفكروا لتروا أن ذلك هو الحق، انظروا لتعلموا أن ذلك هو الخير، أمَّا إذا رأيتم غير ذلك فإنما العيب في بصركم أو في بصيرتكم!! .

إذا رأيتم غير ذلك فإنَّ الفساد في عقولكم وفي تفكيركم، إذا رأيتم غير ذلك فاعلموا أن فطرتكم فسدت لانحرافكم، وأن قلوبكم رَانَ عليها الإثم فضلت، وأن عقولكم قد صَدَأَتْ فأصبحت لا ترى الحق حقًا ولا الخير خيرًا، وأصبحت من الضلال بحيث ترى الخير شرًا والشر خيرًا ، وأصبح أصحابها كالأنعام بل هم أضل سبيلا [1] .

---

1 – أ. د / عبد الحليم محمود، الإسلام والعقل، ص13، 14، 15 ط دار الكتب الحديثة .

ولكثرة الآيات التي تفجرت في ثناياها الدعوة إلى التفكر والنظر والتدبر، ولجعل القرآن الكريم النظر العقلي طريقًا من طُرق المعرفة والاستدلال على وجود الله أوجب كثير من العلماء النظر على المكلف، بل ذكر بعضهم أن وجوب النظر على المكلف أمر مجمع عليه كما صرح بذلك الشريف الجرجاني في شرحه للمواقف، والدواني في شرح العقائد، وغيرهما من العلماء، ومن ثم كانت المعرفة العقلية طريقًا من طُرق الإيمان بالله، بل هي الطريق الأوثق، والأوحد عند من لا يؤمن إلا من طريقها .

جاء القرآن الكريم في صريحه بدعوته القوية والحافزة إلى التفكر والنظر في ملكوت السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن من بديع الخلق [1]، وجميل الصنع وعظمة التدبير [2] وإلي هذه المعاني السابقة كانت الإشارة في قول الله الحق سبحانه في سورة يونس ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يونس : 101]، وقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ ﴾ [الأعراف:185]، وقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠ ﴾[العنكبوت:20] وقوله

1 – آراء العلماء في جواز البحث في حقيقة العقل وعدمه :

أ– قد ذهب فريق من العلماء إلي عدم الخوض في حقيقة العقل قياسا على عدم الخوض في الروح .

ب– رأى فريق آخر بجواز الخوض في العقل استنادا إلى أن العقل خلق من خلق الله تعالى، يقول صاحب الجوهرة : (العقل كالروح من حيث الخوض في بيان الحقيقة والوقوف عن ذلك فرجح قوم طريق الخوض فيه ورجح آخرون طريق التوقف لأنه من الغيبيات ، وكل ما هو كذلك فالأولى الكف عن الخوض فيه، وأقوال أهل السنة مطبقة على عرضيته، فبعضهم قال: إنه من قبيل العلوم وحكي هذا القول عن إمام الحرمين وجماعة، وقال البعض: إنه ليس من قبيل العلوم. شرح الجوهرة صـ198.

2 – د : عبد الرحمن المراكبي، قضية التأويل في الفكر الإسلامي، صـ46 ط الأولى، دار الطباعة المحمدية سنة 1987.

تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات:20- 21] وقوله تعالى في سورة الروم: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[الروم:8]

وهكذا تترا الآيات القرآنية مخاطبة العقل مستنفرة للفكر لا تقف في خطابها عند الضمير إلي أو الوجدان ومن ثم يقول أ/ عباس العقاد مشيرا إلى القرآن الكريم : وفي حكمه إن النظر بالعقل هو طريق الضمير إلي الحقيقة وأن التفكير باب من أبواب الهداية التي يتحقق بها الإيمان [1] . والقرآن الكريم في دعوته إلي النظر والتفكر يستخدم أيضا في التعبير ألفاظا غير السابق ذكرها من الرؤيا وغير ذلك . يقول الله تعالى في سورة الشعراء: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الشعراء:7- 8]، ويقول تعالى في سورة الزمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾[الزمر:21] [2]

ويمكن أن نلمح في هذه الآيات وغيرها من الآيات التي تدعوا النظر أن القرآن الكريم بهذه الآيات التي تسطع بمعانيها الداعية إلى التفكر والتدبر في الكون المنثور علوية وسفلية إنما تستحث العقول وتستنفر الفكر، ومعنى هذا أن القرآن الكريم بدعوته تلك لم يحاول أن يفرض على الإنسان نظرية علمية يغدو أسيرا لها دون تفكر وتدبر، وإنما هي الدعوة القرآنية لسبر أغوار الكون ليقف الإنسان على قوانينه استنادًا إلي نظر عقلي حر غير مشوب بقيد أو

1 – أ : عباس العقاد، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه صـ23، ط المؤتمر الإسلامي سنة 1975

2 – يراجع أ : حنفي أحمد، التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن الكريم صـ19، ط الثالثة، دار المعارف .

بجبرية يقول د/ على عبد الواحد وافي: "لقد استحث القرآن الكريم العقول على النظر في ظواهر الكون وحفز الناس على التأمل في هذه الشؤون، واستنباط قوانينها العامة وأثار في نفوسهم حب الاستطلاع حيال الأمور التي لا تثير الانتباه بطبعها لتكرر حدوثها وسيرها على وتيرة واحدة، وإيلاف الناس النظر إليها كشئون الليل والنهار، والشمس والقمر، والكوكب، وتتابع الفصول وتناسل الحيوان، وتكاثر النبات... ونزول المطر وما إلي ذلك من مسائل العلوم ... فبين لهم أن هذه الأمور جديرة بالتأمل، وأن فيها مجالاً كثيرًا للنظر والعبرة والبحث العلمي[1] .

ثم نجد الدكتور : على عبد الواحد وافى : بعد ذلك يلتمس من القرآن الكريم شواهد بها يدلل على حديثه السابق مثل قول الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)﴾ [البقرة:164]، ويقول جل من قائل في سورة النور: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣)﴾ [النور:43]

ويقول سبحانه وتعالى في سورة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣)﴾[الروم:22- 23]

1 – د : على عبد الواحد وافى، الحرية في الإسلام، صـ79، 80 ، ط دار المعارف .

ويقول تعالى في سورة الغاشية ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية:17 : 20]، وإذا كان القرآن الكريم قد أمرنا بالنظر والتعقل والتفكر والتدبر في مواطن كثيرة من آياته فلا غرابة إن رأيناه قد ربط بين السلوك العملي والعقل، كما في قول الحق سبحانه وتعالى في سورة يوسف: ﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف:109]، وكقوله سبحانه تعالى في سورة العنكبوت : ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[العنكبوت:43]

ويبين الحق سبحانه وتعالى أنه فصل الآيات لمن يعقل الحق من الباطل، أما الذين وضعوا أصابعهم في آذانهم وغيبوا عقولهم، فقد سلبت عنهم نعمت التعقل السليم، ولو كانوا أذكياء البشر طرًّا في علوم الدنيا يقول تعالى في سورة الحجرات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الحجرات:4]، ويقول أيضًا في سورة الأنبياء: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء:67] ويقول أيضا في سورة يس: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس:62] .

ومن ثم يمكن أن نقول : إن من ألغى عقله الذي هو من أسمى نعم الله على الإنسان يكون قد تنازل عن جزئه الإنساني ورضي لنفسه الحياة البهيمية إن لم يكن هو في مرتبة أدنى منها قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا

يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[الأعراف:179][1] .

ويعلل الفخر الرازي لهذا الحكم الذي ورد في الآية الكريمة على كل من خلّف عقله وراءه ظهريا وتنازل عنه حتى صار في مرتبة أدنى من الحيوانات ذوات الأربع بقوله : إنَّ الْإِنْسَانَ وَسَائِرَ الْحَيَوَانَاتِ مُتَشَارِكَةٌ فِي قُوَى الطَّبِيعَةِ الْغَاذِيَةِ وَالنَّامِيَةِ وَالْمُوَلِّدَةِ، وَمُتَشَارِكَةٌ أَيْضًا فِي مَنَافِعِ الْحَوَاسِّ الْخَمْسِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ وَفِي أَحْوَالِ التَّخَيُّلِ وَالتَّفَكُّرِ وَالتَّذَكُّرِ، وَإِنَّمَا حَصَلَ الِامْتِيَازُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ فِي الْقُوَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ الَّتِي تَهْدِيهِ إِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ لِذَاتِهِ، وَالْخَيْرِ لِأَجْلِ الْعَمَلِ بِهِ: فَلَمَّا أَعْرَضَ الْكُفَّارُ عَنِ اعْتِبَارِ أَحْوَالِ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ وَمَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالْعَمَلِ بِالْخَيْرِ كَانُوا كَالْأَنْعَامِ.

ثُمَّ قَالَ: بَلْ هُمْ أَضَلُّ؛ لِأَنَّ الْحَيَوَانَاتِ لَا قُدْرَةَ لَهَا عَلَى تَحْصِيلِ هَذِهِ الْفَضَائِلِ، وَالْإِنْسَانُ أُعْطِيَ الْقُدْرَةَ عَلَى تَحْصِيلِهَا، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ اكْتِسَابِ الْفَضَائِلِ الْعَظِيمَةِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى تَحْصِيلِهَا كَانَ أَخَسَّ حَالًا مِمَّنْ لَمْ يَكْتَسِبْهَا مَعَ الْعَجْزِ عَنْهَا. [2] .

ومما ينبغي أن نعيه ونلاحظه أن القرآن الكريم عندما، خاطب العقل وأمره بالنظر والتدبر، إنما يعلن بذلك التآخي بين العقل والدين، ويبين أنه ليس تنافر بينهما أو تضاد، وذلك لأن القرآن الكريم في كثير من آياته يستحث العقل ويدفع الناس إلى الرجوع إلى الفكر في كثير من العادات الموروثة والعقائد المألوفة حتى يقفوا على خطئها وزيفها ولنقرأ سويا

1 – يراجع في هذا الموضوع د : عبد الله الشاذلي، التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة ص23، 33، ط دار الهداية، د : مبارك حسن حسين، علم التوحيد في ضوء العقل والنقل ص23، ط الثانية 1995.

2 – الإمام الرازي : مفاتيح الغيب ص365، 366 ج7 ، ط دار الغد، وكذا د : مصطفى غلوش، الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها ص251، ط دار الكتاب المصري .

قول العلي الحكيم في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة:170] .

فمنطق الآية الكريمة يصرح بأن ما أنزل الله لا يتنافى أبدا مع ما تقرره العقول السليمة مع الأخذ في الاعتبار أن الذي يقرر الأحكام في الأشياء بدايةً القرآن لا العقل، ثم لنقرأ أيضًا قول الحق سبحانه وتعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران:190] . إلى غير ذلك من الآيات الداعية إلى التأمل وإلى التفكر في مخلوقاته تعالى ومن ثم يقول د/ سليمان خميس في تعليقه على الآيتين السابقتين : وبهذا يكون القرآن داعيًا الإنسان إلى النظر وإعمال الفكر حتى يصل إلى أن ما جاء به لامكن أن يكون إلا حقًا، وبهذا الفهم للآيات كما يجب أن يفهمها المؤمنون يتآخى الدين والعقل، ويكون العقل بتوجيه القرآن قد سار في طريق مُعبَّدٍ مأمون (1) .

ونرى صاحب كتاب الأديان في كفة الميزان يذكر لنا: أن وجود آيات النظر في القرآن الكريم لتعد دلالة صريحة على أن القرآن الكريم ما فرض علمًا معينا على الإنسان أو قسره على طريقة معينة في البحث والدراسة، ويدلل على ذلك بكثير من الآيات السابقة وغيرها من مثل قوله سبحانه وتعالى في سورة النور: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور:44] وقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد:19] .

ومن ثم نراه يعقب على هذه الآيات وغيرها بقوله: وهكذا تترا الآيات منبهة الأبصار، شاحذة السمع، آمرة العقل بالتدبر ، والألباب بالتفهم كلها دعوة للتفكر والتأمل والبحث والتنقيب والاستطلاع، ففي جميع الآيات السابقة وغيرها من كتاب الله لم يفرض الله علمًا

1 – أ . د / سليمان خميس، نحو عقيدة قرآنية ، صـ36 ، ط الأولى، دار الطباعة المحمدية سنة 1969 .

معينا أو طريقة معنية في البحث بل ترك الهدف والغاية والوسيلة للإنسان في حدود ما رسمه من خطوط عريضة ثم ترك لكل فرد بعد ذلك كامل الحرية في تقرير ما يراه [1] .

وأيضا من مظاهر احترام القرآن الكريم للعقل أن جعل اليقين ثمرة للتفكير والنظر العقليين بشرط اقترانهما بالرؤية المنصفة المحقة والبعد عن الهوى، وذلك في الإيمان بالله ورسله وغير ذلك، ومن ثم كان قول الحق سبحانه وتعالى في سورة سبأ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾[سبأ:46] .

وفي تفسير طبيعة الرسول وشخصيته كما ورد في سورة الأنعام: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام:50] . وفي لفت النظر إلى أسرار التشريعات المختلفة عبادية أو اجتماعية كما في سورة البقرة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ ﴾[البقرة:219 - 220].

وفي إشعار الإنسان بأن هذا الكون وما فيه خلق لرفاهيته وارتقائه ويسر بره وبحره وأعلاه وأدناه لأجله كما ورد في سورة النحل ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [النحل:11]

1 – أ : محمد فؤاد الهاشمي، الأديان في كفة الميزان ص162، ط دار الكتاب العربي بمصر، وكذا د : حسن عبد الحميد حسن، محاضرات في فن الدعوة ص47، ط سنة 1974 .

وقوله تعالى أيضا في سورة الجاثية: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾ [الجاثية:13][1].

وبالنظر إلى ما تقدم يتبين لنا تلكم العظمة القرآنية التي تجلت في كون القرآن الكريم ما ترك أمرًا يخص الإنسان إلا توجه إليه بالخطاب سواء في الجانب العقدي، أو جانب الرسالة، أو جانب التشريع، أو الحقائق الكونية، ونلمح هذا الخطاب وقد زيل في الآيات السابقة وغيرها بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد:17] أو ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:219].

ثم نجد بعد ذلك جانبا آخر من جوانب الأمر القرآني للعقل الإنساني بالنظر والتفكر والذي يتجلى في التدبر في آثار السابقين من الأمم السابقة إذ أن العربي في جاهليته كان يضرب في الأرض يمنة ويسرة متنقلا في أرجائها في رحلتي الشتاء والصيف، وكان سيره هذا متعلقا بالرعي والصيد والتجارة فلما هتف بهم داعي الله أن آمنوا به أصموا آذانهم مؤثرين عصبية الجهل على رحابة الفكر وطلاقة العقل، ومن ثم نبههم القرآن الكريم أن يبدلوا من سيرهم في هذه الحياة، لقد سألهم أن يسيروا للتدبر والاعتبار، ثم أمرهم أن يبحثوا في آثار الأمم الماضية التي تحل قريبا من دارهم حتى يعرفوا سنن الله، وقد تحققت كقانون سرمدي أجراه الله على كل متكبر جبار، ومن ثم يقول الدكتور / رءوف شلبي متحدثا عن الدعوة القرآنية لأهل مكة بصدد التدبر في آثار السابقين : فدعاهم إلي البحث في حقائق التاريخ والكشف عن الضربات القاصمة التي كانت جزاء المارقين من السابقين الذين يمرون عليهم

1 – ويراجع الشيخ الغزالي، حقوق الإنسان صـ68، ط الثالثة، دار الكتب الإسلامية وكذا الشيخ سيد سابق، العقائد الإسلامية صـ21، 22 ، ط، دار الفتح .

مصبحين وممسين، ففي القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على النظر والدراسة في تاريخ الأمم الماضية والمجارة [1].

فمن خلال ما تقدم نعلم أن القرآن الكريم قد أمر بالنظر في كل شيء حتى في آثار الأمم الخالية ليُتَيَقين أن من وعى التاريخ في قلبه فقد أضاف عمرا إلى عمره، وهذه قمة العبرة والموعظة، ومن ثم نجد قول الحق سبحانه وتعالى في سورة يوسف: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [سورة يوسف : آية 109]، وقوله تعالى في سورة الروم: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩)﴾ [الروم:9]، وقوله تعالى في سورة فاطر: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤)﴾ [فاطر:44]، وقوله تعالى في سورة غافر: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١)﴾ [غافر:21]، وقوله تعالى في سورة غافر: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢)﴾ [غافر:82]، ثم نجد القرآن الكريم يقرر هذا المعنى بأسلوب آخر متمثلا في صيغة الأمر والذي يرمي القرآن الكريم من ورائها دعوة إلى السير في الأرض بعين مبصرة وبصيرة متقدة ينظر بها في آثار

1 – د / رءوف شلبي، الدعوة الإسلامية في عهدها المكي ص162، ط مجمع البحوث الإسلامية .

السالفين وما حاق بهم عندما استحبوا العمى على الهدى، وآثروا الغي على الرشاد، ولم يقدروا الله حق قدره ومن ثم كان التنشيط بالأمر والتكليف بالنظر بقول الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام:11] .

وبقوله تعالى في سورة يونس: ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس:101]، ويقول تعالى في سورة النحل: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل:36]، ويقول في سورة النمل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [النمل:69]، ويقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت:20]، وبقوله تعالى الروم: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الروم:42].

إن هذه الآيات بما تشتمل عليه من معاني تسجل سبقا منهجيا يحق لكل مسلم أن يفاخر بهذا السبق المتمثل في إرساء قواعد المنهج التاريخي كمنهج معتمد في مجال البحث والدراسة ومن ثم يقول د/ رءوف شلبي متحدثا عن هذه الآيات وما شابهها: إن هذه الآيات وغيرها لتعد نقلة وطفرة هائلة في التاريخ العربي بل الإنساني كله إذ تفصح عن منهج جديد في البحث عن الحقيقة، وهو المنهج التاريخي الذي يعمد إلي دراسة وتحليل حوادث التاريخ، وأنه الطريق الوحيد الذي يأخذ بأيديهم من سفح الجاهلية الهابط إلى قمة الهداية السامقة [1].

1 – الدعوة الإسلامية في عهدها المكي ص136، ويراجع د / محمد البهي، طبقية المجتمع الأوربي، ص42، وما بعدها، ط مكتبة هبة سنة 1968.

وإذا كان قد تبين لنا مما سبق أن القرآن الكريم قد حث على النظر، بل وأمر به فذلك، لأنه طريق نعانق في نهايته العلم والمعرفة، ومن ثم كان أول ما نزل على رسولنا الكريم آيات تحث على العلم والتعلم، والمعرفة، يقول تعالى في سورة العلق: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ [العلق:1 - 5]

ويبين القرآن الكريم في كثير من آياته مهمة الرسول صلي الله عليه وسلم، محددًا إياها في أمرين هما: التعليم والتزكية، ومن ثم يتبين أن العلم شطر الرسالة المحمدية قال تعالى في سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة:129]، ويقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران:164] يقول تعالى في سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢﴾ [الجمعة:2].

إذًا فهذه الآيات تؤكد لنا أن العلم الذي هو وليد النظر، والتزكية التي تقوم على أساس من العلم دعامتان من دعائم الرسالة المحمدية، ومن ثم يقول أحد الباحثين المحدثين متحدثا عن هذه الآيات ومثيلاتها : فهذه آيات تتوارد على تأكيد معنى يكمن في تحديد مهمة الرسول صلي الله عليه وسلم وحصرها في العلم والتزكية فالعلم إذًا في الرسالة المحمدية شطرها، بل هو شطرها الأساسي أي شطرها الذي تقوم عليه التزكية إذ لا يتأتي أن تقوم التزكية وهي التطهير على الجهل أبدا [1].

1 – د : الحسيني أبو فرحة وآخرون من هدى القرآن الكريم، ص218، 219، ط الكتاب الجامعي سنة 1995 م .

و إذا كان الإنسان قد أُمر بالنظر حسبما تراءى له من كلام ربه ، وكان العلم في الإسلام شطر الرسالة إذًا فتكريم العلماء في النصوص القرآنية أمر من البداهة بمكان بحيث لا يحتاج إلى بيان أو دليل قال تعالى في سورة فاطر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:28]، وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران:18] [1].

هكذا يتبين لنا أن النظر والعلم أمران، قد أمر بهما الإنسان من قبل خالقه في كتابه، وما مضي من آيات لشاهد صدق ينطق بذلك بيد أنه ينبغي أن نعلم أن ثمة جانب آخر من جوانب الأمر القرآني للعقل الإنساني بالعلم والتعلم يتمثل في بيان مسؤولية الإنسان عن أدوات العلم والإدراك المودعة فيه، واستحقاقه للملامة والمذمة، إذا عطلها يقول أحد الباحثين : أن في القرآن الكريم ما يفهم منه بوضوح مسؤولية الإنسان عن أدوات العلم المودعة في تكوينه كما ورد في سورة الإسراء ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء:36] فالمسئولية عن الوجوب، أي وجوب إعمال هذه الملكة فيما خلفت له، ويشعر بذلك قول الكفار وهم يتحسرون في الآخرة كما ورد في سورة الملك: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك:10] كذلك الوعيد الذي يتوعد به الله من عطل ملكات العلم المودعة فيه، وتقبيح صورته بشكل يدعوا إلي النفور من تعطيل هذه الملكات، ونجد ذلك من أوضح ما يكون في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا

1 – يراجع د / محمود عبد المعطي بركات، أثر الإسلام في بناء المجتمع الفاضل ص156، ط دار المار سنة 1991م .

لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[الأعراف:179] [1].

وهكذا نفهم أن التعطيل لملكة العقل و تنحيته عن وظيفته، ليهبط بالإنسان إلى مستوى أدنى من الحيوانات ذوات الأربع، ومن ثم رسم القرآن الكريم صورة منفرة لهذا الصنف من الناس في قول الحق سبحانه في سورة الأنفال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال:22 - 23].

وإذا عرفنا هذا تبين لنا أن دعوة الإسلام إلى استخدام الملكات الفكرية دعوة صريحة وأضحة لا لبس فيها، ولا غموض، ولا يتطرق إليها تحريف، أو تأويل يقول أحد الباحثين: إن دعوة القرآن للإنسان لاستخدام ملكاته الفكرية، دعوة صريحة لا تقبل التأويل، وهكذا يجعل الإسلام التفكير واجبا مقررا وفريضة إسلامية [2].

إن الله سبحانه وتعالى خلق الكون ثم خلق الإنسان فأسبغ عليه أجل نعمة في الوجود ألا وهي نعمة العقل، وأنزل عليه الكتب عبر العصور، وكان ختامه رسالة سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم، ليكون من المنذرين، وكان عنوانه "اقرأ " تحريرا للعقل وتوجيها للفهم وتقديرا للقوانين العقلية الصحيحة، فما اصطدم يوما مع قانون عقلي ولا قانون كوني، بل هو يعتمد كل الحقائق العقلية والكونية في الفهم للوحي المتمثل في كتاب والسنة ؛لذلك أكثر الله من ذكر العقل والفكر في القرآن وأنكر على من لا يعقل بقوله في سورة البقرة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ

---

1 - يراجع أثر الإسلام في بناء المجتمع الفاضل صـ93، 94 .

2 - د / محمود زقزوق، تمهيد للفلسفة صـ92، 93، ط الثالثة، مكتبة الأنجلو، وكذا د/ محمد صلاح عبده، اهتمام الخطاب القرآني بقوى الإدراك الإنساني صـ2، ط سنة 1995.

﴿٤٤﴾ [البقرة:44]، وجعل معرفة آيات الله في الكون علامة على العقل كما ورد في سورة الرعد ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد:4][1] .

هذا هو سبيل القرآن وحديثه عن النظر العقلي والذي يمكن أن نستشف منه عدة أشياء منها :

أولا : إن القرآن الكريم في سبيل الحجة العقلية، طلب من الإنسان النظر والتفكير في هذا الكون أرضه وسمائه، وما أودع فيه من أسرار وبني عليه من نظام وإحكام، وأفرغ عليه من وحدة جعلته متماسك الحلقات الأمر الذي يحيل في نظر العقل، وجودا للكون عن نفسه أو عن قوى متضادة أو متعارضة، ويوجب في الوقت ذاته الاعتراف القلبي، بأنه لابد لهذا الكون البديع المتسق المترابط السائر بحكم نظام واحد لا يلحقه خلل، ولا انتكاس من موجد خالق مدبر له [2] .

ثانيا: إن الرسالة المحمدية تعد أول رسالة من السماء إلى الأرض تدعو الإنسان إلي العلم المطلق، فحركت العقول الجامدة الموثوقة بقيود العادات المألوفة، والتقاليد الموروثة، وشرعت لها أبواب المعرفة والتأمل، وأطلقتها من عقالها إلي مجالات الأخذ والعطاء إلي السماء ونجومها، وأقمارها وأفلاكها ...، وإلي الأرض وما عليها من حيوان ونبات وجماد، بل إلي النفوس البشرية لاكتناه ما انطوت عليه من عقل أو جهل، وحب، وحقد، وما احتواها من

1 – يراجع أ : سعيد حوي، جولات في فقهين الكبير، و الأكبر صـ54، 55، ط مكتبة هبة .

2 – يراجع الإمام الأكبر الشيخ / محمد شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، صـ21 ، ط دار الشروق .

لحم، ودم حتى رأينا في النهاية تلكم المقارنة بين العلم والجهل، كما ورد في سورة الزمر ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾[الزمر:9][1].

فكان الحكم في نهاية تلك المقارنة للعقل السليم ومقرراته، ورأينا في آيات أخرى العلم وقد جعله الله تعالى حكما بين النبي صلي الله عليه وسلم ومجادليه فيقول تعالى على لسان نبيه

---

1 - إن إيمان المقلد مختلف فيه فقال بعض العلماء : إنه مؤمن عاص من قدر على النظر، وغير عاص إن لم يقدر على النظر، وذهب بعض العلماء : إلى أنه غير عاص مطلقا، وقيل : إنه عاص مطلقا، وقيل: إنه كافر، وجرى على القول الأخير الشيخ السنوسي في شرح الكبرى وشنع عن القول بكفاية التقليد، لكنه حُكي عنه أنه رجع عنه (شرح البيجوري على الجوهرة صـ31).

وقد فصل القول في التقليد الإمام الإسفرايني فأجازه في الفروع شريطة أن يقلد الإنسان غيره من أهل العلم والاجتهاد ومنعه في الأصول مطلقا، فيقول رحمه الله: (يجب أن تعلم أن كل ما يجب معرفته في أصول الاعتقاد يجب على كل بالغ عاقل، أن يعرفه في حق نفسه معرفة صحيحة صادرة عن دلالة عقلية، ولا يجوز له أن يقلد فيه، ولا أن يتكل الأب على الابن، ولا الابن على الأب، ولا الزوجة على الزوج، بل يستوي فيه جميع العقلاء من الرجال والنساء ؛ ولذا ذم التقليد في الأصول وحث على السؤال في الفروع) التبصير في الدين صـ164.

أما من قال: إن الصحابة كانوا يقلدون رسول الله صلي الله عليه وسلم . فنقول له: إن الصحابة ما قلدوا الرسول عن جهل، ولكن قلدوه عن علم، ولذا كان تمسكهم بقول الله تعالى: (فاعلم أنه لا إله إلا الله) .

وذهب البغدادي، وجمهور الأشاعرة : إلي أن المقلد إن لم يُؤمن عليه ورود شبه تفسد إيمانه فهو كافر، أما إن كان المقلد يؤمن عليه عدم شبهة تلبس عليه دينه فمختلف في إيمانه . جمهور الأشاعرة قالوا : هو مؤمن، وحكم الإسلام لازم له ولكنه عاصٍ بتركه النظر والاستدلال المؤدي إلي معرفة قواعد الدين، وإن مات على ذلك ترجى له الشفاعة وغفران معصيته، وإن عذب على معصية عذابه ليس مؤبد ومآله الجنة ، وهذا قول الشافعي، ومالك، والأوزاعي ، والثوري، وأبي حنفية، وابن حنبل ، وأهل الظاهر، وبه قال المتقدمون من متكلمي أهل الحديث كعبد الله بن سعيد، وقال به الحارث المحاسبي، والمكي، والحسين بن الفضل، وأبي عبد الله الكرابيسي انظر: أصول الدين صـ145 .

صلي الله عليه وسلم كما ورد في سورة الأحقاف ﴿أَئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف:4][1].

إن تدبر الإنسان في هذه الآية وغيرها ليولد في العقل إدراكا أن العلم على إطلاقه لم يكبر في رسالة من الرسالات كما كبر في الرسالة المحمدية، وأنه ليس ثمة دين ألزم أهله بالعلم والتعلم كما ألزم الإسلام المسلمين.

ثالثا : إن القرآن الكريم في دعوته إلي النظر والعلم والتعلم لم يحصر الإنسان في دائرة علم معين، بل كانت دعوة القرآن إلي العلم دعوة إليه بمفهومه الشامل الذي ينظم كل ما يتصل بالحياة، ولا يقتصر على علم الشريعة أو العلم الديني كما يتبادر إلي بعض الأذهان أو مازاع في بعض عصور التخلف عن القرآن، فالقرآن الكريم قد دعا إلي النظر في ظواهر الوجود، ومظاهر الحياة، وأغرى بالبحث والدراسة والعلم، فلقد خلق الله سبحانه وتعالى كل شيء وسيره وفق قانون، وهيأ الإنسان لمعرفة هذا القانون، واستعماله بما فطره عليه من استعداد لفهمه وتسخيره [2] .

رابعا : وفي نهاية الحديث عن اهتمام القرآن الكريم بالنظر العقلي نلفت الأذهان إلي شيء من الأهمية بمكان : وهو أن لفظ "العقل " كاسم لم يرد لها ذكر في الآيات القرآنية، وإنما ورد ذكرها في صيغة الفعل (نعقل)، (يعقلون)، (تعقلون)، وهذه إشارة من طرف خفي إلي أن القرآن الكريم لا يعنيه في المقام الأول أن نبحث في ماهية العقل، وهل هو مكون من مادة أم

---

1 – يراجع الشيخ محمد سويد، الإسلام وغزو الفضاء صـ16، ط رابطة العالم الإسلامي سنة 1987، وكذا أ: محمد الغمراوي، الإسلام في عصر العلم صـ58، ط دار الإنسان .

2 – يراجع د / محمود بن الشريف، الأديان في القرآن صـ257 ، 258، ط دار المعارف سنة 1970 ن وكذا د/ عبد الرحمن بيصار، المختصر في العقيدة و الأخلاق، صـ111، ط الأولي، دار الأنجلو .

لا، وإنما الذي يعنيه هو عمله وفعله، وما يترتب على وجوده في الإنسان من تفكير ونظر وتدبر، وعمليات عقلية، والتي لو تنازل عنها الإنسان يكون قد تنازل عن جزءه الإنساني وارتضى لنفسه الحياة بجزئه البهيمي .

المطلب الثاني

القرآن الكريم ومحاربته للتقليد والمقلدين

إن الإنسان إذا استحضر في ذهنه تلكم المعاني السابقة، والتي تمخض عنها حث القرآن الكريم على النظر وأمره بالتدبر ؛ ليدرك بالبداهة أن القرآن في الوقت ذاته يحارب الجمود والتقليد، إذ كيف يستقيم في مقررات العقول أن كتابا شعاره الحث على النظر وعنوانه الأمر بالتفكر والتعقل يمكن أن يحث على التقليد أو يحض عليه ؟!

ومن ثم نرى كيف عاب القرآن الكريم على هؤلاء الذين أغفلوا عقولهم وألغوا أفهامهم وأصموا آذانهم واستغشوا ثيابهم وأسلموا زمامهم لعقول غيرهم فعاشوا بها مقلدين الآباء ومتبعين الأسلاف، ولو كانوا لا يفقهون شيئا ولا يعقلون، ومن ثم كان ذم القرآن الكريم للتقليد وأهله الذين مضت بهم الحياة سائرين في طريق يمناه كما ورد في سورة الزخزف ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف:23]، ويسراه كما ورد في سورة لقمان ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [لقمان:21]، ومن خلفهم كما حكت سورة الشعراء ﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الشعراء:74]، ومن بين أيديهم كما ورد في سورة الفرقان ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان:42]، فالمتأمل في هذه الآيات وغيرها يرى هذه اللذعة الساخرة التي تنطق بها الآية متوجهة إلي التقليد وأهله، ومن ثم يقول الإمام الرازي رابطا بين حث القرآن الكريم على النظر والتعقل ونهيه عن الجمود والتقليد : إن الكثير من الآيات القرآنية تدل على وجوب النظر

والاستدلال والتفكر، وذم التقليد فمن دعى إلي النظر والاستدلال كان على وفاق القرآن ودين الأنبياء ومن دعى إلي التقليد، كان على خلاف القرآن وعلى وفاق دين الكفار[1].

من هنا ندرك أن القرآن الكريم يصل إلي الذروة بتلكم المعاني السابقة في الدعوة إلي إعمال العقل والفكر على سبيل الدوام والدعوة إلي التحرر، ونبذ الجمود ؛ وذلك كي لا يقع الإنسان فريسة للأفكار العتيقة، والأثمال البالية التي لا تقوم على أساس من الحق أو الحجة متعللا بمتابعة الآباء والأجداد، ومن ثم كانت الذريعة التي يتشدق بها كل كافر ومعرض عن الدعوة تكمن في النعرة العصبية لميراث الأبناء عن الآباء والأجداد قال تعالى : في سورة البقرة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة:170]، ويقول تعالى أيضًا حاكيا عن الكفار تعليل صدهم عن سبيل الله، واستحبابهم العمى على الهدى، عندما هتف بهم داعي الله أن آمنوا به واتبعوا رسله فما كان منهم إلا أن قالوا كما ورد في سورة الزخرف : ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤﴾ [الزخرف:22- 24][2].

---

1 - مفاتيح الغيب، جـ1، صـ478، ويراجع التفكير فريضة إسلامية صـ142، ويراجع د : نشأت عبد الجواد ضيف المنهج الجديد في شرح جوهرة التوحيد صـ243، وما بعدها .

2 - يراجع في شرح هذه الآيات، أ / أحمد حسين من قضايا الرأي في الإسلام صـ20، ط دار المعارف، القرآن والسنة في التربية الإسلامية صـ49، 50 ، التصوف الإسلامي بين أنصاره وخصومه صـ37، 38، الإسلام والعقل صـ7، 8، 9 .

وإذا كان القرآن الكريم قد عاب على المقلدين فعلهم فيما سبق من آيات، وفي قوله سبحانه في سورة المائدة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة:104]، فإننا نلمح جانبا آخر من جوانب العظمة القرآنية في ذم التقليد والمقلدين ؛ وفي سبيل الوصول إلي الحقيقة التي لا يرتجي من ورائها أي مشرب أو مأرب شخصي واضعا أسس الحوار الهادئ المستنير القائم على الحق وحده والحق دون سواه، يقول د/ مصطفي غلوش : ففي الوقت الذي عاب القرآن فيه تقليد السابقين لا يرضى لمتبعيه أن يقلدوا الآخرين وإنما وعظهم الله سبحانه وتعالى بالتفكير المستقل بحيث يقوم به كل فرد على حده أو يقول به اثنان؛ لأن ذلك أدعي إلي إعمال الفكر وعدم الخضوع لرأي غريب بلا اقتناع[1].

ولعل هذا ما ترشد إليه الآية الكريمة في سورة سبأ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ﴾ [سبأ:46] . ويبين لنا الدكتور/ على عبد الواحد وافي جانبا آخر من جوانب الارتقاء القرآني في ذم التقليد وأهله : والذي يكمن في أن صحة الإسلام لا تنعقد في بعض الأحيان عن تقليد، بل لابد من يقين واقتناع، وهذه ميزة انفرد بها الإسلام عن سائر الأمم السابقة .

ويقول د/ على عبد الواحد وافي: إن الإسلام الصحيح هو ما كان منبعثا عن يقين واقتناع لاعن تقليد واتباع، وبذلك حطم الإسلام القواعد التي كان يسير عليها التدين في الأمم من قبله، وهي قواعد التقليد والاتباع، وإهمال النظر والتفكير الحر وأهاب بالناس أن يجعلوا

1 – الدعوة الإسلامية، أصولها وقواعدها ص293، وكذا د / محمد يوسف موسى، القرآن والفلسفة ص33، ط دار المعارف .

عمادهم في عقائدهم ونشر دينهم الدليل العقلي، والمنطق السليم، ودعا إلى النظر والتفكير وحث على رفض مالا يؤيده علم، ولا يعززه دليل، ومن ثم ذهب بعض علماء التوحيد إلي أن إيمان المقلد غير صحيح، وأخذ الله تعالى على المشركين تقليدهم الأعمى لآبائهم، وإغفالهم جانب النظر والتفكير [1] .

إن ما ذكره آنفا صاحب كتاب الحرية في الإسلام من معاني إنما استند فيها: إلي ما قررته الآيات القرآنية الكريمة من حض على النظر، وذم للتقليد ولعل ما ذكره من انفراد القرآن الكريم بالدعوة إلي النظر الفكري الحر، ونهيه عن التقليد، دون سائر الأمم السابقة منشأه ما عرف عن الفكر اليهودي من الحجر على عقول معتنقيه إذ تقرر عندهم : إذا قال لك الحبر أن يدك اليمني هي اليسري والعكس فاحذر أن تخالفه، وأعلم أن كلامه هو الحق الذي لا مرية فيه [2].

وإذا كان هذا ديدن معتنق الفكر اليهودي، فإن النصارى لم يكونوا بأسعد حال منهم إذ غرس رهبانهم في نفوسهم : "آمن وعلى قدر إيمانك يمنحك الرب الفهم"، وكأنه بهذه العبارة يقول له الغي عقلك واتبعني.

إن مما يحق لكل مسلم أن يفخر بإسلامه في دعوته إلى نبذ التقليد تلكم الدعوة التي تتلاءم مع مقررات العقل السليم وتيسير جنبا إلى جنب مع معتقدات العلم الحديث، ومن ثم نجد صاحب كتاب الإسلام في عصر العلم بعد أن سرد لنا كثيرًا من الآيات التي ذكرت آنفا بشأن النهي عن التقليد يقول : إن العلم يمنع التقليد في النظر من غير وقوف على الدليل، واقتناع

---

1 - الحرية في الإسلام صـ46، ويراجع التفسير العلمي صـ19 ، 20 ، ويراجع د / على جبر، محاضرات في مناهج البحث صـ55، ط سنة 1975 .

2 - يراجع د / محمود مزروعة اليهودية صـ192، ط. دار الطباعة المحمدية سنة 1987 .

به، العلم الحديث يخالف العلم قديمًا في هذا؛ لأن العلماء قديما خصوصا في القرون الوسطى كانوا كثيرًا ما يقنعون في الاستدلال على الصحة أو البطلان بإثبات أن القضية توافق أو تخالف رأي فلان من المشاهير، فكان ما يثبت عن أرسطو مثلًا يتخذ حجة قاطعة في موضوعه من غير أن ينظر في الرأي ذاته، ومن غير أن يسأل ما هو دليل أرسطو، فكان منع العلم للتقليد الأعمى يتفق تمام الاتفاق مع القرآن الكريم الذي شدد النكير على أناس كانوا يستمسكون بالرأي لا لأنهم عقلوه ولكن، لأن آباءهم فعلوه [1].

وإذا كان فيما تقدم تبين لنا كيف نبذ القرآن الكريم التقليد وأصحابه، الذين أسلموا زمامهم لعقول غيرهم مؤثرين السكون والدعة إلى القديم المألوف والمتعارف عليه، ولو كان الجديد أنفع وأهدى لهم، ومن ثم فلا غرابة إن رأينا الحق تبارك وتعالى يثني على الذين أخلصوا ضمائرهم للحق مميزين بين الأشياء بعد بحث وتمحيص آخذين ما هو أحسن معرضين عما فيه ضررهم يقول تعالى في سورة الزمر: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨)﴾[الزمر:17 - 18].

وإذا كانت الآذان قد طربت بهذا الثناء القرآني الجميل الذي سبق في شأن من سمع فأوعى فمحص فتبين فاتبع فلا عجب بعد ذلك إن رأينا القرآن الكريم وقد توجه بالنكير الشديد إلي من تمسك بإلفه وموروثه دون وعي أو علم وأغلق على نفسه منافذ الإدراك التي حباه الله تعالى بها من سمع وبصر وعقل، فدعاهم القرآن الكريم لأجل هذا صما وبكما وعميا ملحقا إياهم بالأنعام والدواب قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢)﴾[الأنفال:22]، وتوعدهم بالعذاب والنكال فقال تعالى

1 - الإسلام في عصر العلم صـ63 .

في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف:179]، ويقول تعالى أيضا في سورة الملك: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠﴾ [الملك:10] .

إن مما يجب أن يستحضره الإنسان المسلم في ذهنه دائما أن القرآن الكريم لم يسوغ له التقليد، ولو كان الرأي نابعا من كثرة كاسرة إذ أن القرآن الكريم لم يضع الكثرة في ذاتها مقياسا للحق أو الصواب بل على العكس من ذلك إذ يقول تعالى في سورة يوسف: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف:21]، كما يقول أيضا في سورة يوسف: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف:103] (1).

من هنا يمكن أن نقرر أمرا هو من الأهمية بمكان أخذت بأيدينا إليه الآيتان السابقتان، والذي يمكن في إبراز ميزة مهمة بها يفترق مبدأ الشورى الإسلامي عن الديمقراطية الحديثة وهو أن الاعتبار والمقياس في مبدأ الشورى والاقتناع بالرأي من عدمه مرده ومرجعه إلي ما يتمتع به من قوة ومصداقية، وموضوعية، وصواب بغض النظر عن قائله أو صدوره عن قلة أو كثرة بخلاف الديمقراطية التي جعلت مناط الرأي والحكم من الأغلبية بعض النظر عما قد يوجد في رأيها من خلل أو شطط.

1 - يراجع د / سعد الدين صالح، العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث، ص56، ط الثانية ، دار الصف سنة 1991، وكذا اهتمام الخطاب القرآني بقوى الإدراك الإنساني ص275 .

المطلب الثالث

دعوة القرآن الكريم إلى اليقين ونهيه عن الظن

لقد اهتم القرآن الكريم في آياته بإرساء قواعد اليقين في الوقت الذي نهى عن الظن والتخمين، وتمثل ذلك بإيراده للحجج والبراهين على ما يسوقه من قضايا حتى وجدنا التكرار لكلمتي الدليل والبرهان وما في معناهما في سبيل طلب اليقين والاطمئنان القلبي، ويشير إلي المنهج التجريبي كمنهج في مجال البحث والتحقيق.

يقول أحد الباحثين المحدثين: إن اهتمام القرآن الكريم باليقين والبرهان ؛ ليعطي دلالة واضحة إلي العلم التجريبي، وكيف أنه مصدر اليقين واطمئنان القلب، وذلك في حديثه عن سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما سئل ربه أن يريه بعينيه كيف يحيي الموتى كما ورد في سورة البقرة ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:260] . وقد استجاب الله عز وجل ليسدنا إبراهيم عليه السلام فجعله يقوم بتجربة ليستدل منها على إمكان ابتعاث الموتى وعودتهم للحياة، ودل ذلك على أن التماس الدليل والبرهان الحسي التجريبي هو أقوى أسس العلم اليقيني(1).

ونحن وإن كنا نؤكد على تلكم المعاني السابقة، إلا أنه ينبغي أن نؤكد في الوقت ذاته على أن القرآن الكريم في المقام الأول كتاب هداية. وانطلاقا مما سبق يمكن أن نقول لقد اهتم القرآن الكريم في طلب الحق باليقين والبرهان وترسيخ الدعوة إليه في كثير من الآيات حيث يقول سبحانه في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء:174]، ويقول تعالى أيضا في سورة المؤمنون: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ

1 - من قضايا الرأي في الإسلام، صـ119 .

عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ [المؤمنون:117]، ويقول تعالى في سورة النمل: ﴿ ... أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦٤﴾ [النمل:64].

وإذا كانت هذه الآيات القرآنية قد أبرزت لنا جانبا من الدعوة القرآنية إلي اليقين والبرهان، فلا غرابة إن وجدنا القرآن الكريم قد عاب على من أسس عقيدة على الظن مبينا أن بنيانه قصر في الهواء دعامته شفا جرف هار مصيره إلي الانقضاء والزوال يقول تعالى في سورة النجم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ٢٨﴾ [النجم:28] [1]. ويقول تعالى أيضا في سورة الأنعام: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦﴾ [الأنعام:116]، يقول تعالى في سورة الجاثية: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤﴾ [الجاثية:24]، وفي سبيل الدعوة القرآنية إلي تأسيس اليقين والبرهان، كان الأمر القرآني للإنسان أن يتريث قليلا إذا وقف إمام أمر لا علم له به فلا يخوض فيه يقول سبحانه في سورة آل عمران: ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾ [آل عمران:66]، ويقول أيضا في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾ [الإسراء:36]، ويقول أيضا في سورة النور: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥﴾ [النور:15]، ويقول أيضا في سورة الحج: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا

1 - يراجع في ذلك الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، صـ253 محمد حسن الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، صـ33، ط دار القلم .

هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الحج:8] [1]، وإذا كان القرآن الكريم قد طلب من الإنسان أن يكف عن الخوض فيما لم يحط به علما وحذره من إتباع الظن فإننا نراه في الوقت ذاته يطالب المخالفين لما نثره من عقائد في آياته بالدليل والحجة والبرهان إن كانوا صادقين في معتقداتهم ودعواهم، قال تعالى في سورة النمل: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل:64]، ويقول تعالى أيضا في سورة الأنبياء: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنبياء:24]، ويقول تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام:148]، ويقول تعالى في سورة يونس: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يونس:68]، ويقول تعالى في سورة الأحقاق: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف:4].

ولا يكتفي القرآن الكريم بذلك، بل نراه يغري الكفار بالحوار والمناقشة، وإقامة الحجة والدليل على صحة دينهم ودعواهم فتراه يتنزل معهم على سبيل الغرض الجدلي، بأنه لا يقطع أنه على حق وأنهم على باطل فيقول تعالى في سورة سبأ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ:24] [2].

1 - يراجع أ / نديم الجسر، القرآن والسنة في التربية الإسلامية ص49، 50، الدعوة الإسلامية في عهدها المكي ص161 .

2 - يراجع الحرية في الإسلام ص62، قضية التأويل ص49، أ : عبد الحليم الجندي، القرآن والمنهج العلمي ص20، ط دار المعارف .

وإذا كان القرآن الكريم قد طالب المخالفين بأن يأتوا بالحجة والبرهان على صدق ما يدعون ويعتقدون فلا يمكنه أن يأمر بشيء ويتنكر له، ومن ثم نراه يبرز الحجج والدلائل على صدق ما يدعو إليه من عقائد مُزعِنا في الوقت ذاته بالقدرة العقلية على الجدل والحجة والبرهان، يقول سبحانه وتعالى في سورة الأنعام: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ﴾ [الأنعام:80]، واستخدم الخليل عليه السلام القياس المنطقي حينما تدرج مع قومه في الحوار والمناقشة ليبين لهم فساد معتقدهم فأفحمهم، وبالبرهان واليقين قامت له الحجة عليهم يقول سبحانه: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾ [الأنعام:83] [1].

من هنا يمكن أن نقول :إن الدعوة القرآنية إلي اليقين امتدت إلي إقامة الدلائل والبراهين على ما كلف به من عقائد فكان ما يقدمه في مجال العقيدة قضايا شُفعت بالبرهان والدليل.

بجانب هذا كان عنوان هذه الدعوة يهتف بالحكمة و اللين في الموعظة والمجادلة، يقول سبحانه في سورة النحل: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل:125]، يقول الإمام الرازي مبينا معنى الحكمة في الآية الكريمة : أي البرهان والحجة، فكانت الدعوة بالحجة والبرهان إلي الله تعالى مأمورا بها [2].

وإذا كان ما تقدم يبين لنا جانبا من حديث القرآن الكريم عن اليقين والحجة والبرهان، فإننا يكمن على ضوئه أن نقرر أسسا، ومناهج امتطاها القرآن في تأسيس اليقين والتي تكمن في:

---

1 - يراجع الآيات من 74، 83 سورة الأنعام، كما يراجع التصوف الإسلامي صـ43 .

2 – مفاتيح الغيب جـ9 صـ477 .

أولًا: إن القرآن الكريم في دعوته إلي التفكير المنهجي العلمي الجاد لم يرض للعاقل أن يعتمد على وهم أو خرافة، بل طالبه بالبرهان ووجه عقول البشر إليه لاسيما وهو يخاطب أرباب العقائد الفاسدة، كما في سورة الأنعام ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام:148] أي علم برهاني. كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [الأنبياء:24]، وفي سورة المؤمنون: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون:117] ، ومن ثم ندرك البون الشاسع بين العقلية الإسلامية المؤمنة والعقليات الأخرى الملحدة، فالعقلية الإسلامية عقلية علمية مثبتة، لا تقبل شيئا دون برهان، ولا تضع في صف الحقائق إلا ما قام عليه الدليل القاطع (1).

ثانيا : إن القرآن الكريم في إرسائه لقواعد اليقين يعتمد على أصلين : أولهما: أنه لا تناقض مطلقا بين الحقائق، ثانيهما : أصل اطراد الفطرة واستقلالها بمعنى استقلال الحق عن الزمان والمكان.

أما الأصل الأول فتلفتنا إليه الآيات الكريمة في سورة الملك ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك:3]، وأما الأصل الثاني فيشير إليه قول الحق سبحانه في سورة فاطر: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر:43]، وقوله تعالى في سورة الروم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا

1 – العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث ص 58، 59، وكذا طه جابر العلواني ن العقل وموقعه في النهجية الإسلامية ص 34، ط إسلامية المعرفة 1996 .

تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾[الروم:30]، فهاتان الآيتان قد صرحتا باطراد الفطرة وبقاء سنة الله تعالى عبر الزمان بلا تحويل أو تبديل [1] .

ثالثا: من دعائم اليقين التى نص عليها القرآن الكريم أيضا عنصر المشاهدة الصحيحة وهو طريق سار بين دفتيه إلى حد ما العلم قديما وسلكه دائما العلم حديثا حتى صار طابعه الذي طبع عليه وميزته التي امتاز بها ومن ثم نقول: إن المشاهدة أصل قرآني عظيم إذ أمرت الآيات القرآنية بها، فاستعمال الحواس من سمع وبصر وإدراك عقلي كثير في الآيات القرآنية فمنها : استعمال البصر مع العقل في سورة العنكبوت ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠ ﴾ [العنكبوت:20]، وكما جاء في سورة الملك ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۢ بَصِيرٌ ١٩﴾ [الملك:19]، وغير ذلك من الآيات .

أيضا نجد استعمال السمع مع العقل كما جاء في سورة الحج ﴿ **أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ** ٤٦ ﴾[الحج:46].

أيضا نجد استعمال السمع والبصر مع العقل كما جاء في سورة النحل ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل:78].

1 - الإسلام فيعصر العلم ص 64، 65 .

أيضا نجد استعمال جميع وسائل المشاهدة مع العقل كما جاء في سورة الأعراف ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾[الأعراف:185] [1].

فهذه الآيات القرآنية الكريمة وغيرها كثير تحث الإنسان دائما على استعمال العقل والحواس من سمع وبصر وما إليها من طرق المشاهدة الصحيحة بسائر وسائل الترغيب.

رابعا: من أسس اليقين في القرآن الكريم أيضا أن يتوقف المرء عند أعتاب كل شيء لم يحط به علما، ويتفرع عن هذا أن لايقبل الإنسان في عقله أي أمر لم يقف على صدقه حتى لا يؤسس اعتقاده على وهم أو خرافة قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾[الإسراء:36] ثم تذكر الآية الكريمة بعد ذلك وسائل تحصيل العلم بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ . وهي تحمل معنى التحذير والإيذاء كي لا يقبل المرء من المعارف أيا كان نوعها مالم يقم عنده دليل صدقها [2] .

خامسا : من أسس ومعايير اليقين في القرآن الكريم أيضا أن لا ينزل الإنسان الظن والتخمين منزلة البرهان واليقين قال تعالى في سورة النجم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾[النجم:23] وقال تعالى في سورة الجاثية: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية:24]، ويقول تعالي أيضا في سورة يونس: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾[يونس:36] [3].

---

1 - يراجع الإسلام في عصر العلم ص 67 وما بعدها .

2 يراجع د/ محمد السيد الجليليند، نظرية المنطق بين فلاسفة الإسلام واليونان ص 145، ط 2 التقدم 1985 م .

3 - يراجع الإسلام في عصر العلم ص 36 .

سادسا : إن من دعائم اليقين التي نبه عليها القرآن الكريم منعه للتقليد وذمه لأهله، وقد سبق إفاضة الحديث حول هذا العنصر في موضع سابق فلا نطول به، وبالنظر إلي ما تقدم يمكن أن نردد في النهاية مع الإمام محمد عبده قوله : إن التفكير واجب على الموجود العاقل لا مخلص منه، فعلي هذا الموجود العاقل أن ينهض بجهوده الخاصة للبحث عن الحقيقة في العالم الذي يكتنفه والفحص عن الموجودات والأشياء على قدر ما تتيحه له وسائله الخاصة، وسواء كان مؤيدًا أو معارضا فواجبه أن يدعم موقفه ببراهين يقينية، لكن إذا كان عليه ألا يهمل واجب التفكير فعليه أيضا أن يحطاط من الشطط في الاستدلال[1] .

سابعا : من أسس اليقين في القرآن الكريم أيضا ألا يؤسس الإنسان حكما له على شيء ما تبعا للهوى الشخصي ذلك أن الهوى غالبا ما يكون الإنسان متأثرا فيه بدوافع شخصية، وقد يكون هواه مناقضا للحق الذي ينقب عنه هذا مبدأ علم في الأمور الدينية والدنيوية قال تعالى في سورة ص: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[ص:26] [2].

ثامنا :من أسس اليقين أيضا أن يقف الإنسان متثبتا من صحة وصدق ما يقول أو يسمع قبل أن يجري عليه حكما بالقبول أو الرفض؛ لأن قبول الرأي أو رفضه دون فحص أو تمحيص قد يؤدي إلي أخطاء كبيرة ما كان لها أن تقع إذا تثبت الإنسان منها، ولذلك فقد نعى القرآن الكريم على المشركين حين كذبوا النبي صلي الله عليه وسلم وردوا ما جاء به دون

---

1 – الإمام محمد عبده تفسير جزء عم ص 169، ط المنار ويراجع د/ عبد الغفار عبد الرحيم، الإمام محمد عده ومنهجه في التفسير ص 242، ط الحلب .

2 – يراجع نظرية المنطلق ص 146 .

بحث أو نظر في صحته قال تعالى في سورة يونس: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾ [يونس:39] (1).

تاسعا : من أسس اليقين في القرآن الكريم أيضا التواضع وعدم المراءاة بالجدل الباطل ذلك أن التواضع يجعل صدر صاحبه رحبًا في تقبل آراء الآخرين، كما يسعفه أن يعود إلي الصواب إذا أحدق به الخطأ، وإذا كان التكبر والغرور مذموما بصفة عامة فهو لدى العلماء أكثر مقتا وأشد إثما إذ أنه يحول بين صاحبه وبين قبول الحق، واضعا بينهما سترا وحجابا، وكثيرا ما يوصي القرآن الكريم بمثل قوله تعالى في سورة النجم: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم:32]، وفي سورة الإسراء ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء:85].

وينبغي على الإنسان إذا كان الحق مطلبه واليقين مبتغاه أن لا ينال من الرأي المخالف بالتحقير، أو التهوين؛ لأنه ربما يكون ذلك الغير محقًا وأن يقف عند حدود علمه فقط وعند ما أسعفته به حواسه(2).

1 - يراجع نظرية المنطلق ص 146، 147 .

2 -يراجع نظرية المنطق بين الفلاسفة الإسلام واليونان ص 147 .

المطلب الرابع
التدبر في آي القرآن الكريم

مر بنا آنفًا حث القرآن الكريم على الفكر والنظر ونعيه على التقليد وأهله، ودعوته إلي ترسيخ قواعد اليقين التي يرفع على أساسها بنيان الإيمان والعلم.

وهنا نراه يوغل في قمة التحدي بدعوته إلي النظر أيضا ولكن الدعوة هنا دعوة مختلفة فهي ليست في الكون وأرجائه وليست في الإنسان وذاته بل هي دعوة إلي النظر في القرآن نفسه وآياته دعوة للتدبر في الآيات ومراميها والأحكام وأهدافها، وهو في الوقت نفسه على يقين من أن الناظر فيه لن يجد في آياته من اختلاف أو تفاوت بل سيرتد بصره إليه خاسئا وهو حسير مزعنا لقول الله سبحانه وتعالى في قرآنه في سورة ص: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص:29]، وفي سورة النساء ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النساء:82]، وفي سورة محمد ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد:24]، فقد دلت الآيات على وجوب النظر والاستدلال وعلى القول بفساد التقليد؛ لأنه تعالى أمر المنافقين بالاستدلال بهذا الدليل على صحة نبوته، وإذا كان لابد في صحة نبوته من الاستدلال فبأن يحتاج في معرفة ذات الله وصفاته إلى الاستدلال كان أولى[1].

ومعنى هذا أن الحث على التدبر في آي القرآن الكريم كما نطقت الآيات بذلك يورث صاحبه الوقوف على صدق النبوة والرسالة إذ أن الكتاب الذي نزل على قلب صاحبها ليكون من المنذرين مهما طالع الإنسان فيه يجده وحدة واحدة يأخذ بعضه بحجز بعض لا

1 - مفاتيح الغيب جـ 5 ص 343 .

اعوجاج فيه ولا تناقض ولا اختلاف. يقول الرازي: إن من لم يتدبر ولم يتأمل في آيات القرآن الكريم ولم يساعده التوفيق الإلهي لم يقف على هذه الأسرار العجيبة المذكورة في هذا القرآن العظيم وآياته [1]، وعلى هذا فلا يستطيع الإنسان أن يقف على الأسرار القرآنية التى بثها الحق سبحانه وتعالى في آياته إلا بالتدبر والنظر فيها، وهذا التدبر والنظر لا يختص بالآيات المشتملة على الناحية التشريعية أو الدينية على وجه عام، وإنما القرآن الكريم ملئ أيضا بالأسرار والأحكام المتعلقة بالشئون الدنيوية المتصلة بجميع شئون الحياة التي يهتم بها الإنسان، وإن كانت الأحكام الدنيوية في ذروتها متصلة بالدين، ومن ثم "فإن القرآن ينعي على التقليد ويحث على النظر والتفكير كما يظهر لقارئه في كثير من آياته، لهذا كان لابد للمسلمين من أن يُعملوا النظر في القرآن نفسه من جميع نواحيه ليحيطوا به فهما وعلما [2].

ولذا يقرر ابن القيم أن التدبر في الآيات القرآنية يورث الإنسان معرفة بالله وفهما عنه وعن رسوله صلى الله عليه وسلم إذ يقول إن لمعرفة الباري تعالى بابين واسعين الباب الأول: التفكير والتأمل في آيات القرآن كلها والفهم الخاص عن الله ورسوله فيها ... [3].

ولما نزل قول الحق سبحانه وتعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران:190]، قال رسول الله صلي الله عليه وسلم كما يروى أصحاب السنن: " وَيْل لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا "[4].

---

1 –مفاتيح الغيب جـ 13 ص 322، ويراجع التفسير العلمي ص 19، العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث ص 59، من قضايا الراي في الإسلام ص 20 .

2 –الفلسفة القرآنية ص 33 .

3 –الإمام ابن قيم الجوزية الفوائد ص 166، ط دار الريان .

4 – يراجع الدر النثور في التفسير بالمأثور للإمام السيوطي جـ 2 ص 409 وعزاه إلي عبد الله بن حميد في مسنده، وابن أبي الدنيا في كتابه التفكر وابن النذر وابن حبان في صحيحه ، وابن مردويه في مسنده ، والأصبهاني في التزغيب

المطلب الخامس

القرآن الكريم وقضايا الفكر والنظر

إن من الطبيعي إذا أعطي الإنسان عقلا به يفكر ويعي، وكانت الدهشة عاملا في تكوين الإنسان تبرز عند رؤية كل عجيب وغريب . من هذا المنطلق نقول إن الإنسان حال مضيه في رحلة العمر ممتطيا سفينة الحياة التي تسبح في بحر المخلوقات الكثيرة والعجيبة. هنا يقع بصر الإنسان على أشياء وأشياء يتوجه إليها بفكرة متأملا فيها بحثا ودراسة، وهنا يتسلل إلي نفسه أسئلة كثيرة تحيط به من كل جانب يهتف من أعماق ذاته من خلقني؟ من أوجدني؟ ويجيل بصره في العالم بأثره علوية وسفلية، شموسه وأقماره، سهوله ووديانه يبحث فيها ويستفسر عن قوانينها، ويسأل عن خالقها، و ييمم الإنسان بصره شطر المشاركين له في نوعه متسائلا عن بدايته ومصيره قائلا: من أين وإلي أين ولماذا؟، هذه وغيرها تساؤلات تشغل كل ذي لب، وتستثير كل ذي عقل ينقب عن الإجابة عنها كل إنسان بها وهبه الله من عقل وفكر، ولما كان القرآن الكريم كتاب هداية ونظر وتدبر لا عجب إن رأيناه قد تعرض للقضايا التي تستحوذ على خاطر الإنسان: (الله، العالم ، الإنسان) عارضا لها بما يتلاءم مع الأذهان شافعًا الحديث عنها بالحجة والبرهان كل هذا في يسر وسهولة ووضوح وبيان.

والآن هيا بنا نحلق في سماء المعرفة متخذين من العقل والفكر جناحين بهما نحلق في ساحة القرآن حول هذه القضايا :

والترهيب وابن عساكر عن عطاء ، ويراجع ابن كثير تفسير القرآن العظيم جـ 1 ص 438 . ط دار الفكر ويراجع قضية التأويل ص 50 .

أولًا: الله (الذات الإلهية).

يقول الأستاذ : عباس العقاد : لقد جاء القرآن الكريم بأسمى عقيدة في الإله صححت فكرة الفلسفة النظرية كما صححت فكرة العقائد الدينية، فكان تصحيحه لكل من هاتين الفكرتين ... أعظم المعجزات التي أثبتت له في حكم العقل المنصف والبديهة الصادقة، أنه وحي من عند الله[1].

ومن ثم نرى القرآن الكريم يقرر عقيدة الألوهية في وجه المشككين فيها كما جاء في سورة إبراهيم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم:10] وفي سورة الجاثية: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الجاثية:4]، وفي سورة الذاريات﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[الذاريات:20 - 21]

وفي سورة الطور: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور:35 - 36]، وفي سورة الواقعة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾[الواقعة:58 - 59] وغيرها من الآيات.

وفي نفي التعدد وإثبات الوحدانية يقول في سورة البقرة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:163] ويبين القرآن الكريم أن التوحيد هو الدعوة التي هتف بها جميع رسل الله، فيقول في سورة الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[الأنبياء:25] وفي سبيل البرهنة على هذه العقيدة يقول: ﴿ لَوْ

---

1 - أ / عباس محمود العقاد حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص 32، ط الأولى المؤتمر الإسلامي سنة 1957 .

كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء:22]، وفي سورة المؤمنون: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون:91]، وفي سورة الفرقان: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [الفرقان:3]، ويجادل المشركين من حول إثبات هذه القضية فيقول في سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنعام:100].

ويستدل بكمال قدرته وقصور قدرة ما سواه على وحدانيته فيقول في سورة النمل: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل:64].

وفي إثبات الأزلية التي لم تسبق ببداية والأبدية التي لا تعقبها نهاية والتنزيه المطلق لله تعالى يقول في سورة الحديد: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد:3]، وفي سورة الشورى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:11] (1)، وفي سورة الروم: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم:27]، وفي سورة الأنعام: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام:103]، وفي سورة طه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴿١١٠﴾﴾ [طه:110].

1 – يراجع / قضية التأويل ص 52 وما بعدها القرآن والفلسفة ص 17، 18، 55، 58، محاضرات في مناهج البحث ص 54، 55، العقائد الإسلامية ص 22 التفسير العلمي ص 20، 21 .

ونجد القرآن الكريم يثبت كمال العلم لله سبحان هو تعالى مبينا أنه لا يعلم ذاته فحسب كما توهم ذلك أرسطو فجعل الإله كالقائد الأعمى الذي يقود جيشا من المبصرين لا يدري عنهم ولا عن أحوالهم شيئًا، وليس عالما بالكليات فقط حسبما تصور نفر من الفلاسفة الإسلاميين، ولكن وسع علمه كل شيء فلا يعرب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء كما جاء في سورة الأنعام ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ٣﴾ [الأنعام:3]، وفي سورة الأنعام أيضا ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ [الأنعام:59] وفي سورة هود ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥ ۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾ [هود:5 - 6] وفي سورة الملك ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك:13- 14].

وفي إثبات الإرادة لله تعالى يقول في سورة البروج: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾ [البروج:16] وفي سورة القصص: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ﴾ [القصص:68].

وفي الحديث عن عنايته تبارك وتعالى بهذا العالم يقول في سورة فاطر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾ [فاطر:41].

ويحدثنا القرآن الكريم أيضا عن العلاقة بين الله والإنسان هذه العلاقة التي يحفها السمو والرفعة، فغايتها إحسان تربيته، ودفعه إلي الخير، وأخذه بالحزم والعزم، وفتح باب التوبة والرجاء والمغفرة إن ذلت به القدم فأتي ذنبا أو ألم بمعصية (1).

ولنستمع إلي قول الحق سبحانه وتعالى في جانب من حديثه عن هذه العلاقة في سورة فصلت: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت:46].

هذا هو مبدأ العدل بصفة عامة كما يقره القرآن الكريم، ولكن الله تعالى ليس عادلًا فحسب، بل هو مع عدله كريم وبالناس رءوف رحيم قال تعالى في سورة الزمر: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:53] (2). هذا هو جانب من حديث القرآن الكريم عن الله وصفاته وعلاقته بخلقه.

ثانيا العالم :

والعالم هو ما سوى الله تعالى، وفي حديث القرآن الكريم عنه بيان إلى أنه في وجوده ليس معلول لذاته ولا غنيًا عن موجده وخالقه قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ

1 - القرآن والفلسفة ص 22 .

2 - يراجع القرآن والفلسفة ص 33، أ/ عباس العقاد الفلسفة القرآنية ص 98 وما بعدها ، ط سنة 1947، وكذا قضية التأويل ص 51 وما بعدها .

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ [إبراهيم:32 -33] وفي سورة البقرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة:29]. وفي سورة السجدة: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴿٧﴾﴾[السجدة:7].

من هذه الآيات وغيرها نأخذ أن القرآن الكريم قد أشار إلي كثير من الظواهر الكونية التي يعج بها العالم، ومن ثم يقول أحد الباحثين : لقد أشار القرآن الكريم إلي ضرورة البحث في الكون بما فيه من سماء وأرض وجبال ونجوم وشجر ودواب في آيات كونية كثيرة ترشد إلي الملاحظة والوصول إلي القوانين التي يسخر الله بها هذه الكائنات للإنسان [1].

أيضا نجد القرآن الكريم يبين لنا أن العالم حادث وجد بعد أن لم يكن، ليس قديما بمادته ولا بزمانه، وأن الله تعالى ليس بعلة تفعل بالطبع دون إرادة حتى يلزم عنه معلولًا وهو العالم، بل الله تعالى خالق مختار، فعال لما يريد، والعلم مخلوق لله بإرادة واختار، وكما جاء في وسورة يس ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[يس:82].

والعالم مخلوق لله بصورة مباشرة، وليس على سبيل فيض أوصدور يقول تعالى في سورة الروم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾[الروم:27] [2].

---

1 - أ .د / عبد امعطي بيومي الفلسفة الإسلامية من المشرق إلي المغرب ج 1 ص 91، ط الأولى، دار الطباعة المحمدية .

2 - يراجع قضية التأويل ص 6، 7 .

والعالم أيضا دليل ينطق لسان حاله بمعرفة الله، وقد تجلى هذا في كونيات القرآن الكريم التي تتضح في دليلي العناية والاختراع، ومن ثم يحدثنا ابن رشد عن المنهج القرآني في إثبات الصانع عن طريق العالم وما فيه فيقول: قلنا الطريقة التي نبه الكتاب العزيز إليها وورد الكل من بابها إذا استُقرأ الكتاب العزيز وجدتها تنحصر في جنسين:

إحداهما: طريق الوقوف على العناية بالإنسان، وخلق جميع الموجودات من أجله، ولنسم هذا دليل العناية.

الطريقة الثانية : ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء والموجودات، مثل اختراع الحياة في الجماد، والإدراكات الحسية والعقل، ولنسم هذا دليل الاختراع [1].

ثم يعرض ابن رشد بعد ذلك للآيات القرآنية موضحا أن منها ما تعرض لدليل العناية فقط مثل قول الله تعالى في سورة النبأ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النبأ:6 - 7]، ومنها ما تعرض لدلالة الاختراع فقط مثل قوله سبحانه وتعالى في سورة الطارق: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ [الطارق:5 - 6]، ومنها آيات تجمع بين الدلالتين مثل قول تعالى في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة:21 - 22]، يقول ابن رشد معقبا على هذه الآية الكريمة، فإن قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ تنبيه

1 – ابن رشد مناهج الأدلة ص 151، ط 3 مطبعة الأنجلو، تح د/ محمود قاسم .

على دلالة الاختراع وقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ تنبيه على دلالة العناية [1] .

ثالثا : الإنسان:

تعرضنا فيما سبق لجانب من حديث القرآن الكريم عن الفلسفة الإلهية، وكذا رأينا جانبًا من حديثه عن الفلسفة الكونية، وبجانب هذا وذاك نجد للقرآن الكريم أيضا حديثا عن الفلسفة الإنسانية، والتي "تتعلق بالإنسان في مختلف حالاته وأوضاعه باعتباره فردًا أو عضوًا في أسرة، أو عضوًا في مجتمع صغير أو كبير، أو عضوًا في أمة أو عضوًا في جماعة الإنسانية كلها، فالقرآن الكريم لم يهمل ناحية من هذه النواحي فكان بذلك منبعا لأصول الفلسفة الإنسانية والاجتماعية على تعدد فروعها وتنوعها، وكان بذلك واضعا للأسس العامة التي يقوم عليها المجتمع السليم الذي دعا إليه [2].

ومن هذا المنطلق يمكن أن نوضح المعالم الرئيسية للفلسفة القرآنية حول الإنسان فيما يلي :

1. لقد كرم الله الإنسان وأعلي من شأنه يبن الكائنات ففضله عنها بميزة العقل والتفكير كما جاء في سورة الإسراء ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء:70]. وكان من مظاهر هذا التكريم تحرير الإنسان من العبودية والخضوع لغير الله من الأوثان وغير ذلك، وأعتقه

---

1 –مناهج الأدلة ص 153، 154، وكذا د/ سامي عفيفي حجازي، مدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية ص 152، وما بعدها ، ط دار الطباعة المحمدية ن وكذا د/ سعد الدين صالح المعجزة والإعجاز في لقرآن الكرتيم ص 218، ط دا رالطبعاة المحمدية سنة 1989 .

2 – القرأن والفلسفة ص 64، 65 .

من سلطان رجال الدين وكهنته فلا وسطاء ولا شفعاء بين المرء وربه كما جاء في سورة البقرة ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:186].

وقرر المساواة مبدأ بين البشر فلا تفاضل ولا تفاخر بينهم بالأحساب ولا بالأنساب، وإنما مدار التفاضل التقوى والعمل الصالح كما جاء في سورة الحجرات ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات:13]، وأخذ على عاتقه تحرير عقله وتفكيره حتى كان في منظوره متوحدا يبتعد عن التقليد للآباء والأجداد في غيهم وباطلهم كما جاء في سورة البقرة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة:170][1].

2. وبعد أن حرر القرآن الكريم الإنسان من العبودية والخضوع لغير الله وحرر عقله من التقليد لما سلف دون نظر أو برهان نراه وقد تعهده بالتوجيه والتربية؛ ليعده للقيام بتبعة الأمانة التي ألقيت على عاتقه، ولم يدع لعقله القاصر الاستقلال عن مصدر هدايته كما جاء في سورة طه ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه:123] [2].

3. وبعد تحرير القرآن الكريم للإنسان من الأصنام وسدنتها، والأحبار والرهبان وأغلالهما، وإطلاق عقله في أرجاء الكون الفسيح مصحوبا بالتوجيه نراه بعد ذلك يقرر له المسؤلية الفردية كمبدأ مهم يجب أن يلتزم به الإنسان ولا يتنصل منه، فقال في سورة النجم: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾

1 -يراجع القرآن والفلسفة ص 64، 65 .

2 -يراجع قضية التأويل ص 58 .

[النجم: 39 - 41]. وقال تعالى في سورة الزلزلة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[الزلزلة:7 - 8] [1].

4. وبعد أن أطلق للإنسان الحرية في الفعل المصحوب بالتوجيه، والذي جعله مسئولا عنه ملتزما به نراه يبين له أنه ما وجد على صفحة الوجود سُدى، ولم يخلف عبثا بلا خلق لغاية وحكمة، ثم تكون العدالة الإلهية في الحساب والجزاء كما جاء في سورة القيامة ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ [القيامة:36]، وفي سورة المؤمنون ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ [المؤمنون:115]، وفي سورة الأنبياء ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾[الأنبياء:47] [2].

5. ثم نجد القرآن الكريم بعد ذلك يبين لنا أن الإنسان مدني بالطبع يرتبط مع الجماعة بعلاقات وثيقة، ومن ثم كانت التشريعات التي تقنن هذه العلاقة يبين الفرد ومجتمعه بما يتلائم مع المصلحة الاجتماعية . فأمرنا بالعناية عند الإنفاق من المال الذي جعلنا مستخلفين فيه ليتحقق مبدأ التكافل الاجتماعي على أساس من الأخلاق الفاضلة كما جاء في سورة البقرة ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ

---

1 – يراجع القرآن والفلسفة ص 25، 26، ويراجع أ / مصطفي عشوي تصور الطبيعة الإنسانية من منظور نفسي .

2 – يراجع قضية التأويل ص 38 .

وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة:177].

- وأمرنا في سبيل ذلك بوجوب الوفاء بما يكون من عقود وعهود بين الأفراد والجماعات كما جاء في سورة المائدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة:1].
- ثم نجد القرآن الكريم يرسخ في سبيل ذلك مبدأ العدالة والتي يحسم به مادة النزاع والمشاحنة بين الأفراد والجماعات كما جاء في سورة الأنعام ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ [الأنعام:152] وكما جاء في سورة النساء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء:135].

6. وفي النهاية نرى الإنسان في رحلة الحياة وحال مشاركته لبنى نوعه قد ينزل به ضررًا وأذىً من بعض منهم هنا نجد القرآن يقف حكما وقاضيا حاثا على الصفح والعفو، ومراعاة للمشاعر الإنسانية يجيز له أن يدفع السيئة بمثلها في غير تجاوز أو اعتداء قال تعالى في سورة النور: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور:22] .

ثم نلحظ العظمة القرآنية التي تراعي جميع الجوانب للنفس الإنسانية مبينة أن ثمة صنفًا من الناس لا يزيدهم الحلم إلا جهلا، والعفو إلا إمعانا. هنا يدعوا القرآن الكريم إلي أن ينتصر الإنسان لنفسه دون غلو أو إفراط إذ الدواء يكون بقدر الحاجة، وكما جاء في سورة الشورى ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشورى:39]. ثم أتبعت هذه الآية بقول الله عز وجل في سورة الشورى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [الشورى:40 - 41].

هذا جانب من تناول الآيات القرآنية لقضايا الفكر: (الله، العالم، الإنسان) مصافحين فيه الموضوعية ومعانقين فيه للصدق والعقلانية، والتي يعز أن يوجد كل هذا فيما سواه.

المطلب السادس

الحقائق العلمية والكونية في القرآن الكريم

إن من الأشياء التي تفصح عن مكانة العقل ومنزلته بين دفتي كتاب الله قضية الإعجاز العلمي ذلك أن أساس العام المكين وعُمد دراسته إنما هو العقل، وإذا كان القرآن الكريم قد أذّن في فجر الإنسانية منذ آماد بعيدة بكثير من الحقائق العلمية في الوقت الذي لم يكن أحد في العالم بأثره ليعلم عنها شيئا تلكم الحقائق التي أذعن بصدقها علم وعلماء العصر الحديث، ومعنى هذا أن القرآن الكريم والدين الإسلامي إنما هو دين العقل والفطرة، ومن ثم يقول أحد الباحثين المحدثين حول هذا الموضوع: لقد تحدث القرآن الكريم عن كثير من الحقائق الكونية إشارة أو تصريحًا، ويثير كثيرًا من القضايا العلمية التي يجد العقل البشرى نفسه أمامها مضطرا إلي بحثها ومناقشتها والوقوف على أسرارها وسبر أغوارها ومعرفة سنن الله فيها والوقوف على عظمة خالقها ومدبرها، ولا شك أن العالم اليوم وهو يموج بالعلم يشهد من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم آفاقا جديدة، ويقف أمام حقائقه العلمية مبهورًا [1].

وإذا كنا قد أخذنا من كونيات القرآن الكريم تقدير القرآن للعقل فإننا نأخذ منها أيضا تقديره للعلم وأهله، وليكن ماثلا في الأذهان وواضحا للإفهام أن هذا التقدير إنما هو للعلم بإطلاقه شريطة نفعه للإنسان.

يقول الإمام الأكبر الدكتور/ عبد الحليم محمود : إن الله سبحانه وتعالى حينما ذكر أن العلماء هم الذين يخشون الله أحاط الآية القرآنية [2] بجو يمنع أن تحدد العلم بالعلم الديني

---

1 – قضية التأويل ص 59، 60، ويراجع أثر الإسلام في بناء المجتمع الفاضل ص 156، الإسلام العقل ص 22، وحيد الدين خان الدين فيمواجهة العلم ص3، ط الثانية المختار الإسلامي، تح ظفر الإسلام خان .

2 –هذه الآية هي قوله سبحانه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ **[فاطر:28]**

فقط يقول سبحانه في سورة فاطر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر:27 - 28] (1).

ومن منطلق هذا التقدير للعقل والتبجيل للعلم وأهله نعرض الآن بإيجاز لنماذج من الإعجاز العلمي من خلال الآيات القرآنية الكريمة :

1. إن من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم حديثه عن الجاذبية إذ الجاذبية على قدر العلم الإنساني الآن تكمن في القوة التي يمسك الله سبحانه بها السماوات والأرض في مواقعها التي قدرها لها، وهذا الذي أدركه الإنسان الآن يمكن أن نقول هو سر قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ [فاطر:41]، وفي قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد:2] . فهاتان الآيتان وما شابههما إشارة إلي قوى الجاذبية الخافية التي هي بعد تقدير الله لها سبب بقاء أجرام السماء في أماكنها ومداراتها المقدرة لها . والتعبير في الآية الكريمة بالعمد غير المرئية إشارة إلي القوة التي رفع الله بها السموات هو أدق تعبير وأبلغه في الخطاب؛ لأن قوى التجاذب بين أجرام السماء غير مرئية، وإن رأينا أجرام السماء؛ ولأن العمد المعروفة المادية تؤثر أثرها وتحمل أحمالها بإرساء قوى أو ضغوط تساوى وتضاد ضغوط الأبنية عليها كما هو صريح في علم القوى، كما يحصل بالضبط بين الكواكب المتجاذبة فإذا عجزت العمد عن أن تكون ضغوطها المضادة لضغوط المحمولات عليها

1 – يراجع أ . د/ عبد الحليم محمود القرآن في شهر القرآن ص 13، ط دار المعارف .

مساوية لهذا الضغوط تكسرت الأعمدة والجدران أو تشققت، ويكون البناء أقرب إلى التداعي بقدر ما بين ضغوط الأعمدة وضغوط الأحمال من فروق [1].

2. وإذا كان هذا جانبا من حديث القرآن الكريم عن الجاذبية فإننا نجد له حديثا آخر عن ظاهرة أخرى تلكم الظاهرة أنبأنا عنها العلم الحديث أنها تكمن في أن السماء التي بناها الله بقوته وبقدرته آخذة في الاتساع إذ أن معظم المجرات آخذة في الابتعاد عنا في جميع الاتجاهات، ومن ثم يقول موريس بوكاي : إن اتساع الكون هو الحدث الأعظم المكتشف من قبل العلم الحديث وإنه لمفهوم أكيد الثبوت . وما أنبأنا به العلم الحديث أخبر عنه القرآن الكريم منذ قرون عديدة في قوله تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧﴾[الذاريات:47].

3. أيضا نجد في القرآن الكريم جانبا من الحديث عن النجوم إذ نجد قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الطارق: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ٣﴾[الطارق:1 - 3] . فالطارق : معناه المتحرك ليلا أو نهارا و(الثاقب) أي الجسم المضيء وهو بمعنى النار المتقدة، وإذا كان هذا حديث القرآن عن النجوم منذ مئات السنين فإننا نجد العلم الحديث يقرر هذه الحقيقة بدلائل علمية وأن النجوم أجرام غازية شديدة السخونة أي أنها لهب في درجات حرارة عالية وأنها متحركة فعلا ولكن ترى ساكنة؛ لأنها على بعد سحيق من الأرض [2].

---

1 –ويراجع فضيلة أ.ش محمد الغزالي نظرات في القرآن ص 124، 125، ط السادسة .دار الكتب الإسلامية .

2- التفسير العلمي ص 149، 166.

4. أيضا نجد في القرآن الكريم بجانب حديثه عن النجوم حديثا آخر عن الليل والنهار وسر تعاقبهما فنجد آية كريمة تحدثنا عن إشارة رائعة تكمن في دوران الأرض محوريا، وهو الدوران الذي يعتبر سببا في تعاقب الليل والنهار طبقا لمعلوماتنا الحديثة قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:54] [1].

5. أيضا نجد للقرآن الكريم حديثا عن السحاب وعلاقته بالمطر فقد كان قديما يعتقد أن المطر يأتي من ماء مخزون في السماء ينزل عندما تفتح الآلهة الأبواب والنوافذ، فجاء القرآن الكريم مصححا لهذه المفاهيم ومقررا لحقيقة صدع بها العلم الحديث، وهي أن السحاب الممطر تثيره الرياح فيسقط كسفًا به تنمو موات الأرض وتربو قال تعالى في سورة الروم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الروم:48]، ويقول تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف:57] [2].

1 - يراجع أ / وحيد الدينخان الإسلاميتحدى ص199، تح ظفر الإسلم خان، مراجعة د/ عبد الصبور شاهين، ط المختار الإسلامي .

2 - يراجع أ / محمد عفيفي الشيخ القرآن الكريم وعلوم الغلاف الجوي ص 79 المركز الإسلامي للدراسات والبحوث .

6. أيضا نجد ضمن آيات القرآن الكريم حديثا عن الجبال حيث أثبت القرآن الكريم لها حركة تشبه حركة السحاب الذي يتحرك لا بالذات ولكن بوساطة الرياح التي تقله وتحمله إذًا فللجبال حركة ليست بذاتية؛ لأنها في مرأى العين جامدة، ولكن بواسطة الأرض التي تقلها، ومن ثم يثبت القرآن الكريم حركة انتقالية للأرض عن طريق إثبات حركة الجبال والتي تتشابه مع حركة السحاب، وهذا ما يقره العلم الحديث وإلي ما سبق كانت الإشارة القرآنية في قول الحق سبحانه في سورة النمل: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل:88] [1].

7. أما عن القرآن الكريم عن الإنسان فإننا نلمح له كلام حول خلق الإنسان من علق كما ورد في سورة العلق: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ [العلق:2] والعلق أصله هو الحيوانات المنوية التي تسبب الحمل أو التلقيح كما ورد في سورة الطارق ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾ [الطارق:5 - 6]، وهذا الماء الدافق هو المني يسبح فيه الملايين من العلق، ولولا العلق ما كان هناك حمل ولا ولادة، ولقد وضع العلماء التجريبيون ماء الرجل تحت المجهر فشاهدوا بالفعل هذا العلق وحركته الصوتية بمساعدة ذنبه ورأسه[2].

8. أيضا نجد في القرآن الكريم حديثا عن مركز الإحساس في الإنسان إذ إن علم الطب قرر أخيرًا أن مركز الإحساس في الإنسان يكمن في الجلد وأن الأنسجة والعضلات الداخلية ليست هي المركز الأساسي لذلك بل إن الإحساس فيها ضعيف لدرجة أن الحرق البسيط في الجلد يحدث ألما شديدًا بينما الحرق الذي يتجاوز الجلد يحدث ألما أقل رغم خطورته، ولعل

---

1 - يراجع الإسلام في عصر العلم ص 302 .

2 - المعجزة والإعجاز ص 219 .

هذا ما يشير إليه قول الله سبحانه في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء:56][1].

9. أيضا نجد للقرآن الكريم حديثا عن نوع الجنين إذا كان ذكرًا أم أنثى ومسئولية الرجل عن ذلك، فقد قرر العلم الحديث أن الحيوان المنوي في ماء الرجل هو الذي يحدد نوع الجنين ذكرًا كان أو أنثى ولا دخل لبويضة المرأة في ذلك، ولم يكتشف علماء الوراثة هذه الحقيقة إلا في النصف الثاني من هذا القرن، ولم يكن هذا معروفا قبل ذلك، بيد أن القرآن الكريم ذكر هذه الحقيقة منذ مئات السنين في عصر كانت علوم البشر تغط في بحر عميق محفوف بضفتيه بالجهل والتأخر قال تعالى في سورة القيامة ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة:36 - 39]. فقوله: ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ﴾اشارة إلى أنه في مني الرجل من أرار الخلق ما يحدد نوع الجنين ذكرًا كان أم أنثى[2].

10. أيضا نجد للقرآن حديثا آخر عن الصفات الوراثية إذ أن العلم الحديث بين أن كل نواة لخلية بشرية تحتوي على 48 من الكروموزمات فيما عدا خلايا البويضة والنطفة فإنها تحتوي على نصف هذا العدد ويتم العدد بتزاوجهما هذه الكروموزمات تحتوي الجراثيم الموروثة التي تعد أصل وراثة الإنسان بالصفات، ولما كان كلًا من الأب الأم قد أسهما بعد مساوي من الجراثيم فإن الأب والأم يتساويان بهذا في توريث الصفات للإنسان، واعتبر هذا

---

1 – المعجزة والإعجاز ص 227 .

2 – يراجع د/ أحمد شوقي إبراهيم ، أطوار الخلق في تاريخ الإنسان ص 76، ط المركز الإسلامي للدراسات والبحوث .

القانون نصرًا للعلم والعلماء، ومن عجب أن القرآن الكريم قد قرره منذ عشرات المئات من السنين إذ يقول في سورة مريم: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾ [مريم:28] أي أن مريم لا يمكن أن تكون خاطئة أو آثمة إذا أنها لم ترث هذا الخطأ من أبيها ولا من أمها[1]. ومعني هذا أن الصفات تورث من الآباء والأمهات أحيانا.

هذا جانب من حديث القرآن الكريم عن الحقائق العلمية والكونية والتي سبق بها العلم الحديث بمئات السنين متناولًا إياها في عصر غيمت في سماته سحب الجهل والظلمات .

1 - يراجع أ/ عبد الرزاق نوفل القرآن والعلم الحديث ص 113، ط دار الشعب 1982 .

المطلب السابع
القرآن الكريم والعقائد المخالفة

إن مما يدل على منزلة العقل في القرآن الكريم موقفه من العقائد المخالفة، والذي يظهر من خلاله أن موقف الآيات القرآنية من تلكم العقائد يتسم بالموضوعية في تناوله ومعالجته، فترى القرآن الكريم قد تناول تلكم العقائد عارضا إياها ومتحدثا عن أصحابها، ثم قام بعد ذلك بالرد عليهم شافعا رده بالدليل، وسنرى أيضا الموضوعية في قمة صورها والتي تنم عن احترام عقل القارئ إذ القرآن الكريم في تناوله لتلكم العقائد فصّل مذهب كل طائفة، وفرق بين طائفة وأخرى، في حين أنه كان من الممكن أن يجمعهم تحت مسمى واحد ألا وهو مسمى الشرك إذ الكفر ملة واحدة، ولكنها الموضوعية القرآنية التي ردت كل معتقد إلي صاحبه في دقة متناهية إذ نراه وقد جمع الأديان التي كان للعرب اتصال بها في عهده في قوله تعالى في سورة الحج: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾[الحج:17] .

فمثلا نجد القرآن وقد أشار إلي ملل ونحل كثيرة منها :

1. الصابئة : وهم الذين أقروا بنوع من الألوهية، وأقروا بنوع من الواسطات تبلغ عن الله أحكامه هذه الوسائط روحانية لا جسمانية، ففزعوا إلي هياكل الأرواح وهي الكواكب على حسب معتقدهم فعبدوها [1] .

---

1 -يراجع أ/ عبد الرازق الحسني الصائبة في ماضيهم وحاضرهم ص 23 وما بعدها، ط بيروت، وكذا أ/ مصطفى عبد الرزق تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص 162، ط الثالثة ، لجنة التآليف والترجمة والنشر .

2. وكذا المجوس : ومنهم الثانوية الذين أثبتوا للعالم مدبرين إلهٌ للخير وإلهٌ للشر وإلهٌ للنور وإلهٌ للظلمة [1].

3. وكذا الدهريون : الذين قالوا بالطبع المحيي والدهر المفني، وهم الذين أخبر القرآن عنهم بقوله في سورة الجاثية: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية:24]، وقوله في آية أخرى في سورة الأنعام: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام:29].

4. وهناك من أقر بالخالق وأنكر الإعادة والبعث، وقد حكي القرآن الكريم على لسان أحدهم زعمه هذا الإنكار بقوله في سورة يس: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس:78].

5. وهناك من أنكر النبوة والرسالة وعبد الأوثان والأصنام لتقربهم إلي الله زلفى، وهم عامة العرب وأكثرهم، وقد حكي القرآن معتقدهم بقوله في سورة الزمر: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر:3].

6. ومنهم من عبد الملائكة، وقالوا: إنهم بنات الله، وقد أخبر القرآن عنهم بقوله في سورة النحل: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل:57]، وقوله في سورة الزخرف: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف:19] .

1 - يراجع الإمام بن كثير البداية والنهاية ص 701 ج1، ط دار الغد العربي .

7. وكذا اليهود والنصارى، والذين حكي القرآن معتقدهم بقوله في وسورة التوبة: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾[التوبة:30].

8. وكذا هناك من عبد الجن من دون الله، وهم الذين حكي القرآن عنهم في سورة الأنعام: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾[الأنعام:100][1].

وكما حكي القرآن الكريم عقائد هذه الطوائف حكي الجدال والنزاع بينهم حيث كان المجوس يدينون بغير دين أهل الأوثان، ويخالفوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى في بعض دينهم، وكان أهل الكتاب من اليهود والنصارى يختلفون أيضا في بعض دينهم [2]. وقد سجل القرآن الكريم جانبا من هذا النزاع الذي شجر بين أرباب الملل والنحل المخالفة إذ يقول سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾[البقرة:113].

وبعد أن حكي القرآن الكريم جانبا من معتقد هذه الملل مسجلا للنزاع والشقاق بينهم نراه وقد بدأ في الرد عليهم فيبين بادئ ذي بدء قاعدة مهمة يجب أن ترسخ في الأذهان، وتستحضر في العقول هي أن الحق سبحانه وتعالى أغنى الشركاء عن الشرك إذ لا يقبله ولا

1 - يراجع تمهيد لتاريخ الفلاسفة ص 102، 103، د/ محمود بن شريف الأديان في القرآن ص 55، ط المعارف، ابن هشام السيرة النبوية ج1 ص 561، ط دار البيان العربي، ويلاحظ أن صاحب الأديان في القرى، قد ذكر أنواعا أخرى من الشرك إلا أنها في الحقيقة تعود إلي عبادة الأوثان، ويراجع الأديان في القرآن ص 55، 56، وكذا الخوارزمي مفاتيح العلوم ص 26 وما بعدها ، ط 2 الكليات الأزهرية 1981 م .

2 - الإمام الشافعي الأم ص 246 ج4، ط دار الغد العربي .

يغفره إذ يقول سبحانه في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء:48]. ويبين أيضا أن الإشراك بالله من محبطات الأعمال ويفضي بصاحبه إلي البوار والخسران يقول سبحانه في سورة الزمر: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر:65 - 66].

ونرى القرآن الكريم أيضا وقد وسم المشركين أنفسهم بأنهم نجس حيث يقول في سورة التوبة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَا﴾ [التوبة:28] [1].

ثم نراه أيضا وقد شرع بالرد على تلكم الفرق السابقة فرد على الصابئة الذين اتخذوا الكواكب آلهة من دون الله مستخدما أسلوب منطقيا بديعا يتمثل في التنزل مع الخصم أو الافتراض الجدلي حتى يحصل في النهاية الاستدلال على المطلوب فقال في معرض محاجة إبراهيم عليه السلام لقومه في سورة الأنعام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام:76 - 79] [2].

---

1 - يراجع الأديان في القرآن ص 55، 56 .

2 - يراجع قضية التأويل ص 97 .

ثم نرى القرآن وقد رد الثانوية الذين دعوا إلها للخير وإلهًا للشر فقال مخاطبا لهم ولمن نحى نحوهم من دعاة الشرك وأذنابه كما جاء في سورة النحل: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل:51 - 53][1] .

ومعنى هذا أن الحق وتعالى قد عاب عليهم معتقدهم مسجلا بطلان مذهبهم بإقامة الدليل عليهم.

ومن هذا المنطلق نجد القرآن الكريم أيضا وقد رد على الدهريين الذين نسبوا الإحياء والإماتة إلا الطبع والدهر موجها نظرهم شطر العالم وما فيه هل خلق هذا العالم من غير خالق، أم خلق نفسه بنفسه وكان علة في وجود ذاته، كما جاء في سورة الطور ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور:35 - 36][2] .

وأما من أنكر البعث متوهما أنه حديث خرافة، وفي نفس الوقت عبد الخالق لم يتركه القرآن وشأنه بل رد عليه بعقلانيته المعهودة مستخدما أساليب كثيرة منها قياس الإعادة على البدء كما جاء في سورة يس ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس:78 - 79] .

وأما من زعم الأصنام آلهة من دون الله فليس بأحسن حظًا من غيره إذ عبد حجارة لا تسمع وتبصر ولا تغني عن عابدها شيئا كما جاء في سورة مريم ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا

1 - يراجع الأديان في القرآن ص 55 .

2 - يراجع قضية التأويل ص 74 .

يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم:42]. وقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام في سورة الشعراء: ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣﴾ [الشعراء:73][1].

وإذا كان هذا جانبا من موقف القرآن الكريم ممن عبدوا الأوثان من دون الله، فإننا نجد له أيضا موقفا من عبدة الملائكة الذين زعموا أنها بنات الله كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا، ولذا توجه القرآن الكريم بالرد عليهم في سورة الزخرف ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ١٩﴾ [الزخرف:19] وقال أيضًا في معرض الرد عليهم في سورة سبأ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ:40 - 41].

وبعد أن بكت القرآن الكريم من اتخذ الملائمة أربابا من دون الله، وسجل عليهم رجمهم بالغيب فيما لم يحيطوا بعلمه ولم يأتهم تأويله نجده أيضا وقد توجه برده على اليهود والنصارى في دعواهم الكاذبة في نسبتهم الولد لله فرد على من زعم أن عزيرًا ابن الله بقوله في سورة التوبة: ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ [التوبة:30 - 31]. وفي عبارات صريحة يرد على من زعم الولد لله تعالى بقوله في سورة البقرة: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ

---

1 - يراجع التفكير الفلسفي في الإسلام ص 78، وكذا د/ مصطفي عبد الواحد شخصية المسلم كما يصورها القرآن الكريم ص 222، ط الجهاز المركزي للكتب الجامعية .

ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾[البقرة:116 - 117] .

وفي قوة واضحة ينفي الولد والشريك عن الباري سبحانه، فيقول في سورة المؤمنون: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ ﴾ [المؤمنون:91] . ويرد في قوة صريحة على النصارى الذين زعموا بنوة المسيح عليه السلام وألوهيته بأن المسيح مهما علا شأنه وسطع نجمه بشر كسائر البشر يأكل الطعام فيتمثل في بدنه دما، ومنه ما يخرج فضلة بعد ذلك فيكف يكون ابنًا لله أم كيف يكون إلهًا : كما جاء في سورة المائدة ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾[المائدة:75] (1) .

أما من عبد الجن من دون الله فقد كان له أيضا حظ ونصيب من حديث القرآن عنه والتبكيت على فعلته الشنعاء إذ يقول سبحانه في سورة الأنعام: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾[الأنعام:100] فيا عجبًا لقوم غيبت عقولهم وعميت أبصارهم فصيروا المخلوق خالقًا وشريكًا لله سبحانه في ملكه تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

هذا هو جانب من حديث القرآن الكريم عن العقائد المخالفة ومحاجاته لأهلها والرد عليهم، وبالنظر إلي ما تقدم يمكن أن نردد مع الشيخ الإمام : مصطفى عبد الرازق قوله : إن العرب كانوا حين نزول القرآن، في منازعة وجدل في العقائد الدينية وكان البحث في إرسال

1 - يراجع الأديان في القرين ص55، 57 وقضية التأويل ص 74، التفكير الفلسفي ص 78، وكذا أبو البقاء الجعفري الرد على النصارى ص 23، ط وهبة، تح د/ محمد حسانين .

الرسل، والحياة الأخرى وبعث الأجساد بعد الموت موضع الأخذ والرد على الخصوص بين النحل المتباينة، وكان على القرآن أن يجادل مخالفيه من أرباب الأديان والملل ردًا للشبهات التي كانوا يثيرونها حول عقائد الدين الجديد، على أنه كان لا يمد في حبل الجدل حرصا على الألفة، هذا الجدل قد عرض له القرآن للحاجة وعلى مقدارها، وقد دعا للأخذ في هذا الجدل برفق فقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾[العنكبوت:46] (1).

1 - يراجع التمهيد ص 111، 116 .

المطلب الثامن

طرق المعرفة ومناهج الاستدلال في القرآن الكريم

تبين لنا مما سبق كيف تعدد المنكرون والمخالفون للعقائد القرآنية، وما ذلك التعدد إلا لاختلاف الأفهام والعقول وتباين الأهواء والمشارب، فوجدنا منكري الألوهية والمستبعدين للبعث، ورأينا عبدة الأوثان وكذا عبدة الكواكب والملائكة، ورأينا اليهود والنصارى، وتبين لما كيف عرض القرآن الكريم لعقائد هؤلاء وأولئك وكيف تنوع في الرد عليهم بما يتناسب مع معتقد كل فرقة وملة داحضًا شَبه كل نحلة، وكأن في تنوع الجدال مع كل فرقة وطائفة إشارةٌ من طرف خفي إلى أن القرآن الكريم قد جاء ليخاطب كل طائفة بما يلائم عقول أصحابها، وما زعموه من شبه وادعوه من أباطيل، ولذا يقول أحد الباحثين المحدثين حول هذا الموضوع لقد جاء القرآن الكريم؛ ليخاطب العقول جميعا، ويوجهها إلي النظر والمعرفة كل منها بحسب استعداده ومواهبه ودرجة ثقافته وطبيعته التي تعده لقبول عقائده وإدراك حقائقه؛ لذا كان لابد من تنويع وسائل المعرفة وطرقها في القرآن الكريم لكي تتسق مع درجات هذه العقول، وتتوافق مع مختلف مدارك الناس حتى تكون أقرب إلى درك حقائقها وأرجى لقبولها وأدعى إلى الإيمان بها والإذعان لها، ومن ثم جاءت طرق المعرفة ووسائلها في القرآن الكريم بهذا التنويع الذي لا يجد له الباحث مثيلًا في مناهج البشر وعقائد المفكرين، فكان بذلك المثل الأعلى الذي لا تتطاول هامة الفلسفة إلى مواطيء أقدامه، ولا يتسامى فكر البشر إلى مرامي بيانه، وطرائق احتجاجه ومناهج استدلاله [1].

ومن ثم رأينا القرآن الكريم وقد تعرض لطرق المعرفة المختلفة والتي يمكن للإنسان من خلالها أن يلم بالمعلومات، وينفذ عبر أقطار المجهول .

1- قضية التأويل ص 77، 78 .

أولا :طريق الحس :

والحس كطريق للمعرفة قد عول عليه القرآن الكريم لذا تكرر ذكر الحواس التي بها يقف الإنسان على معرفة الأشياء من سمع وبصر، وغير ذلك في القرآن الكريم في مواضع جمة قال تعالى في سورة ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل:78]، وفي سورة الإسراء ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء:36]، وفي سورة المؤمنون ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون:78]، وفي سورة الملك ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الملك:23]، وفي سورة الأحقاف ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ [الأحقاف:26] .

من هنا ندرك امتنان الحق سبحانه وتعالى على عباده بأن أمدهم بهذه الوسائل الإدراكية، ومن خلال هذه الآيات القرآنية ندرك مدى الحث القرآني على استخدم الحواس في تحصيل المعارف، ونجده أيضًا قد أعلى من شأن بعضها على بعض وتميزها في مجال المعرفة، وقد تمثل هذا في "الاهتمام بالسمع والبصر دون اللمس والذوق والشم حيث نراه سبحانه وتعالى يذكر لنا الأذن في ثمانية عشر موضعًا والسمع في مائة وأربع وثمانين آية، كما يذكر العين في القرآن أيضًا في إحدى وستين آية وبمعني الباصرة في سبعة وثلاثين موضعًا ... ومن ثم نتبين العناية الفائقة بآدتي السمع والبصر كقوتين للإدراك، ولا شك في أنهما جديرتان بهذه العناية لقصر

مهمتها في الخلق على الإدراك فحسب، فنحن لا نستخدم عيوننا وآذاننا إلا في العلم بالأشياء رؤية أو سماعا [1]" .

أيضا نجد القرآن الكريم قد أشار بوضوح إلى فكرة الوسائط كشرط لإدراك القوى الحسية فلا تعتبر تلكم الفكرة التي أشار إليها القرآن الكريم منذ مئات السنين والتي تشدق بها علماء العصر الحديث فكرة مبتكرة بالنسبة للمحدثين إذ أن القرآن الكريم قد أشار إليها متناولًا إياها في قوله سبحانه في سورة القصص ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص:71 - 72] . فقد بين سبحانه وتعالى " أنه لو أذهب الضوء لذهب الإبصار " [2] .

ومن ضمن اعتماد القرآن الكريم للمنهجي الحس كطريق مهم للمعرفة نراه يلفت الإنسان كلية إلي ما حوله وما بين يديه من أرض وسماء وبحار وأنهار وشموس وأقمار وجبال ووهاد، ونبات وأشجار وإنسان وحيوان مما يدركه الإنسان إدراكا مباشرًا؛ لأنه واقع تحت حسه ونظره وفي محيط ملاحظته وتجربته.

ثانيا: طريق العقل :

إذا كنا قد عرفنا كيف اعتمد القرآن الكريم الحسَ كطريق من طرائق المعرفة واليقين فإننا نجد القرآن الكريم أيضًا اعتمد بجانبه طريق العقل كوسيلة بها نحصل المعارف والعلوم، وقد تبين ذلك بجلاء فيما وقفنا عليه من أمر القرآن بالتدبر والنظر والتفكر في الوقت الذي

---

1 – د/ عبد الله الشاذلي التصوف الإسلام في ميزان الكتاب والسنة جـ 2 ص 22، ط دار الهداية .

2 –التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة ص 24، 25 .

رأينا فيه نعيه على التقليد والمقلدين وذمه لمن خلف عقله وراءه ظهريا إذ جعله في مرتبة أدنى من مرتبة الدواب إن لم يكن أضل سبيلا وما أكثرَ الآيات التي مرت بنا مُزيلة بقوله "يعقلون، يتفكرون، تعقلون "، وفي اعتماد القرآن الكريم أيضًا للعقل كطريق من طرق العلم والمعرفة نراه وقد ساق له القضايا مشفوعة بدلائلها العقلية لاسيما في مجال العقائد ليأخذ العبرة والعظة حتى رأينا هذا على مستوى القمة في التكليف من الله لرسله فها هو كليم الله موسى عليه السلام يأمره ربه بالذهاب إلي فرعون قارنًا له الأمر بالحجة قائلا له في سورة طه: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤﴾ [طه:24].

لتكون العبرة والعظة التي تسرى على مر الليالي والأيام فقوله طغى، تعليل للأمر بالذهاب، ومعناه :أنَّ الأمر لا ينصب جازمًا حاسمًا لينفذ بلا أسباب ولا مناقشة، وإنما هو المنهج القرآني الذي يحترم العقل الإنساني ويقدره قدره، وآية هذا الاحترام أن يعرض عليه القضية مشفوعة بدليلها؛ لتنشط أجهزة الإنسان كلها عاملة داعية إليها [1]، وفي سبيل تحقيق هذا رأينا القرآن الكريم وقد اعتمد على البديهيات العقلية والقضايا الضرورية التي لا يماري فيها عاقل، ولا يتناقض معها إلا جاهل يتخذها أساسًا لحركة العقل ومنطلقًا إلى درك الحقيقة التي تلزمها أو تترتب عليها على سلم مُتداني الدرج لا يشعر فيه الإنسان بانقطاع أو فجوة كما نجد القرآن الكريم أيضا "يعتمد في منهجه على العقليات المحضة والقضايا المنطقية التي تعتمد على الفكر المجرد من علائق الحس، وغواش المادة وهذا هو طريق الفلاسفة العقلانيين كالفارابي وابن سينا وغيرهما" [2].

---

1 – د. محمود عمارة: فقه الدعوة من قصة موسى عليه والسلام ص 45، ط السلام العالمية .

2 –قضة التأويل ص 81 .

ولا يفوت القرآن الكريم أن يربط وسائل المعرفة الإنسانية من سمع وبصر بقلب الإنسان وفؤاده وقد شاهدنا هذا جليًا واضحا في تلكم الآيات التي صُدِّر بها هذا الجانب من البحث، وكأن في هذا إشارة إلي طلب القرآن الكريم من أن تكون هدف المعرفة لدى الإنسان الوصول إلى العلوم المستفادة فيما يعود على البشرية بالخير والسلام (1).

ثالثا: المعرفة الذوقية:

كذلك نجد بجانب الطريقتين السابقتين لتحصيل المعارف طريقًا آخر أشار إليه القرآن الكريم، وهو طريق المعرفية الذوقية أو الإشراق القلبي، والذي هو منهج الخواص، والذي يصل فيه الإنسان إلي معلومات لا يمكن الوصول إليها بطريق العقل، وهو منهج يعتمد على الطاعة المطلقة لأوامر الله تعالى، والعبادة الصافية، وتخليص النفس من أدران البدن والوصول إلى صفاء الروح وخلاصها من ثقل العالم المادي المحسوس، وانغماسها في عالم الشهود وهنا تصل إلي معلومات ومعارف يعجز العقل بمنطقه إلي الوصول إليها (2)

وقد قص علينا القرآن الكريم جانبًا من الحديث عن هذا الطريق في محاورة العبد الصالح مع كليم الله موسى عليه السلام بشأن السفينة والغلام والجدار، والذي قدم له القرآن الكريم بقوله في سورة الكهف ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:65] هكذا وجدنا القرآن الكريم يترقى بالمعرفة الإنسانية من المحسوس إلي المعقول حتى يصل بها إلي أوج المعرفة الذوقية مستجيبا في هذا لتفاوت المراتب في العقول والنفوس درجاتها متجاوبًا مع مستوياتها مراعيًا لضروراتها وظروفها، وقد اتضح لنا البون الشاسع بين المنهج البشري والمنهج القرآني، فالمنهج البشري مهما علا أو سما يعتمد على طريق واحد من طرق المعرفة بخلاف

---

1 - أ. د / مبارك حسين التيارات الفكرية ص 198، ط دار الطباعة المحمدية 1983 م .

2 - العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث ص 51 .

المنهج القرآني الذي وسعها جميعًا بما يتلائم مع ظروف كل إنسان وملكاته حيث راعى جميع القوى الإنسانية، كما راعى مستويات الناس ومراتبهم في الفهم والإدراك واستنادًا على ما تقدم امتازت التعاليم القرآنية بهذه الخاصية والشمولية التي دلت على الإعجاز فيه، ومن ثم يقول ابن رشد متحدثا عن الدلائل القرآنية : إنه لا يوجد أتم إقناعًا وتصديقا للجميع منها، وأنها تقبل النصرة بطبعها إلي أن تنتهي إلي حد لا يقف على التأويل فيها إن كانت مما فيها تأويل إلا لأهل البرهان، وأنها تتضمن التنبيه لأهل الحق على التأويل الحق [1].

1 – ابن رشد فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ص 66، تح أ . د / محمد عمارة ، ط بيروت .

مناهج الاستدلال في القرآن الكريم

لقد مر بنا في ثنايا هذا البحث جانب من مناهج القرآن الكريم في الاستدلال وتبين لنا أن للقرآن الكريم أيضا مسلك في تأسيس اليقين يعتمد على الفطرة ومسلماتها، والحقائق والأصول وتوافقها، والمشاهدة التي تجمع بين عمل الحس وإدراك العقل، ولما كانت طرق المعرفة في القرآن الكريم متعددة فلا غرابة إن رأينا تعددا في مناهج النظر والاستدلال فنجد الأدلة القرآنية تتنوع في خطابها تبعًا لتفاوت العقول البشرية فهناك :

أولا : المناهج الحسية : وهذا النوع من المناهج يُعَوّل عليه البسطاء العوام ممن لا يملكون قوة الإدراك أو الحدس، ولا يقنعون إلا بما تقع عليه حواسهم مما ينظرون إليه من فوقهم، أو من تحت أرجلهم فالعربي قديمًا تمضي به الحياة في صحراء مقفرة يلتحف السماء ويفترش الأرض والإبل مطيته الأولى، فهذا الصنف من الناس كان له من أوجه الخطاب القرآني ما يتلائم مع مداركه، " فساق القرآن الكريم دليلًا حسيًا للعربي قاطن البادية مما يقع عليه حسه وبصره نظرًا للبيئة التي يعيش فيها فقال تعالى مخاطبًا له لافتًا نظره إلي دليل وجوده في سورة الغاشية﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾﴾[الغاشية:17 - 21] (1) هذا والقرآن الكريم مليء بمثل هذا النوع من المناهج الحسية .

ثانيا المنهج العقلي المحض :

وهذا النوع من المناهج يخاطب الله تعالى به أصحاب العقول الزكية والأفهام القوية، والنظر السليم إذ أنه يحتاج إلي جودة في الفهم وعمق في النظر والاستدلال، فمِن هذا قول

1 - يراجع د/ مبارك حسين المنطق الحديث ومناهج البحث ص 43، ط الأمانة .

الحق سبحانه في سورة الطور ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور:35].

فنرى العقل يفترض من خلال هذه الآية حالات ثلاثة:

الأولى : أنهم خُلقوا من غير خالق وهذا باطل؛ لأن العقل والواقع يقف من هذه الدعوى موقف الإنكار إذ كل فعل لابد له من فاعل.

والحالة الثانية : أنهم خَلقوا أنفسهم بأنفسهم، وهذا باطل؛ لأنَّا إذا فرضنا الإنسان علة خالقة لذاته كان متقدمًا على نفسه، وإذا فرضناه معلولًا عن علة كان متأخرًا، فكيف يكون متقدما متأخرا في آن واحد . وهذا جمع بين الضدين، والجمع بين الضدين محال.

وإذا بطل الفرضان السابقان لم يبق إلا فرض ثالث وهو: أنهم خُلقوا بواسطة خالق وهو الله تعالى.

يقول ابن تيمية: قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أُوجِدُوا مِنْ غَيْرِ مُبْدِعٍ؟ فَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ غَيْرِ مُكَوِّنٍ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا نُفُوسَهُمْ وَعِلْمَهُمْ بِحُكْمِ أَنْفُسِهِمْ مَعْلُومٌ بِالْفِطْرَةِ بِنَفْسِهِ لَا يَحْتَاجُ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِ: بِأَنَّ كُلَّ كَائِنٍ مُحْدَثٌ أَوْ كُلَّ مُمْكِنٍ لَا يُوجَدُ بِنَفْسِه، وَلَا يُوجَدُ مِنْ غَيْرِ مُوجِدٍ، وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْقَضِيَّةُ الْعَامَّةُ النَّوْعِيَّةُ صَادِقَةً؛ لَكِنَّ الْعِلْمَ بِتِلْكَ الْمُعَيَّنَةِ الْخَاصَّةِ؛ إنْ لَمْ يَكُنْ سَابِقًا لَهَا فَلَيْسَ مُتَأَخِّرًا عَنْهَا؛ وَلَا دُونَهَا فِي الْجَلَاءِ... [1]، فهذا النوع من الاستدلال العقلي المحض في القرآن الكريم، والذي لا يفطن له إلا ثاقب الذهن صحيح النظر، أيضًا نجد نوعا ثالثا من مناهج الاستدلال ويتمثل في :

1 – الإمام ابن تيمية مجموع الفتاوى ج2 ص 11، تح عبد الرحمن بن محمد العاصمي، ط بيروت .

ثالثا : الاعتماد على الحس والعقل معا:

إن هذا النوع من مناهج الاستدلال يتمثل فيه الإدراك الحسي وجانب التأمل العقلي، وهذا ما يشير إليه بوضوح وجلاء قول الحق سبحانه وتعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾ [آل عمران:190] "فإن وجود السماوات الأرض مُدركٌ بالحواس، واختلاف الليل والنهار أيضا مُدركٌ بالحواس والتأمل والتفكير في رفع السماء بلا عمد ومد الأرض وجعلها مذللة...، وما تتيح من تعاقب الليل والنهار واختلافهما بالطول والقصر كل هذا يدرك بالعقل والحواس معا [1] . هكذا وقفنا على تنوع المناهج في إقامة الدلائل والبراهين، وذلك نظرًا لتنوع العقول المخاطبة من حسية وعقلية إلى دلائل تجمع بين الحس والعقل معًا في بوتقة واحدة.

أيضًا نجد بجانب كل هذا الأشكال المنطقية التي اهتدى إليها الأقدمون بعد جهد شاق ومضني مُطبقة أفضل تطبيق في القرآن الكريم وآياته وقد تناولها الإمام الغزالي بالحديث والشرح في كتابه "القسطاس المستقيم" مسميا إياها "**بالموازين**" والتي أولها "**ميزان التعادل**" ويشمل على أشكال ثلاثة :

"**الأكبر**" : وأقامه الإمام الغزالي على مثال قرآني مفاده أن المتصرف في أمور الكون إله والله هو المتصرف في شئون الكون إذن هو الإله .

أما "**الأوسط**": فأقامه بناء على التغير الذي يعتري الأشياء، وإذا كانت الأشياء متغيرة فلا تصلح لأن تكون آلهة .

1 – المنطق ومناهج البحث ص 45، وكذا د / أحمد عبد العال الجفاوي، الألوهية في ضوء القرآن الكريم ص 15، 16، ط الأولى 1989 م .

أما " الأصغر" : فقد أقامه على مثال مُؤداه أن من الأنبياء بشر، وفلان منهم أُنزل عليه الكتاب، وما داموا من ضمن البشر فيمكن القول بأن بعض البشر أنزل عليه كتاب .

أما "ميزان التلازم": فأقامه على أن هذا العالم موجود، ولو كان له إلهان لأحدق به الفساد إلا أن سيره على هذا النظام الذي لاعِوج فيه ولا اختلال دليل على أنه ليس للعالم إلا إله واحد .

وأما القياس "الشرطي المنفصل" : فأقامه على ما ورد في القرآن الكريم من وجود صنفين من الناس :

أ- صنف محسن آثر مراد ربه على مراد نفسه.

ب- وصنف استحب العمى على الهدى فهو في ضلال مبين .

ومعروف أن الصنف الأول ليس في ضلال إذن فما سواه غارق فيه.

يقول الإمام الغزالي متحدثا عن هذه الموازين العقلية والأشكال المنطقية في الآيات القرآنية أما هذا الموازين العقلية فهي :

أولا: ميزان التعادل، ويشتمل على أشكال ثلاثة :

1. الأكبر.
2. الأوسط.
3. الأصغر .

1- ويمكن الرمز للأول هكذا : أ هي ب . و ب هي ج . إذا: أ هي ج .

ومثاله :إن من يقدر على إطْلاع الشمس إله .

وإلهي هو القادر إطلاع الشمس، إذا هو الإله دونك.

2- ويمكن الرمز للثاني هكذا :" أ"هي "ب ". و "ج " ليست "ب" . إذا "أ" ليست" ج ".

ومثاله : القمر آفل. والله ليس بآفل.إذًا ليس القمر بإله.

3- ويمكن الرمز للثالث هكذا : " ب" هي " أ " . و " ب " هي" ج " . إذا بعض" أ" هي "ج " .

ومثاله: موسى عليه السلام بشر. وموسى أنزل عليه الكتاب. إذا بعض البشر نزل عليهم الكتاب .

ثانيا : ميزان التلازم، وهو القياس الشرطي المتصل:

ومثاله :لو كان للعالم إلهان لفسد، ومعلوم أنه لم يفسد . إذا ليس للعالم إلهان بل إله واحد.

ثالثا : ميزان التعاند : وهو القياس الشرطي المنفصل :

ومثاله : وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين، ومعلوم أننا لسنا في ضلال إذا فأنتم ضالون [1] .

أيضا نجد الإمام ابن تيمية يوضح لنا منهجين آخرين من مناهج الاستدل في القرآن الكريم :

أولهما : منهج الآيات . وثانيهما : قياس الأولى.

---

1 – الإمام الغزالي، القسطاس المستقيم : مجموع القصور العوالي، ص 12 وما بعدها، تح أ / محمد مصطفي أبو العلا جـ1، ط مكتبة الجندي .

فمنهج الآيات كما يصوره ابن تيمية يوضح استدلالًا قرآنيًا يستدل فيه بجزئي على جزئي آخر بحيث إذا وجد أحدهما وجد الآخر وإذا عدم أحدهما عدم الآخر.

يقول الدكتور/ على سامي النشار: يرى ابن تيمية أن طريق الاستدلال بالآيات طريق قرآني يستمد صورته ومادته من القرآن ... والآية هي العلامة وهي الدليل الذي يستلزم عين المدلول ولا يكون مدلوله أمرًا كليا مشتركًا بين المطلوب، وغيره بل نفس العلم به يوجب العلم بعين المدلول، فهو العلم باستدلال جزئي على جزئي ملازم له بحيث يلزم من وجود أحدهما وجود الآخر ومن عدمه عدمه، فطلوع الشمس آية على وجود النهار، كما ورد في سورة الإسراء ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:12] . فنفس العلم بطلوع الشمس يوجب العلم بوجوب النهار [1] .

والدكتور النشار هنا إنما يشرح دليل الآية عند ابن تيمية، ولعلنا لاحظنا هذا التشابه بين هذا المنهج من مناهج الاستدلال وبين مسلك الدوران في إثبات العلة عند الأصوليين، والذي يكون فيه ارتباط المقدم مع التالي والعلة مع المعلول وجودًا وعدمًا، وهو ما تأثر به علماء المنطق الحديث من مفكري الغرب، فأطلقوا عليه قانون التلازم في الوقوع وفي التخلف، وبناء على هذا، وانطلاقًا من الآية الكريمة يمكن أن نقرر أن القرآن الكريم قد عول على هذا النوع من الاستدلال قبل ظهور المنطق الحديث بقرون عديدة، وما تقدم من حيث حول هذا المنهج هو ما يقصده ابن تيمية بقوله : إن دليل الآية استدلال بجزئي على جزئي؛ لتلازمهما وليس ذلك من قياس التمثيل [2].

---

1 – أ . د / على سامي النشار مناهج البحث عند مفكري الإسلام ص 216، ط 4 دار المعار 1978 م .

2 – ابن تيمية في الرد على المنطقيين ص 163، ط م الأزهرية، تح د / محمد نصار وغيره 1977 .

ونجد ابن تيمية أيضا يلفت النظر إلي نوع آخر من أنواع الاستدلال في القرآن الكريم هو قياس الأولي: وذلك القياس له شواهد كثيرة في القرآن الكريم منها في سورة الأحقاف ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف:33] وقوله في سورة غافر ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:57]، وقوله في سورة يس ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾[يس:81].

ومن منطلق هذه الآيات يمكن أن نقول إن ابن تيمية قد ذكر تعريف هذا النوع من القياس بقوله هو: إثبات الحكم للشيء بناء على ثبوته لنظيره أو لما هو أولي بالحكم فيه [1]، ثم نراه يعمد إلي تطبيق هذا التعريف على الآيات السابقة فبين أن الآيتين الأوليين من الآيات السابقة فيهما :

إثبات حكم لشيء بناء على ثبوته لما هو أبعد في الإمكان منه، فإن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ومن يخلق ما هو أكبر في الوجود يكون قادرًا على أن يخلق ما هو أقل منه من باب أولى، وأن من يخلق الشيء من العدم أول مرة أولى به أن يكون قادرًا على إعادة خلقه في المرة الثانية [2].

وفي تعليقه على الآية الكريمة من سورة يس يقول : ففيها إثبات حكم لشيء بناء على ثبوته لنظيره؛ لأن من خلق الشيء يكون قادرًا على خلق مثله [3] .

1 - ابن تيمية درء تعارض العقل والنقل جـ1 ص 35، ط دار الكتب المصرية 1973 م .
2 – ابن تيمية درء تعارض العقل والنقل جـ1 ص 32، ط دار الكتب المصرية 1973 م .
3 – ابن تيمية درء تعارض العقل والنقل جـ1 ص 32، ط دار الكتب المصرية 1973 م .

وإذا أردنا أن نتعرف على بعض النماذج القرآنية التطبيقية لقياس الأولى في أمور العقيدة من خلال القرآن الكريم فإننا نستنتج ما يلي :

1 - إن هذا القياس قد استخدم في إثبات التوحيد إذ جعله الله منهجًا لتنزيهه عن الشركاء عن طريق ضرب الأمثلة فيقول سبحانه في سورة الروم ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الروم:28] . فبين سبحانه أن مملوك الرجل لا يكون له شريكًا في ماله حتى يخالفه، كما يخالف نظيره، فيكف ينزهون المخلوق عن الشركة ويجعلون للخالق شركاء [1] .

2- نجد هذا القياس وقد استخدم أيضا في البرهنة على إثبات البعث قياسًا على النشأة الأولى، والأهونية في الإعادة من الابتداء كقوله تعالى في سورة يس ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس:79] وقوله في سورة الروم ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم:27] [2] فإن من ابتدأ خلق الإنسان قادر من باب أولي على بعثه وإعادته بعد الموت .

وإذا كان هذا هو جانب من حديث ابن تيمية حول مناهج الاستدلال في القرآن الكريم، فإننا نجد للإمام السيوطي أيضًا رأيٌ في هذه المسألة إذ يبين أن القرآن الكريم قد تضمن أساليب منطقية كثيرة في الاستدلال والجدل منها :

1. **أسلوب السبر والتقسيم :** وهو أسلوب يتم فيه البحث عن علة الشيء فيفترض لأجل هذا أكثر من علة ثم يُكر عليها بالنقض حتى تسلم العلة الصحيحة.

---

1 - يراجع نظرية المنطق بين فلاسفة الإسلام واليونان.

2 - يراجع أ / مصطفي حلمي الإسلام والمذاهب الفلسفية ص 131، ط دار الدعوة ، وكذا القرآن والفلسفة ص 59.

2. **أسلوب التسليم:** وفيه يتم فرض محال يمتنع وقوعه لامتناع وقوع شرطه.

3. **أسلوب الانتقال :** وفيه يتم الانتقال إلي وجه آخر من أوجه الاستدلال بالدليل؛ لكون المستدل لم يفهم الدليل الأول .

4. **أسلوب المناقضة:** وهو تعليق حدوث أمر على شرط محال، فيستحيل وقوعه لذلك.

5. **أسلوب مجاراة الخصم**: وفيه يكون الفرض الجدلي، والتنزل مع الخصم حتى يثبت المطلوب.

6. **أسلوب القول بالموجب** :وفيه يتم أخذ صفة في كلام المجادلة ليرتب عليها حكم، أو حمل لفظ وقع في كلامه على خلاف المراد.

كل هذه المناهج والمسالك في الاستدلال ذكرها الإمام السيوطي : معضدًا إياها بذكر ما يناسبها من الآيات القرآنية والتوجيه الملائم لها يقول الإمام السيوطي رحمه الله : من الأنواع المصطلح عليها في علم الجدل السبر والتقسيم ومن أمثلته في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾[الأنعام: 143- 144]

فإن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى، وتحريمهم لما في أرحام الإناث حسب ما اتفق عليه مرة ثالثة ... جادلهم الله في رد عليهم بطريق السبر والتقسيم، فبين أنه خلق من كل زوج مما ذكرَ ذكرًا وأنثى وسألهم عن أسباب التحريم وعلتها؛ لأن العلة إما أن

تكون بسبب الذكورة أو الأنوثة أو كلاهما معا، أو بسبب خارج عن حدود مصدر الشيء المحرم كأن ينزل به وحي من الله، فتلك أسباب التحريم كلها، ويترتب عليها أن يحرم الذكور جميعًا إن كانت العلة هي الذكورة أو الإناث إن كانت العلة هي الأنوثة، أو تحريم الصنفين معًا، فبطل ما فعلوه من تحريم بعض في حالة، وبعض في حالة؛ لأن العلة على ما ذكر تقتضي إطلاق التحريم، والأخذ عن الله بلا وساطة باطل، ولم يدعوه، وبواسطة رسول كذلك؛ لأنه لم يأت إليهم رسول قبل النبي، وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدعي، وهو: أن ما قالوه افتراء على الله وضلال مبين .

ومنها القول بالموجب وحقيقته: رد كلام الخصم من فحوى كلامه ... وهو قسمان:

أحدهما: أن تقع صفة في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم، فَثبتَها لغير ذلك الشيء، كقوله تعالى في سورة المنافقون ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون:8] فالأعز وقعت في كلام المنافقين كناية عن فريقهم، والأذل كناية عن فريق المؤمنين، وأثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة، فأثبت الله في الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم وهو الله ورسوله والمؤمنون، فكأنه قيل : صحيح ذلك ليخرجن الأعز منها الأذل لكن هم الأذل المخرَج، والله ورسوله الأعز المخرِج.

والثاني: حمل لفظ وقع من كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه ... ومنه قوله تعالى في سورة التوبة ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾.

ومنها التسليم وهو: أن يفرض المحال إما منفيًا أو مشروطًا بحرف الامتناع؛ ليكون المذكور ممتنع الوقوع لامتناع وقوع شرطه، ثم يسلم وقوع ذلك تسليمًا جدليًا ويدلل على عدم

فائدة ذلك على تقدير وقوعه كقوله تعالى في سورة المؤمنون ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون:91] والمعنى ليس مع الله إله، ولو سلم أنَّ معه سبحانه إلها لزم الأمر من ذلك التسليم ذَهاب كل إله من الاثنين بما خلق، وعلو بعضهم على بعض، فلا يتم في العالم أمر ولا ينفذ حكم ولا ينتظم أحواله، والواقع خلاف ذلك.

ومنها الانتقال وهو: أن ينتقل المستدل إلي استدلال غير الذي كان آخذا فيه لكون الخصم لم يفهم وجه الدلالة من الأول، كما جاء في مناظرة الخليل للنمرود لما قال له: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:258] فقال النمرود: ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:258]، ثم دعا بمن وجب عليه القتل فأعتقه ومن لا يجب عليه فقتله، فَعلِم الخليل أنه لم يفهم معني الإحياء والإماتة، أو علم ذلك وغالط بهذا الفعل، فانتقل عليه السلام إلي استدلال لا يجد المعاند له وجهًا يتخلص به منه فقال في سورة البقرة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:258]، فبهت المعاند .

ومنها المناقضة وهي : تعليق أمر على مستحيل إشارةً إلي استحالة وقوعه كقوله تعالى في سورة الأعراف ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:40].

ومنها مجاراة الخصم ليتعثر: بأن يسلم ببعض مقدماته حيث يراد تبكيته وإلزامه كقوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم:10 - 11] فقولهم إن نحن إلا بشر مثلكم فيه اعتراف للرسل بكونهم مقصورين على البشرية، فكأنهم سلموا انتفاء الرسالة عنهم، وليس مرادًا بل

هو من مجاراة الخصم ليتعثر، فكأنهم قالوا ما ادعيتم من كوننا بشرًا حق لا ننكره، ولكن هذا لا ينافي أن يمن الله علينا بالرسالة [1] .

وإذا كانت هذه نماذج من مناهج الاستدلال في القرآن الكريم فقد بين لنا من خلالها مدى ما تتمتع به من قوة ووضوح وبيان ولا غرابة في ذلك فأصول المعرفة في الإسلام والقرآن ثلاثة :

1 – العلم العقلي القائم على الدليل والبرهان .

2 – والعلم الفطري المركز في طبائع الناس كافة .

3 –والوحي الإلهي الداعي إلي الدين والإيمان والمثل والقيم الحضارية [2] .

1 – الإمام السيوطي الإتقان في علوم القرآن ص 173 174، 175 ج2، ط عالم المعرفة ، ويراجع د / إبراهيم عبد الرحمن الجدل فينمطق القرآن ص 243، ط دار الإشاع، ويراجع د/ محمود عمارة من أجل حوار لا يفسد للرد قضية ص 38، ط 1 دار الطباعة المحمدية 1981 م .

2 – د / عبد النعم خفاجي الفكر الإسلامي بين الأصالة والتحديد ص 92، 93 ، ط دار الجبل بيروت .

المطلب التاسع
المتشابه في القرآن الكريم من بواعث التفكير العقلي

أرسل الله تعالى رسله وأنزل معهم الكتاب والميزان؛ ليقوم الناس بالقسط، ومن حكمته أن جعل من الآيات المنزلة آياتٌ محكماتٌ هُنَّ أم الكتاب وأُخر متشابهات قد يتعارض مؤداها في باديء الرأي وظاهر الأمر إذ قد يتصفح الإنسان كتاب ربه فيقع بصره على آياتٍ توهم بظواهرها التشبيه أو التجسيد، كقوله تعالى في سورة الرحمن ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:27]، وفي سورة الفتح ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الفتح:10]، وفي سورة القلم ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ [القلم:42]، وفي طه ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه:39]، وفي سورة طه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه:5]، وفي سورة القيامة ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة:23]، وفي سورة الفجر ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:22] وإذا كانت هذه الآيات توهم بظواهرها التشبيه والتجسيد فإن القارئ لها والمتأمل فيها يجد نفسه وقد أحدق به موج متلاطم من الحيرة إذا قارنها بآيات التنزيه مثل قول الحق سبحانه في سورة الشورى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى:11] وقوله تعالى في سورة طه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ١١٠﴾ [طه:110]، وفي سورة الأنعام ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام:103].

إنه بالنظر إلي هذين النوعين من الآيات يجد الإنسان نفسه أمام بحر لُجي من التساؤلات التي تثور في عقله كيف يكون لله وجه أو عين و كيف يكون له يد وساق واستواء ، ومجيء يعني الانتقال من مكان إلي مكان، وإذا كان ذلك كذلك فهل الوجه واليد والعين والساق والاستواء والمجيء وغيره على هيئة ما نراه في المحسوسات أم بكيفية متغايرة، يقول أحد

الباحثين حول هذا الموضوع : إذا كان الله لا يُرى كما ورد في كثير من آيات كتابه ولا يحس ولا يشاهد، وهو منزه عن المحسوسات والأبعاض والأجزاء كما صرحت بذلك آيات التنزيه، فكيف نفهم ما ورد من آيات متشابهة، وهل نمرها كما جاءت على ظاهرها أو نؤولها إلي معانٍ أخرى يحددها السياق والقرآن والعقل واللغة؟ وإذا كانت على ظاهرها فكيف يمكن التوفيق بينها؟ وإذا كان المراد بها غير ظاهر اللفظ فيها فهل يعني هذا أن للقرآن ظاهرا وباطنا أو أنَّ ذلك من قبيل مجازات اللغة وكناياتها ؟.

وإذا كان للقرآن ظاهرًا وباطنًا فلماذا لم يذكر القرآن هذه المعاني الباطنة مباشرة حتى لا يلتبس الأمر على الناس ؟ وإذا كان ذلك من قبيل مجازات اللغة فهل يحق لنا تأويل هذه الظواهر وإخراجها عن حقيقتها وتحديد المراد منها؟ أم يجب علينا إجراؤها على حقيقتها وظاهرها والإيمان بها دون تأويل أو تحديد؟ [1] .

كل هذه الأسئلة تتوارد على فكر الإنسان وتجود بخاطره قد أحدثتها هذه النوعية من الآيات القرآنية مما نتج عن ذلك على مر العصور اتجاهات فكرية متعددة، وكلٌّ يحاول التماس الدليل والبرهان ليدعم بهما وجهة نظره، واتجاه فكره حتى رأينا آيةً من كتاب الله تحدثنا عن تلكم المسألة، وقد نشأ عن الاختلاف حول حقيقة فهمها اتجاهات فكرية متباينة ولنقرأ معًا قول الحق سبحانه في سورة آل عمران: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾[آل عمران:7].

---

1 – قضية التأويل ص 64، ويراجع الإسلام والعقل ص 10 وكذا الأديان في القرآن الكريم ص 215، وكذا الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها ص 227 .

فمن ألزم نفسه بالوقف على لفظ الجلالة في الآية الكريمة فوض علم معرفة تأويل هذه الآيات إلي الله تعالى، ومن جعل الوقف على قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ أولى جعل المعني: أن الحق سبحانه وتعالى يعلم مراد هذه الآيات بيد أنه اختص طائفة من عباده، وهم الراسخون في العلم، فأفاض عليهم بفهم معناها والمراد من ورائها، ومن ثم كان التأويل والذي انقسم أصحابه بعد ذلك إلي مؤولة على سبيل الإجمال يصرفون الألفاظ عن ظواهرها دون تحديد المراد منها، و مؤولة على سبيل التفصيل يصرفون الآيات عن ظواهرها مع تحديد للمعاني المستكنة في بواطنها، ومن خلال هذا ندرك أن وجود المتشابه في القرآن الكريم كان له صدى وأثر في إحداث صحوة فكرية انطلقت من خلال هذه الآيات.

ومن ثم نجد الإمام الرازي يحدثنا عن فوائد انقسام الآيات القرآنية إلي محكمات ومتشابهات فيرى أن أول فائدة تُرجي من وراء ذلك تكمن في نُصرة الآيات القرآنية لأن تكون دليلا يستشهد به لدى مذاهب شتى إذ لو كانت على وتيرة واحدة في الاستدلال؛ لانصرف أصحاب الرأي عنها يقول الإمام الرازي : لو كان القرآن مُحكمًا بالكلية لما كان مُطابقًا إلا لمذهب واحد، وكان تصريحه مُبطلا لكل ما سوى المذهب وذلك يُنَفِّرُ أَرْبَابَ الْمَذَاهِبِ عن قبوله وعن النظر فيه، فالانتفاع به إنما حصل لما كان مشتملا على المحكم وعلى المتشابه، فحينئذ يطمع صاحب كل مذهب أن يجد فيه ما يقوي مذهبه وَيُؤْثِرُ مقالته، فحينئذ ينظر فيه جميع أرباب المذاهب ويجتهد في التأمل فيه كل صاحب مذهب، فإذا بالغوا في ذلك صارت المحكمات مفسرة للمتشابهات فبهذا الطريق يتخلص المبطل عن باطله ويصل إلي الحق [1] .

1 - مفاتيح الغيب جـ 4 ص 89 .

وفي بيان أن وجود الآيات القرآنية التي توهم بظواهرها التشبيه دعوة إلي إعمال العقل ونبذ التقليد يقول الإمام الرازي :إنَّ القرآن إذا كان مشتملًا على المحكم والمتشابه افتقر الناظر فيه إلي الاستعانة بدليلٍ، وحينئذ يتخلص عن ظُلمة التقليد، ويصل إلى ضياء الاستدلال والبينة، وأمَّا لو كان كله محكما لم يفتقر إلي التمسك بالدلائل العقلية فحينئذ كان يبقى في الجهل والتقليد [1] .

ويرى الإمام الزمخشري أن وجود المتشابه في القرآن الكريم إنما هو في حقيقته دعوة للتأمل والنظر إذ لو كانت كل آياته مُحكمة؛ لأغلق باب الاستدلال الذي يعرف به وجود الله وتوحيده.

يقول صاحب الكشاف: فإن قلت: فهلا كان القرآن كله محكما.

قلت: لو كان كله محكما؛ لتعلق الناس به لسهولة مأخذه، ولأعرضوا عما يحتاجون إليه من الفحص والتأمل من النظر والاستدلال ... ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذي لا يتوصل إلي معرفه الله إلا به [2]

ويرى صاحب الإتقان: أنَّ النظر والاستدلال الناشئين من وجود الآيات القرآنية المتشابهة لهو طريق من طرق العبادة إذ أن التدبر الناشئ عنهما من أعظم القرب إلي الله تعالى.

يقول الإمام السيوطي :إن المتشابه يحتاج إلي فكرة ونظر؛ ليحمل على الوجه المطابق .. والحكمة في إنزاله إنما هو الحث للعلماء على النظر الموجب للعلم بغوامضه والبحث عن دقائقه، فإن استدعاء الهمم لمعرفة ذلك من أعظم القرب [3].

1 - مفاتيح الغيب جـ 4 ص 90 .

2 - الإمام الزمخشري، الكشاف ص 338 جـ 1، ط دار الريان .

3 - الإتقان في علوم القرآن جـ 2 ص 66 .

ويرى الإمام محمد عبده: أيضًا أن وجود تلكم الآيات الموهمة للتشبيه من الوجه والعين واليد والاستواء وغير ذلك، والآيات التي تفيد وجود قدرة واختيار للإنسان، والآيات الأخرى التي تسلبها عنه؛ لدعوة إلي إعمال العقل وإمعان الفكر.

يقول الأستاذ الإمام: جاء القرآن يصف الله بصفاتٍ وإن كانت أقرب إلي التنزيه مما وصف في مخاطبة الأجيال السابقة، فمن صفات البشر ما يشاركها في الإسم أو الجنس كالقدرة والاختيار والسمع والبصر .

وعزا إليه أمورًا يوجد ما يشبهها في الإنسان كالاستواء على العرش وكالوجه واليدين، ثم أفاض في القضاء السابق، وفي الاختيار الممنوح للإنسان، وجادل المغالين من أهل الكتاب، ثم جاء بالوعد والوعيد على الحسنات والسيئات، ووكل الأمر في الثوب والعقاب إلي مشيئة الله، فاعتبار حكم العقل مع ورود أمثال هذه المتشابهات في النقل أفسح مجالًا للناظرين خصوصًا ودعوة الدين إلي الفكر في المخلوقات لم تكن محدودة بحد ولا مشروطة بشرط [1] .

هكذا يتبين لنا أن احتواء الآيات القرآنية على الظواهر التي توهم التشبيه من بواعث التفكير العقلي والتي حث عليه القرآن الكريم .

1 – الإمام محمد عبده رسالة التوحيد ص 8، ط مكتبة القاهرة ، ويراجع د/ محمد يوسف موسى القرآن والفلسفة ص 41 وما بعدها .

المطلب العاشر

العقل أساس التكليف في الإسلام والقرآن

لقد كرم القرآن الكريم الإنسان بالعديد من الأشياء التي لا تحصى ولا تتناهي، والتي من أهمها العقل تلكم النعمة الربانية التي ميز بها الخالق سبحانه وتعالى الإنسان عن سائر المخلوقات والكائنات، ولأجل النعمة الربانية كانت تبعة المسئولية التي يتعلق بها الحساب والجزاء ذلك أن الإنسان ما دام قد مُيز عن سائر المخلوقات بأداة الإدراك المتمثلة في العقل، والتي بها يفرق بين الخير والشر والحق والباطل على هدى من الشرع، فلا غرابة إذا كان العقل في الإسلام هو أساس التكليف، ولذا فسائر الكائنات التي سُلبت عنها هذه النعمة الكبرى قد رُفع عنها القلم فلا حساب ولا جزاء، ولذا أيضا فالشرع لا يوجب التكليف على الإنسان عندما يفقد عقله [1] .

ولذا نجد القرآن الكريم عند حديثه عن ذلك الإنسان الذي عطل هذه النعمة الكبرى، والتي مُيز بها عن الحيوان بأن وصفه القرآن الكريم بأنهفي مرتبة أدنى من مرتبة الحيوانات ذوات الأربع، كما ورد في سورة الأعراف : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف:179]. "وهذا حق وإلا فلما ميز الإنسان عن الحيوان بما ميز به من الحواس لها في حياته دور أسمى بكثير جدا من أمثالها في الحيوان ومن عقل به يهتدي إن شاء الله إلي الحق والرشاد [2]، وليس الأمر يقف عند هذا الحد بل إننا نجد القرآن الكريم حض على النظر والتفكر، وأمر بالتدبر والتأمل، وعاب على التقليد وأهله.

---

1 – التصوف الإسلام ص 39 .

2 – القرآن والفلسفة ص 57، ويراجع العقائد الإسلامية ص 19 ، 20 .

إن من المؤكد أن الإنسان إذا تمثل في ذهنه كل هذه الأشياء ليصبح على يقين أنه لا دين بغير عقل.

يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالي رحمه الله :لقد ربط القرآن الكريم الإيمان بحسن النظر في الكون وطول التأمل في ملكوت الله، وهناك عشرات السور مُفعمة بهذه المعاني توثق صلات المؤمنين بهذا العالم العظيم، وتحض على استجلاء غوامضه، والغوص في أسراره ومن ثم فلا دين بلا عقل كما ورد في سورة الأنفال ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[الأنفال:22] [1].

إذًا فالقرآن الكريم يحترم العقل ويقدره ويجعله مناطا للتكليف ومحورا للثواب والعقاب، ويبين لنا فضيلة الشيخ العلامة محمد متولي الشعراوي رحمه الله كيف يكون العقل مناطًا للتكليف في الإنسان فنراه يمهد لذلك بأن الإنسان بعقله يستهجن أن يسير في الطريق عُريانا وبفكره ورويته يستطيع المقارنة بين البدائل المتناقضة بخلاف الحيوان الذي يفتقد هذه القدرة على المقارنة، وليس عنده من الأشياء ما يعقل تصرفه، ونراه يضرب لهذا مثالًا مؤداه: أنَّ الحيوان بغريزته اعتاد على أكل أنواع معينة أمَّا ما سواها فإنه لا يقربها ذلك لأنه ليست له القدرة على المقارنة بين تلك البدائل، أمَّا الإنسان فإنه يقول: ما المانع أن نجرب هذه، فلربما كانت في مذاقها أحلى وأجمل " ثم يرتب فضيلته على ما تقدم أن منطقة التمييز هذه منطقة الفكر، ومنطقة الفكر هي منطقة المقارنة بين بديلاتٍ، وهذه المنطقة التي امتاز بها الإنسان هي مناط التكليف من الحق، ولذلك يشترط العقل.

---

1 - يراجع نظرات في القرآن للشيخ الغزالي ص 57، ط 6 دار الكتب الإسلامية، وكذا الإمام ابن تيمية الإيمان ص 17، تح هاشم الشاذلي، ط دار الحديث القاهرة .

فإن كان الإنسان مجنونًا نقول له: إن الآلة المُخَصِّصَةَ بين البديلات (العقل) تالفة، وعلى هذا لستَ مكلفًا، وإن كان الإنسان صغيرًا لم ينضج عقله لا يكلف أيضًا؛ لأن التكليف يتطلب عقلًا ناضجًا ليستطيع المقارنة بين البديلات [1].

ومن ثم عندما خاطب القرآن الكريم العقل بالتكليف وأبرز له الأدلة الموصلة للحق جعله موطن العقيدة وأساس الدين، كما يقول الحسن البصري: ينبوع الآداب هو العقل الذي جعله الله للدين أصلا وللدنيا عمادا [2] ولأجل وجود العقل في الإنسان كانت تلك المكانة في هذا الكون وصلته بما فيه فما الذي بوأ الإنسان هذه المكانة السامقة وفي الكون أجرامٌ أضخم منه وأكبر إنه سر القبس الذي هو فيه من نور الله، وهو نفحة من روح الله تلك النفحة التي جعلته مستعدًا للخلافة في الأرض مستعدًا لحمل الأمانة الكبرى أمانة التكليف والمسئولية تلك التي صورها القرآن الكريم حين قال في سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾[الأحزاب:72].

وإذا نظرنا إلي ما تقدم يمكن أن نقول بما أن الإنسان في منظور القرآن الكريم وشريعة الإسلام كائنٌ مكلف، وبما أن القرآن الكريم أيضًا كتاب فكر وإقناع لا يسعنا في النهاية إلا أن نردد مع الأستاذ عباس العقاد قوله :إن القرآن كتاب تبليغ وإقناع وتبيين، وقوام هذه الفضيلة فيه هذا التوافق التام بين أركانه وأحكامه وبين عقائده وعباداته وبين حجته

---

1 – داعية الإسلام فضلية الشيخ محمد متولي الشعراوي عقيدة السلم ص 13، 14، 15 ، ط مكتبة التراث الإسلامي، ويراجع د/ محمد عبد الرحمن بيصار ، المختصر في العقيدة والأخلاق ص 112، ط الأولى الأنجلو المصرية .

2 – الإمام الماوردي أدب الدنيا والدين ص 3، ط 11 القاهرة، نشر المطبعة الأدبية، ويراجع الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها ص 72 .

ومقصده فكل ركن من أركانه يتنزل فيه بأقداره ويوافق في تفصيله سائر أركانه التي تتم به أو يتم بها على قدر مبين ليس أتم ولا أعجب من التوافق بين تمييز الإنسان بالتكليف وبين خطاب العقل في هذا الكتاب المبين بكل وصف من أوصاف العقل وكل وظيفة من وظائفه في الحياة الإنسانية [1].

1 – أ / عباس محمود العقاد الإنسان في القرآن الكريم ص 19 ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

المطلب الحادي عشر

العقل والاجتهاد في القرآن الكريم

إن من مظاهر اهتمام القرآن الكريم بالعقل وإدراكه حثه له في الكثير من آياته على الاجتهاد ففتح الآفاق أمامه دون حجر أو تقييد، ولا يقلل من هذا وضع القرآن الكريم في مسألة الاجتهاد ضوابط الهدفُ من ورائها عصمة العقل والفكر من الزلل والشطط، وإذا أتينا إلي الاجتهاد لنقف على تعريفه عند علماء الأصول يتبين لنا مدى اعتماده على التفكر إذ عرفوه بأنه: الاعتماد على الفكر في استنباط الأحكام الشريعة، أو بعبارة أخرى: بذل الجهد لتحصيل حكم شرعي عملي بطريق عملي بطريق الاستنباط من الأدلة الشرعية [1] .

ومما لاشك فيه أن ذلك الجهد المبذول والمشار إليه في التعريف الثاني يعتمد في المقام الأول على العقل والفكر كما أن الاستنباط هو عمل العقل ولاشك أن الأصوليين في تعويلهم على الاستنباط الفكري إنما هم في حقيقة الأمر معبرين عن واقع القرآن الكريم وفهمهم لنصوصه التي قضت بمبدأ المشاورة، ففعل النبي صلي الله عليه وسلم وشاور أصحابه في أسرى بدر ونزل على رأي أبي بكر، وقضت عند خفاء الحكم والتنازع فيه برده إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم وإلي أولي الأمر أصحاب القدم الراسخة في العلم كذلك نرى النبي صلي الله عليه وسلم وقد أقر اجتهادات أصحابه أثناء ترحالهم فيما يعن لهم من أمور لم يقفوا على حكمها في الكتاب أو السنة ومن ثم يقول الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت :وترجع حجية الرأي في التشريع إلي أمور :

1 – التمهيد ص 138، ويراجع ش / جاد الحق على جاد الحق بيان للناس جـ1 ص 94، ط جامعة الأزهر .

أولا : تقرير مبدأ الشورى كما ورد في سورة آل عمران ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران:159] .

ثانيا: أمر القرآن برد المتنازع فيه إلي أولي الأمر وهم الذين أوتوا الفهم والحكمة وطرق الاستنباط كما ورد في سورة النساء ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[النساء:83].

ثالثا: ثبوت إقرار النبي صلي الله عليه وسلم الذين كان يبعثهم إلي الأقاليم النائية على الاجتهاد والأخذ بالرأي فيما لم يجدوا حكمه في الكتاب أو السنة [1] .

وبهذا يكون القرآن الكريم وقف يبن الناس قائمًا بالقسط فيما شجر بينهم فإذا لم يقفوا على حكمه في كتاب الله فليتفكروا ويمنعوا النظر فيه طارقين أبواب الاجتهاد لعلهم أن يتبينوا وجه الحق والصواب فيه ومن ثم نرى الإمام الشافعي يستطرد ويوضح وجوه التبيان فيما أوحاه الله إلي خلقه على ألسنة أنبيائه ورسله مُجليًا أن ثمة أمور بينها الله تعالي لعباده في كتابه المقروء، وهناك ما سنه النبي صلى الله عليه وسلم فيما روي عنه من حديثه، وهناك نوع فرضه الله تعالى على خلقه مبتليا به طاعتهم وهو الاجتهاد .

ثم نرى الإمام الشافعي بعد أن بين لنا كيف فرض القرآن الكريم الاجتهاد في طلب الأحكام وجعله من مجمل الطاعات المفروضة على الناس فرفع قدره وأقدار المشتغلين به فأخذ يستشهد على ذلك بآيات كتاب الله المتعلقة بالجهاد وباستخلاف الله للبشر في أرضه؛ لينظر كيف يعملون، وبالاختبار لتمحيص ما في صدورهم وابتلاء ما في قلوبهم، وكأن الإمام

1 – الإسلام عقيدة وشريعة ص 543، ويراجع بيان للناس ص 94، وكذا ش / الغزالي مائة سؤال عن الإسلام ص 240 ، ط دار ثابت

الشافعي يريد بهذا الاستشهاد أن يجعل الإخلاص في الاجتهاد والدأب فيه عدل للإخلاص والدأب في الجهاد ونظائره يقول الإمام الشافعي :فجماع ما أبان الله لخلقه في كتابه مما تعبدهم به لما مضي من حكمه جل ثناؤه من وجوه:

1 – فمنها ما أبانه لخلقه نصًا مثل جمل فرائضه في أنَّ عليهم صلاة وزكاة وحجًا وصومًا، وأنه حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ونص الزنا والخمر وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وبين لهم كيف فرض لهم الوضوءمع غير ذلك مما بين نصه .

2 – ومنه ما أحكم فرضه بكتابه وبين كيف هو علي لسان نبيه مثل عدد الصلاة والزكاة ووقتها وغير ذلك من فرائضه التي أنزل من كتابه .

3 –ومنه ما سن رسول الله صلي الله عليه وسلم مما ليس فيه نص حكم وقد فرض الله في كتابه طاعة رسوله صلي الله عليه وسلم، والانتهاء إلي حكمه، فمن قبل عن رسول الله فبفرض الله قبل.

4 – ومنه ما فرض الله على خلقه الاجتهاد في طلبه وابتلي طاعتهم في الاجتهاد كما ابتلي طاعتهم في غيره مما فرض عليهم، فإنه يقول تبارك وتعالى في سورة محمد: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾ [محمد:31]، وقال تعالى في سورة آل عمران ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران:154]، وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٢٩﴾ [الأعراف:129] [1] .

1- ويراجع الإمام الشافعي الرسالة ص 21، 22، 23، تح أ / أحمد محمود شاكر، ط الأولى الحلبي 1940، ويراجع القرآن والمنهج العلمي المعاصر ص 78، 79 .

ثم نرى الإمام الشافعي وهو يستطرد في الحديث عن الاستدلال على مدى حجية الاجتهاد إلي الاستشهاد بأمر القرآن للمسلمين بالتولي قِبلَ المسجد الحرام للوقوف بين يدي الحق سبحانه وتعالى، فإن كانوا ماثلين أمامه شاخصين له مشاهدة فإنهم يتجهون إليه دون بحث أو نظر أمَّا إن غابوا عنه، فليتحروا موقعه مستخدمين النجوم علامات وبها يهتدون.

يقول الإمام الشافعي: فوجههم بقبلة إلي المسجد الحرام وقال لنبيه في سورة البقرة: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة:144]، وقال تعالى في سورة البقرة﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾[البقرة:150] . فدلهم جل ثناؤه إذا غابوا عن عين المسجد الحرام على صواب الاجتهاد مما فرض عليهم منه بالعقول التي ركبها فيهم المميزة بين الأشياء و أضدادها، والعلامات التي نصب لهم دون عين المسجد الحرام الذي أمرهم بالتوجه شطره فقال في سورة الأنعام ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[الأنعام:97]، وقال في سورة النحل: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل:16]، فكانت العلامات جبالا وليلا ونهارا فيها أرواح معروفة الأسماء، وإن كانت مختلفة المهاب وشمس وقمر ونجوم معروفة المطالع والمغارب والمواضع من الفلك، ففرض عليهم الاجتهاد بالتوجه شطر المسجد الحرام مما دلهم عليه مما وصفت فكانوا ما كانوا مجتهدين غير مزايلين أمره جل ثناؤه ولم يجعل لهم إذا غاب عنهم عين المسجد الحرام أن يصلوا حيث شاءوا [1].

1 – الرسالة ص 23، 24، ويراجع الشريف التلمساني، مفتاح الأصول في بناء الفروع على الأصول ص 87، 88، تح أحمد عز الدين خلف الله، ط الأولى السعادة سنة 19 81 م .

أيضا مما يدل على حجية الاجتهاد والحث عليه قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الحشر: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾ [الحشر:2].

والاعتبار هو انتقال من الشيء إلي غيره وهذا معني القياس إذ أن القياس يكون فيه نقل حكم الأصل للفرع للاشتراك في العلة، ومن ثم نجد الإمام الآمدي يقول معلقا على الآية الكريمة ومبينا دلالتها على الاجتهاد والقياس: إن في الآية أمر بالاعتبار، والاعتبار هو الانتقال من الشيء إلي غيره وذلك متحقق في القياس حيث إن فيه نقل الحكم من الأصل إلي الفرع، ولهذا قال ابن عباس في الأسنان اعتبر حكمها بالأصابع في أن ديتها متساوية فأطلق الاعتبار وأراد به نقل حكم الأصابع إلي الأسنان، والأصل في الإطلاق الحقيقة، وإذا ثبت أن القياس مأمور به... فالأمر إما أن يكون للوجوب أو للندب وعلى كل التقديرين فالعمل بالقياس يكون مشروعا [1] .

وعلى هذا فإننا يمكن أن نقول إن القياس نوع من الاجتهاد العقلي لذا نجد القاضي البيضاوي في تعليقه على الآية الكريمة يحاول أن يبين أن مشروعية القياس للنبي صلي الله عليه وسلم، والتي تنتقل من خلاله إلي أمته هذا القياس الذي هو نوع من الاجتهاد أشق من العمل بالنص وكلما زادت المشقة زاد الثواب .

وأيضا العمل بالاجتهاد فيه بيان لصفاء الذهن وحدته وهي صفة لا يجوز أن يخلوَ النبي صلي الله عليه وسلم عنها يقول القاضي البيضاوي معقبا على الآية الكريمة من سورة الحشر: لقد كان النبي صلي الله عليه وسلم أعلى الناس بصيرة وأكثرهم اطلاعًا في شرائط القياس وما يجب وما يجوز فيكون مأمورا بالقياس؛ ولأنه صلي الله عليه وسلم إذا علم أو ظن كون

---

1 -الآمدي الإحكام في أصول الأحكام ص 219 جـ 3، ط دار الكتب العلمية بيروت .

أصل معللًا بعلة وعلم أو ظن وجودها في الفرع فلا بد أن يظن أن حكم الله تعالى في الفرع كحكمه في الأصل، فيترجح عنده كون ذلك الحكم كذلك، ولا يجوز العمل بالمرجوح فيجب عليه العمل. والحالة هذه. بالقياس.

ومنها أن العمل بالقياس أشق؛ لأن عمل بالاجتهاد وهو أشق من العمل بالنص فيكون أكثر ثوابا من العمل بالنص فيعمل به، ومنها أن العمل بالاجتهاد يظهر أثرًا لدقة الخاطرة وجودة القريحة وهي فضيلة لا يجوز خلوه صلي الله عليه وسلم منها [1] .

ومن الآيات التي تدل على حجية القياس أيضًا قول الله سبحانه وتعالى الذي قص علينا فيه مآل الفاسقين وسوء عاقبة الظالمين آمر إيانا بالعبرة القائمة على أساس من التأمل الفكري فيقول الله تعالى في سورة يوسف ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾[يوسف:111].

ومن ثم نقول في بيان وجه الاستدلال بالآية : إن الله تعالي يقول قيسوا أنفسكم بهؤلاء إنكم إن فعلتم مثلهم حل بكم ما حل بهم [2] . بل نرى بعض العلماء يبين أن وجود الآيات المتشابهة في القرآن الكريم اختلاف الفرق والمذاهب حول تأويلها من مفوضة إلي مئوله لدليل وحجة بينة على رحابة القرآن الكريم في تشريعه للاجتهاد [3] .

---

1 – القاضي البيضاوي، معراج المنهاج ص 285، 286، شرح شمس الدين بن الجزري، تح د/ شعبان إسماعيل ج 2، ط الأولى 1993 م .

2 – الشيخ الغزالي، ليس من الإسلام ص 48، ط الخامسة ، دار الكتب الإسلامية .

3 – الشيخ عبد المتعال الصعيدي، الحرية الدينية في الإسلام ص 65، ط دار الفكر العربي .

ونري ابن رشد في كتابه فصل المقال قد ساق آية الاعتبار من سورة الحشر غيرها من آيات النظر في القرآن الكريم ؛ ليدلل بهذه الآيات على مشروعية القياس في القرآن الكريم، والذي هو في الوقت ذاته نوع من أنواع البرهان.

يقول ابن رشد في تعليقه على آيات النظر في القرآن الكريم: " إذا تقرر أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها، وكان الاعتبار ليس شيئا أكثر من استنباط المجهول من المعلوم، واستخراجه منه وهذا هو القياس، فواجب أن نجعل نظرنا في الموجودات بالقياس العقلي ويتبين أن هذا النحو من النظر الذي دعا إليه الشرع وحث عليه هو أتم أنواع القياس، وهو المسمى برهانًا [1] .

والآن نرى الأمة الإسلامية وقد أحدقت بها الأخطار من كل جانب وتداعت عليها الأمم كما تتداعي الأكلة على قصعتها وصار الغزو الفكري سمة من سمات العصر الحديث فها هنا تسكب العبرات ويشتد بنا الحنين إلي تراثنا الإسلامي الذي رأينا فيه الترف العقلي في قمة صوره المتمثل في الاجتهاد فما أحوجنا أن نأخذ من الماضي عبرة فنُعمل العقل ونُطلق الفكر من عقاله محفوفا بتقنين الإسلام ليقدم لنا الأحكام فيما جد من أمور لم تكن مطروقة من قبل.

ولا تعني الدعوة بحال من الأحوال إلي فتح باب الاجتهاد أن يتجرأ كل إنسان على دين الله، وأن يقول كل إنسان في دين الله بعلم أو غير علم دون سند أو دليل .. فالاجتهاد ليس بالأمر الهين أو الشيء اليسير وإنما هو طريق طويل محفوف بالزلل والأشواك لا يقوى على السير فيه إلا الراسخون في العلم وجل أن يصل إلي نهايته إلا الواحد بعد الواحد، ولعل هذا

---

1 - فصل المقال ص 23 .

ما يشير إليه الإمام الغزالي بقولهالذي ساقه بعد أن سرد لنا آيات الاعتبار والتدبر والذي يقول فيه :فهذا كله أمر بالتدبر والاستنباط والاعتبار وليس خطابًا مع العوام فلم يبق مخاطب إلا العلماء والمقلد تارك للتدبر والاعتبار [1].

1 - الإمام الغزالي المستصفي ص 386 ج 2، ط الأولى المطبعة الأميرية ، ويراجع محمد بن نظام الدين الأنصاري فواتح الرحموت شرح ملسم الثبوت ص 246، 364 وما بعدها ، ط 1 المطبعة الأميرية ، ويراجع التفكير فريضة إسلامية ص 142 .

المطلب الثاني عشر

القرآن الكريم وتحرير العقل من الأوهام

لقد غطت أوروبا ردحا من الزمن في ثبات عميق ظلت من خلاله ترزخ تحت نَيْرِ القهر والسلطان البابوي، والحجر الفكري حتى وجدنا لسان حال أوربا يحاول أن يعلو بصوت مختنق هل من منقذ؟ هل من مخلص؟ فكان صوت العلم والعلوم صدى لذلك فوجدنا فرنسيس بيكون[1] يضع منهجا للبحث والدراسة يعتمد على تخليص العقلية الإنسانية مما ران عليها على مر العصور من أغلال الأوهام وأصفاد الخرافات بجانب الأثمال والتقاليد الفاسدة البالية مما نأى بها عن جوهرها الصافي ومعدنها الأصيل وهو يجمل تلكم الأوهام التي تراكمت على العقلية الإنسانية في أربعة أنواع هي :

أ – أوهام الجنس : وهي أوهام تعد طبعية لدي البشر بصفة عامة وتعود إلي نقص العقل الإنساني إذ يعمم حين لا يجوز التعميم، ويتوهم أشياء لا أساس لها .. فأمانينا تتحكم في اتجاه أفكارنا وبوجه خاص توقعنا أن نجد في الطبيعة ما يزيد على ما هو موجود فيها، وهكذا نميل إلي تصديق الخرافات والأساطير والتنجيم [2].

ب – أوهام الكهف : وهي أوهام ذات طبيعة فردية أوهي عبارة عن نقاط الضعف الفردية في كل شخص، فهي تتعلق إذًا بكل فرد من الأفراد على حدة، ولذلك تختلف باختلاف الأشخاص حسب البيئة والتعليم والعادات والوراثة، فبعض العقول مثلًا تنزع إلى

1 - مفكر إنجليزي ولد عام 1561 .

2 - د/ محمود حمدي زقزوق دراسات في الفلسفة الحديثة ص 49، ط دار الطباعة المحمدية 19 78، ويراجع د/ رفقي زاهر، أعلام الفلسفة الحديثة ص 17، ط دار المطبوعات الدولية 1979، ويراجع برتراندرسل تاريخ الفلسفة الغربية ص 80 ج 3، تح د/ محمد فتحي الشنيطي، ط القاهرة 1977 .

المبالغة في إظهار التشابه بين الأشياء، وبعضها يبالغ في إظهار أوجه الاختلاف بينها وبين بعضها البعض، فيميل إلي تقديم كل ما هو قديم بينما نجد البعض الآخر يأخذهم الحماس لكل ما هو مستحدث وجديد [1] .

ج- أوهام السوق : وهي أوهام ناشئة عن ميل الذهن إلي الانبهار بألفاظ براقة معينة تكون مستعملة في الحياة، وعند اجتماع الناس بعضهم ببعض كذا في الأسواق والتجارة إذ الناس يتخاطبون بواسطة اللغة التي فرضت ألفاظها على الناس، وفقا لعقلية أهل السوق والعامة حيث ينجم عن سوء تكوين هذه الألفاظ أخطاء كثيرة تؤدى إلي تعطيل شديد للعقل نفسه، وليست اللغة في حد ذاتها هي مصدر هذه الأخطاء وإنما استعمالها الخاطيء هو الذي يؤدي إلي الغموض والالتباس [2] .

ح- أوهام المسرح : وهي أوهام انحدرت إلينا من نظريات الفلاسفة القدماء والذين يفسرون الطبيعة وفقًا لتصوراتهم وما يوحيه إليهم خيالهم، ويرى بيكون في هذا أن كل مذاهب الفلاسفة التي انحدرت إلينا ليست إلا روايات مسرحية، والخطأ الذي ترتكبه الغالبية العظمي منا هو أننا نجعل هذه المسرحية أكثر حبكة، وانسجاما بل أقرب إلي ما نرغب أن تكون مما هي في الحقيقة والواقع [3] .

وإذا كان هذا جانب من المنهج الذي هلل له وكبر الكثير من الدارسين والباحثين المحدثين في ثورة عارمة من الإعجاب الشديد لما يتسم به من موضوعية لا يسعنا إلا أن نقرر

---

1 - دراسات في الفلسفة الحديثة ص 49، ويراجع أ / يوسف كرم قصة الفلسفة الحديثة ص 7، ط دار المعارف .

2 -دراسات في الفلسفة الحديثة ص 49 ، ويراجع د/ ذكي نجيب محمود، أ / أحمد أمين، قصة الفلسفة الحديثة ص 43 جـ1، ط النهضة .

3 - دراسات في الفلسفة الحديثة ص 50، ويراجع ايميل برهيه تاريخ الفلسفة في القرن السابع عشر، تح جورج طرابيش، ص 45، ط دار الطليعة .

أن القرآن الكريم كان أسبق من "فرنسيس بيكون" بمئات السنين في حديثه عن الأوهام وخطورتها في تشكيل عقل الإنسان وهذا ما سنوضحه في السطور التالية:

1 - أوهام الجنس كما نبه عليها القرآن الكريم :

لقد نبه القرآن الكريم عن الأوهام التي تعتري عقل الإنسان باعتبار جنسه إذ أشار إلي سوء الذوبان في المجتمع والخضوع لقيمه وتقاليده دون تدبر أو تفكير، كذلك جاء القرآن ليزيل ما رسخ في أذهان الناس من عصمة الأكثرية من الخطأ فنبه العقول إلي عدم صحة هذا الوهم الكبير حيث بين أن الكثرة أو القلة ليست مقياسًا صحيحا للصواب أو الخطأ؛ إذ القرآن يعول على الحق مجردًا عن الكثرة أو القلة فيما يطلبه أو ينشده، و-هذا ما يشير إليه قو ل الحق سبحانه و تعالى في سورة الأنعام ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[الأنعام:116]، وفي سورة يوسف ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف:103]، وفي سورة سبأ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾[سبأ:13] [1] .

2- أوهام الكهف كما نبه عليها القرآن الكريم :

وإذا كان القرآن الكريم قد حذر من الأخطاء التي تشيع بين الكثرة فيضل الناس بسببها نجده أيضًا وقد حذر من مصدر آخر للخطأ والزلل، وهي الأهواء الشخصية منبها الإنسان إلى أنه إذا كان الحق غرضه ومبتغاه فعليه أن يجتنب هواه معتزلًا إياه، وما تحذير القرآن من هذا إلا لأن إطاعة الأهواء من أقوى عوامل انحراف الإنسان في سلوكه والتوائه في نظره وتفكيره، وهؤلاء الذين يعيشون سَدنة ورهبانا في محراب أهوائهم لا يستقيم لهم رأي ولا يعتدل لهم ميزان، ولعل هذا ما تشير إليه الآيات القرآنية في قول الحق سبحانه وتعالى في

1 - يراجع أعلام الفلسفة ص 22 العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحيدث ص 55 .

سورة الفرقان: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان:43]، وفي سورة النساء ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء:135]، وفي سورة الجاثية ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية:23]، وفي سورة القصص ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص:50] [1]

3 – أوهام السوق كما نبه عليها القرآن الكريم :

فكما حذر القرآن الكريم من الأوهام التي يقع فيها الإنسان بسبب طبيعته وجنسه والأوهام التي تعتري الإنسان بسبب إتباعه للأهواء وغير ذلك نجده أيضا يحذرنا من نوع آخر من الأوهام وهي أوهام السوق وهي تلكم النوعية من الأخطاء التي تكتنف الإنسان بسبب البيئة و تقاليدها وعرفها إذ هي ليست حجة على اليقين، وقد تشيع في البيئة أخطاء وترسخ في أذهان الناس حتى يظنوها حقائق لا محيص عنها ولا يمكن اجتنابها، ولكن نجد القرآن الكريم يحاول أن يجنب الإنسان مهاوي هذا النوع من الأخطاء فنراه يحذره من العثرات والأخطاء التي يكون منشأها البيئة لاسيما إذا كانت بيئة غوغائية غير علمية فيقول الحق سبحانه وتعالى في سورة الجاثية: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية:18] [2] .

---

1 – ويراجع أعلام الفلسفة ص 23، العقيدة الإسلامية ص 55 التصوف الإسلامي ص 36، 37، طبقية المجتمع الأوربي ص 41 اهتمام الخطاب القرآن ص 573، مستقبل الحضارة ص 56، القرآن والمنهج العقلي ص 47، 48 .

2 – يراجع أعلام الفلسفة ص 23، والعقيدة الإسلامية ص 55 .

4 – أوهام المسرح كما نبه عليها القرآن الكريم :

إن القرآن الكريم بعد أن نبهنا على تلكم الأوهام السابقة نراه يحذرنا من نوع آخر من الأوهام الناشئة من التبعية المطلقة للعظماء والآباء والأجداد والمشاهير، والذين يعكف الناس على كلامهم وما كانوا عليه سجدًا وقيامًا دون قبول لرأي أو مناقشة وجدل في فعل متذرعين بما يمتلكه الكبار من قدرة على زنة الأمور أكثر ممن لم تنهكهم الحياة بتجاربها، وأن القدماء في نظرهم أحكم من المحدثين، والمشاهير أوثق من الخاملين بيد أننا نجد القرآن الكريم حافلًا بالآيات التي تبطل هذا الزعم وتؤكد على أن ذيوع الذكر أو كبر السن أو قدم العهد ليس حجة على اليقين؛ إذ الآباء قد يخطئون والأسلاف قد يذلون وقد جاء في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة:170]. كذلك يعبر القرآن الكريم عن الأسف والحسرة اللذان يكتنفان من ألغوا عقولهم وأسلموا أذمتهم لغيرهم من السادة والكبراء إذ أنهم قد خدعوا وضللوا بإتباعهم إياهم على غير هدى وبصيرة، ولكنهم لا يكتشفون ما وقعوا فيه إلا في الموقف العصيب بين يدي الله عز وجل فيندمون " ولات حين ساعة مندم"، كما جاء في سورة الأحزاب ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ٦٨﴾ [الأحزاب:67 - 68]، وفي سورة غافر ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ٤٨﴾ [غافر:47 - 48]، وفي سورة الفرقان ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ

يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾﴾[الفرقان:27 : 29].

هذا هو جانب من حديث القرآن الكريم عن منهجه في تحرير العقل الإنساني وتخليصه من ربقة أوهامه ذلك المنهج الذي يسير جنبا إلي جنب مع الدعوة الصريحة إلي التجرد للحق وحده، والحق فقط دون سواه كما جاء في سورة سبأ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ [سبأ:46] هذه الآية نراها وقد عبرت عن دعوة القرآن ومنهجه بأن الفلاح أن يقوموا لله صادقين، ويتجردوا من كل مؤثر أو أنانية، وأن يحاسب الفرد نفسه ويكاشف سريرته، وبهذا سوف يسمع في النهاية النداء الحق الأمين ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾.

نضع هذا في أذهاننا مع اليقين الكامل بأن القرآن الكريم من قبل ومنبعد كتاب هداية ورشاد. وينبغي أن نعلم في النهاية أن العقل في عصر النهضة وقيامه بعد ركوده تعقدت العلاقة بين الدين والعلم، بسبب تدخل العقل في أمور خارج نطاقه.

المطلب الثالث عشر

العقل أحد الكليات التي حافظ عليها القرآن الكريم

لأجل منزلة العقل في القرآن الكريم كانت المحافظة عليه فجعله الشارع أحد الكليات التي يجب أن تكون بمنأى عن الضرر والعبث فجعله الشرع في بوتقة واحدة مع حفظ الدين.

والمحافظة على العقل في القرآن الكريم لم تقف عند حد تحريم ما يضر العقل فحسب، بل تمثل ذلك أيضا في إعطائه حرية فكرية مع نبذ الحجر عليه، ولأجل هذا كان ذلك النقد اللاذع لمن سلب عقله هذه الحرية بأن غطاه بغطاء التقليد، فوصفه القرآن الكريم بأنه في مرتبة أدنى من مرتبة الأنعام إن لم يكن أضل سبيلا.

وأيضًا نجد القرآن الكريم والشريعة الإسلامية أعدّت الحدود لمن اعتدى على العقل، فمن غيبه بخمر كان له حد الشرب ومن أذهبه بجناية كانت الدية كاملة، وفي مجال الطاعة والعبادة أيضًا كانت المحافظة على العقل، فيدخل الإنسان في صلاته ويخرج منها وليس له من الثواب إلا ما عقل منها يقول صاحب تحفة المريد عن أهمية العقل من حيث كونه أحد الكليات التي حافظ عليها الإسلام : والكليات خمس [1] : حفظ الدين وهو آكد الأمور؛ لأن حفظ غيره وسيلة لحفظه، ثم النفس ... ثم النسب ثم العقل، وبعضهم قدم العقل

---

1 – بعض العلماء جعل الكليات ست بأن فصل العرض عن النسب .

على النسب :ثم مال .. والعقل مثل المذكورات في وجوب الحفظ ولحفظه شرع حد شرب الخمر والدية لمن أذهبه بجناية [1] .

ولأجل المحافظة على العقل كان التشريع الإلهي في تحريم الخمر ووضعها في مرتبة واحدة مع تحريم عبادة الأوثان التي تعني شركا بالله كما ورد في سورة المائدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾[المائدة:90 - 91] . يقول الإمام الرازي في جانب من تعليقه على هذه الآية الكريمة متحدثا عن الحكمة في تحريمها : إن الخمر تزيل العقل وإذا زال العقل استولت الشهوة والغضب من غير مدافعة العقل [2] .

ولا يقف الإسلام في حفظه للعقل كأحد الضروريات التي أمر بالاعتناء بها عند حد تحريمه للخمر أن يقربها الإنسان فحسب بل نراه يحافظ عليه، ويعتني به بأشياء أخري منها صقل العقل خلال مراحل الدراسة المتتابعة وصقله أيضا بالحفاظ على سلامة الحواس وعافية البدن ويحفظه أيضًا بازدراء المسكرات والمخدرات والمقترات التي تنال من وعي الإنسان وكرامته ويحفظ قبل ذلك وبعده باستلهام الرشد واستمداد النور منه سبحانه [3] .

---

1 – الشيخ إبراهيم البيجوري تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص 241، 242، ط الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية ويراجع د/ يحيي هاشم الفكر الإسلامي في مواجهة التيارات الفكرية المعاصرة ص 111، ط الأولى 1986 م الجبلاوي .

2 – مفاتيح الغيب ص 129 .

3 – يراجع الشيخ الغزالي، مائة سؤال عن الإسلام ص 137، وكذا أثر الإسلام في بناء المجتمع الفاضل ص 88 .

هذا هو جانب من حديث القرآن الكريم عن العقل ومنزلته حديث متسم بالموضوعية في ماديته والسهولة والعمق في أسلوبه فيه حث للعقل بالنظر والتدبر ونعيٌ عليه بالتقليد والتأخر وتأسيس لليقين، ونهي عن الظن مقرون بالتدبر في آي القرآن ومشتمل على قضايا الفكر في حديثه عن الله والعالم والإنسان مدعمًا كل ذلك بالحقائق الكونية والعلمية ومجادلا لمن خالفهم في العقيدة وما يتعلق بها بالحكمة والموعظة الحسنة متنوعا في سبيل إثبات ذلك في طرائق الاستدلال .

و قد جعل الشرع العقل أساسًا للتكليف مفسحا أمامه باب الاجتهاد محررا إياه من ربقة الخرافة والأوهام، محافظًا عليه حفاظه على النفس والدين، فأين دعاة التعصب الديني والجنسي من مفكري الغرب ومتعالميه الذين صدعوا رؤوس العالم بافتراءاتهم الزائفة على الإسلام بزعمهم أن القرآن يعوق النظر العقلي الحر ... وأن حزب أهل السنة قد أعاق التفكير في البيئة الإسلامية لتمسكه بالنصوص القرآنية [1] .

فوالله ما قرئوا القرآن عن هدى وبصيرة إذ لو تدبروه لفهموا معانية وأدركوا مراميه فتخبت له قلوبهم ولأدركوا منه تلكم الحقائق السابقة التي لا يماري فيها إلا كل جاحد كفور، وإني لأدعوهم و أدعوا غيرهم إلي أن يتوجهوا إلي آيات مثل وجهتي فسينتهون إلي ما انتهيت إليه مرددين ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [2] .

1 – يراجع أقوال هؤلاء المستشرقين في الكتب التالية تمهيد لتاريخ الفلسفة ص 5 وما بعدها ، أرنست ريحان، ابن رشد والرشدية ص 10، تح أ / عادل زعيتر، ط دار إحياء الكتاب العربي ص 49048، ط 4 لجنة التأليف والترجمة والنشر .

2 – الحاقة 19 .

الباب الأول
الإلهيات في القرآن الكريم
أنماط و نماذج

الفصل الأول:
الدلائل العقلية على الوجود الإلهي

تمهيد

الوجود [1] الإلهي ومدى احتياجه إلى دليل

لقد اختلف العلماء والباحثون حول هذه القضية فمن قائل إن معرفة الله سبحانه وتعالى أمر مركوز في الفطرة الإنسانية، ومن ثم فهي من الظهور والجلاء بحيث لا تحتاج إلي دليل؛ إذ كيف يلتمس الدليل على من هو دليل علي كل شيء .

ثم رأينا فريقًا آخر من العلماء والباحثين يُخالف هذا الاتجاه قائلًا إن مسألة الوجود الإلهي أمر يحتاج إلي برهان يدل عليه معللين لذلك: بأنه لا يستقيم عند صاحب العقل المستقيم أن ندع الشكاك والملحدين، ومن اتخذوا الطبيعة إلها من دون الله إياها يعبدون ولها يسجدون، فهل نترك كل هؤلاء وأولئك دون أن نردهم عن غيّهم، ونبين لهم فساد معتقدهم، ومن ثم كان الاختلاف حول هذه القضية، والآن نعرض لآراء كلا الفريقين بشيء من التفصيل، ثم نشفعه بتعقيب من خلال القرآن الكريم حول هذه المسألة .

أولا :رأي القائلين باستغناء الوجود الإلهي عن الدليل :

لقد ذهب فريق من الباحثين إلي أن مسألة الوجود الإلهي لا يجوز أن تكرون موضعًا للبحث والاستدلال، لأنها مُستكنة في الفطرة البشرية ولأنها أيضًا لم تكن أبدًا مقصدا من مقاصد القرآن الكريم إذ أن القرآن الكريم أتي ليورد البراهين على عقيدة التوحيد لا على عقيدة الوجود، ويتساءل هذا الفريق من الباحثين في نبرة يكسوها التعجب كيف يطلب الدليل على من هو دليل على شيء، فهو أعرف من كل شيء وأظهر من كل شيء.

1 – الوجود صفة نفسية ثبوتية يدل الوصف بها على نفس الذات دون معنى زائد على الذات .

يقول ابن القيم :إن الله هو الدليل بنفسه على نفسه... فكيف أطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء، فأي دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه؛ إذ هو أعرف من كل معروف وأبين من كل دليل فالأشياء عرفت به في الحقيقة[1] .

ويقول في موضع آخر مبينًا أن دلالة الخالق على المخلوقات والصانع علي المصنوع أظهر من دلالة الخلق على الخالق والصنعة على الصانع: إن إنكار صانع العالم وجحده في العقول والفطرة بمنزلة إنكار العلم وجحده لا فرق بينهما، بل دلالة الخالق على المخلوق والفعال على الفعل والصانع على أحوال المصنوع عند العقول الذكية .. والفطر الصحيحة أظهر من العكس .. وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية قدس الله روحه: يقول كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت

وليس يصح في الأذهان شيء .. إذا احتاج النهار إلي دليل [2]

والواقع أن إيثار الإمام ابن القيم لدلالة الخالق على المخلوق بدلا من دلالة الخلق على الخالق أمر وإن كان يُعتمد كطريق يمكن به إثبات الوجود الإلهي إلا أننا لا نسلم له بهذا على طول الخط، وإن شاء الله سنبين وجهه النظر حول هذه القضية في موضع لاحق .

ولعل ابن القيم في نصه السابق يشير إلى ما ذكره ابن تيمية حول هذا الموضوع في كتابيه: "مجموعة الرسائل، وموافقة صريح المعقول لصحيح المنقول"، إذ يبين في مجموعة الرسائل أن معرفة الله تعالى مودعة في الفطرة الإنسانية، فنجده يصدر كلامه عن هذا الموضوع بقول الحق سبحانه وتعالى من سورة البقرة: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾[البقرة:74].

---

1 – الفوائد ص 23 .

2 –ابن قيم الجوزية مدارج السالكين جـ1 ص 60 ، ط دار البيان العربي .

وبعد أن يسوق ابن تيمية هذه الآية الكريم نراه يقيس حالة الإنسان في معرفته لربه على حال الحجارة الصماء إذ أن الحجارة الصماء قد هتفت بمعرفة ربها وخالقها حيث فطرت عليها أفلا يكون الإنسان الذي هو أشرف ما في الوجود قد فطر أيضا على معرفة ربه وخالقه!!

فيقول ابن تيمية: "والمقصود أنه إذا كانت هذه الجمادات، قد فطرت على معرفة ربها وتسبيحه وتنزيهه، والإنسان أشرف منها فلأن يفطر على معرفته بربه بطريق الأولي والأحرى لِمَا ركب الله فيه من العقل والتمييز والفطنة لاسيما وقد نطق الكتاب والسنة بأنه فطره على الإسلام (1) .

أما نطق القرآن الكريم بأن الإنسان فطر على الإسلام فقد تمثل في قول الله عز وجل في سورة الروم ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[الروم:30]. أما حديث السنة عن هذه الفطرة فقد تمثل في قول النبي صلي الله عليه وسلم: " مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ، ثُمَّ يَقُولُ: فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ" (2).

1- الإمام ابن تيمية مجموعة الرسائل الكبرى ص 140 ج1 ، ط صبيح، ويراجع د/ عبد المعبود سالم أسس العقيدة من القرآن الكريم ص 108، ط الأمانة 1990م .

2 أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير باب لا تبديل لخلق الله لدين الله خلق الأولين دين الأولين والفطرة والإسلام ص 8 ص 512، ط دار المعرفة ، وأخرجه البخاري أيضا في صحيحه كتاب القدر باب الله أعلم بما كانوا عامين ص 11، ص 493، ط دار المعرفة، وأخرجه البخاري أيضا في صحيحه كتاب القدر باب معني كل مولود يولد على الفطرةوحكم موتى أطفال الكفار وأطفال المسلمين ج16 ص207 ، 208، ط المطبعة المصرية ، وأخرجه

ويبين الإمام الغزالي أن الحق سبحانه وتعالى هو أجلى ما في الوجود إذ لا يوجد من هو أظهر منه، ومن ثم سبقت معرفته إلي العقول والأفهام يقول الإمام الغزالي : اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى وهذا يقتضي أن تكون معرفته أولي المعارف وأسبقها إلي الأفهام وأسهلها على العقول (1) .

ولأجل هذه المعرفة الفطرية التي حوتها النفس الإنسانية نجد سيدي ابن عطاء الله السكندري :في حكمه يتساءل متعجبًا كيف يطلب الدليل على من احتاج الوجود إليه وقام به، فمتي غرب أو غاب حتى يلتمس برهان به يستدل عليه يقول سيدي ابن عطاء الله رضي الله عنه : إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل لك ... منك أطلب الوصول إليك، وبك أستدل عليك ... (2) .

وإذا كان الوجود الإلهي عند هذا الفريق من العلماء في غنى عن البرهنة والاستدلال هنا تتدافع الأسئلة في ذهن الإنسان إذا كان إثبات الوجود ليس مقصدًا للأنبياء من وراء دعوتهم إذا فما هو مقصدهم وغايتهم وما توجيه دلالة الآيات القرآنية التي تُنبئ عن وجود الله في كتابه ؟

البيهقي في السنن الكبرى كتاب اللقطة باب الولد يتبع أبويه في الكفر فإذا أسلم أحدهما تبعه الولد في الإسلام جـ 6 ص 302، 203، ط المعرفة ، أخرجه أحمد في مسنده جـ 2 ، ص 346، 347، ط المكتب الإسلامي .

1 – الإمام الغزالي إحياء علوم الدين ص 294 جـ 3، ط الدار البيضاء .

2 –ابن عطاء الله السكندري الحكم ص 320 ، 323، تح د/ عبد الحليم محمود، د/ محمود بن الشريف، ط دار الشعب .

يجيب الإمام الشعراني :عن التساؤل الأول بقوله :لم يأت الأنبياء والرسل ليعلِمونا بوجود الصانع وإنما أتوا ليدعوننا إلي التوحيد قال تعالى في سورة محمد: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:19]، والخلق إنما أشركوا بعد الاعتراف بالموجود لما اعتقدوه من الشركاء لله تعالى، أو لنفي واجب من صفاته أو لإثبات مستحيل منها أو لإنكارهم النبوات [1] .

ولعل الاعتراف الذي أشار إليه الإمام الشعراني هو المتمثل في العهد والميثاق الذي أخذه الحق سبحانه وتعالى على الأرواح في عالم الذر والذي عبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ ﴾[الأعراف:172] .

وأما السؤال الثاني :وهو توجيه دلالات الآيات التي تنبئ عن الوجود الإلهي، فإن الدكتور عبد الحليم محمود- رحمه الله – يرى أن رسول الله صلي الله عليه وسلم لم يبدأ دعوته بإثبات الوجود الإلهي، وإنما بدأها بالبرهنة على صدقه ذلك أن مسألة الوجود الإلهي من المسائل البدَهية التي لا ينبغي للمؤمن أن يضعها موضع البحث والدراسة، ومن فعل هذا ففي إيمانه شك أو دخل .

أما الآيات التي تتحدث عن وجود الله فمردها إلي بيان عظمة الله تعالى وقدرته وهيمنته على العالم يقول الدكتور عبد الحليم محمود: والواقع أنه حين بدأ الرسول صلي الله عليه وسلم، الجهر بدعوته بعد نحو ثلاث سنوات من الإسرار بها، فإن صلوات الله وسلامه عليه لم يبدأ بإثبات وجود الله، وإنما بدأ بالبرهنة على صدقه هو ...ومضى القرن الأول كله ولم

---

1 – الإمام الشعراني، اليواقيت والجواهر ص 53، ويراجع د/ محمود مزروعة وآخرون، دراسات في العقيدة الإسلامية ص 48، ط جامعة الأزهر، وكذا د/ محمد ربيع جوهري، عقيدتنا ج 1 ص 64، ط الثالثة 1997 .

يحاول إنسان قط أن يتحدث حديثًا عابرًا أو مستفيضًا عن إثبات وجود الله تعالى، ومضي أكثر القرن الثاني والمسألة فيما يتعلق بوجود الله لا توضع موضع البحث ذلك أن وجود الله إنما هو أمر بدهي لا ينبغي أن يتحدث فيه المؤمنون نفيًا أو إثباتًا ولا سلبًا أو إيجابًا. إن وجود الله من القضايا المسلمة التي لا توضع في الأوساط الدينية موضع البحث؛ لأنها فطرية، وإنَّ كل شخص يحاول وضعها موضع البحث إنما هو شخص في إيمانه دخل وفي دينه انحراف فما خفي الله قط حتى يحتاج إلى أن يثبته البشر تعالي الله عن ذلك علوًا كبيرًا ومن المعروف أن الدين الإسلامي لم يجئ لإثبات وجود الله وإنما جاء لإثبات توحيد الله ...أما الآيات الكثيرة التي يظن بعض الناس أنها نزلت لإثبات الوجود فليس من ذلك في قليل أو كثير إنها تبين عظمة الله وجلاله وكبرياءه وهيمنته الكاملة على العالم ما عظم من أمره ودق منه [1].

والواقع أن فضيلة الإمام الأكبر د/ عبد الحليم محمود رحمه الله في نصه السابق قد عبر عن رأيه كغيره حول هذه المسألة، ولنا أن نقول إن مسألة الوجود الإلهي وضعت موضع التدليل قبل الإسلام وبعده، وإلا فعلام يحمل قول قس بن ساعده الآيادي -وهو أحد الحنفاء- : البعرة تدل علي البعير، والقدم يدل على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير، وعلام تحمل أيضا محاجات القرآن الكريم مع من أنكر وجود الله وقال بالطبع المحيي والدهر المفني، وعلام تحمل آيات الخلق في القرآن الكريم وما أكثرها [2].

1 - الإسلام والعقل ص 96، 97، ويراجع د / عبد الحليم محمود القرآن في شهر القرآن ص 147، ط دار المعارف، ويراجع مائة سؤال عن الإسلام ص 174 .

2 - سنتعرض بمشيئة الله تعالى لبيان أدلة وجود الله في القرآن الكريم ومنها دليل الخلق وغيره في موضع لاحق .

وعلام نحمل قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الطور: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور:35] .

وفي نهاية الحديث عن أصحاب هذا الاتجاه ننبه إلى أنهم قد استدلوا على مذهبهم بآيات كثيرة منها قوله تعالى في سورة الزمر : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر:38] و قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف:9] .

ولعل من أقوى الأدلة التي يتمسك بها أصحاب هذا الاتجاه قوله تعالى من سورة إبراهيم ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:10]. هذا هو رأي الطائفة الأولي القائلين باستغناء الوجود الإلهي عن الدليل وذلك لظهوره وبداهته.

ثانيا : رأي القائلين بإقامة الدليل على وجود الله تعالى

إذا كنا فيما تقدم قد اطلعنا على جانب من حديث القائلين بعدم احتياج الوجود الإلهي إلى البرهان والدليل، فإننا نجد على النقيض من هذا المذهب مذهبًا آخر دعا إلي التماس الدليل على وجود الله تعالى ونرى الإمام الرازي وهو يقف على رأس أصحاب هذا المذهب حيث يشرع في استخدام قياس الأولي في التدليل والبرهنة على وجهة نظره حيال هذه القضية منطلقًا من قول الحق سبحانه وتعالى في سورة النساء: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:82]، ووجه الاستدلال في هذه الآية كما يقول الإمام الرازي : دلت الآية على وجوب النظر والاستدلال وعلى القول بفساد التقليد؛ لأنه

تعالى أمر المنافقين بالاستدلال بهذا الدليل على صحة نبوته وإذا كان لابد في صحة نبوته من الاستدلال، فبأن يحتاج في معرفة ذات الله وصفته إلى الاستدلال كان أولى [1] .

وبعد أن بين لنا الإمام الرازي وجهة نظره في مدى احتياج الوجود الإلهي إلي الدليل، وذلك قياسا على احتياج التصديق بدعوى النبوة البرهان والحجة نري أيضا الإمام الزمخشري له رأي مشابه للكلام السابق ذكره حول هذه المسألة، وإن كان يورد على رأيه دليلًا يختلف مع ما أورده الإمام الرازي، وهذا الدليل ينطلق فيه من تبرير وجود الآيات المتشابهة في القرآن الكريم وكيف أن فيها دعوة للنظر والاستدلال إذ لو كان القرآن الكريم كله محكما لأغلق بذلك الطريق الذي به يتوصل إلى معرفة الله تعالى.

يقول الإمام الزمخشري: لو كان القرآن كله محكما لتعلق الناس به لسهولة مأخذه ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلي الفحص والتأمل من النظر والاستدلال ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذي لا يتوصل إلي معرفة الله وتوحيده إلا به [2] .

ولعلنا لاحظنا أن الإمام الزمخشري قد عول على النظر والاستدلال في مجال معرفة الله وتوحيده، ولعل هذا يتمشى مع ما عرف عن مذهب الاعتزال والذي هو من أئمته وأعلامه، و إن كنا نقر الإمام الزمخشري في وجهة نظره السابقة بالنسبة لمعرفة الله، فإننا نقول بالنسبة لتوحيده إنه يجوز التمسك بالدلائل النقلية في إثبات الوحدانية؛ لعدم توقفها عليها فلا يلزم الدور الذي كان يمكن أن يوجد إذا عول عليها بالنسبة لمعرفة الله تعالى هذا من جانب .

1 – مفاتيح الغيب جـ 5 ص 334 .

2 –الكشاف جـ 1 ص 338 .

ومن جانب آخر نجد الإمام الزمخشري وكأنه بكلامه السابق يعرض بطائفة الحشوية الذين تمسكوا بدليل السمع كطريق لا يثبت الوجود الإلهي إلا به، ومن ثم وقفوا موقف الإنكار من دلائل العقل بالنسبة لمسألة الوجود .

وبعد أن عرفنا رأي الإمام الزمخشري في هذه القضية يترآى لنا في الأفق أدلة أخرى تمسك وتشبث بها أصحاب هذا الاتجاه، فنجدهم يأخذون من محاجات موسى عليه السلام لفرعون حول إثبات الذات الإلهية دليلًا وبرهانا به يعضدون منحاهم إذ أنه حينما أرسل الله تعالى كليمه لفرعون مبشرًا ونذيرًا داعيا إياه إلى الهدى ودين الحق ما كان منه إلا أن أصر واستكبر، ثم سأله في عناد عن رب العالمين فلم يكله موسى عليه السلام لفطرته، بل قارعه الحجة بالحجة والسؤال بالدليل قائلًا له كما حكت سورة طه: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه:50]، وقال له أيضا كما بينت سورة الشعراء: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء:24] .

ومن ثم يقول شارح الخريدة لما كان سؤال موسى عليه السلام عن الله وحقيقته حيث قال له فرعون في سورة الشعراء ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:23]. كان الجواب من موسى بذكر صفاته حيث قال: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء:24]. تنبيها على أن ذاته تعالى لا تعلم إلا بذكر أوصافه وآثاره من الخلق والإيجاد وما أبدعه من نظام محكم في هذا الكون من أرض وسماوات وما بينهما [1] .

---

1 – د/ مبارك حسين إسماعيل علم التوحيد في ضوء العقل والنقل ص 169، 186 ، ط الثانية مطبعة مادة الحديثة سنة 1995، ويراجع شمس الدين الأصفهاني، شرح مطالع الأنظار على طوالع الأنوار ص 155، 156، ط الأولى مصر، كذا الشيخ أحمد الدردير حاشية الصاوي على شرح الخريدة ص 27، ط حجازي .

ومن ثم نعلم أن أصحاب هذا الاتجاه يستدلون بالآثار على المؤثر والصنعة على الصانع خلافًا لأصحاب الاتجاه الأول الذين يجعلون الله تعالى دليلا على كل شيء، وهذا طريق لا يستطيعه كل إنسان، فالطريق إلى معرفة الله عن طريق آياته وآثاره التي تدل عليه طريق صحيح يستدل به على وجود الخالق جل وعلا، والعقل والعلم والفكر شروط أساسية لسالك هذا الطريق.

ولكنا نقول إنه ليس هو الطريق الأوحد لمعرفة الله تعالى إذ أن هناك طُرقا أخرى بها يعرف سبحانه وتعالى غاية الأمر أنها ليست بابا يلجه كل إنسان، فحصرها في هذا الباب فقط ليس منضبطًا.

وقد ناقش الدكتور سليمان خميس أصحاب الاتجاه الأول فيما ذهبوا إليه من أن مسألة الوجود الإلهي ينبغي أن لا تكون موضعا للبحث والاستدلال، وأنها ليست هدفا من أهداف القرآن الكريم، وأن من طرق بابها ففي إيمانه شك ودخل وذلك من خلال النقاط التالية :

1 - نعترف أن الإسلام دين الفطرة وأن كل مولود يولد على الفطرة، لكن في نفس الوقت يجب أن نعترف أن هذه الفطرة قد تنحرف بفعل البيئة والتقاليد حيث إنه لا يخلو عصر من العصور من الملاحدة والمنحرفين. ينطبق هذا على العصر الحديث كما ينطبق على العصر القديم، وقديمًا أنكر الدهريون وجود الله تعالي كما أنكر ذلك السفسطائيون قديما وحديثا .

2 - إن القرآن الكريم يُحدثنا عن قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم قد شككوا في وجود الله فما كان من رسلهم إلا أن قالوا لهم كما حكى القرآن الكريم في سورة إبراهيم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾[إبراهيم:10] فأنكرت الرسل وقوع الشك في الله تعالى من جانب هؤلاء

الأقوام ... ثم أعقبوا ذلك الإنكار بما يوجبه من الشواهد الدالة على وجوده تعالى، فقالوا كما حكى القرآن الكريم: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾. أي مبدعهما على نظام عجيب شاهد بوجود المبدع الجليل .

3 – إن القرآن الكريم من خلال آياته نراه وقد عرض لهذه القضية وجعلها هدفًا من أهدافه فقال في سورة الطور: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥﴾[الطور:35]. أي أَأُبدعوا هذا الإبداع من غير محدث أم هم الذين أحدثوا أنفسهم وهذا استدلال على وجود المبدع الخالق .

4 – إننا لا نسلم أن متناول مسألة الوجود الإلهي بالبحث والدراسة يعتريه الدخل في إيمانه والانحراف في عقيدته والشك في دينه ذلك أن المؤمنين المتدينين قد وضعوا هذه المسألة موضع البحث عبر القرون الطويلة قديما وحديثا، وما كان ذلك نابعًا من شك أو ريبة في الذات العلية، وإنما تناولوا هذه المسألة بالبحث والدراسة؛ ليدفعوا شكوك الشاكين ورَيب المرتابين .

5– إن منهج إثبات وجود الله تعالى بالبراهين العقلية منهج قرآني اتبعه المسلمون ما دام محكوما بنصوص القرآن ومبادئه العامة [1].

ومن ثم نري ابن رشد في كتابه "مناهج الأدلة" يبين أن الدلائل العقلية دلائل تعتمد في طريق إثبات وجود الله تعالى وهذا نص عليه القرآن الكريم في آياته وطبقه بصورة عملية في دلائله يقول ابن رشد في رده على طائفة الحشوية الذين تمسكوا بدليل السمع كطريق به يستدل على وجود الله : "أما الفرقة التي تدعى بالحشوية فإنهم قالوا إن طريق معرفة الله

1 – يراجع د/ سليمان خميس نحو عقيدة قرينية ص 47، 48، ط الأولى دار الطباعة المحمدية 1969 .

تعالى هو السمع لا العقل أعني أن الإيمان بوجوده الذي كلف الناس التصديق به يكفي فيه أن يُتلقى من صاحب الشرع ويؤمن به إيمانًا كما يتلقي منه أحوال المعاد، وغير ذلك مما لا دخل للعقل فيه وهذه الفرقة الضالة الظاهر من أمرها أنها مقصرة عن مقصود الشرع في الطريق التي نصبها للجميع مُفضية إلي معرفة وجود الله تعالى، ودعاهم من قبلها إلي الإقرار به، وذلك أنه يظهر من غير آية من كتاب الله تعالى أنه دعى الناس فيها إلى التصديق بوجود الباري سبحانه بأدلة عقلية منصوص عليها فيها" (1) .

وإن كان ابن رشد قد رد على الحشوية تمسكهم بدلالة السمع في معرفة الله تعالى إلا أنه فاته أن يبين ما يترتب على التمسك بتلك الدلالة من دور فاسد، حيث يتعين على كلامهم معرفة الله عن طريق السمع في حين أن السمع لا وجود له إلا من قبل الله، فهو يتوقف على الوجود الإلهي، وهذا دور ظاهر الفساد، ومن ثم يمكن الرد على هذه الطائفة من خلاله .

هكذا وقفنا على وجهتي نظرِ كلا الفريقين حول احتياج الوجود الإلهي إلي التدليل، والآن هيا بنا لنحتكم إلي القرآن ذاته في هذه القضية .

الرأي القرآني حول هذه القضية :

إذا كان العلماء و الباحثون قد اختلفوا فيما بينهم حول مدى احتياج الوجود الإلهي إلي الدليل والبرهان، فإننا نجد القرآن الكريم قد عمد إلي هذه القضية مُعالجًا إياها بما عهد عنه من موضوعية وعقلانية في حديث عذب ميسر محبب للأسماع والأفهام، فالقرآن الكريم يبين لنا أن ثمة صنف من الناس صَفت فطرته، وعرف نور ربه فيها ومن ثم خاطبه بقوله: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم:10]. بيد أنه وجد صنف آخر استحب العمى على الهدى وتنكر

1 – ابن رشد مناهج الأدلة ص 135 د/ محمود قاسم، ط الثالثة الأنجلو 1969، ويراجع محاضرات في مناهج البحث ص 55، وكذا أسس العقيدة في القرآن الكريم ص 40، 41 .

لفطرته وما أودعه الله فيها من معرفته، هذا الصنف الذي هذا شأنه هل من المستساغ أن نقول له سل الفطرة وحسب، والله ما كان القرآن ليرضى بهذا وهو كتاب العقل والنظر السليم، بل الذي يرضى به أن نقارعه الحجة بالحجة والدليل بالدليل، ومن ثم كان قوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. وبهذا وقف القرآن الكريم من الفريقين موقف الحياد موفقًا بينهما في يسر وسهولة وعقلانية، ومن ثم " فلا تعارض بين إثبات فطرية وجود الله وبين إثبات الأدلة على وجوده فوجود الله يكون فطري حين تكون النفوس سليمة والأذهان صافية خالية من مبررات الانحراف، وحين تنحرف الفطرة نلجأ إلي الاستدلال لعل النفوس المريضة الغافلة تتذكر ما أقرت به سابقًا " [1].

ونجد أرباب التفسير يطبقون المعنى السابق بصورة عملية على الآية الكريمة من سورة إبراهيم ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[إبراهيم:10]، فيقول الإمام الرازي في تعلقيه على قوله تعالى (أفي الله شك):" استفهام على سبيل الإنكار؛ لأن وجوده تعالى لا يحتمل الشك؛ إذ الفطرة شاهدة بوجود الصانع المختار أما من عميت فطرته فقد أردف الله له الدلالة الدالة على وجود الصانع المختار وهو قوله: (فاطر السماوات والأرض) [2] .

ويرى صاحب روح المعاني أنَّ وجود الله أظهر من كل ظاهر، ومَنْ شك في ذلك= فلييمم وجه شطر كتاب الله المنشور؛ ليرى جمال الصنع وإبداع الخلق، فقال رحمه الله :أأنتم في شك مريب من الله سبحانه وتعالى، وهو أظهر من كل ظاهر، وأجلى من كل جلي حتى

---

1 – العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث ص 80، ويراجع عقيدة المسلم ص 34، شخصية المسلم ص 10 .

2 – مفاتيح الغيب ص 9، ص 297 .

تكونوا من قبله سبحانه في شك عظيم، فانظروا إلي السماوات والأرض وما فيها من المصنوعات على نظام أنيق شاهد بتحقيق ما أنتم في شك منه [1] .

ويقول الإمام الشوكاني متحدثا عن الآية الكريمة السابقة من سورة إبراهيم وما تحويه من استفهام يقرع العقول والأفهام لإنكارها لما هو واضح وظاهر :" أفي وجوده شك وهو في غاية الوضوح والجلاء، ثم إن الرسل ذكروا بعد إنكارهم على الكفار ما يؤكد ذلك الإنكار من الشواهد الدالة علي عدم الشك في وجوده سبحانه فقالوا: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومُبْدِعِهِمَا وَمُوجِدِهِمَا بعد العدم [2] .

ويقول صاحب إرشاد العقل السليم في تعقيبه على الآية الكريمة السابق ذكرها: إن في الآيات تسجيلًا عليهم بسخافة العقول أي: أفي شأنه ووجوده سبحانه شك ما .. وهو أظهر من كل ظاهر وأجلى من كل جلي حتى تكونوا من قبله في شك مريب .. ثم عقبوا ذلك الإنكار بما يوجب من الشواهد الدالة على انتفاء المنكر فقالوا: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مبدعها وما فيهما من مصنوعات على نظام أنيق شاهد بتحقيق ما أنتم منه في شك [3].

ويقول الإمام ابن كثير في شرحه وتعلقيه على الآية الكريمة السابق ذكرها رابطًا إياها بما سبقها من آيات :يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءهم به من عبادة الله وحده لا شريك الله قالت الرسل ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ أي: أفي وجوده شك، فإن الفطرة شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به فإن الاعتراف به ضروري في الفِطر السليمة ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج

1 – الإمام الألوسي روح المعاني ص 195 جـ 13، ط دار إحياء التراث العربي .

2 – الإمام الشوكاني فتح القدير ص 98 جـ 3، ط دار الفكر .

3 –العلامة أبو السعود إرشاد العقل السليم ص 36، 37 جـ 5، ط دار المصحف .

إلي النظر في الدليل الموصل إلي وجوده ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلي طريق معرفته بأنه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الذي خلقهما وابتدعهما من غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما فلابد لهما من صانع وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء ومليكه [1] .

وبعد هذا الإيجاز يجدر بنا أن ننتقل إلي تبيان طرف من الأدلة العقلية على وجود الله في القرآن من خلال الصفحات الآتية.

أولا :دليل الخلق وما يلحقه من عناية : وهو من الأدلة الشرعية التي تخاطب العقل :

إن من الدلائل العقلية التي أوردها الحق سبحانه وتعالى على وجوده دليلُ الخلق وما يلحقه من عناية، فالإنسان أثناء سيره في الكون الفسيح الأرجاء سيجد نفسه محفوفًا بأرض وسماء وشموس وأقمار وسهول ووديان، وسيترك هذا العالم الكبير ليجيل بصره وبصيرته في العالم الصغير عالم النفس والذات، فيشاهد من عظيم الصنع وبديع الإحكام ما تحار فيه العقول، وتذهل في فهمه الأذهان هنا يتوجه الإنسان إلي الأشياء بالنظر والتفكير مُتسائلًا مَنْ خلقها؟.

أخلقت مصادفة؟ كلا فما فيها من إتقان وإحكام ونظام ينفي ذلك أأوجدت نفسها بنفسها؟ كلا وإلا لصارت خالقة ومخلوقة في آن واحد .إذا فلابد من إله قادر حكيم أعطي كل شيء خلقه ثم هدى . هذا الإله نراه وقد أعلن لنا عن نفسه على ألسنة أنبيائه ورسله فقالوا: إنه الله رب العالمين.

1 – الإمام ابن كثير تفسير القرآن العظيم ص 525 ج 2 دار الفكر العربي .

والواقع أن الحق سبحانه وتعالى قد نثر الدلائل على وجوده عن طريق خلقه، هذه الدلائل نراها وقد ظهرت في الآفاق والأنفس وغير ذلك وهذا ما سنحاول أن نقف عليه من خلال الكلام التالي.

دلائل الخلق في الآفاق :

وهي نوع من الدلائل يعلن لنا الحق سبحانه وتعالى من خلالها عن وجوده فيقول عز من قائل في سورة البقرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة:29]. إن الحق سبحانه وتعالى من خلال هذه الآية نراه وقد امتن على عباده بأن خلق لهم السماوات والأرض وما بينهما لينتفعوا بها في أمور دينهم ودنياهم أما أمور الدين فليتخذوا من خلالها دليلا وبرهانا على وجود خالقها، وفي أمور الدنيا ينتفعوا بأرضها وسمائها ويأكلوا من طيباتها.

يقول الإمام الرازي: لقد خلق الله السماوات والأرض لأجل انتفاعنا في الدين والدنيا أما في الدنيا فليصلح أبداننا ولنتقوى بها على الطاعات وأما في الدين فللاستدلال بهذه الأشياء والاعتبار بها وجمع بقوله ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ جميع المنافع فيما يتصل بالحيوان والنبات والمعادن والجبال وغير ذلك ..فكيف تكفرون بالله بعد ذلك كله [1] .

ومادام الحق سبحانه وتعالى قد خلق جميع ما في الوجود فإن ذلك يعطي دلالة واضحة على أن كل ما في هذا الوجود بالنسبة لقدرته سبحانه وتعالى سواء. يقول صاحب النهر الماد : لقد امتن الله على عباده فقال لهم ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم﴾ أي: لأجلكم. ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ على وجه العموم فمنه للاعتبار والاستدلال ومنه للانتفاع الدنيوي، ثم ذكر تعالى

1 - مفاتيح الغيب جـ 1 ص 564، ويراجع ش / رشيد رضا تفسير القرآن الحكيم ص 546 جـ1، ط دار الفكر .

عظيم قدرته في العالم العلوي وأنه والعالم السفلي بالنسبة لقدرة الله سواء وأن علمه محيط بكل شيء [1]. وباعتبار أن الإنسان ما شهد خلق الله سبحانه وتعالى للسماوات والأرض فإنه تعالى بهذه الآية الكريمة ينبئنا عن نفسه وأنه هو الخالق لهما دون سواه .

يقول الشيخ الشعراوي: مادام الخلق لم يشهدوا خلق السماوات والأرض فلابد أن تأخذ ذلك عن الله وأن ما ينبئنا به الله عن خلق السماوات والأرض وعن خلقنا هو الحق، وما يأتينا عن غيره سبحانه وتعالى فهو ضلال وزيف [2] .

ونرى الإمام الزمخشري وقد تعرض لهذه الآية مُبينا كيفية دلالتها على الخالق من حيث وجود المنافع الدنيوية التي تعين الإنسان على الحياة والمنافع الدينية حيث ينظر الإنسان بعين فكره وبصيرته في الأشياء؛ ليقف من خلالها على خالقها وموجدها.

يقول الإمام الزمخشري ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم﴾ أي: لأجلكم وانتفاعكم بها في دنياكم ودينكم أما الانتفاع الدنيوي فظاهر، وأما الانتفاع الديني فالنظر فيها وما فيها من عجائب الصنع الدالة على الصانع المختار القادر الحكيم [3] .

أيضًا نجد من الآيات التي تحدثنا عن دليل الخلق في القرآن الكريم قول الحق سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾[البقرة:107].

---

1 - أبا حيان الأندلسي النهر الماد ص 133 جـ 1، ط الثانية سنة 1983، دار الفكر، ويراجع الإمام الشوكاني، فتح القدير ص 60 جـ 1 دار الفكر .

2 - الشيخ الشعراوي تفسير الشعراوي ص 232 جـ1، ط أخبار اليوم، ويراجع الإمام الماتريدي، تأويلات أهل السنة جـ 1 ، تح د / إبراهيم عوضين وآخرون ص 84، ط المجلس الأعلى للشؤن الإسلامية ويراجع أبو الأعلى المودودي تفهيم القرآن جـ 1 ص 58، ط الأولى دار القلم سنة 1978 .

3 -الإمام الزمخشري، الكشاف ص 122، جـ 1، ط دار الريان .

إن هذه الآية الكريمة تشير إلى أن كل ما في السماوات والأرض مِلْكُه ومُلْكُه سبحانه وتعالى متصرف فيه بقدرته التامة إيجادًا وإعدامًا ومن كان هذا شأنه فلا يخرج عن خلقه وحكمه وقدرته شيء من الأشياء يقول الألوسي : قد علمت أيها المخاطب أن الله تعالى له السلطان القاهر والاستيلاء الباهر المستلزمان للقدرة التامة على التصرف الكلي إيجادا وإعداما أمرا ونهيا حسبما تقتضيه مشيئته لا معارض لأمره ولا معقب لحكمه، فمن كان هذا شأنه كيف يخرج عن قدرته وخلقه شيء من الأشياء .. وخص السماوات والأرض بالملك؛ لأنهما من أعظم المخلوقات الظاهرة؛ ولأن كل مخلوق لا يخلو أن يكون في إحدى الجهتين فكان في الاستيلاء عليهما إشارة إلي الاستيلاء على ما اشتملا عليه [1] . ومعنى استيلاء الحق على الخلق أنه مدبر له بالخلق والتكوين والإيجاد وأن أمره نافذ في جميع المخلوقات يقول الإمام الشوكاني : إن هذه الآية تفيد أن له التصرف في السماوات والأرض بالإيجاد والاختراع ونفوذ الأمر في جميع مخلوقات [2] .

ويقول الإمام ابن كثير في تعلقيه على هذه الآية ودلالتها العقلية على الخلق وما يلحقه من تدبير وإثبات لطلاقة القدرة والإرادة في الفعل والمشيئة في كل ما في الخلق والوجود: يرشد الله تعالى عباده إلي أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر فلما خلقهم كما يشاء يسعد من يشاء ويشقى من يشاء ويصح من شاء ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء ويخذل

1 - الإمام الألوسي روح المعاني ص 354 جـ1، دار إحياء التراث العربي الخطيب الشربيني، السراج المنير ص 85 جـ1، ط دار المعرفة ، ويراجع أبا حيان، البحر المحيط ص 345، ط دار الفكر .
2 - فتح القدير جـ1 ص 180، ويراجع تأويلات أهل السنة ص 247 .

من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء ويبيح ما يشاء ويحظر ما يشا، ء وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون [1] .

ويؤكد الحق سبحانه وتعالى هذه القضية وهي ملكه لما في السماوات وما في الأرض حيث إنه هو الخالق لكل ما فيها فيقول تعالى في سورة البقرة ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[البقرة:284] .

إذا فكل ما في الوجود خاضع لله واقع تحت تصرفه ما دام هو الخالق له ومن ثم كانت هذه الآية تأكيدًا لهذه القضية وإثباتا في الوقت ذاته لتمام العلم لله سبحانه وتعالى يقول العلامة أبو السعود :إن قول الله: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مِلكا ومُلكا، وعبر عن كمال العلم المحيط بالكليات والجزئيات بقوله: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾، وإذا حصل كمال القدرة والعلم كان كل من في السماوات والأرض عبيدا مربوبين وجدوا بتخليقه وتكوينه [2]. "وأن ما في السماوات وما في الأرض من الأمور الداخلة في حقيقتهما والخارجة عنهما المتمكنة فيهما من أولي العلم وغيرهم أي كلها له تعالى خلقا وملكا وتصرفا لا شركة لغيره في شيء منها بوجه من الوجوه" [3] .

ويؤخذ من هذا أنه تعالى ما دام قد ثبت له ملك السماوات والأرض فإن كل ما فيها إنما هو معلوم لقدرته تعالى، وعلى هذا فلا يوجد في الوجود شيء قد استمد كونه من ذاته .

---

1 – تفسير القرآن العظيم جـ1 ص 150، ويراجع الإمام الطبري جامع البيان في تأويل القرآن ص 516 جـ 1، ط دار الغد العربي .

2 – إرشاد العقل السليم جـ 1 ص 272، ويراجع بن كثير جـ 1 ص 337 .

3 –إرشاد العقل السليم جـ1 ص 272 ، ط

ومن ثم نقول إن من افتقر إلي غيره في أخص صفة من صفاته وهي الوجود لا يمكن بحال أن يكون خالقًا، بل هو مخلوق ومربوب .

وبعد أن بين لنا الحق سبحانه وتعالى أنه مالك لكل ما في السماوات والأرض وما بينهما نراه يتوجه بالخطاب إلي أصحاب العقول السليمة والبصيرة الصافية لافتا أنظارهم إلي شيء من مظاهر حكمته وقدرته ليمعنوا التفكير فيها فيقفوا من خلالها على خالقها وموجدها يقول سبحانه وتعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾[آل عمران:190].

فإن الحق سبحانه وتعالى من خلال هذه الكلمات الموجزة في الآية الكريمة ليعلن لنا عن وجوده من خلال خلقه لهذا الكون العجيب وما يحويه من تدبير محكم ونظام متقن وذلك من خلال ثلاثة أشياء تضمنتها الآية الكريمة، وهي خلق السماوات وخلق الأرض واختلاف الليل والنهار.

أما خلق السماوات فإنه يدل على وجود الصانع من عدة وجوه :

1 – النظر إلي مقادير هذه الأفلاك فإنها مع اشتراكها في الطبيعة الفلكية اختص كل واحد منها بمقدار خاص مع أنه لا يمتنع في العقل وقوعها على أزيد من ذلك المقدار أو أنقص منه بذرة فلما قضى صريح العقل بأن المقادير بأسرها على السوية قضى بافتقارها إلي مخصص مدبر.

2- إن الأفلاك التي حوتها السماوات مختلفة في جهات الحركات فبعضها من المشرق إلي المغرب، وبعضها من المغرب إلي المشرق، وبعضها شمالية وبعضها جنوبية مع أن جميع الجهات بالنسبة إليها على السوية فلابد من الافتقار إلي مدبر .

3 -يمكن أن يقال إن حركاتها إمَّا أن تكون من لوازم جسمانيتها المعينة لكنَّا نرى جُسمانيتها المعينة منفكة عن كل واحد من أجزاء تلك الحركة فإذا كل واحد من أجزاء حركته ليس من لوازمه، فافتقرت الأفلاك في حركتها إلي مُحرك من خارج، وذلك هو محرك المتحركات؛ ليحركها بعد أن كانت معدومة وهو الحق سبحانه وتعالى (1) .

4- إن هذا الترتيب العجيب في تركيب هذه الأفلاك وائتلاف حركاتها أترى أنها مبنية على حكمة أم هي واقعة بالجزاف والعبث.

أما القسم الثاني = فباطل وبعيد عن العقل فإن جَوز مجوز في بناء رفيع وقصر مشيد أن التراب والماء انضم أحدهما إلي الآخر ثم تولد منها النبات ثم تركب قصرًا مشيدًا وبناءًا عاليًا فإنه يُقضي عليه بالجنون . ونحن نعلم أن تركيب هذه الأفلاك وما فيها من الكواكب ومالها من الحركات ليس أقل من ذلك البناء، فثبت أنه لابد فيها من رعاية الحكمة، ثم لا يخلو إما أن يقال إنها أحياء ناطقة، فهي تتحرك بأنفسها، أو يقال إنه يحركها مدبر قاهر، والأول باطل؛ لأن حركتها إما أن تكون لطلب استكمالها أولا؛ لهذا الغرض، فإن كانت طالبة بحركتها تحصيل كمال فهي ناقصة في ذواتها... والناقص بذاته لابد له من مكمل، فهي مفتقرة محتاجة وإن لم تكن طالبة بحركتها الاستكمال، فهي عابثة في أفعالها ..فلم يبق في العقول قسم هو الأليق بالذهاب إليه إلا أنَّ مُدبرا قاهرا غالبا على الدهر والزمان يحركها لأسرار خفية، ولحكم لطيفة هو المستأثر بها والمطلع عليها .

5- إنَّ هذه الأفلاك أجساما وكل وجسم مركب وكل مركب مفتقر إلي كل واحد من أجزائه، وكل واحد من أجزائه غيره، وكل جسم مفتقر إلي غيره ممكن، وكل ممكن مفتقر

1 - مفاتيح الغيب جـ 2 ص 594، ويراجع المنار جـ 2 ص 60 .

لغيره ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته له مؤثر، وكل ماله مؤثر فافتقاره[1] لمؤثره إما أن يكون حال بقائه أو حال حدوثه أو حال عدمه، والأول باطل؛ لأنه يقتضي إيجاد الموجود، وهو محال فبقى القسمان الآخران، وهما يقتضيان الحدوث الدال على وجود الصانع .

6- إن أجسام الأفلاك متساوية في الجسمية مع أنه يصح تقسيم الجسم إلي فلكي وعنصري ولطيف وحار وبارد ورطب ويابس، فالجسمية قدر مشترك بين هذه الصفات، والأمور المتساوية في الماهية يجب أن تكون متساوية في قابلية الصفات، فإذن كل ما صح على جسم صح على غيره، فإذن اختصاص كل جسم بما اختص به من المقدار والوضع والطبع والشكل والصفة لابد وأن يكون من الجائزات، وذلك يفضي إلي الافتقار إلي الصانع القديم [2].

هذا من ناحية خلق السماوات وما تحويه من أجرام وأفلاك ودلالة ذلك على وجود الصانع سبحانه .

وإذا أتينا إلي الأرض وأحوالها ودلالة ذلك على وجود الصانع سبحانه، فإننا يمكن أن نقول إننا نرى الأرض وما فيها من جبال وأنهار وأشجار وثمار كل له هدف وغاية في حياة، فاختصاص كل لواحد من هذه الأشياء بما هو منوط به من المصالح والمهام لابد له من مخصص قديم.

---

1 – التركب هو التكون من أجزاء. والافتقار الاحتياج إلي الغير، والممكن ما استوى طرفاه وجود أو عدما، والواجب ما كان وجوده من ذاته .

2 – مفاتيح الغيب ص 596 جـ 2، ويراجع السراج المنير جـ 1 ص 274، وكذا الجمل، الفتوحات الإلهية ص 246 جـ 1، ط الحلبي .

يقول الإمام الرازي: إن الأجسام الأرضية نشاهد تغيرها في جميع صفاتها أعني حصولها في أحيازها وألوانها وطعومها وطباعها ونشاهد أن كل واحد من أجزاء الجبال والصخور الصم يمكن كسرها وإزالتها عن مواضعها .. وإذا كان الأمر كذلك ثبت أن اختصاص كل واحد من أجزاء الأرض بما هو عليه من المكان والحيز والمماسة والقرب والبعد من بعض الأجسام ممكن التغير والتبدل، ولذا ثبت أن تلك الأجرام بصفاتها أمر جائز وجب افتقارها في ذلك الاختصاص إلي مدبر قديم عليم [1] .

هذا بالنسبة للاستدلال بوجود الأرض وما فيها على وجه العموم بالنسبة لإثبات الخالق سبحانه وتعالى أيضا مما أشارت إليه الآية بالنسبة لإثبات وجود الحق سبحانه وتعالى، والاختلاف الظاهر البين بين أحوال الليل والنهار وما يعتريهما من تغير وتبدل، فإن ذلك يدل على وجود الباري سبحانه وتعالى من عدة وجوه :

1 – إن اختلاف أحوال الليل والنهار مرتبط بحركات الشمس وهي من الآيات العظام .

2 – إن ما يحصل بسبب طول الأيام تارة وطول الليالي أخرى من اختلاف الفصول من الربيع والصيف والخريف والشتاء ذلك أيضا من الآيات العظام .

3 – إن انتظام أحوال العباد بسبب طلب الكسب والمعيشة في الأيام وطلب النوم والراحة في الليالي من الآيات العظام .

4– إن كون الليل والنهار متعاونين علي تحصيل مصالح الخلق مع ما بينهما من التضاد والتنافي من الآيات العظام فإن مقتضى التضاد بين الشيئين أن يتفاسدا لا أن يتعاونا .

---

1 – مفاتيح الغيب جـ2 ص 601، فتح القدير ص 410 .

5- إن اشتقاق ظلمة الليل بظهور الصبح المستطيل فيه من الآيات العظام كأنه جدول ماء صاف يسيل في بحر كدر بحيث لا يتكدر الصافي بالكدر ولا الكدر بالصافي [1] .

هذه الآيات بأسرها وغيرها كثير لا يمكن أن تقترن في وقوعها بالمصادفة وإلا لخلت عن هذا التقدير والتنظيم، ولا يمكن أن يكون حدوث كل هذا يرجع إلي مرد الشيء ذاته وإلا للزمه التناقض إذ يكون الشيء خالقا ومخلوقا في آن واحد وعلة ومعلولا إذا فلابد له من مدبر حكيم أوجده على هذه الهيئة وعلى هذا النحو .

إن هذه الدلائل وغيرها إنما يستفيد بها ويصل إلي كنهها أولوا الألباب أصحاب العقول الخالصة من شوائب الخرافة والوهم؛ لأنهم هم الذين يدركون دلالتها على وجود الصانع لتغيرها المستمر المستلزم لحدوثها واستنادها إلى مؤثر قدير .. كما أنها في غاية الإتقان والإحكام لمن تأمل فيها وتفكر في ظاهرها وخافيها وذلك يستدعى كمال الوجود والعلم والقدرة [2] .

إن هذه الآيات العظيمة التي ساقها لنا الحق سبحانه وتعالى في تلكم الآية السابقة مخاطبا بها أصحاب العقول النيرة ليستدلوا من خلالها على وجوده وقدرته وعنايته بعباده وخلقه لمن أقوى الأدلة التي يصول العقل فيها ويجول في مجال الدلالة على وجود الله، ثم نراه يذكر لنا بشيء من التفصيل آيات أخرى من جنس الآيات السابقة تكمن في بيان قدرته على الخلق للحب والنوى وانبلاج الصبح المنير من ظلمة الليل البهيم وتزيين السماء بالنجوم؛ لتكون

1 - مفاتيح الغيب ج2 ص 603، ويراجع فهم القرآن ص 617، وكذا المنتخب في تفسير القرآن الكريم ص 102، ط السادسة إعداد المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

2 - روح المعني ج 1، وكذا الكشافج 3 ص452، وكذا تفسير القرآن العظيم ج 1 ص 437، وأيضا تفسير الشعراوي ج3 ص 1958 .

علامات بها يهتدي السائرون، وإنزال الماء من المزن عذبا فراتا به تحيا الأرض بعد موتها منبتة حدائق ذات بهجة تسر الناظرين عن هذه المعاني وغيرها يقول الحق سبحانه وتعالي في سورة الأنعام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾[الأنعام: 95 : 97]. ويقول سبحانه وتعالى أيضا في نفس السورة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾[الأنعام:99].

إن المتمعن في هذه الآيات الكريمات يراها وقد اشتملت على عدد من الدلائل التي تشير وترشد إلي وجود الحق تبارك وتعالى والتي منها قوله سبحانه وتعالى ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾. فالحب والنوى من الدلائل العظيمة على الخلق ودقته والتدبير وحكمته، ومن ثم يحدثنا فضيلة الشيخ الشعراوي عن هذا المعني فيقول : فالق أي شاقق وجاعل الحب والنوى كل منهما فلقتين، والحب مالا نواة له مثل الشعير والقمح والأرز، وهناك ماله نوى مثل البلح، ونجد في قلب النواة شيئا آخر، وهناك نوع آخر له بذور مثل البطيخ وفي كل بذرة تجد فيها شيئًا، فكأن الحق يقول إن عظمتي تتجلي في أني أخلق الحب وأخلق النوى، وهناك حبوب مفلوقة جاهزة مثل الفول[1] .

1 - نفسير الشعراوي ج6 ص 3805، ويراجع المنار ج 6 ص 6307 .

وإذا عرفنا معني الفلق للحب والنوى فإننا يمكن أن نشير إلي دلالة الحب والنوى على وجود الخالق في النقاط التالية :

أولا : نقول إذا وقعت الحبة أو النواة في الأرض الرطبة ثم مكثت بها قدرًا من المدة أظهر الله تعالى في تلك الحبة والنواة من أعلاها شقًا ومن أسفلها شقا آخر . أما الشق الذي يظهر في أعلي الحبة أو النواة فإنه يخرج منه الشجرة الصاعدة في الهواء، وأما الشق الذي يظهر في أسفل تلك الحبة، فإنه يخرج منه الشجرة الهابطة في الأرض وهي المسماة بعروق الشجرة وتصير الحبة والنواة حلقة اتصال بين الاثنين .

وهنا عجائب ودلالات كثيرة على وجود الصانع منها :

أ – أن طبيعة تلك الشجرة إن كانت تقتضي الهوى في عمق الأرض فكيف تولدت منها الشجرة الصاعدة في الهواء، وإن كانت تقتضي الصعود في الهواء فكيف تولدت منها الشجرة الهابطة في الأرض؟

فلما تولد هاتان الشجرتان .. علمنا أن ذلك ليس بمقتضي الطبع والخاصية، بل بمقتضى الإيجاد والإبداع والتكوين والاختراع .[1]

ب– إن باطن الأرض جرم كثيف صلب لا يغوص السكين الحاد فيه ... ثم إنا نشاهد أطراف تلك العروق غاية الدقة واللطافة... ومع ذلك تقوى على النفوذ في تلك الأرض الصلبة والغوص في بطن ذلك الجرم الكثيف، فلابد وأن يكون ذلك بتقدير العزيز الحكيم.[2]

---

1 – مفاتيح الغيب جـ 6 ص 445، جامع البيان جـ5 ص 3205 .

2 – مفاتيح الغيب جـ6 ص 446، ويراجع البحر المحيط جـ4 ص 191 .

ثانيًا: إن النواة يتولد منها شجرة ويحصل في تلك الشجرة طبائع مختلفة، واختلاف الطبائع وصفاتها وألوانها وأشكالها وطعومها مع تأثيرات الطبائع والفصول يدل على أنها حدثت بتدبير حكيم لا تدبير الطبائع والعناصر (1) .

ثالثًا: إننا نجد الطبائع الأربعة حاصلة في الفاكهة الواحدة فالأترنج (2) قشره حار ولحمه بارد رطب، وحمضه بارد يابس وبذره حار يابس فتولد هذه الطبائع المضادة والخواص المتنافرة عن الحبة الواحدة لابد وأن يكون بإيجاد الفاعل المختار (3) .

رابعا : إن الخالق تبارك وتعالى أودع في كل نوع من أنواع الحبوب خاصية أخرى ومنفعة أخرى تختلف باختلاف نوع الحبة، وأيضا فقد تكون الثمرة الواحدة غذاء لحيوان وسمًّا لحيوان آخر، فاختلاف هذه الصفات والأشكال والأحوال مع اتحاد الطبائع يدل على أنها حدثت بتخليق الفاعل المختار (4) .

إن الإنسان إذا تأمل في هذه الدلائل التي تملك على القلوب أقطارها عظة واعتبارا لابد وأنه سيجد نفسه مدفوعا بمحض عقله إلي أن يردد ما زيلت به الآية الكريمة قائلا ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ .

أيضا لننتقل بعد ذلك إلي إقرار نوع آخر من الدلائل التي تبثها الآيات علي إثبات وجود الصانع وذلك من خلال قول الله تعالي: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾.

---

1 – مفاتيح الغيب ج6 ص 446 .

2 – الأترنج : نبات طيب الرائحة .

3 –مفاتيح الغيب ج6 ص 446، ويراجع المنار ج6 ص 630 .

4 – مفاتيح الغيب ج6 ص 447 .

فبعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالي جانبًا من دلائل الخلق في النبات نراه هنا يورد لنا بعضا من دلائل الخلق في الأفلاك والتي منها :

1 – إن النور الحاصل في العالم إنما كان بتأثير الشمس إلا أننا نقول الأجسام متماثلة في تمام الماهية، ومتى كان الأمر كذلك كان حصول هذه الخاصية لقرص الشمس يجب أن يكون بتخليق الفاعل المختار (1) .

2 – إن الظلمة شبيهة بالعدم بل البرهان القاطع قد دل على أنها مفهوم عدمي، والنور محض الوجود فإذا أظلم الليل حصل الخوف والفزع في قلب الكل، فاستولي النوم عليهم وصاروا كالأموات وسكنت المتحركات وتعطلت التأثيرات، ورفعت التفعيلات عليهم، فإذا وصل نور الصباح إلي هذا العالم نفخ في الصور فضعف النوم وابتدأت اليقظة بالظهور، وكلما كان نور الصباح أقوى وأكمل كان ظهور قوة الحس والحركة في الحيوانات أكمل، ومعلوم أن أعظم نعم الله على الخلق هي قوة الحياة والحس والحركة ولما كان النور هو السبب الأصلي لحصول هذه الأحوال كان تأثير قدرة الله تعالى في تخليق النور من أعظم أقسام النعم .

إذا عرفت هذه فكونه سبحانه فالقًا للإصباح دليل على كمال قدرة الله تعالى، بل هو من أجل أقسام الدلائل (2) .

أيضًا نجد من دلائل الخلق في هذا الكون والعناية به ما ورد في قوله تعالي: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ إن الإنسان يسير في هذه الحياة ضاربًا في شتى أرجائها؛ لتحصيل المنافع والمصالح،

---

1 – مفاتيح الغيب ج6 ص 453 الأليق أن نقول: إن الظلمة شبيهة بالعدم لاحتمال وجود أشياء فيها لا يدركها الإنسان إلا بواسطة .

2 – مفاتيح الغيب ج6 ص 454، ويراجع صفوة التفاسير، أ / محمد على الصابوني ج 1 ص 395، ط بيروت .

وفي أثناء سيره فيها يلحقه النصب والتعب حتى لكأنه يكاد يلهث الثرى من العناء، فكان من رحمة الله بالإنسان أن جعل له الليل سكنا يحفه الهدوء، فيكون مُستراحًا للإنسان من كد الحياة ووعثاء النهار، فتنظيم الحياة على هذا النحو إنما يدل على وجود مدبر حكيم عليم بما يصلح لأحوال عباده، ومن ثم يمكن القول في معنى ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ أن السكن ما يسكن إليه الرجل ويطمئن إليه استئناسا به واسترواحا إليه .. فالليل يطمئن إليه الإنسان؛ لأنه أتعب نفسه بالنهار واحتاج إلى زمان يستريح فيه وذلك هو الليل [1] .

أيضًا نقول: إن الأوقات من حيث ذاتها متماثلة فتخصيص بعض منها بوقت يكد فيه الإنسان ويتعب، وآخر يستريح فيه من كده وعنائه يدل هذا على وجود إله مخصص حكيم في تدبيره؛ إذ لو سار الوقت على وتيرة واحدة لفسدت الحياة وما استقام عيش لأصحابها، كذلك نجد من الدلائل التي ساقتها الآيات لإثبات الوجود الإلهي قول الله سبحانه وتعالي: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًا﴾ وإذا أتينا لنتعرف على دلائل الوجود من خلال هذا الجزء من الآية فإننا سنجدها تكمن في شيئين :

1 - أن معنى جَعْلُ ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًا﴾ أي جعلا على حساب؛ لأن حساب الأوقات لا يعرف إلا بهما.

2- أنه تعالى قدر حركةً للشمس مخصوصة بمقدار من السرعة والبطء بحيث تتم الدورة في سنةٍ، وقدر حركة القمر بحيث تتم الدورة في شهر، وبهذه المقادير تنتظم مصالح العالم في

1 - الكشاف جـ 2 ص 49 .

الفصول الأربعة، وبسببها يحصل ما يحتاج إليه من نضج الثمار وحصول الغلات، ولو قدرنا كونها أسرع أو أبطأ مما وقع لاختلت هذه المصالح [1] .

وأمام هذه العظمة البادية في الصنع والدقة والإحكام في الخلق لا يستطيع الإنسان إلا أن يهتف بما ذيلت به الآية قائلا: ﴿ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾. ومعنى هذا أن تقدير أجرام الأفلاك بصفاتها المخصوصة وهيأتها المحدودة وحركاتها المقدرة بالمقادير المخصوصة في البطء والسرعة لا يمكن تحصليه إلا بقدرة كاملة متعلقة بجميع الممكنات وعلم نافذ بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات، وذلك تصريح بأن حصول هذه الأحوال والصفات ليس بالطبع والخاصية، وإنما هو بتخصيص الفاعل المختار [2] .

وبعد أن بين لنا الحق تبارك وتعالي جانبا من دلائل الخلق في النبات وأتبع ذلك بالحديث عن دلائل الخلق الكامنة في تعاقب الشمس والقمر نجده أيضا يحدثنا عن جانب من الدلائل الكامنة في خلق النجوم، ومالها من دور في حياة الإنسان وتحصيل المنافع لأجله والنجوم تدل على وجود الخالق سبحانه وتعالى من عدة وجوه :

1 - إنه تعالى خلقها ليهتدي الخلق بها إلي الدروب والمسالك في الليل المرتدي ثوب الحزين وفي البر والبحر حيث لا يرون شمسا ولا قمرا فعند ذلك بها يهتدون وتحت كنفها يسيرون حتى يمكنهم من خلالها الوصول إلي بغيتهم وهدفهم المنشود .

1 - مفاتيح الغيب جـ6 ص 457، وهذا الكلام إنما ينتظم مع ما كان متعارفا عليه قبل العلم الحديث حيث كان يعتقد أن الشمس هي التي تدور حول الأرض والحقيقة أن الأرض هي التي تدور حول الشمس مع احتفاظ الشمس بمدارها الخاص .

2 - روح المعاني جـ5 ص 24 .

2 – إن الناس يستدلون بأحوال حركة الشمس على معرفة أوقات الصلاة، وإنما يستدلون بحركة الشمس في النهار على القبلة، ويستدلون بأحوال النجوم في الليالي على معرفة القبلة أيضا.

3 – إنه تعالى ذكر في غير هذه السورة كون هذه النجوم زينة السماء فقال سبحانه في سورة الملك: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك:5].

4– إنه تعالى ذكر في منافعها كونها رجوما للشياطين [1] . وبعد أن ذكر الحق تبارك وتعالى بعضا من منافع هذه النجوم ودورها في هداية الإنسان بين أن هذه الآيات لا ينتفع بتفصيلها إلا قوم أخلصوا ضمائرهم للعلم فاشرأبت نفوسهم إلي معرفة الحقيقة فقال تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ والمعني: أن هذه النجوم كما يمكن أن يستدل بها على الطرقات في ظلمات البر والبحر فكذلك يمكن أن يستدل بها على معرفة الصانع الحكيم وكمال قدرته وعلمه [2] .

ثم نجد الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك يرشدنا إلي نوع آخر من الدلائل التي تنبئ عن وجوده والتي تكمن في إخراج النبات حيث ينزل الخير من السماء فيخرج به الحق سبحانه وتعالى حبا متراكبا في سنبله وتفيء به جنات من أعناب وزيتون ورمان في حين أن الأرض واحدة تسقى بماء واحد، فوجود هذا الاختلاف وهذا التغاير يدل على وجود صانع مدبر حكيم، وهذا ما أشار إليه الحق سبحانه وتعالى في الآيات السابقة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ

1 – مفاتيح الغيب ج6 ص 458 .

2 – مفاتيح الغيب ج 6 ص 459 .

ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام:99] وفي قوله: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ﴾ [الأنعام:99]، ومن ثم نقول :إن هذا أمر بالنظر في حال الثمر في أول حدوثها وقوله (وَيَنۡعِهِۦٓ) أمر بالنظر في حالها عند تمامها وهذا هو موضع الاستدلال والحجة التي هي تمام المقصود من هذه الآية ذلك لأن هذه الثمار والأزهار تتولد في أول حدوثها على صفات مخصوصة وعند تمامها وكمالها لا تبقى على حالاتها الأولى، بل تنتقل إلي أحوال مضادة للأحوال السابقة مثل أنها كانت موصوفة بلون الخضرة، فتصير ملونة بلون السواد أو الحمرة وكانت موصوفة بالحموضة فتصير موصوفة بالحلاوة وربما كانت في أول الأمر باردة بحسب الطبيعة فتصير آخر الأمر حارة بحسب الطبيعة، فحصول هذه التبدلات والتغيرات لابد له من سبب وذلك السبب ليس هو تأثير الطبائع والفصول والأنجم والأفلاك؛ لأن نسبة هذه الأحوال بأسرها إلي جميع هذه الأجسام المتباينة متساوية متشابهة، والنسب المتشابهة لا يكمن أن تكون أسبابًا لحدوث الحوادث المختلقة ولما بطل إسناد حدوث هذه الحوادث إلي الطبائع والأنجم والأفلاك وجب إسنادها إلي القادر المختار المدبر لهذا العالم على وفق المصلحة والحكمة [1] .

أيضًا نجد من الآيات التي تدل على وجود الخالق سبحانه وتعالى وتدبيره لهذا الكون وعنايته بهذا الوجود ما ذكره لنا الحق تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ

1 – مفاتيح الغيب جـ6 ص 472، 473، ويراجع إرشاد العقل السليم جـ3 ص 167، ويراجع حاشية الصاوي على الجلالين جـ2 ص 28 ، ط الأولى المطبعة العامرة 1318، ويراجع الإمام القرطبي الجامع لأحكام القرآن جـ 3 ص 2571، ط دار الغد العربي .

وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ [الأعراف:54].

إن الإنسان يولي وجهه شطر السماوات والأرض متأملا فيما اشتملا عليه من منافع ويرى في نفس الوقت كيف يكد الناس ويتعبون في نهارهم فيأتي الليل مرخيا سدوله على الوجود، فيستريح الإنسان فيه من كده وعنائه تلك سنة الله التي جرت في الخلق، وما تخلفت سنة الله على مر السنين والأيام في الوقت ذاته يشاهد الإنسان الشمس والقمر يسيران في فلك واحد دون ازدحام أو اصطدام فلا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل ينبغي له أن يسبق النهار، وإنما الكل في كون الله الفسيح يسبح ويسبح تحوطها هالة من النجوم كالدر المتلألئ الآخذ بالأبصار وفي دياجير الظلام تهدى السائرين إذا تفرقت بهم السبل وتقطعت بهم الأسباب .

من هنا نقول إن خلق السماوات والأرض يدل على وجود الخالق سبحانه وتعالى عدة وجوه:

أولًا : إن اختصاص ذات السماوات وذات الأرض بمقدار معين لابد أن يكون راجعًا إلي وجود مخصص، وذلك يدل على وجود مخصص وذلك يدل على وجود الفاعل المختار .

ثانيا : إن اختصاص الكواكب بأماكنها على مسافات متباينة من القرب والبعد يدل على افتقارها إلي فاعل مختار جعلها على هذا النحو وتلك الصورة .

ثالثا: إن كل جرم من الأفلاك له حركة في اتجاه معين متباين من جرم إلي آخر بالبطء والسرعة، وذلك دليل على خلق وتقدير وعلى وجود مخصص قادر [1] .

---

1 – مفاتيح الغيب جـ7 ص 95، ويراجع ابن بابويه القمي التوحيد ص 303، ط دار المعرفة بيروت .

رابعًا : إن الأفلاك والعناصر مركبة من الأجزاء الصغيرة، وواجب الوجود لا يكون أكثر من واحد فهي ممكنة الوجود في ذواتها، وكل ما كان ممكنا في ذاته فهو محتاج إلي مؤثر، ومن هنا فكل هذه الأجزاء محدثة، ومتى كانت محدثه كان حدوثها مختصا بوقت معين، وذلك خلق وتقدير ويدل على الحاجة إلي القادر الصانع المختار.

خامسًا: إن أجسام الأفلاك ما دامت مركبة من أجزاء، إذن فهي حادثة. والأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون فهما محدثان، ومالا يخلو عن المحدث فهو محدث، فهذه الأجسام محدثة وكل محدث فقد حصل وجوده في وقت معين، وذلك خلق وتقدير، ولابد له من الصانع القادر المختار .

سادسا : إن الأجسام متماثلة فاختصاص بعضها بالصفات التي لأجلها كانت سماوات وكواكب والبعض الآخر بالصفات التي لأجلها كانت أرضًا أو ماءً أو هواءً أو نارًا لا يحصل إلا بتقدير مقدر وتخصيص مخصص [1] .

إذا أدركنا هذا عرفنا أن كل ما في الوجود خُلق بمقدار، ويسير وفق حكمة أزلية اقتضت مصلحة العباد، ولعل هذا ما أشار إليه الحق سبحانه وتعالى في سورة الحجر: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ [الحجر:85 - 86]، وقوله سبحانه وتعالى في سورة النحل: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾ [النحل:3]. أيضًا نجد من الدلائل التي ساقها لنا الحق سبحانه وتعالى في الآية السابقة من سورة الأعراف قوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ . ما أعظم الخلق والتقدير والتدبير إن هذا الكتاب المعجز ليلفت

1 – ابن بابويه، التوحيد ص 304 وما بعدها ويراجع إرشاد العقل السليم جـ3 ص 232 .

الإنسان في هذه الآية إلي كروية الأرض ولن يغشي الليل والنهار إلا إذا كانت الأرض كروية؛ ليغشى النهار الجزء الذي يواجه الشمس، وليشمل الليل الجزء غير المواجه لها وعند دوران الأرض يخلف الليل النهار والنهار الليل يقول الشيخ الشعراوى: إن الليل يغشي النهار ويخلفه والنهار يغشي الليل ويخلفه، فإذا كنا في بلد في نهار يكون هذا الوقت في بلد آخر ليلا وإذا سُلسل الأمر إلي أول ليل وأول نهار وأيهما كان خلفة للثاني فلن تجد؛ لأن كلا الاثنين خلقا معا ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة التسطيح وكانت الشمس قد خلقت مواجهة لسطح الأرض لكان النهار قد خلق أولا ثم يعقبه الليل، ولو كانت الشمس قد خلقت غير مواجهة للسطح كان الليل سيأتي أولًا، ثم تشرق الشمس على السطح ليوجد النهار والحق سبحانه وتعالى أراد من الليل والنهار أن يغشي ويخلف كل منهما الآخر ولا يمكن ذلك إلا إذا كان الله قد خلق الليل والنهار دفعة واحدة، وكان لابد أن تكون الأرض كرة ليغشي النهار الجزء المواجه للشمس، وليغشي الليل الجزء غير المواجه للشمس، وحين تدور الأرض يأتي النهار خلفة لليل، ويكون الليل خلفة للنهار [1]، وذلك تقدير الخالق العزيز العليم وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾[الفرقان:62] .

ثم نرى الآية الكريمة وقد تحدثت عن نوع آخر من دلائل الوجود التي تنبئ عن إثبات وجود الصانع وهو قوله في الآية السابقة من سورة الأعراف: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍ بِأَمْرِهِۦٓ﴾. أما اتخاذ الشمس والقمر كدليل على وجود الله فيمكن تقريره عن طريق تماثل الأجسام، ثم نرى في الوقت ذاته اختصاص كل جسم بمميزات بها يفترق عن غيره

1 - تفسير الشعراوي ص 37، 48، ويراجع المنار جـ7 ص 453 .

فهذا يدل على وجود مخصص إله قادر حكيم يقول الإمام الرازي : إن الأجسام متماثلة ومتى كان الأمر كذلك فاختصاص جسم الشمس بذلك النور المخصوص والضوء الباهر والتسخير الشديد والتأثير القاهر والتدبيرات العجيبة في العالم العلوي والسفلي، وأن يكون لأجل أن الفاعل الحكيم والمقدر العليم خص ذلك الجسم بهذه الصفات وهذه الأحوال فجسم كل واحد من الكواكب كالمسخر في قبول تلك القوى والخواص ينبئ عن قدرة المدبر الحكيم [1] .

ومن هذا المنطلق يكون الحال مع القمر والنجوم حيث إن اختصاصهما بصفاتهما وعملهما ينبئ عن وجود مخصص حكيم فالنجوم لها فوائد كثيرة إذ أنها زينة للسماء الدنيا ودلالات يهتدي بها السائرون، فمن لاحظها وعرف أن بعضها يظهر في وقت وبعضها يظهر في وقت آخر = أدرك بهذا كيف أنها دلالات تهدي الناس إذا عميت عليهم السبل، ولو كانت تظهر بأسره في وقت واحد لانتفت عنها تلك الفائدة يقول الجاحظ :فكر في هذه النجوم التي تظهر في بعض السنة وتحتجب في بعضها كمثل الثريا والجوزاء والشعرى، فإنها لو كانت بأسرها تظهر في وقت واحد وتحتجب وقتًا واحدا لم يكن لكل واحد منها دلالات يعرفها الناس ويهتدون بها لبعض أمورهم، كمعرفتهم بما يكون في طلوع الثريا والجوزاء إذا طلعت واحتجابها إذا احتجبت، فسار ظهور كل واحد منها واحتجابه في وقت غير وقت الآخر؛ لينتفع الناس بما يدل عليه كل واحد منهما على حدته، فكما جعلت الثريا وأشباهها تظهر حينا وتحتجب حينًا لدروب من المصلحة كذلك جعلت نجوم أخرى لا تغيب لدرب آخر من المصلحة، فإنها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها الناس للطرق المجهولة في البر والبحر معا،

---

1 – مفاتيح الغيب جـ7 ص 123، ويراجع ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل جـ 1 ص 22، ط دار المعرفة .

وذلك أنها لا تغيب ولا توارى أصلًا، فهم ينظرون إليها متى أرادوا ويهتدون بها إلي حيث شاءوا فصار الأمران جميعا على اختلافهما من جهتين نحو الأرب والمصلحة (1).

وبعد أن أحطنا علما بجانب من الدلائل العقلية من خلال النصوص القرآنية والتي أمكن الوقوف عليها من خلال حديث القرآن الكريم عن خلق السماوات والأرض نرى القرآن الكريم كذلك يحدثنا عن نوع آخر من الدلائل التي بثها تعالى فيهما يقول عز من قائل في سورة يونس: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾[يونس:5 - 6].

لقد عدد الحق تبارك وتعالى في هاتين الآيتين جانبا من دلائل خلقه تمثلت في تكوينه للشمس بأن جعلها ضيآءً والقمر نورًا وقدره منازل بها يعرف عدد السنين والحساب ثم كان بعد ذلك اختلاف الليل والنهار آية ودلالة عظمى على الخلق والتدبير يقف على كنهها أولوا الألباب فإذا أتينا إلي قول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ فإننا نجده يدل على وجود الحق تبارك وتعالى من عدة وجوه منها :

1- أننا أسلفنا وقلنا إنَّ الأجسام متماثلة من حيث الذرات والماهية ومادام الأمر كذلك فاختصاص الشمس والقمر بصفاته التي بها هيئ للقيام بالعمل في هذا الوجود دليل على وجود إله مخصص قادر حكيم .

2- إن انتفاع الخلق بضوء الشمس وضوء القمر لأمر عظيم فالشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل وبحركة الأرض حول الشمس تنفصل السنة إلي الفصول الأربعة

1 - الدلائل والاعتبار ص 10 .

وبالفصول الأربعة تنتظم مصالح هذا العالم، وبحركة القمر حول الأرض تحصل الشهور، وباختلاف حاله في زيادة الضوء ونقصانه تختلف رطوبات هذا العالم وبسبب الحركة اليومية يحصل النهار والليل، وإذا كانت الأجسام متساوية وكان كل جسم مختص بشكله المعين ووضعه المعين وحيزه المعين وصفته المعينة، فليس هذا إلا بتدبير مدبر قادر، وذلك يدل على أن جميع المنافع الحاصلة في هذا العالم بسبب حركات الأفلاك إنما هي بتدبير المدبر الحكيم (1)

إن المتأمل في الشمس وخلقتها يجد لها أيضا من المنافع الكثير إذا هي تُنضج لنا كل شيء في الوجود مما تناله بأشعتها وتعطي كل كائن الإشعاع الخاص يه وتُبخر المياه لينزل الماء بعد ذلك عذبا فراتا يرتوي منه الإنسان وتشرب منه الأنعام وهي أم لمجموعة من الكواكب تدور حولها فدورة الأرض حول الشمس تمثل السنة ودورتها حول نفسها تمثل اليوم، وكذا القمر له من المنافع الكثير إذ له تأثير كبير في عملية المد الجزر التي تحدث في البحار، ولننظر بعد ذلك إلي التعبير القرآني في الآية الكريمة ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورًا ﴾ .

إذا فالشمس تعطي الضياء والقمر يرسل النور وحول التعبير القرآني في وصف الشمس بالضياء والقمر بالنور يحدثنا فضيلة الشيخ الشعراوي قائلا: الفرق بين الضياء والنور يتمثل في أن الضياء تصاحبه الحرارة والدفء وهذا مناسب لطبيعة الشمس، والنور إنارة حليمة ولذلك يسمى نور القمر النور الحليم، فلا تحتاج إلي الظل لتستظل من حرارته ولكن الشمس تحتاج إلي مظلة تقيك من حرارتها (2) .

وإذا عرفنا كيف أن الشمس والقمر آيتان من آيات الخالق تدلان على وجوده فهذا يجرنا إلى الحديث عن شيء آخر وهو: تقدير القمر منازل نعلم بها عدد السنين الحساب .

---

1 -يراجع مفاتيح الغيب جـ 8 ص 278، 279، الدلائل والاعتبار ص 9 ، روح المعاني جـ 11، ص 71 .

2 - تفسير الشعراوي جـ9 ص 5736 .

والقمرُ يحدث له عمليةُ محو فيتردد بين الزيادة والنقصان في إعطاء نوره فيكون في أول أمره هلالا، ثم يتزايد حتى يكون في عنفوانه بدرًا، ثم تلحقه سنة الله التي جرت على كل الخلائق فيرد إلي مرحلة من الهرم يأخذه فيها الانتقاص قليلا قليلا حتى يعود محاقا، واختلاف أحوال القمر في مقادير النور يمكن أن نقول عنه : بأن له أثر عظيم في أحوال هذا العالم ومصالحه مثل أحوال البحار في المد والجزر، وبهذه الزيادة والنقصان في نور القمر تحصل الشهور وبسبب معاودة الشهور تحصل السنوات القمرية المبنية على رؤية الأهلة [1] .

إن تغير أحوال ضوء القمر على هذا النحو الذي يكسوه النظام لا يمكن أن ينسب إلي المصادفة، وإلا لخلا من الإحكام والإتقان ولا يمكن أيضا أن يكون منبعه ذات فلك القمر؛ وإلا لكان علة ومعلولا في آن واحد، وأيضا لما لحقه الانتقاص فأي كائن مهما كان لا يرضى أن يلحقه الهرم بعد أن ذاق حلاوة الشباب، فإذا لحقه الهرم لابد أن يكون ذلك لمؤثر خارجي ساقه إلي قدره حتف أنفه، ومن ثم نقول إنه لابد للقمر من إله خالق مدبر حكيم .

أيضًا نجد من الدلائل التي ساقها الحق سبحانه وتعالى في الآية الكريمة التي نحن بصدد الحديث عنها قوله سبحانه وتعالى فيها ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ . فاختلاف الليل والنهار يدلان على وجود إله حكيم إذ قررنا آنفا أن كلا منهما مضاد للآخر مغاير له ومع هذا فهما متعاونان في خدمة الإنسان فتيسيرهما لذلك لبرهان ودليل على وجود إله مدبر حكيم، وبجانب هذه الدلالة نقول أيضا :إن مصالح الدنيا لا تتم إلا بالليل والنهار فلولا الليل ما حصل السكون والراحة ولولا

1 – مفاتيح الغيب جـ 10 ص 30، 31، ويراجع تفسير الشعراوي جـ 9 ص 5738، وكذا النهر الماد جـ5 ص 124، وكذا البحر المحيط جـ5 ص 126 .

النهار ما حصل وجوه الكسب والمعاش [1] .إذًا فلا بد من إله مدبر حكيم جعلهما على هذا النحو من التقدير . وما أشارت إليه الآيتان السابقتان من سورة يونس من دلائل عقلية نجده سبحانه وتعالى قد نبه إليها في قوله من سورة النحل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل:12] . وقوله تعالى أيضا في سورة الإسراء: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء:12] .

وانطلاقا من كل ما قررناه من حقائق ودلائل عقلية وآيات صدع بها القرآن الكريم من حديث حول السماوات والأرض وأحوال الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وما اشتمل عليه كل ذلك من منافع يمكن أن نقول: إننا نشاهد هذا العالم بما فيه من مخلوقات كلها على حال من الترتيب والإحكام وربط الأسباب بالمسببات، واستحالة بعض الموجودات إلي بعض في تدبير لا تنقضي عجائبه ولا تنتهي غاياته، فبالضرورة هذا الترتيب المحكم لا يكون له وجود لولا وجود خالق مدبر لنظامه [2] .

أيضًا نجد من الآيات التي دلل لنا بها الحق سبحانه وتعالى على وجوده ما ساقه لنا في سورة الرعد من قوله جل اسمه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ

1 – مفاتيح الغيب ج10 ص 29، المنار ج 11 ص 305، الدلائل والاعتبار ص 9 .

2 – الشيخ جمال الدين القاسمي دلائل التوحيد ص 51، ط مطبعة الثقافة .

وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: 2: 4] .

إن في هذه الآيات إيقاظ للعقل الإنساني وتوجيه له بالنظر والتدبر؛ ليدرك من خلال ذلك كثيرًا من الظواهر الكونية التي تعينه إلي الوصول إلي الحق فينظر: كيف امتدت الأرض واتسعت كيف ولماذا وجدت الجبال، كيف خلقت الثمار أزواجًا كيف يختلف الليل والنهار كيف تختلف الأرض من حيث صلاحيتها للزراعة مع أنها قطع متصلة بعضها ببعض، وكيف تنوعت الثمار واختلفت [1]

إن المتأمل في هذا التنوع للثمار يتملكه العجب إذ الأرض واحدة والماء واحد هذه وغيرها أسئلة تثور في عقل الإنسان تقود الإجابة عنها إلي معرفة رب الأرض والسماء .

وإذا أتينا إلى الآيات فإننا نجد لها حديثا عن تسخير الشمس والقمر وقد مر الكلام على هذا في غير موضع إلا أننا نلمح دليلا جديدا على وجود الحق سبحانه وتعالى كامنا في خلقه عز وجل للجبال .

والاستدلال بالجبال على وجود الخالق تبارك وتعالى إنما يكون من وجوه :

1- إن طبيعة الأرض واحدة فحصول الجبال في بعض جوانبها دون البعض لابد وأن يكون بتخليق قادر حكيم .

1 - السبحاني، معالم التوحيد في القرآن الكريم ص 190، 191، دار الأضواء .

2- إننا نرى الجبال موضعا للمعادن والجواهر وغير ذلك فكون الأرض واحدة في الطبيعة وكون الجبل واحدًا في الطبع وكون تأثير الشمس واحدًا في الكل نرى هذا التفاوت في الجبال، فهذا يدل دلالة ظاهرة على أن الكل بتقدير مدبر حكيم [1] .

3- إننا نرى الجبال وقد اشتملت على كثير من المنافع والمصالح والتي لا يمكن أن تكون حدثت لها على سبيل المصادفة، وإنما كانت بتدبير إله قادر حكيم، فهذه الجبال المركومة من الطين والحجارة والتي قد يحسبها الغافلون فضلة لا حاجة إليها، والمنافع فيها كثيرة فمن ذلك أن الثلج يسقط عليها فيبقى في قللها لمن يحتاج في القيظ إليه، ويذوب ما ذاب منه فتجري منها العين الغزيرة التي تجتمع منها الأنهار العظام، وينبت منها دروب من النبات والعقاقير التي لا ينبت مثلها في السهل ويكون فيها كهوف ومعاقل للوحوش من السباع العادية وتتخذ منها الحصون والقلاع المنيعة ويتخذ منها الحجارة للبناء [2] .

ثم نجد أن الحق سبحانه وتعالى يسوق لنا آيات أخرى يحدثنا فيها عن خلقه وتدبيره لشئون هذا الوجود منعمًا بأسبغ النعم الظاهرة والباطنة على خليفته في الأرض فبين أنه خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء به اهتزت الأرض وربت وأجرى البحار تتهادى الفلك على مياهها ثم سخر الشمس والقمر، فكان الليل والنهار يقول الحق تباركت أسماؤه في سورة إبراهيم: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا

1 - يراجع مفاتيح الغيب جـ 9 ص184، 185، وكذا د / محمود حجازي، التفسير الواضح ص 313، جـ 2، ط دار التفسير.

2 - الدلائل والاعتبار ص 15 .

سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾ [إبراهيم:32 : 34].

ويستخلص العقل البشري من خلال هذه الآيات عدة أشياء :

أولها :إنزال المطر من السماء فتهتز به الأرض وتربوا منبتة حدائق غناء مختلفة الصنوف والألوان فإنزال المطر من السماء يدل على وجود الحق تبارك وتعالى من وجوه :

1 - إن تلك الأجسام وما قام بها من صفات الرقة والرطوبة والعذوبة لا يقدر أحد على خلقها إلا الله تعالى يقول سبحانه وتعالى في سورة الملك ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك:30].

2 - إنه تعالى جعله سببًا لحياة الناس ولأكثر منافعهم يقول سبحانه وتعالى في سورة الأنبياء ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء:30]، وجعله أيضا سببا في رزقه يقول سبحانه في سورة الذاريات: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات:22].

3- إن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأودية العظام تبقى معلقة في جو السماء وذلك من الآيات الباهرة [1] .

4- وإذا كان المطر سببا في حياة الإنسان ورزقه فإن نزوله من جهة السماء يكون لحكمة وكونه في هيأة قطرات لحكمة أيضا وعن هذه الحكم الكامنة في نزول الأمطار وغيرها يقول الجاحظ :فكر في نزول المطر على الأرض والتدبر فيه، فإنه جعل ينحدر عليها من أعلى ليغشى ما غلظ منها فيرويه، ولو كان إنما يأتيها من بعض نواحيها لما علا المواضع المشرفة

1 - مفاتيح الغيب جـ2 ص 607، تفسير القرآن العظيم جـ2 ص 539، وكذا أ / محمد فريد وجدي تفسير القرآن ص 334، ط الشعب .

منها، ولقل ما يزرع من الأرض ألا ترى الذي يزرع سيحا أقل من ذلك، والأمطار هي التي تطبق على الأرض وبها تزرع البراري الواسعة وسفوح الجبال وذراها فتقل الغلة الكثيرة وبها ليسقط على الناس في كثير من البلاد مؤنة سياق الماء من موضع إلي موضع، وما يجري بينهم في ذلك من التشاحن والتظالم حتى يستأثر بالماء ذو العزة والقوة ويحرمه الضعفاء ثم إنه حين قدر أن ينحدر على الأرض انحدارا جعل ذلك قطرًا شبيها بالرش؛ ليغور في قعر الأرض فيرويها، ولو كان ينسكب انسكابا كان يظل على وجه الأرض فلا يغور فيها، ثم كان يحطم الزروع القائمة إذا أندفق عليها فصار ينزل نزولاً رقيقًا، فينبت الحب المزروع ويحيي الزرع أخرى فإنه يلين الأبدان ويجلو كدر الهواء فيرتفع الوباء الحادث من ذلك ويغسل ما يسقط على الشجر والزرع من الداء إلي أشباه هذه المنافع (1) .

ثم دليل ثان : على وجود الصانع والذي يكمن في تسخير الأنهار في هذا الوجود فلماذا لم يجعل كل ماء على وجه البسيطة ملحا أجاجا إنه لو كان كذلك لما استقام للإنسان عيش وما صلح له حال ومن ثم أنعم الله تعالى على خلقه بتفجير العيون والأنهار حتى ينبعث الماء منها إلي مواضع الزرع والنبات فماء البحر لا يصلح لهذه المهمة وإنما الصالح هي مياه الأنهار (2) . ذلك خلق وتقدير العزيز العليم.

ثم كان هناك نوع ثالث تمثل في الفلك وجريانها في البحار والأنهار وهذا أمر يدل على الخالق سبحانه وتعالى من عدة وجوه :

---

1 – الدلائل والاعتبار ص 18 .

2 – مفاتيح الغيب جـ 9 ص 348، ويراجع الإمام البيهقي، والأسماء والصفات ص 33، وما بعدها، ط دار الكتب العلمية بيروت .

1 – إن السفن وإن كانت من تركيب الناس إلا أنه تعالى هو الذي خلق الآلات التي بها يمكن تركيبها فلولا خلقه لها لما أمكن ذلك .

2 – لولا الرياح المعينة لما أمكن النفع بها .

3– لولا هذه الرياح وعدم عصفها لما بقيت وسلمت .

4 – إنه تعالى خص كل جزء من أجزاء العالم بنفع معين وأحوج الكل إلي الكل فصار ذلك داعيا يدعوهم إلي اقتحام أخطار البحار في هذه الأسفار، ولولا أنه تعالى خص كل طرف بشيء وأحوج الكل إليه لما امتطوا هذه السفن فالحامل ينتفع به والمحمول إله ينتفع بما حمل إليه .

5 – إن من أقوى الدلائل على وجود الله تعالى وعنايته بخلقه من خلال هذه النوع من البراهين أن الله سبحانه سخر البحر لحمل الفلك مع قوة سلطانه إذا هاج وعظم الهول فيه إذا أرسل الله الرياح فاضطربت أمواجه وتقلبت مياهه [1] .

إن هذه وغيرها دلائل عظيمة وآيات بينة باهرة تهتف بوجود الخالق المدبر سبحانه وتعالى وإليها كانت الإشارة أيضا في قوله جل وعلا في سورة الإسراء: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٦٦﴾ ﴾[الإسراء:66].

أيضا نجد قول الحق سبحانه وتعالى الذي يورد لنا فيه أنواعا من الدلائل يبرهن بها على وجوده وعنايته بهذا الكون والتي تمثلت في الحديث عن السماء وبروجها والأرض وامتدادها وما أنبت فيها من كل شيء موزون، ثم كان من دلائل الخلق التي تحدثت عنها الآيات الرياح

1 – تفسير القرآن العظيم جـ 2 ص 539، مفاتيح الغيب جـ 2 ص 606، جـ 9ص 347 .

المرسلة التي تثير السحاب فينزل القطر محملا بالحياة وتحمل حبوب اللقاح بين النباتات بعضها ببعض فتكون سببا للإثمار.

ثم نجد الحق سبحانه وتعالى يحدثنا عن آية من آياته في الخلق التي تنبئ عن وجوده وهي الرياح، والرياح أثر من آثار قدرة الله سبحانه وتعالى تدل على وجوده سبحانه من عدة وجوه منها :

1- إنها مخلوقة على وجه يقبل التصريف .. ثم إنه سبحانه يصرفها على وجه يقع به النفع العظيم في الإنسان والحيوان والنبات فهي مادة النفس التي لو انقطع لحظات عن أي حي لمات.

2- إنه لولا تحرك الرياح لما جرت الفلك وذلك مما لا يقدر عليه أحد إلا الله فلو أراد كل من في العالم أن يقلب الرياح من الشمال إلي الجنوب أو إذا كان الهواء ساكنا فأراد تحريكه لتعذر ذلك عليه [1].

3 - أيضا بهذه الرياح يكون تحريك السحاب والذي يكون بحركته نزول الماء من السماء والذي به قوام الحياة في هذا الوجود .

4 - لولا الرياح لما كانت عملية الإزهار والإثمار إذ أنها تحمل حبوب اللقاح بين النباتات.

إن الإنسان إذا تمثل في ذهنه كل المعاني السابقة لابد أنه سيوقن أن هذه الأشياء ليس للمصادفة فيها حظ أو نصيب، وإنما مردها ومنشأها إلي تقدير الخالق العزيز العليم .

---

1 - مفاتيح الغيب جـ2 ص 612، ويراجع الإسلام في عصر العلم ص 379، 380 .

وإذا كنا فيها تقدم لمسنا بأيدينا وجه الحاجة إلى مياه الأنهار فقد يتساءل الإنسان أي فائدة تكمن في مياه البحار.

هنا يجيب الحق سبحانه وتعالى بما ذكره في سورة النحل حيث يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٤﴾[النحل:14]. من خلال هذه الآية الكريمة يمكن أن نقف بعقولنا على ما يلي:

1 – إن الخالق لهذه البحار، والمسخر لها هو الله تعالى وحده إذ لو كان الإنسان هو المسخر لها لتحاشى نكباتها من إغراق وفيضانات وغير ذلك .

2 – إن من فوائد هذه البحار استخراج الإنسان منه لحمًا طريا صالحا لمعيشته متمثلا في أحيائها .

3 – إن الإنسان لا يمكنه أن يروي ظمأه بمائها فلا يستطيع بحال أن يستسيغ ملوحتها، فسبحان من اختص بعض خلقه بالحياة فيها .

4 – إن هذه البحار مكمن لكثير من الجواهر والثروات والتي منها اللؤلؤ والمرجان وغير ذلك .

5 – إن هذه البحار ترى الفلك مواخر فيها، فيحصل الانتفاع بما تحمله من بضائع وغير ذلك مما ينفع الإنسان .

والمتأمل في هذا كله لابد أن يزعن في النهاية إلي وجود إرادة قادرة وإله مدبر حكيم .

أيضًا نجد الحق سبحانه وتعالى يُحدثنا عن نوع آخر من الدلائل التي تبرهن على وجوده سبحانه تتجلى لنا هذه الدلائل فيما خلقه للبشر من أنعام يستدفؤن بِجلودها ويأكلون من

لحومها، ثم يكون إشباع النفس من حسنها وجمالها بالنظر إليها عند الغدوة والروحة، ولا نراها تتأبى على الإنسان إذا أثقل كاهلها بأمتعته ذلك لأنها مذللة له بأمر ربها، وإلا لو كان حصول هذا من تلقاء نفسها ما قضت للإنسان حاجة وما أعانته على تحصيل نفع أو مصلحة يقول سبحانه وتعالي في سورة النحل: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾[النحل: 5 : 8].

وبعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالى خلق الأنعام للأكل والحمل والجمال نراه يهيئ العقول البشرية لتقبل ما يستجد في حياتهم من أشياء أخرى تبرز إلي صفحة الوجود مما تقوم بمهمة الحمل والزينة وغير ذلك فيقول: ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

ثم نرى الحق سبحانه وتعالى يبين لنا آية أخرى تدل على عظمته في خلق الأنعام فيقول سبحانه وتعالى في سورة النحل: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾[النحل:66].

إن هذه دعوة من الله للإنسان بالنظر والاعتبار والتعقل وإشارة إلى طلاقة القدرة الإلهية بهذا الفعل العجيب في اللبن الذي تدره ضروع الأنعام مُستخلَصًا من بين فرث ودم.

وما تقدم من حديث القرآن عن الأنعام وخلقها ومنافعها يشير إليه الحق سبحانه وتعالى بقوله في سورة يس: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ٧٢ وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٧٣﴾ [يس:71 - 73] .

هكذا وقفنا على جانب من طلاقه القدرة الإلهية التي تنبئ عن وجود الحق سبحانه وتعالى وقد تمثل هذا في خلق الأنعام والذي تبين من حالها وبديع صنع الله فيها ما سبق ذكره وتقديره.

ومن هذا المنطلق نرى من البراهين التي يمكن أن يعول عليها في البرهنة على وجود الله سبحانه وتعالى ما تجلى في بديع صنعته فيما خلق من حشرات إذ يقول سبحانه وتعالى في سورة النحل ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل:68 - 69].

إن هذه دعوة صريحة من قبل الخالق سبحانه وتعالى إلى التفكير والنظر في النحل وأحواله وكيف هُدِيَ من قبل فاطره إلي الجبال والشجر فاتخذ منها بيتا وسكنا دون سواهما ودعوة صريحة أيضًا إلي إبطال الطبع لتنوع صنوف ما يخرج من بطنه من شراب مع أن جسده متساو في طبيعته ويشم رحيقا واحدًا إنَّ هذا كله يدل على وجود الخالق سبحانه وتعالى .

من هنا ندرك أنه إذا كان درُّ اللبن من الأنعام دليلا قاهرا وبينة باهرة على أنه لهذا العالم إله قادرا مدبرا حكيما، فكذلك إخراج الشهد المصفى من بطن النحل دليلًا قاطعا وحجة ساطعة على إثبات هذا المقصود أيضا ويظهر هذا الدليل أيضا فيما قرره الله تعالى في فطرة هذه الحشرة من أعمال عجيبة يعجز عنها العقلاء من البشر والتي تتمثل في :

1- بنائها لبيوت مسدسه من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها والعقلاء من البشر لا يمكنهم ذلك إلا بآلات وأدوات هندسية .

2 - أنه ثبت في علم الهندسة أن تلك البيوت لو كانت مشكلة بأشكال غير المسدسات فإنه يبقى بالضرورة فيما بينها فرج خالية ضائعة بخلاف ما إذا كانت تلك البيوت مسدسة فإنه ينتفي عنها ذلك فاهتداء تلك الحشرة الضعيفة إلي هذه الحكمة الخفية من الأعاجيب .

3 - أن النحل يحصل فيما بينه واحد يكون كالرئيس للبقية ذلك الواحد يكون أعظم حجما من الباقي، ويكون نافذًا الحكم فيهم وهم يخدمونه ويحملونه عند الطيران وذلك أيضا من الأعاجيب [1] .

إن الإنسان أمام كل هذه العجائب لا يمكنه إلا أن يوقن بوجد إله قادر مدبر حكيم هيئ كل شيء لما خلق له فإذا كان النحل قد اتخذ من الجبال والشجر مستقرا ومقاما، فإن فاطره ومليكه ألهمه أيضا أن يأكل من كل ثمر تشتهيه فيسلك بعد ذلك سبل ربه ذللا في الطرق التي أفهمه ربه إياها فيصنع العسل ثم يخرج بعد ذلك شراب مختلف ألوانه منه الأحمر والأبيض والأصفر وبهذا يتم إبطال القول بالطبع؛ لأن هذا الجسم مع تكوينه متساو الطبيعة فلما حدثت الألوان المختلفة دل ذلك على أن حدوث تلك الألوان بتدبير الفاعل المختار[2] .

إن ذلك الشراب الذي اختلف ألوانه فيه شفاء للناس وهذا من بديع صنع الله الذي أخرج من بطن حشرة ضعيفة لولا ذكر القرآن لها لكانت خاملة ما به يستشفى من كثير من الأوبئة والأمراض وما أجمل حديث الجاحظ عن النحل وأعماله ودلالة هذه الأعمال على الخالق سبحانه وتعالى والذي يقول فيه : انظر إلي النحل واحتشاده في صنعة العسل وتهيئة البيوت المسدسة على عمل ما يصل لصنعته، وما يرى في ذلك من دقائق الفطنة التي وصفها

---

1 - يراجع مفاتيح الغيب جـ 9 ص 575 .

2 - مفاتيح الغيب جـ 9 ص 579 ، ويلاحظ أنه يمكن حمل التذليل أيضا على تيسير الحق لها سبل الحياة والمعاش لتحصل بذلك على قوتها .

المتكلمون في الطبائع، فإنك إذا تأملت العمل رأيته عجيبا لطيفا، وإذا نظرت إلي المعمول وجدته شريفا عظيما موقعه من الناس وإذا رجعت إلي العامل وجدته غبيا جاهلا بنفسه فضلا عما سوى ذلك ففي هذا أوضح الدلالة على أن الصواب والحكمة في هذه الصنعة ليس للنحل، بل للذي طبعه عليها وسخره فيه لمصلحة الإنسان [1] .

ومما يدلل به الحق سبحانه وتعالى على وجوده آية تتعلق بالحديث عن السماء والأرض وما حولها من كواكب وأفلاك وكيف أنهما كانتا كلا مجتمعا ثم حدث انفصال بين هذه الكواكب والأفلاك وهذه حقيقة هلل لها العلم الحديث عند الوقوف عليها، ثم كانت الحقيقة الثانية التي أخذت بالألباب وهي أن الماء أصل لهذه الحياة، وقد أذعن لهذا العلم الحديث أيضا يقول سبحانه وتعالى في سورة الأنبياء: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء:30 - 33] .

يقول الإمام الرازي في تعليقه على هذه الآيات : اعلم أنه سبحانه و تعالى شرع بهذه الآيات إلي إقامة الدلائل التي تدل على وجوده ... ودلالة هذه الآيات على وجود الصانع ظاهرة؛ لأن أحدا لا يقدر على مثل ذلك [2] .

أيضًا نجد من الآيات التي يدلل بها الحق سبحانه وتعالى على وجوده وعنايته بالخلق قوله تعالى في سورة النور: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ

1 – الدلائل والاعتبار ص 39، معالم التوحيد ص 195 .

2 – مفاتيح الغيب جـ 11، ص 114، ويراجع الظلال جـ 4 ص 2377 .

خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور:43]. إن الحق سبحانه وتعالى بهذه الآية الكريمة يبرهن على وجوده وعنايته بهذا الكون وما فيه، وذلك من خلال ظاهرة نزول المطر واقترانه بالسحاب، وكيف أنه سبحانه بقدرته وحكمته يرسله إلي من يحتاج إليه من عباده وفي الوقت ذاته يصرفه عن من ليس في حاجة إليه.

وما تقدم يشير إليه الحق سبحانه وتعالى بقوله في سورة الروم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الروم:48] . ومن خلال ما تقدم يمكن أن نشير إلي أن السحاب خلق من مخلوقات الله تعالى، ومن ثم يمكن الاستدلال به على وجود الله تعالى من حيث تسخير الله له بعدة وجوه :

أ – إن طبع الماء الثقل وهذا يقتضي النزول فكان بقائه في جو السماء على خلاف الطبع، فلابد من مدبر اقتضى نزوله .

ب – إن هذا السحاب لو دام لعظم ضرره من حيث إنه يستر ضوء الشمس ويُكَثِرُ الأمطار والابتلال ولو انقطع لعظم ضروه لأنه يقتضى القحط وعدم العشب والزرع، فكان تقديره بالمقدار المعلوم هو المصلحة فهو كالمسخر لله سبحانه يأتي به في وقت الحاجة ويرده عند زوال الحاجة .

ج – أن السحاب لا يقف في موضع معين، بل يسوقه الله تعالى بواسطة تحريك الرياح إلي حيث أراد وشاء فذلك هو التسخير [1] .

1 – يراجع مفاتيح الغيب ج 2 ص 613 .

وإذا كان هذا جانبا من حديث الآيات القرآنية عن المطر واقترانه بالريح والسحاب فإننا نجد القرآن الكريم أيضا يسوق لنا دليل آخر على وجود الحق سبحانه وتعالى والذي يتمثل في تنوع الأحياء مع اتحادها في الأصل والطبيعة، ومن ثم تنتفي المصادفة إذ أن هذا التنوع في الأحياء مع كونها متحدة في أصلها وطبيعتها لا يمكن أن يدع مجال للقول بالمصادفة يقول سبحانه وتعالى في سورة النور: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ [النور:45]. إن القرآن الكريم من خلال هذه الآية الكريمة ليلفت النظر إلي ذلك التنوع الموجود في الكائنات إذ منها الزواحف التي تمشي على بطنها، ومنها الإنسان الذي يمشي على رجلين، ومنها ما يمشي على أربع، وهذا يدل على وجود منوع إذ أن مجرد الاتحاد في الأصل يوجب الاتحاد في كل شيء لا التنوع، ولكنَّ هذا لم يحدث وإنما حدث نقيضه مما يدل على أن كل شيء مرده إلي قدرة إله مدبر حكيم، ولعلنا لاحظنا الإشارة القرآنية في أن الكائنات على تنوعها مخلوقة من ماء وهذا يدل على سبق القرآن الكريم للعلم الحديث في تقرير هذه الحقيقة.

هنا ننظر إلي روعة البيان القرآني إذ أنه في معرض الحديث عن ذلك في آية سورة الأنبياء قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:30] بتعريف الماء أمَّا في هذه الآية فقد ورد الماء منكرًا، والمعنى بناءًعلى آية سورة الأنبياء أن كل حي أصله الماء، وعلى هذه الآية أن كل حي وإن كان أصله الماء إلا أن لكل نوع ماء مخصوص به وبه يختلف عن غيره. يقول الإمام الرازي في وجه الاستدلال بهذه الآية الكريمة على وجود الصانع الحكيم : إن وجه الاستدلال بها على الصانع ظاهر؛ لأنه لو كان الأمر بتركيب الطبائع الأربع [1] فذلك بالنسبة

1 – الطبائع الأربعة هي الماء والتراب والنار والهواء .

إلي الكل على السوية فاختصاص كل واحد من هذه الحيوانات بأعضائها وقواها ومقادير أبدانها وأعمارها وأخلاقها لابد وأن يكون بتدبير مدبر قاهر حكيم [1].

هذا جانب من حديث القرآن الكريم عن دليل الخلق والعناية به في الآفاق، وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تدلل على وجود الصانع سبحانه وتعالى من هذه الجهة إلا أن المتأمل فيها يجدها تعود في حقيقتها إلي ما سبق ذكره من دلائل صدعت بها الآيات السابقة فمن هذه الآيات قوله في سورة طه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه:53 - 54]، وقوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [الشعراء:7]، وقوله تعالى في سورة الجاثية ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الجاثية:4 - 5]، وقوله تعالى أيضا في سورة الجاثية: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية:12- 13]، وقوله تعالى أيضا سورة الذاريات: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات:47 - 49]، وقوله تعالى أيضا في سورة الواقعة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ

1 – مفاتيح الغيب ج 11، ص 617، وكذا روح المعاني ج 18 ص 193، كذا جامع البيان ج 9 ص 378، وكذا الجامع لأحكام القرآن ج 6 ص 4829 وما بعدها .

تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة:63 - 70]

وقوله تعالي في سورة الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ [الملك:3 - 5]، وقوله تعالى في سورة نوح: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح:15 - 16]، وقوله تعالى في سورة النبأ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ:6 - 16]، وقوله تعالى في سورة النازعات: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات:27 - 33]، وقوله تعالى في سورة عبس: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس:24 - 32]، وقوله تعالى في سورة الغاشية: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية:17 - 20].

هذا قليل من كثير من الآيات القرآنية الكريمة التي تناولت بالحديث دليل الخلق في الآفاق وما يلحقه من عناية وقد دلت بوضوح وجلاء على وجود الحق سبحانه وتعالى .

ب. دليل الخلق في الأنفس:

1- خلق الإنسان الأول :

قد تتملك الإنسان الحيرة ويأخذه العجب إذا تناول الإنسان الأول بالحديث من حيث الاستدلال به على وجود الله تعالى، ولعل السبب في هذا مكمنه أننا نتناول أمرًا لم نشهده بأعيننا، ولم نحط به علما، وقد احتج الله سبحانه وتعالى على كل إنسان حاول أن يقحم نفسه أو فكره في هذه المسألة؛ لأنه إقحام لعقله في غيب لم يشهده ولم يقف عليه يقول سبحانه وتعالى في سورة الكهف: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١﴾ [الكهف:51]. فالسماوات والأرض وإن كنا لم نشاهد ابتداء خلقهما إلا أنهما ماثلتين أمام الأعين والأبصار، ومن ثم يمكن الاستدلال بهما على وجود مكونهما إذ الأثر يد ل على المؤثر، أمَّا الإنسان الأول فليس معنا الآن سوى حديث الوحي المعصوم عنه، والذي تارة يحدثنا عنه أنه خلق من تراب يقول تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾ [آل عمران:59]. ويقول سبحانه وتعالى في سورة الروم: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ [الروم:20].

ثم يحدثنا القرآن الكريم بعد ذلك أنه خلق من طين يقول تعالى في سورة الأنعام: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ﴾ [الأنعام:2]، ويقول تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعراف:12]، ويقول في سورة الإسراء: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ٦١﴾ [الإسراء:61]، ويقول تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢﴾ [المؤمنون:12]،

ويقول في سورة السجدة: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧﴾ [السجدة:7]، ويقول تعالى في سورة ص: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١﴾ [ص:71].

ثم نجد القرآن يحدثنا بعد ذلك أنه خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون يقول في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٦﴾ [الحجر:26].

ثم نراه يبين أنه خلق الإنسان من صلصال كالفخار يقول تعالى في سورة الرحمن: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤﴾ [الرحمن:14].

فخلقكم من تراب أي خلق أصلكم منه، وخِلقَته من طين أي أصل آدم من الطين، وهو التراب إذا اقتران بالماء وصلصال من حمأ مسنون، وهو الطين إذا غاب فتغيرت رائحته أما الصلصال الفخار فهو الطين اليابس له صلصلة، فإذا نُقر عليه خرج منه صوت .

لقد ظن بعض الناس أن القرآن الكريم عندما ذكر هذا التعدد في بدأ الخلق قد وقع بهذا في تناقض، والحق أنه ليس ثمة تناقض على الإطلاق إذ التراب إذا سكب عليه ماء صار طينا، ثم يكون بعد ذلك حمأ مسنون، فإذا وضع في النار صار "صلصال كالفخار"، ثم نرى للقرآن الكريم حديثا عن خلق الإنسان من نطفة إلي علقة إلي مضغة إلي عظام تكسى بعد ذلك باللحم مما يدل على وجود خالق للإنسان مدبر لأمره، ومن ثم يحدثنا الإمام الأشعري عن المعنى السابق فيقول: "إن سأل سائل فقال ما الدليل على أن للخلق صانع صنع ومدبرا دبر.

قيل له: الدليل على ذلك أن الإنسان الذي هو غاية الكمال والتمام كان نطفة ثم علقة ثم لحما ودما وعظما، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال إلى حال؛ لأننا نراه في حال كما قوته وتمام عقله لا يقدر أن يحدث لنفسه سمعا ولا بصرا ... وإذا كان تحول النطفة علقة ثم مضغة

ثم لحما ودما وعظما من الأعاجيب دل هذا على صانع صنع النطفة ونقلها من حال إلي حال[1].

ثم نرى الإمام الإسفراييني وقد تناول أيضا دليل الخلق بالحديث منطلقا من قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الطور: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور:35]، فقال رحمه الله : يجب أن نعلم أن المخلوق لابد له من خالق، وقد نبه الله تعالى على أصل هذه الدلالة بقوله تعالى في سورة الطور: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ معناه أم خلقوا من غير خالق، كأنه قال من غير شيء خلقهم لمَ تقرر من استحالة ثبوت ما ثبت بوصف الخلق من غير خالق خلقه ولا صانع دبر وضع [2].

كذلك يحدثنا الإمام الباقلاني عن دليل الأنفس ودلالته العقلية على وجود الله تعالى إذ أننا نرى الإنسان وقد كان نطفة ثم علقة ثم مضغة وهكذا حتى صار بشرا سويا ثم استوي في خلقته حتى صار ذا عقل راجح وناضج به يدركُ كُلٌّ هذا يجعل الإنسان يجزم بوجود خالق لبشر قبلهم في جميع مراحل حياتهم.

يقول الإمام الباقلاني : ويدل على صحة ذلك أيضا أن وجدنا أَنْفَسَ الموجودات في العالم الحي القادر المحصل وهو الآدمي، ثم أكمل ما تكون.

نعلم أنه كان في ابتداء أمره نطفة ميتة لا حياة فيها ولا قدرة ثم نقل إلى العلقة ثم إلى المضغة ثم من حال إلى حال ثم بعد خروجه حيًا من الأحشاء إلى الدنيا نعلم ونحقق أنه كان في تلك الحالة جاهلا لنفسه، وهو في حال كماله لا يمكن أن يحدث في بدنه شعرة ولا عرقًا، فكيف يكون محدثا لنفسه ومنقلًا لها في حال نقصه من صورة إلى صورة، ومن حالة إلى حالة

1 – الإمام الأشعري اللمع ص 18 ، تح حمودة غرابة، ط الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية .

2 – الإمام الإسفرايني، التبصير في أصول الدين ص 140، ط بيروت .

وإذا بطل ذلك منه في حال كماله كان أولى أن يبطل ذلك منه في حال تقصه، ولم يبق إلا أن له خالق خلقه ومصور صوره و منقل نقله وهو الله [1] وهذا ما أشار إليه الحق سبحانه في قوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[المؤمنون:12 - 14].

ويقول الإمام الرازي: إنه لا سبيل إلي معرفة الله تعالى إلا بواسطة أفعاله التي لا يشاركه فيها أحد من القادرين، والإحياء والإماتة كذلك؛ لأن الخلق عاجزون عنهما والعلم بعد الاختيار ضروري، فلابد من مؤثر آخر غير هؤلاء القادرين الذين تراهم، وذلك المؤثر إما أن يكون موجبا أو مختارًا والأول باطل؛ لأنه يلزم من دوامه دوام الأثر، فكان يجب أن لا يتبدل الإحياء بالإماتة وأن لا تتبدل الإماتة بالإحياء، والثاني وهو أنا نرى في الحيوان أعضاء مختلفة في الشكل والصفة والطبيعة والخاصية وتأثير المؤثر الموجب بالذات لا يكون كذلك، فعلمنا أنه لابد في الإحياء والإماتة من وجود آخر يؤثر على سبيل القدرة والاختيار في إحياء هذه الحيوانات وفي إماتتها وذلك هو الله سبحانه وتعالى [2] .

ملاحظات على دليل الخلق:

1- إن دليل الخلق وما يلحقه من عناية يقوم على نفي الاتفاق والمصادفة في قضية الخلق والإبداع إذ المصادفة لا يتأتى بحال أن يصدر عنها هذا الإتقان في الصنع، والذي نراه في خلق السماوات والأرض وما بينهما وخلق الإنسان وغير ذلك.

---

1 - الإنصاف ص 32 .

2 - مفاتيح الغيب جـ 3 ص 561 .

2- إن هذا الدليل يقوم أيضا على نفي الذاتية في الخلق إذ يلزم من هذا كون الخالق والمخلوق شيئًا واحدًا وهذا تناقض بين إذ يؤدى إلي كون الشيء متقدمًا ومتأخرًا في آن واحد أضف إلي ذلك أن الخلق لو كان ذاتيا في الأشياء لوهب الجماد نفسه الحياة فلابد من التسليم بوجود إله حكيم قادر على الخلق والتدبير.

3- إننا نجد الآيات القرآنية التي تناولت هذا الدليل بعضها يدل على الخلق منفردًا مثل قوله تعالى في سورة الغاشية: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧﴾ [الغاشية:17]، ومنها آيات تدل على العناية فقط مثل قوله تعالى في سورة النبأ: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧﴾ [النبأ:6- 7]، وهناك آيات تجمع بين الخلق والعناية مثل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ ﴾ [البقرة:22]. فقوله تعالى ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ دليل على الخلق وقوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ ...﴾إشارة إلي العناية.

4- إن هناك ارتباطًا بين العناية والخلق إذ العناية تدل على الخلق من باب الأولى فما دام الحق سبحانه قد جعل السماء بناءًا والأرض فراشًا والقمر نورًا والشمس سراجًا، فمن باب الأولى هو الخالق لكل هذا.

5- إن آيات الخلق والعناية في القرآن الكريم في معظمها تحمل في طيها الدعوة إلي استنباط الدليل العقلي من خلالها على وجوده سبحانه وتعالى، فما أكثر الآيات التي ذيلت بقوله تعالى: (أفلا تعلقون) (لعلهم يعقلون) (لعلهم يتفكرون) (لآيات لأولى الألباب).

6- إن القرآن الكريم حال حديثه عن الخلق وما يشمله من عناية نراه وقد أورد العديد من الحقائق العلمية المتعلقة بالظواهر الكونية من نجوم وأفلاك وشموس وأقمار وأنهار وبحار، وقبل كل هذا أرض وسماء، وفيما يتعلق بالإنسان وخلقه قبل أن يعرف العلم الحديث عن ذلك شيئًا بعشرات القرون مع التأكيد الذي ننبه عليه دائمًا أن القرآن الكريم من قبل ومن بعد كتاب هداية من رب الناس إلي الناس .

ثانيا : دليل الحدوث :

دليل الحدوث من الأدلة التي يكمن إثبات الوجود الإلهي من خلالها حيث يقوم هذا الدليل على إثبات الحدوث للعالم وما يحويه من أشياء، ويتم ذلك ببيان ما يعتريه من تغير وحركة وسكون وربو واضمحلال، وتحيز وغير ذلك من الأشياء التي تدل على الحدوث، ومن ثم نقول ما دام العالم يحوي هذه الأشياء إذًا فهو حادث، ومن البداهة أن نقول إن كل حادث لابد له من محدث، وهو الله تعالى "فبرهان الحدوث هو البرهان الذي يعتمد على حدوث الكون وما فيه وملخصه: أن لهذا الكون بداية، وإنه لذلك مسبوق بالعدم، ومن البديهي أن ما يكون مسبوقا بالعدم أي كان حادثا فله محدث بالضرورة لامتناع وجود الحادث دون محدث [1].

وهذا أمر وإن كنا لم نقف عليه بأعيننا إلا أن العلم الحديث أثبته وبرهن عليه، ومن ثم فقد جعل العلم الحديث من قضية حدوث العالم قضية يقينية ثابتة بالبرهان، ومادام الأمر كذلك فمن البداهة أن يكون له محدث.

---

1 - معالم التوحيد ص 110 .

وشهادة العلم الحديث للعالم بالحدوث إنما هي قائمة على قوانين الديناميكة الحرارية والتي تثبت أن الحرارة المبثوثة في هذا العالم مصيرها إلي الزوال، وهنا تستحيل الحياة.

وهذا دليل على أن الكون في أساسه يرتبط بزمان معين يقول البروفيسور (فرانك ألن) [1] : إن مكونات الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا، وأنها سائرة إلي يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض وهي الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة ولا مناص من حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقات عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلي الصفر المطلق بمضي الوقت أما الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة والأرض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على أن أصل الكون وأساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة فهو إذا حدث من الأحداث، ومعنى ذلك أنه لابد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية عليم محيط بكل شيء قوى ليس لقدرته حدود، ولابد أن يكون هذا الكون من صنع يديه [2] .

وهكذا أثبت العلم الحديث وجود الله تعالى عن طريق الحدوث للعالم استنادا على أن الحادث ماله بداية ونهاية، وهذا هو شأن العالم.

أيضا نجد ابن بابويه وقد أثبت الوجود الإلهي عن طريق إثباته لحدوث العالم معتمدا على أن العالم أيس بعد ليس[3]، وما يحويه من كائنات وغير ذلك يعتريها الزيادة والنقصان، وتتبدل عليها الأحوال والهيئات، ويرد عليها الاجتماع والتفرق والحركة و السكون وما إلي ذلك من أمارات الحدوث، ومادامت حادثة فلابد لها من محدث .

1 -أستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانتويا بكندا .

2 – جون كلوفر موتسما، الله يتجلى في عصر العلم ص 6، تح د / دمرداش عبد المجيد سرحان، ط الحلبي .

3 – الأيس هو الوجود والليس هو العدم .

يقول ابن بابويه: الدليل على حدوث العالم أنه كان بعد أن لم يكن .. وإنا وجدنا أنفسنا وسائر الأجسام لا تنفك مما يحدث من الزيادة والنقصان وتجرى عليها من الصنعة والتدبير ويعتورها من الصور والهيئات .. ومن الدليل على أن الأجسام محدثة أن الأجسام لا تخلو من أن تكون مجتمعة أو مفترقة ومتحركة أو ساكنة والاجتماع والافتراق والحركة والسكون محدثة، فعلمنا أن الجسم محدث لحدوث ما لا ينفك عنه ولا يتقدمه، وإذا ثبت أن العالم وما فيه من أجسام محدثه فما الدليل على أن له محدثا.

نقول: إنا وجدنا الحوادث كلها متعلقة بالمحدث، فإن قيل ولما قلتم إن المحدثات إنما كانت متعلقة بالمحدث من حيث كانت محدثة نقول: لأنها لو لم تكن محدثة لم تحتج إلي محدث ألا ترى أنها لو كانت موجودة غير محدثة أو كانت معدومة لم يجز أن تكون متعلقة بالمحدث، وإذا كان ذلك كذلك فقد ثبت أن تعلقها بالمحدث إنما هو من حيث كانت محدثة فوجب أن يكون حكم كل محدث حكمها في أنه يجب أن يكون له محدث [1].

وما تقدم معتَمَدُ القاسمي في إثبات الوجود الإلهي غير أنه يفترض أن الحوادث إذا استندت في وجودها إلي محدث فإن كان هذا المحدث حادثا هو الآخر فلابد له من محدث مباين له حتى نصل في النهاية إلي مسبب الأسباب الذي استمد وجوده من ذاته.

ويقول الميداني متحدثا عن دليل الحدوث :إننا نسير في هذا الدليل على ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى من الدليل: ننظر إلي الموجودات الكونية ... نجد التغير لا ينفك عنها أبدًا فما من شيء في هذا الكون الفسيح إلا هو في أوضاع من التغيرات الكثيرة المستمرة فهذه التحاويل الكونية في المواد الكيمائية حوادث مستمرة، ونرى التغير في تحويل البذور

1 – ابن بابويه التوحيد ص 298 وما بعدها ويراجع الفصل ج 1 ص 18 .

إلي أشجار وثمار ثم تحولها إلي رماد وهشيم ... ونرى ذلك في تحول الأغذية إلي دماء في الأحياء ثم إلي نطف.

أما المرحلة الثانية من الدليل فنقول: إن التغير لا ينفك عقلا عن معنى الحدوث إذ أن التغير المكاني الذي هو أبسط أنواع التغيرات لم ينفك عن معنى الحدوث في جهة والانعدام في جهة أخرى.

أما المرحلة الثالثة من الدليل فنقول فيها: إن من المسلم به أن كل هذه التغيرات الكونية لابد لها قطعا من سبب حقيقي كامل القدرة صدرت عنه هذه القوى الكونية الكبرى، وقامت بخلق هذه التغيرات الكونية الهائلة والحوادث العجيبة وكامل الحياة أيضا وبث صورة الحياة في أجساد، وكامل العلم صدرت عنه العقول القابلة للعلم والمعرفة، وكامل الحكمة صدر عنه كل أمر متقن محكم إلي غير ذلك من صفات الكمال، ولا يمكن أن يكون هذا القادر الحي الحكيم العليم إلا منزها عن التغير والتحول والضعف، فلابد أن يكون ثابتا كامل الصفات واجب الوجود في ذاته وفي صفاته لئلا يلزم احتياجه إلى سبب آخر بمقتضى التشابه بينه وبين عالم المتغيرات لو كان ذلك وهو محال عقلا، وهذا الذي هو واجب الوجود في ذاته وفي صفاته هو الله تعالى [1].

وإذا كان هذا هو دليل الحدوث وكيفية الاستدلال به على وجود الخالق تعالى كما ارتآه بعض الباحثين، فإن هذا الدليل قد قرره القرآن الكريم كأحد الأدلة التي بها يستدل على وجود الله تعالي متخذا من التغير والتحيز وغير ذلك براهين على حدوث الأشياء ومن ثم

1 – الميدان العقيدة الإسلامية وأسسها ص 120 وما بعدها .

يكون لها محدثا، وقد ورد ذكر هذا الدليل في كثير من الآيات الكونية المتعلقة بالآفاق والأنفس.

أما الآيات الكونية المتعلقة بالآفاق فمنها قول الله تعالى في سورة النور: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ [النور:43 - 45].

ولكن ينبغي أن نعلم ثمة فرق بين دليل الخلق ودليل الحدوث إذ الأول يرتكز في إثبات الخلق والإبداع على نفى المصادفة والإتفاق والتولد الذاتي أما دليل الحدوث فيقوم على إثبات الحدوث للكائنات عن طريق أدلته ومن ثم يتثنى إثبات الوجود على اعتبار أن الحادث لابد له من محدث.

ومن هذا المنطلق نقول إن من الآيات الآفاقية التي يمكن إثبات الحدوث للأشياء من خلالها ومن هنا يكون إثبات المحدث لها قول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:164]، ويقول تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ

هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام:75 - 79].

إن هذا الآيات وغيرها كثير يدل على إثبات الحدوث للكائنات بناء على إثبات تغيرها، ومن ثم يكون لها محدثا، وفي هذا يقول الإمام البيهقي ت (458): لقد ذكر الله عز وجل السماوات بما فيها من الشمس والقمر والنجوم المسخرات، وذكر خلق الأرض بما فيها من البحار والأنهار والجبال والمعادن، وذكر اختلاف الليل والنهار وأخذ أحداهما من الآخر، وذكر الفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس، وذكر ما أنزل من السماء من المطر الذي فيه حياة البلاد وبه وبما وضع الله في الليل والنهار من الحر والبرد يتم رزق العباد والبهائم والدواب، وذكر ما بث في الأرض من كل دابة مختلفة الصور والأجسام مختلفة الألسنة والألوان، وذكر تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض وما فيهما من منافع الحيوانات وما في جميع ذلك من الآيات البينات لقوم يعقلون ... ثم إن الله حضهم على النظر في ملكوت السماوات والأرض وغيرهما من خلقه فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف:185]. يعني أو لم ينظروا فيها نظر فكر وتدبر حتى يستدلوا بكونها محلا للحوادث والتغيرات على أنها محدثات وأن المحدث لا يستغني عن صانع يضعه على هيئة لا يجوز عليه ما يجوز على المحدثات كما استدل إبراهيم الخليل عليه السلام

بمثل ذلك فانقطع عنها كلها إلى رب هو خالقها ومنشأها فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾[1].

وإذا كان ما تقدم من آيات تعد نماذج لحديث القرآن الكريم عن دليل الحدوث في الآفاق فإننا نجد للقرآن الكريم حديثا آخر عن هذا الدليل من خلال الأنفس فمن ذلك قول الحق سبحانه وتعالى في سورة نوح: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤)﴾ [نوح:13 - 14]، وقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ [الزمر:6]، وقوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥)﴾ [المؤمنون:12 - 15]، ويقول تعالى في سورة الروم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)﴾ [الروم:54].

فهذه الآيات وغيرها دلائل يراها الإنسان شاخصة في نفسه ماثلة في ذاته تدل على وجود الله سبحانه وتعالى إذ الإنسان من بدء خلقته تتبدل به الأحوال في بطن أمه يتقلب من نطفة إلي علقة إلي مضغة إلي عظام ثم تكسى العظام بعد ذلك لحما فينشئ بعد ذلك خلقا آخر، وبعد أن يخرج الإنسان من بطن أمه ويحل ضيفا على صفحة الوجود تراه يكون في المهد طفلا ضعيفا ثم يكون في صباه شابا فتيا ثم ينتقص به العمر فيصير شيخا كهلا، فوجود الإنسان بعد أن لم يكن وتقلبه في هذه التغيرات يدل على حدوثه وكونه محلا

---

1 – الإمام البيهقي الاعتقاد على مذهب السلف ص 9 وما بعدها، ط الأولى 1984 م، دار الكتب العلمية بيروت .

لحوادث يطرأ عليه ما يطرأ على الكون من تغير وسكون وحركة؛ لأجل هذا لابد أن ننتهي إلي إثبات وجود محدث قادر حكيم وهو الله تعالى يقول الإمام البيهقي : إن الله قد بين في كتابه العزيز تحول أنفسنا من حالة إلي حالة وتغيرها ليستدل بذلك على خالقها ومحولها ... فالإنسان إذا فكر في نفسه رآها مدبرة، وعلى أحوال شتى مصرفة، كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحما وعظما - فيعلم أنه حادث ومحل للحوادث - ويعلم أنه لم ينقل نفسه من حال النقص إلي حال الكمال؛ لأنه لا يقدر أن يحث لنفسه في الحال الأفضل التي هي كمال عقله وبلوغ أشده عضوا من الأعضاء، ولا يمكنه أن يزيد في جوارحه جارحة، فيدله ذلك على أنه في حال نقصه وأوان ضعفه عن فعل ذلك أعجز، وقد يرى نفسه شابا ثم كهلا ثم شيخا وهو لم ينقل نفسه من حال الشباب والقوة إلي الشيخوخة والهرم ولا اختاره لنفسه، ولا في وسعه أن يزيل حال المشيب ويرجع قوة الشباب، فيعلم بذلك أنه ليس هو الذي فعل هذه الأفعال بنفسه، وأن له صانعا صنعة وناقلا نقله من حال إلي حال لولا ذلك لم تتبدل أحواله بلا ناقل ولا مدبر [1] .

هذا جانب من حديث القرآن الكريم عن دليل الحدوث وكيفية الاستدلال به على وجود الخالق جل وعلا نلمح فيه العقلانية والموضوعية، ونلاحظ فيه تذييل الكثير من آياته بألفاظ التفكر والتعقل واللب وما يرادف هذا، وكأنه يدعونا بذلك إلى النظر في هذه الآيات متعقلين لها مستخلصين من ثناياها الدليل على وجود الباري سبحانه.

ورأينا هذا الدليل وقد اعتمد في إقامته على إثبات الحدوث للعالم فتواترت الدلائل على حدوثه حتى أضحى حدوثه أمرا مسلما به بعد أن أثبت العلم التجريبي ذلك، ومن ثم

---

1 - الاعتقاد ص 13، 14 .

تلاشت نقطة الضعف في هذا الدليل هذه النقطة التي كانت قديما مجالا للأخذ والرد حتى بلغ الأمر أن يوضع لها بضعة عشر مقدمة حتى تسلم من النقد، ومع هذا وجد من يشكك فيها.

وبإثبات الحدوث للعالم عن طريق العلم التجريبي أصبح دليل الحدوث الذي عول عليه المتكلمون أكثر قوة من دليل الإمكان لدي الفلاسفة.

ذلك أن دليل الإمكان عند الفلاسفة إنما يقوم على مقدمة بدهية لا سبيل للطعن فيها، وهي قولهم: **لابد من وجود موجود**، وهذا أمر شهدت به البداهة وأذعنت لحكمه المشاهدة بخلاف دليل الحدوث الذي كان قبل برهنة العلم التجريبي يقوم على مقدمة نظرية وهي قولهم: **العالم حادث**، فأضحى دليل الحدوث بهذا مقدما على دليل الإمكان إذ يتلاءم مع ما قرره العلم التجريبي مع ملاحظة أن الفلاسفة لم يقولوا بدليل الحدوث حتى لا يلزمهم التسليم بحدوث العالم في حين أن الذي يلزمهم هو قدمه، وينبغي أن نلاحظ أيضا أن بعض المتكلمين وإن استدلوا على وجود الله تعالى بدليل الإمكان سواء في الجواهر أو الأعراض فهم مع هذا لم ينحوا منحى الفلاسفة في الاستدلال، وما يلزم عليه، وإنما استدلالهم بالإمكان لا يكون إلا مقترنا بالحدوث شرطا أو شطرًا[1].

ثالثا : دليل استمرار الوجود :

من الدلائل التي يمكن التعويل عليها في البرهنة على وجود الله تعالى دليل استمرار الوجود، وهذا الدليل يقوم على أن الخلائق إذا كانت في أصل وجودها قد احتاجت إلي موجد وهو الله تعالى كذلك تحتاج أيضا في حفظ هذا الوجود واستمراره إلي نفس الموجد

1 – والإمكان عند فلاسفة المسلمين نوعان: الإمكان العام وهو سلب الضرورة عن أحد الطرفين. ويرد في كلامهم: إن الله موجود بالإمكان العام. والثاني الإمكان الخاص، وهو سلب الضرورة عن الطرفين، وهو ينافي الوجوب مطلقا.

كي يحفظ عليها ذلك الوجود إذ إن أصل وجودها لم يكن من ذاتها، ومن ثم فهي في حاجة إلي غيرها كي يستمر بها ذلك الوجود، وذلك الغير لا يكون بحال من بني نوعها إذ كلهم في الاحتياج بالنسبة لأصل الوجود واستمراره سواء لذا لزم الانتهاء إلي موجود واجب الوجود استمد وجوده من ذاته، وهذا الدليل كما سبق عرضه ترشيد إليه آيات كثيرة منها قوله تعالى في سورة النحل: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النحل:79]، وأيضا قوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ [الحج:65]، وقوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [المؤمنون:17]، وقوله تعالى في سورة فاطر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر:41].

فهذه الآيات تبين أن السماوات والأرض وما فيهن لا بقاء ولا استمرار لوجودهم من ذاتهم، ولكن بقاء الوجود إنما يكون من الغير وهو الله وما دامت الأشياء في بقاء وجودها تستند إلي موجد الوجود فحفظه لوجود الكائنات دليل على إثبات وجوده يقول الإمام الألوسى : إن الله تعالى يحفظ السماوات والأرض أن تزولا أو تضمحل فإن الممكن كما يحتاج إلي الواجب سبحانه حال إيجاده يحتاج أيضا حال بقائه فالله يحفظ على الكائنات وجودها بقدرته بعد أن ابتداء خلقها [1].

ويقول الإمام الرازي: إنه تعالى حي قيوم فقيوميته تقتضي أن يكون قائما بذاته ومقوما لغيره، وهذا يقتضي حدوث كل ما سواه جسما كان أو روحا أو عقلا أو نفسا، ويقتضي استناد

---

1 - روح المعاني ج 21 ص 402، ويراجع أنوار التنزيل ج2 ص 184 .

الكل إليه وانتهاء جملة الأسباب والمسببات إليه ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:255] أي: لا يغفل عن تدبير الخلق؛ لأن القيم بأمر الطفل لو غفل عنه ساعة لاختل أمر الطفل وهو سبحانه قيم جميع المحدثات وقيوم الممكنات فلا يمكن أن يغفل عن تدبيرهم[1] . وهذا يقتضي استمرار ودوام وجوده سبحانه وتعالى.

ومما ينبغي أن نعلمه أن هناك من العلماء من أطلق على هذا الدليل دليل الخلق المستمر، وذلك استنادًا عندهم إلي أن الزمان آنات منفصلة بعضها عن بعض فليس يلزم من وجود الشيء في هذه اللحظة وجوده في اللحظة التالية إلا بخلق الله له فيها يقول ابن حزم: إن خلق الله تعالى قائم في كال موجود أبدا مادام ذلك الموجود موجودا والمشككين في هذا نسألهم ما معني قولكم: خلق الله تعالى أمر كذا؟

فجوابهم: أن معنى خلقه أنه تعالى أخرجه من العدم إلي الوجود، فنقول لهم: أليس معنى هذا القول منكم أنه أوجده ولم يكن موجودا فلابد من قولهم: نعم.

فنقول: لهم فالخلق إذًا هو الإيجاد عندكم بلا شك، فأخبروني أليس تعالى موجدًا لكل موجودٍ أبدًا مدة وجوده.

فإن أنكروا ذلك أحالوا وأوجبوا أن الأشياء موجودة وليس الله موجدًا لها الآن، وهذا تناقض، وإن قالوا: نعم فإن الله تعالى موجد لكل موجود أبدا مادام موجودا.

قلنا لهم: هذا هو الذي أنكرتم بعينه، وقد أقررتم به؛ لأن الإيجاد هو الخلق نفسه والله تعالى موجد لكل ما يوجد في كل وقت أبدا، وإن لم يفنه قبل ذلك، والله تعالى خالق لكل

1 - مفاتيح الغيب جـ 3 ص 538، ويراجع روح المعاني جـ 3 ص 12 .

مخلوق في كل وقت وإن لم يفنه قبل ذلك، ففي كل حين يحيل الله تعالى أحوال مخلوقاته وهو خلق جديد، والله تعالى يخلق في كل حين جميع العالم خلقًا مستأنفا دون أن يفنيه[1].

ومعنى هذا أن إمساك الله سبحانه وتعالى للكائنات بمثابة خلق جديد مستمر لها في كل لحظة، ومن ثم لابد من وجود الحق سبحانه وتعالى كي يستمر لها الخلق في كل لحظة وحين.

وقد قرر هذا الإمام الغزالي قائلًا: إن من عرف نفسه عرف ربه وعرف قطعا أنه لا وجود له من ذاته، وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله تعالى، فهو المبقي له وهو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال، وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته بل محو محض وعدم صرف لولا تفضل الله عليه بالإيجاد، وهو هالك عقب وجوده لولا تفضل الله عليه بالإبقاء، وهو ناقص بعد الوجود لولا تفصل الله تعالى عليه بالتكميل لخلقته، وبالجملة فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا القيوم الحي الذي هو قائم بذاته وكل ما سواه قائم به [2].

هكذا وقفنا على دليل استمرار الوجود وكيفية البرهنة به على وجود الباري سبحانه وتعالى من خلال حديث الآيات القرآنية عنه .

رابعا : دليل الإمكان كما صوره القرآن الكريم :

ينبغي أن نعلم بداية : أن دليل الإمكان لم يسلم من نقد ابن رشد له حيث قال عنه بأنه ليس عقليا ولا شرعيا؛ لأن المتكلمين يقولون يمكن أن يصعد الحجر إلي أعلى وأن يهبط اللهب إلي أسفل، وهذا أمر يخالف البداهة الحسية؛ لأن لكل نوع من الكائنات خلقته الخاصة به كما أن هناك الأسباب الطبيعية، وإذا أتينا إلي الحديث عن هذا الدليل فإننا نقول:

---

1 – الفصل جـ 5 ص 55 .

2 – الإمام الغزالي إحياء علوم الدين جـ 3 ص 277، الدار البيضاء .

بملاحظتنا لكل شيء في هذا الكون الرحب الفسيح سواء كان من الأشياء المادية التي تخضع تحت طائلة الحس الإنساني كالسماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وغير ذلك، أو كان صفة من الصفات التي حوتها الأشياء المادية والتي لا نقف على كنهها إلا بإعمال العقل فيها كالجاذبية الخاصة الموجودة في حجر المغناطيس مثلا .

من ملاحظتنا لجميع هذا الأشياء الكونية وغيرها قد يرد سؤال الإمكان ومفاده: أن هناك احتمالات كثيرة في دائرة الممكنات لا يرى العقل مانعا من أن تتحول هذه الأشياء الكونية إلي واحد منها فتكون مثلا أكبر مما هي عليه أو أصغر، أو مركبة غير التركيب الذي نعهدها به، أو في حيز من الكون وزمن من الدهر غير حيزها وحينها، أو أن تكون لها صفات وقوى غير صفاتها وقواها، فما المانع مثلا من أن يكون الليل والنهار سرمدين؟ وما المانع العقلي من أن يكون الإنسان على غير هذا الوضع القويم أو أكبر أو أصغر مما هو عليه؟ وما المانع من أن يوجد عقل ونطق في البهائم وسائر العجماوات؟ وما المانع من أن تكون الأرض أدنى وأقرب إلي الشمس والقمر من الوضع الذي هي عليه؟ وغير ذلك كثير من افتراضات العقل.

وهنا يمكن أن يُعترض بأن الحكمة الإلهية هي التي اقتضت أن تكون الأشياء على ما نراها عليه الآن وإلا اختل النظام وفسد ما كنا نأمله من هذا الكون، ومن ثم نقول:

1- إن كل شيء في هذا الكون وإن تطرق إليه احتمال أن يكون على غير وضعه المعهود بالنسبة له إلا أن عقولنا من هذا المنطلق لابد أن تحكم بداهة بأن ما كان هذا شأنه فلابد له من مخصص خصصه بما هو موافق للحكمة والإبداع والإتقان من جملة احتمالات كثيرة ولولا وجود المخصص للزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر من غير مرجح.

2- أو القول بأن موافقة الحكمة فيما لا حصر له من الأعداد كان على طريقة المصادفة، وكلاهما مستحيل عقلا، ونحن بوصفنا عقلاء في هذا الكون لا نقبل أن نلتزم المستحيلات بينما نرى أن القوانين التي تحكمه ثابتة لا تتخلف أبدا [1].

ومن قوانينه رفض الترجيح بلا مرجح، ورفض احتمال المصادفة في نظام هذا الكون البديع، وأي الأمرين أسلم وأكثر قبولا في العقل هل إحالة هذا النظام الحكيم البديع في الكون إلي حكم المصادفة المستحيلة في العقل أم إلى حكمة مخصص حكيم قد خصص هذا الممكن في احتماله الموافق للحكمة[2].

وإذا كان قد ثبت لدينا احتياج هذه الممكنات[3] إلي المخصص الحكيم، فإن حكم العقل القاطع يقول: إن هذا المخصص يجب أن لا تكون ذاته أو صفاته محلًا لأي احتمالات من الاحتمالات الممكنة التي تتعرض لها هذه الأشياء الكونية في نظر العقل هذا الموجود الواحد الثابت في ذاته وفي صفاته والذي يوجب العقل أن يسند إليه تخصيص هذه الممكنات بأحد احتمالاتها الكثيرة هو واجب الوجود، ولا يمكن أن يكون ممكن حتمًا وذلك هو الله تعالى.

وقد قُرر "أن سبيل الاستدلال بالإمكان على وجود الله تعالى أن تبحث في حد الممكن ثم في لوازمه فيتهيأ لك العلم بأنه ما لا وجود له من ذاته، ثم تنظر في الموجود وأنواعه وموضوعاته فتجد منها النبات مثلا، وتجد من أحوال النبات الموجود أنه يوجد بعد أن لم يكن وينعدم بعد أن يكون، ثم إنك تجد أن ما يكون حاله كذلك فلا يمكن أن يكون وجوده من ذاته، وإلا لكان وجوده لذاته فلا يسبقه العدم ولا يلحقه، وإلا لزم سلب ما بالذات عنها

1- النواميس الكونية لا تتخلف إلا معجزة لنبي او كرامة لولي .

2 - العقيدة الإسلامية وأسسها ص 116، 117 .

3 - الممكن هو ما استوى طرفاه وجودا وعدما واحتاج إلي مخصص لترجيح أحدهما .

وهذا هو معنى الممكن، ثم إن كل ممكن محتاج إلي من يعطيه الوجود وهو موجده الواجب الوجود" (1).

وإذا كان هذا هو دليل الإمكان وفكرته فإن القرآن الكريم قد تحدث عنه على هذا النحو السابق في آيات كثيرة منها قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ [الفرقان:45]، وقوله تعالى في سورة القصص: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص:72]، وقوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾ [إبراهيم:19]، وقوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة:63 - 70].

إن هذه الظواهر الكونية بأسرها تقع في دائرة الإمكان لذا يبين الحق سبحانه وتعالى أنه لو شاء لأتى بنقائضها وأضدادها فبدلها عما عليه، ولكن برحمته جعلها كذلك لتكون على وفق الحكمة والإبداع وتخصيص هذه الأشياء على هذا الوضع الموافق للحكمة، فقد دلت بهذا على وجود مخصص لها، وفي الوقت ذاته مغاير لها.

---

1 – دلائل التوحيد ص 47.

هذا هو دليل الإمكان كما صوره القرآن الكريم ومن ثم ينبغي أن نعلم أن الفلاسفة وإن قالوا بالإمكان أيضا كبرهان به يثبت الوجود الإلهي إلا أن دليل الإمكان عندهم يختلف عن دليل الإمكان الذي أورده القرآن الكريم إذ أن الإمكان عند الفلاسفة مقترن بقدم العالم أما في القرآن فمقترن بحدوثه .

خامسا :الدليل الفطري :

إن من الدلائل التي يمكن من خلالها البرهنة على إثبات الوجود الإلهي الدليل الفطري والذي يقوم على: أن الإنسان قد تحدق به الأزمات، وتشتد من حوله الكرب، وتستحكم أمامه الأمور، وتتقطع به الأسباب، ولا يجد في نفسه أو في قدرته ما يسعفه لدفع ما يعاني أو يكابد. هنا يعلو صوت الفطرة معلنا التضرع إلي النصير الذي هو فوق كل نصير، والظهير الذي هو فوق كل ظهير ينبعث من أعماق ذاته صوت لا يمكنه أن يسكته يرتفع قائلا: يا الله.

وإذا أتينا إلى الآيات القرآنية لنقف على هذا الدليل من خلالها، فنجد أنها توضح لنا أن الإنسان قد يتمادى في غيه وضلاله ردحًا من الزمن دون وازع أو رادع حتى إذا أدركه الضر والحزن هنا يلجأ لربه متبرئًا من حوله وقوته عائدًا إلي صوت فطرته. يقول تعالى في سورة يونس: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس:12]، وقوله تعالى في سورة النحل: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النحل:53 - 54]، وقوله تعالى في سورة الروم: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الروم:33]، وقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ

مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الزمر:8]، وكما في قوله تعالى أيضا في سورة الزمر: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ [الزمر:49].

فهذه الآيات تشير إلي أن الإنسان قد ينعم فترة من الزمن يعيش فيها في رغد مما ينسيه أصله وفطرته معتمدًا على حوله وقوته ظنًا منه أنه ملك الأرض وقدر عليها، وفي ظل بهجة الحياة ونعيمها يرى الزمان وقد كشر عن أنيابه ورأي منه وجها غير الذي ألفه عليه فتنزل به الكرب العظام ويترى عليه الضر على عمومه وأنواعه هنا يفيق على لطمة الحياة له فيدرك مدى حقارة نفسه إذ أنه لا يستطيع دفعًا أو ردًا لما أحاط به من مخاطر وصعاب، وهنا ينطلق صوت فطرته متضرعا لربه أن ينجيه مما هو فيه.

يقول الإمام الرازي في تعلقيه على هذه الآيات: إن الإنسان جُبل على الضعف والعجز وقله الصبر، وجُبل أيضا على الغرور والبطر والنسيان والتمرد والعتو، فإذا نزل به البلاء حمله ضعفه وعجزه على كثرة الدعاء والتضرع وإظهار الخضوع والانقياد، وإذ زال البلاء ووقع في الراحة استولى عليه النسيان فنسى إحسان الله تعالى عليه، ووقع في البغي والطغيان والجحود والكفران، ويقول في موضع آخر: إن الله تعالى بين أن جميع النعم منه، ثم إذا اتفق لأحد مضرة توجب زوال شيء من تلك النعم فإلى الله يجأر، فلا يستغيث بأحد إلا الله تعالى لعلمه بأنه لا مفزغ للخلق إلا هو، فكأنه تعالى قال لهم: فأين أنتم من هذه الطريقة في حال الرخاء والسلامة؟ ثم بعد ذلك عند كشف الضر وسلامة الأحوال يفترقون فريق منهم يبقى على مثل ما كان عليه عند الضر في أن لا يفزع إلا إلى الله تعالى، وفريق منهم عند ذلك يتغيرون فيشركون بالله غيره، وهذا جهل وضلا؛ لأنه لما شهدت فطرته الأصلية وخلقته الغريزية

عند نزول البلاء والضراء والآفات والمخافات أن لا مفزع إلا إلى الله، ولا مستغاث إلا إلى الله، فعند زوال البلاء والضراء وجب أن يكون على الله ذلك الاعتقاد (1).

وعن الدليل الفطري وأهميته في حياة الإنسان ولاسيما في حالات العسر والضيق يحدثنا صاحب كتاب دلائل التوحيد قائلا: إن دليل الفطرة يؤثره كثيرون على غيره من الأدلة، ويجعلونه أولاها؛ لأن الجبلة لها السبق طبعًا فتقدم وضعا؛ لأن ذلك من لطائف نكت المؤلفين في ترصيف التصنيف، وهذا المقام مقام حقائق لا خيالات الظرائف والرقائق، بل لأن الشعور بوجود الله والإذعان بخالق قادر فوق المادة محيط من وراء الطبيعة أمر غريزي في الإنسان مفطور عليه لا تغيره ريب المرتابين ولا تزلزله شكوك المشككين؛ لأنه عقد في المرء طبع عليه جنانه، وتأثر به لسانه وبيانه، ومن أثره ما يرى في انطلاق الألسنة في الكوارث وما تندفع إليه في الحوادث من اللجوء إليه والتضرع في دفع ما يمسها عليه انطلاقا وتضرعا لا يرده راد ولا يصده صاد، ولو قيد لسان المضطر لنطق جنانه وأفصحت مشاعره وأركانه ووجد حرارة تدفعه إلي بارئه وتضطره إلي الاستكانة لمنشئه حالة لا تزعزع رواسيها عواصف الشبهات ولا تميل رواسخها رياح التمويهات. لا جرم أن هذا الشعور لا صنع فيه للبشر ولا كسب فيه بتقليد ولا نظر فهو لازم من لوازمها الإنسانية وصفة من صفاتها الذاتية اشتبك فيها اشتباك اللحم بالعظم وسرى في قواها سريان الدم في الجسم يقول تعالى في سورة الروم ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[الروم:30] (2).

---

1 - مفاتيح الغيب ج 8 ص 300، ج 9ص 550، 551، ويراجع روح المعاني ج 11 ص 79، 80 ، ج 14 ص 165، ويراجع ابن المنير، الانتصاف ج 2 ص 838 ، ط دار الريان للتراث .

2 - دلائل التوحيد ص 23، 24 .

هذا الفطرة التي تمثلت في ذلك العهد القويم والميثاق الغليظ الذي أخذه الحق على الخلائق في عالم الذر حينما أشهدهم على أنفسهم قائلا لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] فأجابوه شاخصين: بلي شهدنا وآمنا، ولا تزال هذه الإجابة تهتف موقنة بها النطف في أصلاب الرجال، والأجنة في أرحام الأمهات حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وإن حدث وخفيت هذه الحقيقة لإتباع تقليد أو انحراف بيئة ففي نهاية الأمر صوت الإيمان يعلو، وتكون العودة إلي البداية قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف:172].

وإذا كنا قد عولنا فيما تقدم من حديث لنا عن دليل الفطرة على ما ينزل بالإنسان من نكبات وعثرات لا يجد في وسعه قدرة على دفعها، فإننا يمكن أن نقول أيضا إن مجرد البحث عن دليل نقيمه بالنسبة لهذه القضية شهادة فطرية على الوجود الإلهي فلو لم يكن مستقرًا في نفسي ومركوزا في فطرتي معرفة الإلهية لم أكن لأحاول أن أدلل عليها، فإن الفلاسفة قديمًا وخاصةً في الفلسفة اليونانية التي شغلت بهذه المسألة ليبحثوا في شيء اسمه ما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقا، فمن الذي قال لهم إن وراء المادة شيء يجب أن يبحثوا عنه؟ من أين أدركوا أن وراء المادة ما يجب البحث عنه؟ لا يعنينا الآن أنهم وفقوا في البحث ووصلوا أولم يوفقوا إنما يعنينا الدافع إلي البحث فيما وراء الطبيعة= إذا ففطرتهم ووجدانهم يقر ويعلم أن هناك شيئا وراء الكون، وليس من الممكن أن يكون هذا الكون لحاله، فلابد أن يكون هناك شيء خلف الطبيعة... وإلا لو لم توجد هذه القضية فالأمور العدمية المحضة ليست محل شغل للعقل ولا للبحث، وأيضا العلماء الذين وضعوا الأدلة على وجود الله تعالى وضعوها في أي سن عقلي

لهم لا شك أنهم وضعوها في السن العقلي العالي، فعلماء الكلام نجد أكثرهم وقد زاولوا هذه المهنة بعد سن العشرين، فعلى أي شيء كانوا يعبدون الله سبحانه وتعالى قبل أن يبحثوا في إيجاد الدليل؟ إذا فبحثهم عن الدليل على وجود الله شهادة فطرية على أنهم آمنوا أن هناك إلهًا موجودا يريدون أن يستدلوا عليه إذا الذي دعي العقل للبحث عن الأدلة على وجود الله إنما هو الإيمان الوجداني الفطري المركوز في النفس [1] .

بل نرى بعض الباحثين في تطرقه لإقامة هذا الدليل يرى أن الوجود الفطري لله تبارك وتعالى في النفس البشرية ليس أمرا يصعب الإحساس به إذ أن هناك أشياء كثيرة لا تقع تحت الحس، ومع هذا فعندنا يقين جازم بوجودها نأخذ مثلا لذلك انسياق الطفل إلي الرضاع وهو في المهد من ثدي أمه دون معلم وعاطفة الأمومة الكائنة في نفسها تجاه وليدها وشعور الإنسان بروحه ويقينه أنها سر حياته لذا نراه ينهض للدفاع عن نفسه عند الكوارث والأخطار وشعور الإنسان بالعديد من العواطف من حب وبغض وشفقة وما إلي ذلك كل هذه أشياء نوقن بوجودها فينا مع أنها لا تقع تحت حواسنا أو نلمسها بأيدينا، ومن ثم نقول ولله المثل الأعلى يكون الحال في مسألة الفطرة بالنسبة لوجود الله تعالى مثل ذلك.

ولعل هذا ما يقصده الأستاذ عباس العقاد بقوله : في رأينا أن مسألة وجود الله مسألة وعي قبل كل شيء، فالإنسان له وعي يقيني بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية ولا يخلو من وعي يقيني بالوجود الأعظم والحقيقة الكونية؛ لأنه متصل بهذا الوجود بل هو قائم عليه [2] .

---

1 – عقيدة المسلم لفضيلة الشيخ الشعراوي ص 35، 36، ويراجع د / عبد الله الشاذلي، الألوهية في الفكر الإسلامي ص 80، ط سنة 1989 م .

2 – عباس العقاد، الله ص 174، ط الأهرام التجارية .

ومن خلال ما تقدم نقول إن الفطرة السليمة دليل على وجود الله تعالى وإن حدث وغيبت هذه الفطرة بعض الوقت فإن في المحن والشدائد عود لسيرتها الأولى، وكما بين القرآن الكريم كيف تدل الفطرة على الوجود الإلهي بين أيضا أن من أسباب انحراف الفطرة الإنسانية عما هو حق فيها ما ينتاب النفس الإنسانية من غفلة أو إتباع لشرك الآباء، كما ورد ذلك في " آية الميثاق".

سادسا: الدليل الأنطولجي (الوجودي):

إن من الأدلة والبراهين على وجود الله سبحانه وتعالى الدليل الوجودي فإذا كنا فيما سبق من أدلة اتخذنا من الخلائق معراجًا لإثبات الوجود، فإننا هنا نثبت وجود الخلائق بالله.

وهذا الدليل يقوم على أن الله تعالى هو الحق الحائز في ذاته مطلق الوجود وكماله، ومن ثم فهو الموجود الأوحد الذي ماهيته متضمنة لوجوده، وفرض عدمه محال. إذًا فوجود الله تعالى منطو في ذاته ولا يتوصل إلي إثبات ذلك الوجود عن طريق الخلائق بل هو بوجوده هو الشاهد على وجودها.

وقد أشار القرآن الكريم إلي هذا الدليل بقول الله تعالى في سورة فصلت: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ ﴾ [فصلت:53] (1). إن المتأمل في هذه الآية الكريمة يجدها وقد قررت دليلين على وجود الباري سبحانه وتعالى:

الدليل الأول: ما بثه الله تعالى من حجج وآيات في الآفاق وفي الأنفس تشهد لفاطرها بالوجود.

---

1 - هناك آيات أخرى أرودها بعض الباحثين كدليل حول هذا الموضوع إلا أنها في الواقع لا يستشهد بها إلا بتعسف شديد وتأويل بخالف الظاهر .

الدليل الثاني: استخلاص الوجود من تصور الوجود ذاته، "فإن القرآن أخبر أنه لابد أن يريهم من آياته المشهودة ما بين لهم أن آياته المتلوة حق، ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله صلي الله عليه وسلم، فآياته شاهدة بصدقه، وهو شاهد بصدق رسوله صلي الله عليه وسلم بآياته، فهو الشاهد والمشهود له وهو الدليل والمدلول عليه، فهو الدليل بنفسه على نفسه كما قال بعض العارفين: كيف أطلب الدليل على من هو دليل لي على كل شيء، فأيَّ دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه، ولهذا قالت الرسل لأقوامهم كما ورد في سورة إبراهيم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم:10] فهو أعرف من كل معروف وأبين من كل دليل، فالأشياء عرفت به في الحقيقة وإن كان عرف بها في النظر والاستدلال بأفعاله واحكامه عليها[1].

ويعتمد العلامة نصير الدين الطوسي هذا الدليل كطريق موصل لإثبات الوجود الإلهي حيث يقول: الوجود إن كان واجبا فهو المطلوب وإلا استلزامه لاستحالة الدور والتسلسل[2] .

فقرر أن الإنسان ينبغي عليه أن ينظر إلي الوجود ذاته، فإن كان واجبا للحق تبارك وتعالى فقد ثبت المطلوب، وإلا دار الأمر وتسلسل وكلاهما باطل .

هكذا وقفنا على جانب من حديث القرآن الكريم عن الدلائل العقلية على الوجود الإلهي، ولعلنا نكون قد لمسنا في خطابه للعقل البشري من خلالها ما يلي :

---

1 – الفوائد ص 23 .

2 – نصير الدين الطوسي، تجريد الاعتقاد ص 172، ط الأولى بيروت .

1- تعدد الأدلة وتنوعها فالقارئ للفكر الإنساني يجد كل مفكر ينتهج لنفسه نهجا فكريًا خاصا في الاستدلال، وغير ذلك لذا يمكن أن نقول إن تنوع الدلائل القرآنية في صياغتها ومداخلها وركائزها الفطرية والمنطقية إن دلت على شيء= فإنها تدل على سعة هذا الجانب القرآني سعة تستوعب فكر المفكرين وعقل العقلاء وهذا الشمول والعمق يدع لكل ذي موهبة عقلية مجالًا منه يلج إلي إثبات الوجود الإلهي.

2- إن هذه الدلائل في معظمها دلائل سهلة ميسرة واضحة تكاد تصل إلي حد البداهة، وذلك لاعتمادها على النظر العقلي المصحوب بالمشاهدة.

3- إن تعدد الجوانب التي من خلالها يستدل على الوجود الإلهي يقودنا إلي الاعتراف الصريح بأن مجالات الاستدلال تحيط بنا وتنشر من حولنا إذ نستدل على الوجود الإلهي من خلال أحوالنا النفسية والشعورية، ومن خلال الوجود الذي يترامى سعة وإبداعا وإتقانا بشتى مظاهره العلوية والسفلية والمادية وغير ذلك، ومعنى هذا أن كل ما في الكون يصلح أن يكون دليلا على وجود الله تعالى.

4- إن هذه الأدلة القرآنية نراها وقد جمعت بين المسلك الحسي المحض في الاستدلال، وتارة نرى المسلك العقلي المحض، وتارة نراها وقد جمعت بين الاثنين في بوتقة واحدة، ومعنى هذا أن كل إنسان سواء كان عاميا صاحب نظرة سطحية ساذجة أو مفكرًا صاحب نظر عقلي سيجد فيها مراده ومبتغاه.

5- إن الدلائل القرآنية على الوجود الإلهي سواء أكانت في الأنفس أو الآفاق قد اشتملت على كثير من الحقائق العلمية التي بها صدع القرآن الكريم قبل أن يعرف العلم الحديث عنها شيئا بمئات السنين.

6- إن كثيرا من الدلائل القرآنية حفت بالدعوة إلي النظر العقلي والتفكير والتدبر سواء في صدر الآيات أو عجزها، وهذا يعنى أن هذه الدلائل من الوضوح وإقامة الحجة بحيث لو بحث فيها العقل البشري منصفًا لا يمكنه إلا الإذعان لها والسجود لمضمونها.

7- ومادامت هذه الدلائل تتمشى مع مقررات العقل السليم ففيها دعوة للتفكر والتدبر والحث على النظر العقلي وبالتالي فهي ترد بقوة ووضوح على من زعموا أن القرآن الكريم يعوق النظر العقلي الحر.

8- نجد القرآن الكريم أيضا في إقامة دلائله يشبع رغبات أصحاب الكشف والبصيرة، وهم الذين لم يتأملوا في الكون تأمل استدلال، وإنما تأملوه ليشاهدوا صنع الله فيه موقنين أنه على شيء شهيد ومعتقدين أنه لولا الله ما عرف الله.

9- أيضا يمكن القول بأن الآية القرآنية يمكن أن تستخدم في الاستدلال بها في أكثر من موضع ببعض توجيه ونظر عقلي فآية سورة المؤمنون مثلا والتي تحدثت عن خلق الإنسان دلت على برهان الخلق، وما يلحقه من عناية ودلت في الوقت ذاته على برهان الحدوث بناء على التغير والتحول في مراحل الخلق ومعلوم أن ذلك من أمارة الحدوث .

وبعد فهذه هي الدلائل القرآنية على الوجود الإلهي بادية للعيان ما أقمناها لنثبت بها حقيقة غابت عن العقول والأذهان، وإنما هي آيات ربى نثرها في كونه المنشور وكتابه المستور مُعلما إيانا أن ديننا هو دين العقل، وأن عقائده لا تنئى عن الأفهام والأفكار، فلنتخذ من دلائله زادًا به ندافع عن بيضة الدين عند كل من انحرفت فطرته رآدين إياه إلي الحق والصواب، ولا يسعني في النهاية إلا أن أردد مع الجاحظ قوله : إن ناسا حين جهلوا الأسباب والمعاني وقصروا في الخلقة عن تأمل الصواب والحكمة فيها خرجوا إلي الجحود

والتكذيب حتى أنكروا خلق الأشياء، وزعموا أن كونها بإهمال لا صنعة فيه ولا تقدير، فكانوا بمنزلة عميان دخلوا دارًا قد بنيت أَتْقَنَ بناء وفرشت أحسن فرش، وأعد فيها ضروب الأطعمة والأشربة والمآرب، ووضع كل شيء من ذلك في موضعه على صواب وتقدير، فجعلوا يسعون فيها محجوبة أبصارهم، فلا يبصرون هيئة الدار وما أعد فيها، وربما عثر الواحد منهم بالشيء قد وضع موضعه، وأعد لشأنه، وهو جاهل بالمعني فيه فتذمّر وتسخط وذم الدار وبانيها، فهذه حال هذا الصنف في أفكارهم وما أنكروا من الخلقة، وأنهم لما غيبت أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل في الأشياء صاروا يجولون في هذا العالم كالحيارى لا يفقهون ما هو عليه من إتقان خلقته وصواب هيئته، وربما وقف الواقف منهم على الشيء يجهل سببه، والأرب فيه، فيسرع إلي ذمه ويعيبه ويصفه بالخطأ والإحالة...فحق على من أنعم الله عليه بمعرفته ووقفه لتأمل هذه الخلقة والوقوف على ما في خَلقها من لطف التدبير وصواب التقدير بالدلائل القائمة فيها أن لا يقصر في إظهار ما بلغه علمه من ذلك، بل يجهد في نشره وإذاعته وإيراده على المسامع والأذهان لتقوى دواعي الإيمان وتخيب مكيدة الشيطان في تضليل الوهم ... واثقًا يعون الله تعالى وتأييده إياه [1].

1 – الدلائل والاعتبار جـ 5 .

الفصل الثاني

الدلائل العقلية على الوحدانية

أولا : برهان التوارد والتمانع

لقد جاء القرآن الكريم بعقيدة التوحيد ناصعة ظاهرة مدللا ومبرهنا عليها، فنراه يسوق هذه العقيدة على هيئة قضية متبعا إياها بالبرهنة عليها، ولا غرابة إن رأينا القرآن الكريم يفعل ذلك إذ هو مَنْ كَرّمَ العقل وأمرنا بالنظر والتدبر والتفكر .

ونرى القرآن الكريم كذلك يحدثنا عن عقيدة التوحيد مبينا لنا أنها ديدن الأنبياء جميعا فما من رسول ولا نبي إلا خاطب قومه قائلًا لهم كما حكت سورة هود: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود:50]، و قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:163]. إذا كانت هذه هي الدعوة القرآنية إلى عقيدة الوحدانية[1]، فإننا نرى القرآن الكريم أيضا كما عودنا يسوق لنا الدليل تلو الدليل؛ لإثبات هذه العقيدة موضحا لنا كيف يخاطب بدلائله أولوا العقول والألباب بموضوعية يندحر بجانبها أدنى شك أو ريب، ومن الدلائل العقلية التي أقامها القرآن الكريم لإثبات هذه العقيدة ما يسمى ببرهان التوارد والتمانع والذي يقوم على أنه لو وجد إلهان فإما أن يتفقا وإما أن يختلفا، فإن اتفقا على إيجاد الكون معا لزم اجتماع مؤثرين على أثر واحد وهذا باطل، ولا جائز أن يوجده أحدهما أولا، ثم يوجده الآخر بعد ذلك لئلا يلزم تحصيل الحاصل، ولا جائز أن يوجد أحدهما البعض ويوجد الثاني البعض الآخر؛ إذ في هذا دليل على عجزهما معا وذلك لقصور تعلق قدرة كل واحد منهما عما تعلقت به قدرة الآخر هذا من ناحية اتفاقهما.

أما إن اختلفا بأن أراد أحدهما إيجاد العالم وأراد الثاني نقيضه فإن نُفذ مرادهما معا لزم المحال وهو اجتماع الضدين، فيكون العالم موجودا ومعدوما في آن واحد، وإن نفذ مراد

---

1 - الوحدانية تعني أن الله واحد في ذاته وصفاته وأفعاله .

أحدهما دون الآخر لزم عجز من لم ينفذ مراده، وإلي هذه المعاني السابقة كانت الإشارة بقول الحق تبارك وتعالى في سورة الأنبياء ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء:22].

ومعني ذلك أنه لو تعددت الآلهة لخرجت السماوات والأرض على النظام المعهود لهما ولفسدت لكنهما لم تفسدا فالنتيجة الحتمية إذا أنه لا إله إلا الله [1] .

وقد اعتمد علماء الكلام أشعرية ومعتزلة على الآيات القرآنية للبرهنة على وحدانية الخالق سبحانه وتعالى .

وكل ما تقدم افتراضات عقلية أمكن للعقل تقليبها بناء على الفساد الوارد في الآية الكريمة الذي يلزم من وجود إله آخر مع الله تعالى يشاركه في ملكه، وأيضًا يمكن أن نقرر بناء على آية سورة الأنبياء صياغة أخرى بها نستدل على وحدانية الله تعالى وتقوم على ما نشاهده في العالم من دقة ونظام وإحكام، فلو فرضنا إلهين فإما أن يقدر أحدهما على إيجاد العالم ويكون في غنى عن غيره، وإذا لا يكون ثمة حاجة إلي وجود الآخر، وإذا لم يكن أحد الإلهين كافيًا بأن احتاج كل واحد منهما إلي الآخر فليسا بصالحين لأن يكونا إلهين ومن ثم يبطل التعدد.

ونرى ابن بابويه القمي وهو يقرر لنا هذا الدليل أيضا منطلقا من تلكم الآية الكريمة ومعتمدا لهذه الطريق من الاستدلال إلا أننا نراه في دليله قد انفرد بشيء هو من الأهمية بمكان إذ إنه يوضح لو فرض إلهان فلابد أن تكون هناك فرجة بينهما وهذا يقتضي التثليث إذ إن الفرجة بينهما تكون قديمة بقدمهما وإذا لزم ذلك يترتب عدم التناهي في الكثرة .

---

1 – عقيدة التوحيد في الرسالا السماوية ص 20، وكذا الإسلام عقيدة ونظام ص 48، 49 د/ محمد البهي والإسلام دين الإنسانية ص 82، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية 1997 م .

يقول ابن بابويه :لا يخلو قولك إنهما اثنان من أن يكونا قديمين قويين أو يكونا ضعيفين، أو يكون أحدهما قويا والآخر ضعيفا، فإن كانا قويين فلما لا يدفع كل واحد منهما صاحبه، وينفرد بالتدبير وإن زعمت أن أحدهما قوى والآخر ضعيف ثبت أنه واحد كما نقول للعجز الظاهر في الثاني، وإن قلت : إنهما اثنان لم يخل من أن يكونا متفقين من كل جهة أو مفترقين من كل جهة، فلما رأينا الخلق منتظما والفلك جاريا واختلاف الليل والنهار والشمس والقمر دل صحة الأمر والتدبير وائتلاف الأمر على أن المدبر واحد، ثم يلزمك إن ادعيت اثنين فلابد من فرجة بينهما حتى يكونا اثنين فصارت الفرجة ثالثا بينهما قديما معهما فيلزمك ثلاثة، فإن ادعيت ثلاثة لازمك ما قلنا في الاثنين حتى يكون بينهما فرجتان فيكون خمسا ثم يتناهي في العدد إلي مالا نهاية في الكثرة [1] .

والواقع أن تعدد القدماء إلي أكثر من ثلاثة الناشئ من وجود فرجة بين إلهين إنما يتم لو كانا شيئا مجسما فيه حركة، وإلا فيكف سأقسم وأعدد فراغا بفراغ، وكان يمكن تقرير الوجه الأخير من الدليل على نحو أخر وهو: إذا نجمت هذه المحالات عن فرض اثنين، فما بالك لو كانوا ثلاثة، ومع التسليم الجدلي لابن بابويه لكل ما ذكر يمكن أن نقول إن دليله هذا في حقيقته حوي ثلاثة أدلة :

الأول: ما افترضه في الصانعين من حيث القوة التامة يمكن أن يتفرغ إلي ثلاثة أشياء اثنان منهما ظاهرالبطلان لم يتعرض إلا لأحدهما لشدة وضوح بطلان الآخر، والشيء

1 - التوحيد ص 243، 244، ويراجع الإمام الشوكاني إرشاد الثقات ص 5، ط دار الكتب العلمية، وكذا الألوهية في ضوء القرين الكريم ص 173، وكذا أبو بكر الجزائري منهاج المسلم ص 49، ط المدنية المنورة 1964م، عقيدة المؤمن ص 87، ط بيروت .

الثالث أن يكون لكل منهما قوة تامة فليلزم أن يقوى كل منهما على دفع الآخر وإلا لم تكن قوته تامة فحينئذ يكون كل منهما دافعا ومدفوعا وهو محال.

أما **الثاني** أن الأشياء من حيث الافتراق والاتفاق أيضا ثلاثة:

1. الاتفاق من كل جهة وهذا يرفع الاثنينية؛ لأنها لا تتصور بدون الامتياز بيم الاثنين والامتياز لا يتصور إلا بالافتراق من جهة أو جهات.
2. الافتراق من كل جهة فلو كان الأمر كذلك لزم الفساد في التدبير وانتفاء النظام في الخلق، ولكن الخلق منتظم والتدبير صحيح وإلي بطلان التالي أشار بقوله: فلما رأينا الخلق منتظما.
3. الافتراق من بعض الجهات ولم يذكره لأن حكمه حكم الشيء الثاني

الثالث: كون الصانع اثنين يستلزم أن يكون لأحدهما على الأقل شيء يحصل لهما الامتياز به، وإذا عدم الامتياز ترفع الاثنينية، والامتياز بتمام الذات معقول إلا أنه لا يتصور إلا بالاشتراك في أصل الوجود، فيعود في المفروض وحكم الثلاثة في الامتياز حكم الاثنين، فيكون الثلاثة خمسة وهكذا إلي مالا نهاية له، فكان صانع العالم أشياء غير متناهية .

والواقع أن هذا الاستدلال لا يتم تصوره كاملا إلا بالنظر لقول الحق سبحانه تعالى في سورة المؤمنون ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾[المؤمنون:91].

إن المتأمل بعقله في هذه الآية الكريمة يجدها تشير بوضوح إلي هذا البرهان العقلي الذي نحن بصدد الحديث عنه إذ تقرر:

1. أن الله سبحانه وتعالى لم يتخذ ولدًا، والعلة في هذا ما يستلزمه من انفصال الولد عن أبيه، وذلك يقتضي التركيب المحال على الله تعالى؛ ولأن الولد يجانس أباه ويماثله والله تعالى ليس كمثله شيء.

2. أن الله سبحانه لو كان معه من إله يشاركه في الإلوهية والخلق لذهب كل واحد بما خلق ولعلا بعضهم على بعض أي: غالب بعضهم بعضًا بشتى الطرق الممكنة، ولو حصل هذا لفسد نظام العالم، ولو كان معه إلهة كما يزعم المشركون لطلبوا مغالبة الله ومزاحمة ذا العزة والجلال. يقول سبحانه وتعالى في سورة الإسراء: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الإسراء:43]. فالآية تقرر: أنه لو كان ثمة آلهة تحكم وتتصرف وتحيي وتميت وترزق وتشفي، ومن أجل ذلك تستحق أن تعبد كما يقول المشركون للزم أن تتخذ هذه الآلهة سبيلا لمنافسة ومنازعة ومقاتلة إله العرش الذي يعترفون به ربا خالقا، ولا ينكرون وجوده وقدرته، ولكنهم يشركون معه إلهة أخرى؛ لأن الربوبية المتضمنة لكمال التصرف وكمال القدرة لا تقبل الخضوع والاستسلام لربوبية فوقها إما وإنها لم تتخذ هذا السبيل لإله العرش ورضيت بضعفها وإلهيتها المزعومة في نطاق الأرض فإن ضعفها هذا من أكبر الأدلة على أنها مخلوقة كسائر المخلوقات وقد انتحلت لها الإلوهية انتحالًا باطلًا لا يصاحبه دليل تقبله العقول[1].

وينطلق الإمام الرازي من مجموع الآيات السابقة ليبين لنا أوجها أخرى من خلالها يمكن الاستدلال على وحدانية الله تعالى:

---

1 – العقيدة الإسلامية وأسسها ص 157، ويراجع د/ عبد العزيز سيف النصر، البراهين العقلية والنقلية على العقائد الإيمانية ص 67، 68، ط الأولى 1993 م.

أولا: أنه لو فرض وجود موجودين لذاتهما فإنهما يشتركان في الوجود، وفي نفس الوقت لابد أن يمتاز كل واحد منهما عن الآخر بشيء ضرورة أنهما اثنان، وما به الاشتراك والامتياز يلزم منه التركيب، والتركيب أمارة الافتقار إلى الغير، ومادام هو مفتقر إلي غيره فهو ممكن إذًا فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود لذاته وهذا تناقض.

يقول الإمام الرازي: لو فرضنا موجودين واجبي الوجود لذاتهما فلابد وأن يشتركا في الوجود، ولابد وأن يمتاز كل واحد منهما عن الآخر بنفسه، وما به المشاركة غير ما به المايزة فيكون كل واحد منهما مركبا مما به يشارك الآخر ومما به امتاز عنه، وكل مركب فهو مفتقر إلى جزئه وجزؤه غيره، فكل مركب هو مفتقر إلي غيره وكل مفتقر إلى غيره ممكن لذاته، فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود لذاته وهذا خلف، فإذًا واجب الوجود ليس إلا الواحد وكل ما عداه فهو ممكن مفتقر إليه، وكل مفتقر في وجوده إلى الغير فهو محدث، فكل ما سوى الله تعالى محدث، ويمكن جعل هذه الدلالة تفسيرًا لهذه الآية؛ لأنه إنما دللنا على أنه يلزم من فرض موجودين واجبين أن لا يكون شيء منهما واجبًا، وإذا لم يوجد الواجب لم يوجد شيء من هذه الممكنات، وحينئذ يلزم الفساد، فثبت أنه يلزم من وجود إلهين وقوع الفساد في كل العالم [1]، وهذا عين دليل الوحدانية عند الفلاسفة.

ثانياً: أننا لو فرضنا وجود إلهين مشتركين في الألوهية فلا بد أن يتميز كل واحد منهما عن الآخر بشيء، وذلك الشيء الذي به التميز ، إما أن يكون صفة كمال أم لا ؛ فإن كان صفة كمال كان الآخر ناقصا، وإن لم تكن صفة كمال كان الموصوف بها موصوفا بغير صفة كمال، فيكون ناقصا. قال الرازي: أَنَّا لَوْ قَدَّرْنَا إِلَهَيْنِ لَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُشَارِكًا

1 - مفاتيح الغيب جـ11 ص 97 .

لِلْآخَرِ فِي الْإِلَهِيَّةِ، وَلَا بُدَّ وَأَنْ يَتَمَيَّزَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ الْآخَرِ بِأَمْرٍ مَا وَإِلَّا لَمَا حَصَلَ التَّعَدُّدُ، فَمَا بِهِ الْمُمَايَزَةُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ صِفَةَ كَمَالٍ أَوْ لَا يَكُونَ فَإِنْ كَانَ صِفَةَ كَمَالٍ فَالْخَالِي عَنْهُ يَكُونُ خالِيًا عَنِ الْكَمَالِ فَيَكُونُ نَاقِصًا وَالنَّاقِصُ لَا يَكُونُ إِلَهًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ صِفَةَ كَمَالٍ فَالْمَوْصُوفُ بِهِ يَكُونُ مَوْصُوفًا بِمَا لَا يَكُونُ صِفَةَ كَمَالٍ فَيَكُونُ نَاقِصًا، وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: مَا بِهِ الْمُمَايَزَةُ إِنْ كَانَ مُعْتَبَرًا فِي تَحَقُّقِ الْإِلَهِيَّةِ فَالْخَالِي عَنْهُ لَا يَكُونُ إِلَهًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُعْتَبَرًا فِي الْإِلَهِيَّةِ لَمْ يَكُنِ الِاتِّصَافُ بِهِ وَاجِبًا، فَيَفْتَقِرُ إِلَى الْمُخَصِّصِ فَالْمَوْصُوفُ بِهِ مُفْتَقِرٌ وَمُحْتَاجٌ.

ثالثًا: أنه لو فرض إلهان لحصل التمييز بينهما، والامتياز كما يتصوره العقل يكون في الزمان والمكان والإمكان والوجود، وهذا كله محال على الإله.

يقول الإمام الرازي: لو فرضنا إلهين لكان لابد بحيث يتمكن الغير من التميز بينهما لكن الامتياز في عقولنا لا يحصل إلا في التباين في المكان أو في الزمان أو في الوجوب والإمكان، وكل لذلك على الإله محال فيمتنع حصول الامتياز [1] .

رابعًا: لو فرضنا إلهين فإما أن يكون أحدهما كافيا في تدبير العالم أم لا، فإن كان كافيا لم تكن ثمة حاجة إلي الثاني.

يقول الإمام الرازي: إن أحد الإلهين إما يكون كافيًا في تدبير العالم أو لا يكون، فإن كان كافيا كان الثاني فضله غير محتاج إليه، وذلك نقص والناقص لا يكون إلها [2].

وهذا الدليل الذي ساقه الإمام الرازي قد ذكر كمقدمة لبرهان التوارد والتمانع عند غير واحد ممن تناولوا الآية بالشرح .

1 - مفاتيح الغيب جـ 11 ص 98 .

2 - مفاتيح الغيب جـ 11 ص 98 .

خامسا: إننا نشاهد العالم ماثلًا أمامنا إذا لابد له من فاعل، والعقل لا يمنع أن يكون مدبر العالم إلها واحدًا أما لو كان مدبر العالم أكثر من واحد فليس هناك عدد أولى من عدد وهذا يقتضي وجود مالا نهاية له من الإلهة، وهذا باطل.

يقول الإمام الرازي: إن العقل يقتضي احتياج المحدث إلي فاعل ولا امتناع أن كون الفاعل الواحد مدبر لكل العالم، فأما ما وراء ذلك فليس عدد أولى من عدد فيقضي ذلك إلي وجود أعداد لانهاية لها، وذلك محال، فالقول بوجود الآلهة محال.

سادسا: أنه لو وجد إلهان فإما أن يقدر أحدهما أن يدل على نفسه بدليل أولا، والأول باطل؛ لأن إثبات الصانع يكون بالمحدثات وحدوث المحدثات لا يدل على التعيين، والثاني محال؛ لأنه يؤدي إلي كونه عاجزا عن تعريف نفسه، والعاجز لا يصلح أن يكون إلها.

يقول الإمام الرازي : إن أحد الإلهين إما أن يكون قادرًا على أن يخصص نفسه بدليل يدل عليه ولا يدل على غيره، أو لا يقدر عليه، والأول محال؛ لأن دليل الصانع ليس إلا بالمحدثات، وليس في حدوث المحدثات ما يدل على تعيين أحدهما دون الثاني، والثاني محال؛ لأنه يفضى كونه عاجزا عن تعريف نفسه على التعين، والعاجز لا يكون إلها. [1]

سابعا: لو فرض إلهان قادران، فيكون مجموع قدرتهما عند الاجتماع أقوى من قدرة كل واحد منفردًا، وهنا يلزم تناهي القدريتين، ويكون مجموع القدريتين ضعف المتناهي فيكون الكل متناهيًا.

1 - مفاتيح الغيب جـ 11 ص 98 .

يقول الإمام الرازي: لو قدرنا إلهين لكان مجموع قدرتيهما بينهما أقوى من قدرة كل واحد منهما وحدة، فيكون كل واحد من القدريتين متناهيًا والمجموع ضعف المتناهي، فيكون الكل متناهي[1].

ثامنا: لو فرض إلهان متصفان بتمام العلم يلزم من ذلك تعلق علم كل واحد منهما بمعلوم الآخر، فوجب تماثل علميهما، والذات القابلة لأحد المثلين قابلة للمثل الآخر، فاختصاص كل واحد منهما بتلك الصفة مع جواز اتصافه بصفة الآخر على البدل يستدعي مخصصا يخصص كل واحد منهما بعلمه وقدرته، فيكون كل واحد منهما عبدا فقيرًا ناقصا [2] .

تاسعا: يمكن أن نستدل أيضا على الوحدانية بأمر نراه ونشاهده حيث إننا نرى ممالك ودول يقف على رأس كل منها حاكم هذا الحاكم يرى أن الشركة في الملك عيب ونقص إذ لو وجد من ينازعه فيه وتم له ذلك كان المغلوب عاجزًا، وإن لم يقدر عليه اعتراه ما يعتري البشر من مشاعر تكون عند الإخفاق، فلا يكون إلها لعجزه هو الآخر، وإذا كان هذا كائن في ممالك البشر فما بالك بملك الله عز وجل، ولله المثل الأعلى.

يقول الإمام الرازي: إن الشركة[3] عيب ونقص في الشاهد، والفردانية والتوحد صفة كمال، ونرى الملوك يكرهون الشركة في الملك الحقير المختصر أشد الكراهية، ونرى أنه كلما كان الملك أعظم كانت النفرة عن الشركة أشد، فما ظنك بملك الله عز وجل وملكوته، فلو

1 - مفاتيح الغيب جـ 11 ص 98 .

2 - مفاتيح الغيب جـ 11 ص 98 .

3 - يقصد بالشركة المنازعة التي تكون عن غلبة وقهر لا عن تراض .

أراد أحدهما استخلاص الملك لنفسه فإن قدر عليه كان المغلوب فقيرًا عاجزًا فلا يكون إلها، وإن لم يقدر عليه كان في أشد الغم والكراهية، فلا يكون إلها [1].

عاشرًا: لو فرض إلهان فإن من الممكن عن طريق النظر العقلي أن نقرر ثلاث احتمالات:

1. أن يكون هناك احتياج بين الاثنين، ولو فرض ذلك لأدي إلي النقص.
2. أن يستغني كل منهما عن الآخر، ولو فرض ذلك للزم منه النقص أيضًا؛ لأن كل واحد منهما مستغن عنه.
3. أن يحتاج أحدهما إلي الآخر بغير عكس، فالمحتاج ناقص، والمحتاج إليه يكون إلها.

يقول الإمام الرازي: إننا لو قدرنا إلهين لكان إما أن يحتاج كل واحد منهما إلي الآخر، أو يستغني كل واحد منهما عن الآخر، أو يحتاج أحدهما إلي الآخر والآخر يستغني عنه، فإن كان الأول كان كل واحد منهما ناقصًا؛ لأن المحتاج ناقص، وإن كان الثاني كان كل واحد منهما مستغنيًا عنه والمستغنى عنه ناقص ألا ترى أن البلد إذا كان له رئيس والناس يحصلون مصالح البلد من غير رجوع منهم إليه، ومن غير التفات منهم إليه عد ذلك الرئيس ناقصا، فالإله هو الذي يستغنى به ولا يستغنى عنه، وإن احتاج أحدهما إلي الآخر من غير عكس كان المحتاج ناقصًا والمحتاج إليه هو الإله [2].

---

1 - مفاتيح الغيب جـ 11 ص 100 .

2 - مفاتيح الغيب جـ 11 ص 100 .

أيضا نجد من الآيات القرآنية التي تأخذ بأيدينا نحو هذا الدليل الذي نحن بصدد الحديث عنه قول الحق سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ...﴾ [البقرة:163 - 165].

إن الإمام الألوسي ينطلق من هذه الآيات السابقة ليدلل على نفي الأنداد والشركاء مستخدما برهان التمانع رابطا بينه وبين دليل الخلق، فيقول: إن كل واحد من هذه الأمور المعدودة في الآية قد وجد على وجه خاص من الأوجه الممكنة دون ما عداه مستتبعا لآثار معينة وأحكام مخصوصة من غير أن تقتضي ذاته وجوده، فإذًا لابد له من موجد لامتناع وجود الممكن بلا موجد حكيم عالم بحقائق الأشياء وما فيها من المفاسد والمصالح متعال عن مقابلة غيره إذ لو كان معه واجب يقدر على ما يقدر الحق تعالى عليه فإن وافقت إرادة كل منهما إيجاده على وجه مخصوص أراده الآخر فالتأثير إن كان لكل منهما لزم اجتماع فاعلين على أثر واحد وهو يستلزم اجتماع العلتين التامتين، وإن كان الفعل لأحدهما لزم ترجيح الفاعل من غير مرجح لاستوائهما في إرادة إيجاده على الاستقلال وعجز الآخر؛ لما أن الفاعل سد عليه إيقاع ما أراده، وإن اختلفت الإرادتان بأن أراد أحدهما وجوده على نحو وأراد الآخر وجوده على نحو آخر لزم التمانع والتطارد لعدم المرجح، فيلزم عجزهما والعجز مناف للإلوهية بداهة [1].

---

1 - روح المعاني ج 2 ص 33، ويراجع إرشاد العقل السليم ج 2 ص 185 .

أيضا من الآيات التي ورد من خلالها الإشارة إلي برهن التوارد والتمانع قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الصافات: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾ [الصافات:4 - 6].

لقد صدرت هذه الآيات الكريمات بتقرير عقيدة التوحيد، ثم أعقبها الدليل والبرهان عليها بتوجيه النظر إلي السماوات والأرض وما فيهما من مشارق ومغارب، ثم إلي السماء وزينتها بالنجوم والكواكب كل هذا يكسوه التوافق والانسجام، فلو كان ثمة إله غير الله لما رأيت هذا التناسق بل ترى بدلًا منه التفاوت والتناقض.

يقول الإمام الألوسي: إن في هذه الآيات دليل على وحدة الصانع، فوجود السماوات والأرض على هذا النمط البديع أوضح دليل على وحدته عز وجل، بل في كل ذرة من ذرات العالم دليل على ذلك.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد [1].

هذا جانب من حديث القرآن الكريم عن برهان التوارد والتمانع لا يملك الإنسان إزاء الاطلاع عليه إلا الإذعان والإقرار بوحدانية الحق سبحانه وتعالى.

---

1 - روح المعاني جـ 23 ص 67، البيت لأبي العتاهية .

ثانيا

طلاقة القدرة الإلهية وقصورها فيما سوى الله وتعالى

إن من البراهين التي تدل على وحدانية الخالق تبارك وتعالى طلاقة قدرته في الخلق والإبداع وغير ذلك بينما نجد القصور يعتري قدرة كل ما سوى الله تعالى، فالحق سبحانه خلق العالم بما فيه ومن فيه خلق شموسه وأقماره وليله ونهاره وأرضه وسماءه، وغير ذلك وخلق الإنسان وتعهده بالرعاية والعناية فهو الرازق له، وإن مسه ضر فلا كاشف له سواه من أجل هذا وغيره استحق الله تعالي أن يُفرد بالعبادة أما ما سواه فقدرته ناقصة إذ أنهم لم يَخلقوا أنفسهم ولم يَخلقوا غيرهم، ولا يستطيعون كشفا للضر عنهم ولا تحويلا ولا يستطيعون لأنفسهم نصرًا ولا غيرهم ينصرون، فمرد هذا كله إلى قصور قدرتهم. فهل يجوز لدي صاحب عقل منصف أن يتوجه بالعبادة إلي من هذا شأنه وحاله؟

إن هذا لا يجوز بحال لدي أصحاب العقول السليمة، ومن ثم نجد الآيات القرآنية في غير موضع من كتاب الله تعالى تحدثنا عن هذا المعني وهذا المسلك العقلي حيث نجد قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة:21 - 22] فمن خلال هاتين الآيتين نقف على طلاقة القدرة الإلهية في الخلق والإبداع والتي تجلت في خلق الإنسان على مر العصور خلقًا دائما غير منقطع، وتجلت في تكوين الأرض مهادًا له والسماء سقفًا محفوظا يظله، ثم كان نزول المطر من السماء به تهتز الأرض وتربو كل هذا وغيره يشاهده الإنسان في الكون الفسيح دليلًا ظاهرا على طلاقة قدرة الله سبحانه وتعالى، فهل يستقيم في حكم العقل بعد كل هذا أن يتوجه بالعبادة إلي غيره سبحانه بالعبادة؟ فهل يستقيم في

حكم العقل بعد إطلاع الإنسان على جانب من قدرة الله أن يتوجه إلى غيره بالعبادة ممن غلت قدرتهم عن أن يملكوا لأنفسهم أو لغيرهم ضرًا ولا نفعًا ولا خلقا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

يقول الإمام الماتريدي في جانب من تعليقه على هاتين الآيتين ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ أي: وحدوا ربكم إذ إن العبادة عبارة عن التوحيد، فالعبادة التي هي لله لا تكون ولا تخلص له إلا بالتوحيد (الذي خلقكم والذين من قبلكم) والذين تعبدونهم لم يخلقوكم ولا خلقوا الذين من قبلكم فكيف تعبدونهم دون الذي خلقكم ؟ (الذي جعل لكم الأرض فراشا، رزقا لكم) أي وجهوا العبادة إلي من جعل لكم الأرض فراشا لتنتفعوا بها ورفع السماء من فوقكم، وأنزل لكم من السماء ماءً عند حوائجكم ولا تعبدوا من تعلمون أنه لم يخلقكم ولا أنزل لكم من السماء ماءً، ولا أخرج لكم من ذلك الماء ثمرات تكون رزقا لكم، بل هو الله الواحد الذي لا شريك له، ولأنه يخلقكم ويرزقكم يخرج لكم من ذلك الماء المنزل من السماء رزقًا تأكلونه وماءً عذبا تشربونه (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) أي لا ند ولا عدل ولا شكل له لما أراكم من إنشاء هذه الأشياء، ولم تروا من ذلك ممن تعبدونه شيئا.[1]

ويقول الإمام البيضاوي في تعليقه على هاتين الآيتين السابقتين وكيفية دلالتيهما على إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى : " إن أهل العلم والنظر وإصابة الرأي لو تأملوا أدني تأمل لاضطرتهم عقولهم إلي إثبات موجد للكائنات منفردًا بوجوب الذات متعالٍ عن مشابهة

1 - تأويلات أهل السنة 12 ص 69، 70 .

المخلوقات، وهي أيضا لا تماثله ولا تقدر على مثل ما يفعله، كقوله سبحانه في سورة الروم (هل من شركائكم من يفعل م ذلكم من شيء) .

وعلى هذا فالمقصود هو: الأمر بعبادة الله سبحانه وتعالى والنهي عن الإشراك به تعالى؛ لأنه تعالى خالقهم، وخالق أصولهم وما يحتاجون إليه في معاشهم من المقلة والمظلة [1] والمطاعم والملابس فإن هذه الأمور التي لا يقدر عليها غيره شاهدة على وحدانيته [2].

ثم نجد الحق سبحانه وتعالى يقص علينا من أثار السابقين ما يدلنا به على طلاقة قدرته، ويجعلنا نقف من خلاله على قصور قدرة ما سواه، وكيف يتخذ من ذلك شاهدًا وبرهانا على إبطال دعوة الإلوهية لمن نازع ربه فيها، فنراه يطلعنا على قصة إنسان استحب العمى على الهدى فبعث الله إليه رسولًا من أولي العزم من رسله فدارت بينهما محاجاة بين له الخليل من خلالها طلاقة القدرة الإلهية في الإحياء والإماتة، فلما شاغب ذلك المستكبر فيما ذكره الخليل عليه السلام أطلعه على نوع آخر من طلاقة القدرة الإلهية الكامنة في الكون؛ إذ بين له أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يأتي بالشمس من المشرق، فإن كان يظن في نفسه أنه حَقِيقًا بالإلوهية فليأتي بها من المغرب، وهنا تبين له قصور قدرته وبهت متوقفا عن الجدال موقنا بزيف دعواه للإلوهية، وهو من قصرت قدرته عن تناول الأشياء خلقا وإعداما وتغييرًا.

يقول سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾

---

1 – المقلة أي الأرض والمظلة أي السماء .

2 – أنوار التنزيل جـ 1 ص 26، ويراجع إرشاد العقل السليم جـ 1 ص 65 .

يقول الإمام ابن كثير في توجيه هذه الآية الكريمة وبيان دلالتها على إثبات الوجود للصانع والوحدانية له لقد دعى إبراهيم الخليل ذلك الملك إلي عبادة الله وحده لا شريك له إلا أنه حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار ذلك، وادعى لنفسه الربوبية، فلما قال الخليل : (ربي الذي يحي ويميت) قال (أنا أحي وأميت) فأتى برجلين قد تحتم قتلهما فأمر بقتل أحدهما وعفى عن الآخر ... وهذا ليس بمعارضة للخليل بل هو كلام خارج عن مقام المناظرة ليس بمنع ولا معارضة بل هو تشغيب محض وهو انقطاع في الحقيقة، فإن الخليل استدل على وجود الصانع ووحدانيته بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها، فدل ذلك على وجود فاعل قادر لابد من استنادها إلي وجوده ضرورة عدم قيامها بنفسها، ولابد من فاعل قادر لهذه الحوادث المشاهدة من خلقها وتسخيرها وتيسير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة، ثم إماتتها ولهذا قال إبراهيم (ربي الذي يحي ويميت).

فقول هذا الملك الجاهل أنا أحي وأميت إن عني أنه الفاعل لهذه المشاهدات= فقد كابر وعاند، وإن عني بالإحياء والإماتة عن طريق العفو والقتل فلم يقل شيئا يتعلق بكلام الخليل إذ لم يمنع مقدمة ولا عارض دليلا، ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم ذكر دليلا آخر على بطلان ما ادعاه النمرود (قال إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) أي هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق، كما سخرها خالقها وميسرها وقاهرها، وهو الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء، فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحي وتميت، فأت بهذه الشمس من المغرب فإن الذي يحي ويميت هو الذي يفعل ما شاء، ولا يمانع ولا يغالب، بل قد قهر كل شيء ودان له كل شيء، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا فإن لم تفعل، فليس كما زعمت وأنت

تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنصر منها (1) .

هنا علم أن طلاقة القدرة تكون في الإله الحق أما ما سواه فالقصور والعجز شأنه وغالب حاله وبعد أن بين لنا الإمام ابن كثير توجيه الآية الكريمة من حيث دلالتها على وحدانية الحق تبارك وتعالى نرى الإمام الألوسي يوجه الآية بما يتلاءم مع هذا أيضا.

يقول الإمام الألوسي: لقد أراد إبراهيم عليه السلام في محاجاته أن ينبهه على قصور قدرته في الخلق والتصريف وفساد رأيه من جهة علمه الضروري بأنه مولود أحدث بعد أن لم يكن، وأنَّ من لا وجود له في نفسه لا يمكنه الإيجاد الذي هو إفاضة الوجود ألبتة ضرورة احتياجه إلى الموجد ابتداءً ودواما، وهذا كاف في إبطال دعوى اللعين، فلم يعمم الدعوي في تفرده تعالى بالألوهية على أنه لوح إليه من حيث إنه لا فرق بين الإيجاد والإعدام نوعين هما الإحياء والإماتة والقدرة على إيجاد كل ممكن وإعدامه يلزم أن يكون خارجا عن الممكنات واحدا من كل الوجوه؛ لأن التعدد يوجب الإمكان والافتقار، فعارضه اللعين بما أوهم أنه يجوز أن يكون الممكن لاستغنائه عن الفاعل في البقاء مفوضا إليه بعد إيجاده ما يستقل بإيجاد الغير وتدبير الغير.

فقال : أنا أحي وأميت وأبدى فِعليه مشيرًا إلي أن للدوام حكم الابتداء في طرف الإحياء، وهو في ذلك مناقض نفسه من حيث لا يشعر ؛ إذ لو كان كذلك لم يكن التدبير مفوضا إلي غير الباري، ولم يكن مستغنيا عن الوجد طرفة عين، وإلا فليس العفو إحياء،

---

1 – البداية والنهاية جـ 1 ص 168، 169، وكذا تفسير القرآن العظيم جـ1 ص 313 وهذا وإن الإمام ابن كثير يرى في البداية أن الآية فيها انتقال من دليل إلي دليل آخر وفي التفسير يرى أن الدليل واحد والانتقال من مثال إلي مثال آخر والترجيح هنا ليس ذا فائدة كبيرة ما دام في نهاية الأمر كلاهما يدل على وحدانية الحق تبارك وتعالى .

وإن سُلِّم أن القتل إماتة، فألزمه الخليل عليه السلام بأن القادر لا يفترق بالنسبة إليه الدوام والابتداء، فإن الله تعالى يأتي بالشمس من المشرق فأت ها أنت من المغرب [1].

وبعد أن وقفنا من خلال الآية الكريمة من سورة البقرة على جانب من طلاقة القدرة التي هي مظهر من مظاهر الإلوهية نجد الحق تبارك وتعالى في آية أخرى يحدثنا عن جانب آخر من جوانب قدرته التي بها يستحق أن يفرد بالعبادة دون سواه إذ يبين لنا أن من المستبعد لدي أرباب العقول السليمة اتخاذ غيره تعالى وليًا ومعبودًا، وما ذلك إلا لأن ذلك الغير قاصر في إرادته وقدرته أما الحق تبارك وتعالى فهو المتصف والحقيق بكمال القدرة، وبكمال قدرته تلك خلق السماوات والأرض، وتكفل برزق خلقه وعباده، وبها أيضًا يكشف الضر عنهم إذا نزل أو ألم بأحدهم، وفي الوقت ذاته لا يقدر أحد على إيصال الخير للغير إلا هو وهذا ليس بمستغرب إذ إنه على كل شيء قدير وبقدرته كان قاهرا وغالبا فوق الخلائق، وما ذلك إلا لأنه حكيم خبير، فمن هذا شأنه وحاله حقيق بأن يعبد أما من قصرت قدرته عن الخلق وإيصال الرزق وكشف الضر وغير ذلك، فهو مربوب لا يصح بحال أن يكون إلها يقول تعالى في سورة الأنعام ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

إن الإمام الرازي ينطلق من هذه الآيات الكريمات ليقيم لنا عدة أدلة على وحدانية الله تعالى معتمدًا في ذلك على طلاقة القدرة الإلهية في الخلق والإيجاد والنفع والضر والقهر والغلبة.

---

1 - روح المعاني ج 3 ص 18، 19 .

الدليل الأول:

قال الإمام الرازي : اعلم أن المذكور في صدر الآية هو المنع من اتخاذ غير الله تعالى وليا واحتج عليه بأنه فاطر السماوات والأرض وبأنه يطعم ولا يطعم ومتى كان الأمر كذلك امتنع اتخاذ غيره وليًا. أما بيان أنه فاطر السماوات والأرض؛ فلأنه تبين لنا أن ما سوى الواحد ممكن لذاته والممكن لذاته لا يقع موجودا إلا بإيجاد غيره، فنتج أن ما سوى الله فهو حاصل بإيجاده و تكوينه، فثبت أنه سبحانه هو الفاطر لكل ما سواه من الموجودات، وأما بيان أنه يطعم ولا يطعم فظاهر؛ لأن الإطعام عبارة عن إيصال المنافع وعدم الاستطعام عبارة عن عدم الانتفاع، ولما كان هو المبدئ تعالى وتقدس لكل ما سواه كان لا محالة هو المبدئ لحصول جميع المنافع، ولما كان واجبًا لذاته كان لا محالة غنيًا متعاليًا عن الانتفاع بشيء آخر فثبت بالبرهان صحة أنه تعالى فاطر السماوات والأرض وصحة أنه يطعم ولا يطعم وإذا ثبت هذا امتنع في العقل اتخاذ غيرة وليًا؛ لأن ما سواه محتاج في ذاته وفي جميع صفاته وفي جميع ما تحت يده، والحق سبحانه وتعالى هو الغني لذاته الجواد لذاته، والذهاب إلي الفقير القاصر القدرة المحتاج ممنوع عنه في صريح العقل [1] .

الدليل الثاني:

قال الإمام الرازي :اعلم أن هذا دليل آخر في بيان أنه لا يجوز للعاقل أن يتخذ غير الله وليا.

وتقريره: أن الضر اسم للألم والحزن والخوف وما يفضي إليهما أو إلي أحدهما، والنفع اسم للذة والسرور وما يفضى إليهما أو إلي أحدهما، والخير اسم للقدر المشترك بين دفع الضر وبين

1 - مفاتيح الغيب جـ 6 ص 242، ويراجع أنوار التنزيل جـ 1 ص 215 .

حصول النفع، فإذا كان الأمر كذلك فقد ثبت الحصر في أن الإنسان إما أن يكون في الضر أو في الخير؛ لأن زوال الضر خير سواء حصل فيه اللذة، أو لم تحصل، وإذا ثبت هذا الحصر فقد بين الله تعالى أن المضار قليلها و كثيرها لا يندفع إلا بالله، والخيرات لا يحصل قليلها وكثيرها إلا بالله، والدليل على أن الأمر كذلك أن الموجود إما واجب لذاته وإما ممكن لذاته.

أما الواجب لذاته= فواحد، فيكون كل ما سواه ممكنا لذاته والممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته، وكل ما سوى الحق فهو إنما حصل بإيجاد الحق وتكوينه فثبت أن اندفاع جميع المضار لا يحصل إلا به وحصول جميع الخيرات والمنافع لا يكون إلا به، فثبت بهذا البرهان العقلي البين صحة ما دلت عليه الآية [1] .

ومادام الحق سبحانه وتعالى لشمول قدرته هو وحده القادر على رفع الضر وإيصال النفع كان مما لا يجوز في حكم العقل أن يدعو الإنسان إلها غيره مما يفتقر لكل ما تقدم ولذا كان قول الله تعالي في سورة الأنعام: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

والمعني أي: أنعبد من دون الله النافع والضار مالا يقدر على نفعنا ولا على ضرنا ونرد على أعقابنا راجعين إلي الشرك بعد أن أنقذنا الله منه وهدانا للإسلام [2] إن هذا لا يجوز عند من كان له أدني ذرة من عقل أو مسحة من فكر.

1 - مفاتيح الغيب جـ 1 ص 245، 246 .

2 - روح المعاني جـ 7 ص 114 .

وبعد استنباط هذين الدليلين على وحدانية الله سبحانه وتعالى من خلال الآيات السابقة تجد هناك دليلا ثالثًا أشار إليه الحق سبحانه وتعالى في هذه الآيات بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ وهذه الآية الكريمة من حيث دلالتها على الوحدانية عن طريق إثبات طلاقة القدرة لله تعالى يمكن أن نقول فيها إنها حوت إشارة إلي كمال القدرة في قوله: (وهو القاهر فوق عباده) فقوله: (وهو القاهر) يفيد الحصر، ومعناه: أنه لا موصوف بكمال القدرة إلا الحق سبحانه ممكن بالوجود لذاته، والممكن لذاته لا يترجح وجوده على عدمه ولا عدمه على وجوده إلا بترجيحه وتكوينه وإيجاده وإبداعه، فيكون في الحقيقة هو الذي قهر الممكنات تارة في طرف ترجيح الوجود على العدم وتارة في طرف ترجيح العدم على الوجود [1].

وإذا كانت هذه هي الدلائل على إفراد المعبود بالعبادة كما صدعت بها الآيات التي سقناها متفرقات إلا أنه في الواقع نرى هذه الدلائل يأخذ بعضها بحجز بعض إذ أن وصف الله تعالى بكونه فاطر السماوات والأرض لا يؤيد اتخاذ غيره وليا يستنصر ويستعان به، فإن من فطر السماوات والأرض بمحض إرادته من غير تأثير مؤثر ولا شفاعة شافع يجب أن يتوجه إليه وحده بالعبادة.

وبعد أن بين الحق جل في علاه من خلال ما سبق من آيات أنه وحده المنفرد دون سواه بالقدرة على كشف الضر وإيصال النفع نراه يخاطب الإنسان في آية أخرى مبرهنًا له على هذه الحقيقة ذاكرًا له نوعًا معينًا من أنواع الضر الذي قد يحيق ويحدق به قائلا له: ما بالك يا إنسان يا من اتخذت لك إلهًا غيري لو ضربتُ على سمعك وبصرك فصرتَ أصمًا أعمي

---

1 - مفاتيح الغيب جـ 6 ص 247، ويراجع المنار جـ 7 331، 332 .

بعد أن كنت سميعًا بصيرًا، وختمتُ على قلبك فصرتَ لا تفقه شيئا أهناك إله غيري يستطيع أن يرد عليك ما سلبته منك؟ كلا. فأنا الجواد القادر على العطاء، وأنا القاهر القادر على المنع. يقول تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنعام:46].

فالمقصود بهذه الآية الكريمة إقامة الدليل العقلي على وحدانية الفاعل المختار تبارك وتعالى، ويمكن أن نقرر هذا الدليل من خلال هذه الآية فنقول: إن ما ورد في هذه الآية الكريمة إنما هو تعليم من الله تعالى لنبيه في كيفية إقامة الحجة والبرهان على المشركين الذين دعوا مع الله آلهةً أخرى.

يقول الإمام الطبري: قل يا محمد لهؤلاء العادلين بي الأوثان والأصنام المكذبين بك: أرأيتم أيها المشركون بالله غيره إن أصمكم الله فذهب بأسماعكم، وأعماكم فذهب بأبصاركم، وختم على قلوبكم فطبع عليها حتى لا تفقهوا قولا وتبصروا حجة، ولا تفهموا مفهوما أيُّ إله غير الله الذي له عبادة كل عابد يأتيكم به فيرد عليكم ما ذهب الله به منكم من الأسماع والأبصار والأفهام فتعبدوه أو تشركوه في عبادة ربكم الذي يقدر على ذهابه بذلك منكم وعلى رده عليكم إذا شاء؟

وهذا من الله تعالى ذكره تعليم لنبيه كيف يقيم الحجة على المشركين به يقول له: قل لهم إن الذين تعبدونهم دون الله لا يملكون لكم ضرا ولا نفعا وذلك لقصور قدرتهم، وإنما يستحق

العبادة عليكم من كان بيده الضر والنفع والقبض والبسط القادر على كل ما أراد لا العاجز الذي لا يقدر على شيء[1].

ثم نجد الحق سبحانه وتعالى في آية أخرى يحدثنا عن حالة العجز والقصور التي تعترى كل من عُبد من دون الله وكيف أن هذه الآلهة المزعومة بما تحويه من صفات العجز وعدم القدرة لا تستحق أن تعبد فهل يستقيم في منطق العقلاء أن يعبد الإنسان من قصرت قدرته عن الخلق فضلا عن كونه مخلوقا؟ أيستقيم في منطلق العقلاء أن يعبد الإنسان من لا يستطيع لنفسه ولا لغيره موأزرةً أو نصرًا وإن يدعوه إلى الهدى لا يجد عنده صدًا سوى الصمت الرهيب؟

ولا غرابة في هذه الآلهة المزعومة إن كان هذا حالها وشأنها إذ إنها مخلوقة كسائر الخلائق، ومن ثم لا تملك من أمرها أو أمر غيرها شيئًا، ولكن ما يدعو للعجب أن الإنسان والذي له بعض القدرة وإن كانت ناقصة إلا أن له رجلًا يمشي عليها ويدًا يبطش بها وعينًا يبصر بها وأذنًا يسمع بها، ومع هذا لا يملك من أمر نفسه شيئًا فيكف يستقيم في منطلقه أن يتوجه بالعبادة لمن فقد هذا، فإذا كان الإنسان الذي يملك كل هذه الوسائل مربوبًا فما بالك بمن هو فاقد لها.

يقول سبحانه وتعالى في سورة الأعراف: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ...... أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

1 - جامع البيان جـ 5 ص 217، 218، ويراجع في رحاب التفسير جـ 7 ص 1205 .

إن هذه الآيات الكريمات قد حوت في طيها عددًا من الدلائل العقلية التي تبرهن على عدم استحقاق من دونَ اللهِ للألوهية والعبادة.

وأولىَ هذه الدلائل يمكن أن نستشفه من قول الله تعالى في الآيات: (أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون). وتقرير الدليل هنا: إن المقصود من هذه الآية إقامة الحجة على أن الأوثان وغيرها لا تصلح للإلوهية، والمعنى أيعبدون ما يقدر على أن يخلق شيئا وهم يُخلقون؟ أي: وهو مخلوقون يعني الأصنام وغيرها [1].

ثاني: هذه الدلائل قوله تعالي: (ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون). وتقرير هذا الدليل العقلي هنا: أن الأصنام لا تنصر من أطاعها ولا تنتصر ممن عصاها، والمعني: أن المعبود يجب أن يكون قادرًا على إيصال النفع ودفع الضر، وهذه الأصنام ليست كذلك، فكيف يليق بالعاقل عبادتها مع أنهم أيضًا لا يدفعون عن أنفسهم مكروها، فإن من أراد كسرهم لم يقدروا على دفعه [2].

ثالث هذه الدلائل قول الله سبحانه وتعالى: (وإن تدعوهم إلي الهدى لا يتبعوكم). وتقرير الدليل من خلال هذه الآية الكريمة أن نقول: إنه تعالى لما أثبت بالآية المتقدمة أنه لا قدرة لهذه الأصنام على أمر من الأمور بين بهذه الآية أنه لا علم لها بشيء من الأشياء، والمعني: أن هذا المعبود الذي يعبده المشركون معلوم من حاله أنه كما لا ينفع ولا يضر فكذا لا يصح فيه إذا دعى إلي الخير الإتباع، ولا يُفَصِّلُ حال من يخاطبه ممن يسكت عنه، ثم قوى هذا الكلام بقوله: (سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون).

1 - مفاتيح الغيب جـ 7 ص 400 .

2 - مفاتيح الغيب جـ 7 ص 401 .

فالمشركون كانوا إذا وقعوا في مهم وفي معضلة تضرعوا إلي تلك الأصنام، وإذا لم تحدث تلك الواقعة بقوا صامتين، فقيل لهم لا فرق بين إحداثكم دعاءهم وبين أن تستمروا على صمتكم وسكوتكم [1].

ثم أكد الله بيان أنها لا تصلح للإلوهية فقال تعالى (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم). والمعني انطلاقا من هذه الآية: إذا ثبت ما تقدم فهم عباد أمثالكم، ولا فضل لهم عليكم فلم جعلتم أنفسكم عبيدا وجعلتموها أربابا وآلهة، وقد ظهر لكل عاقل أنها لا تقدر على الإجابة، ولذا ظهر أنها لا تصلح للعبودية ...

ولما ثبت بهذه الدلائل الثلاثة اليقينية أنها لا تصلح للمعبودية، وجب على العاقل أن لا يلتفت إليها، وأن لا يشتغل إلا بعبادة الإله القادر العالم الحي الحكيم الضار النافع [2].

ثم تحدثنا الآيات بعد ذلك عن نوع أخر من الدلائل التي تبين أنه يقبح من الإنسان ذي العقل والتفكير والروية أن يشتغل بعبادة هذه الأصنام، فنراه سبحانه يقرع من اتخذ الأوثان آلهة من دونه بقوله: (ألهم أرجل يمشون بها) .

وانطلاقا من هذه الآية الكريمة يمكن أن نقول إنه تعالى ذكر فيها أعضاء أربعة وهي: الأرجل، والأيدي، والأعين، والأذان، ولا شك أن هذه الأعضاء إذا حصل في كل واحدة منها ما يليق بها من القوي المحركة والمدركة تكون أفضل منها إذا كانت خالية من هذه القوى، فالرجل القادرة على البطش، واليد القادرة على البطش أفضل من الرجل واليد الخاليتين عن قوة الحركة والحياة، والعين الباصرة والأذان السامعة أفضل من العين والأذان الخاليتين من القوة الباصرة والسامعة وعن قوة الحياة، وإذا ثبت هذا ظهر أن

---

1 - مفاتيح الغيب جـ 1 ص 402 .

2 - مفاتيح الغيب جـ 1 ص 402 .

الإنسان أفضل بكثير من هذه الأصنام، بل لا نسبة لفضيلة الإنسان إلى فضل هذه الأصنام ألبتة، وإذا كان كذلك فكيف يليق بالأفضل الأكمل الإشراف أن يشتغل بعبادة الأخس الأدون الذي لا يحصل منه فائدة ألبتة لا في جلب المنفعة ولا في دفع المضرة [1].

وبعد هذه البراهين التي ساقها الحق تبارك وتعالى لإبطال ما قد يتوجه إليه الإنسان بالعبادة من دون الله تعالى نراه في آية أخرى يبين لنا كذلك مظهرًا من مظاهر النقص والعجز عند هذه الآلهة المزعومة، والذي يتمثل في كونها لقصور قدرتها لا تملك لعابديها جلبًا لنفع أو دفعًا لضر، وإذا كان هذا حالها فليس من الجائز عند ذوى العقول والبصائر أن يتخذ ممن شيمته العجز ومركبه النقص والقهر إلهًا ومعبودًا يقول تعالى في سورة يونس: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس:18]

ومن خلال هذه الآية الكريمة يمكن إبطال عبادة الأوثان من عدة طرق منها:

أنها لا تنفع من عبدها ولا تملك ضرًا لمن أعرض عنها.

أيضًا إن من المتبادر إلي الأذهان والعقول أن المعبود أكمل من العابد لكن الواقع مع عبادة الأوثان خلاف ذلك إذ إن العابد والحالة هذه أكمل من المعبود الذي يتوجه إليه بالعبادة والواقع أن العابد هنا يتصرف في معبوده كيفما يشاء.

أيضا إن المعبود لابد وأن تكون له آثار في الخلق وفي الإنعام والأوثان مفتقدة لهذا فكيف تُدعى آلهة من دون الله.

وبعد أن ذكر الله تبارك وتعالى أن هذه الأصنام لا تضر ولا تنفع ولأجل هذا لا تصح أن تكون الآلهة، أو تكون بمثابة الشفعاء لعابديها نراه يبين لنا في موطن آخر من الآيات

---

1 - مفاتيح الغيب جـ 7 ص 403 .

القرآنية جانبًا من طلاقة قدرته في الخلق، وفي جلب النفع ودفع الضر، وإيصال الرزق والهداية لعباده إلي الحق، والذي بهذه الأوصاف استحق أن يفرد بالعبادة دون سواه، فيقول سبحانه وتعالى في سورة يونس: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ۚ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥)﴾ [يونس:35]

إن الحق سبحانه وتعالى بهذه الآيات يعدد لنا من الدلائل العقلية ما به نقف على فساد مذهب كل من أشرك بعبادة ربه أحدًا.

فالدليل الأول: ما ساقه الحق سبحانه وتعالى من خلال هذه الآيات من حديث عن أحوال الرزق وأحوال الحواس الإنسانية وأحوال الموت والحياة.

أما أحوال الرزق فإنه يحصل من السماء والأرض. أما من السماء فنزول الأمطار الموافقة، وأما من الأرض فلأن الغذاء إما أن يكون نباتا وإما يكون حيوانًا. أما النبات فلا ينبت إلا من الأرض، وأما الحيوان فإنه محتاج أيضًا إلي الغذاء، وأغذية الحيوانات يجيب انتهاؤها إلي النبات، والنبات يخرج من الأرض، فلزم القطع بأن الأرزاق لا تحصل إلا من السماء والأرض، ومعلوم أن مدبر السماوات والأرضيين ليس إلا الله سبحانه فثبت أن الرزق ليس إلا من الله تعالى.

وأما أحوال الحواس فكذلك أيضا[1].

وأما أحوال الموت والحياة ودلالتهما العقلية على وحدانية الصانع فظاهرة إذ أنه سبحانه وتعالى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، فيخرج الإنسان والطائر من النطفة والبيضة، ويخرج النطفة والبيضة من الإنسان والطائر، وعلى هذا فكل معبود سوى الله لم

1 - مفاتيح الغيب جـ 8 ص 350، ويراجع روح المعاني جـ 11ص 110، 111 .

يهب نفسه الحياة، وإذا كان كذلك فيكف يهبها لغيره وهو عاجز عن أن يهبها لنفسه، وإن كان غير صنم فذلك متوجه إليه أيضًا فضلا عن أنه يتوجه إليه كيف يلحقه الفناء والموت، والإله لا يعتريه ذلك إذ إن كل الوجود في أمس الحاجة إليه، فلو لحقه الفناء واعتراه الموت لاختل الوجود أما وأنه لم يختل بموت ذلك الإله المزعوم فدل هذا على كونه ليس بإله، ومن ثم نجد الحق سبحانه وتعالي يقول: (ومن يدبر الأمر...) والمعني: أن المشركين إذا سئلوا عن مدبر هذه الأحوال فسيقولون إنه الله تعالى، وهذا يدل على "أن المخاطبين بهذا الكلام كانوا يعرفون الله ويقرون به وهم الذين قالوا في عبادتهم للأصنام إنها تقربنا إلي الله زلفى، وأهم شفعائنا عند الله، وكانوا يعلمون أن هذه الأصنام لا تنفع والضر، ومن ثم كان قول الله حق (فقل أفلا تتقون) بمعنى أفلا تتقون أي تجعلون هذه الأوثان في المعبودية مع اعترافكم بأن كل الخيرات في الدنيا والآخرة إنما تحصل من رحمة الله وإحسانه واعترافكم بأن هذه الأوثان لا تنفع ولا تضر ألبتة [1] .

وإذا كان الأمر كذلك وعرفتم أن النافع والضار هو الله وهو الرازق لكم الممدكم بالسمع والأبصار، والمخرج الحي من الميت والمخرج الميت من الحي، فاعلموا أن ذلكم الله ربكم الإله الحق، والمعني العقلي " أن من كانت هذه قدرته ورحمته فهو ربكم الحق الثبت ربوبيته ثبوتا لا ريب فيه، وإذا ثبت أن هذا هو الحق وجب أن يكون ما سواه ضلالا؛ لأن النقيضين يمتنعان أن يكونا حقين وأن يكونا باطلين، فإذا كان أحدهما حقا وجب أن يكون ما سواه باطلا [2].

---

1 – مفاتيح الغيب جـ 8 ص 351، ويراجع إرشاد العقل السليم جـ 3 ص 143 .

2 – نفسير القرآن العظيم جـ 2 ص 416 .

وإذا رسخ في الذهن كل ما تقدم من أن رب السماوات والأرض هو الله، وأن الأوثان وغيرها لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا، وأنهم ما قدروا على خلق شيء حتى يتشابه بخلق الله، وكأن الله يقول إذا كان الأمر كذلك فقل لهم يا محمد: الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار، وإلى هذه المعاني كانت الإشارة بقوله الحق سبحانه وتعالى في سورة النحل: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النحل:17]، وكانت الإشارة أيضا بقوله تعالى في سورة النحل: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النحل:20 -22]

وهذه "الدلائل الباهرة والبينات الزاهرة القاهرة على وجود إله حكيم ثبت أنه المولي لجميع هذه النعم، فكيف يحسن في العقول الاشتغال بعبادة موجود سواه لاسيما إذا كان ذلك الموجود جمادًا لا يفهم ولا يقدر، فلهذا الوجه قال: (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون)، والمعنى أفمن يخلق هذه الأشياء التي ذكرناها (كمن لا يخلق) بل لا يقدر ألبتة على شيء (أفلا تذكرون)، فإن هذا القدر لا يحتاج إلي تدبر وتفكير ونظر، ويكفي فيه أن تنتبهوا على ما في عقولكم من أن العبادة لا تليق إلا بالمنعم الأعظم، وأنتم ترون في الشاهد إنسانا عاقلا فاهما ينعم بالنعمة العظيمة، ومع ذلك فتعلمون أنه يقبح عبادته، فهذه الأصنام جمادات محضة وليس لها فهم ولا قدرة ولا اختيار، فكيف تقدمون على عبادتها [1].

ويقول سبحانه وتعالى في سورة طه حال حديثه عن قصة كليمه موسى عليه السلام مع قومه عندما رآهم وقد اتخذوا العجل إلهًا من دون الله مع أنه لا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا ولا يرجع لهم قولا: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ

1 - مفاتيح الغيب جـ 9 ص 500، ويراجع روح المعامي جـ 14 ص 113، 114 .

﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه:89] فكيف يكون ذلك إلها !!

من لا يملك لعابده ضرا ولا نفعا فضلا عن أن ذلك العجل لا يملك ذلك لنفسه إذ إنه لما نزل به أمر الله لم يستطع منه مهربا ولا نفعا. يقول تعالى في سورة طه: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ [طه:97]

ثم نجد الحق سبحانه وتعالى يصور لنا مشهدًا عمليًا ساقه لنا على هيئة مثل سائر يبين لنا من خلاله أوجه القصور والضعف في تلك الآلهة المزعومة وتقاعسها عن النفع والضر، بل وعجزها عن أن تدفع عن نفسها ما يحيق بها من الملمات فيقول تعالى في سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج:73]

إن الحق سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلا مصحوبا بأمر إلهي المراد منه الإنصات له متدبرين إياه حق تدبره بَطَلُ هذا المثل حشرة لها منزلة عظيمة من الضعف والوهن، وفوق ذلك تعد من أجهل الحشرات إذ إنها ترمى بنفسها في المهلكات، وتتهافت على القاذورات هذه الحشرة هي الذبابة، والتي يحتج الله سبحانه وتعالى بها على إبطال عبادة الأوثان من وجهين: أولا: (إن الذين تدعون من دون الله). والحق سبحانه وتعالى بهذا التأكيد للنفي يعلمنا: أن هذه الأصنام وإن اجتمعت لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها، فكيف يليق بالعاقل جعلها معبودا [1].

1 – مفاتيح الغيب ج 11 ص 326، ويراجع تفسير الجلالين ج 2 ص 84، وكذا حاشية الصاوي على الجلالين ج 2 ص 84، 85 .

ثانيا : وهذا وجه آخر يبطل به الله سبحانه وتعالى عبادة الأوثان من خلال هذه الآية، وذلك في قوله عز شأنه (وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه). وكأن الله سبحانه وتعالى بهذه الآية يقول: تنبه! سأترُك أمر الخلق والإيجاد وسأتكلم فيما هو أسهل منه، فإن الذباب إن سلب منها شيئا فهي لا تقدر على استنقاذ ذلك الشيء من الذباب[1]؛ لأجل هذين الأمرين ثبت العجز لهذه الآلهة المزعومة، ولذا فهي غير حقيقة بالعبادة، وإذا كان الأمر كما تقدم ناسب أن يكون ختام الآية: (ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ) فالطالب هي الآلهة والمطلوب هو الذباب، أو يكون الطالب هم العبادة والمطلوب هي الأوثان، والأول أوجه لدلالة السياق عليه وما يستشف من هذه الآية الكريمة من إثبات النقص والعجز للأوثان قد نبه الحق سبحانه وتعالى عليه في سورة الفرقان حيث يقول: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان:3]

وإذا خلت كل تلك المعبودات من هذه الأوصاف مع ثبوتها جميعا لله الواحد الأحد كان ما وقع منهم من شرك ضربًا من الجنون الذي لا يستسيغه عقل، وانطلاقا من المعاني السابقة يمكن القول أن هناك الكثير والكثير من الآيات القرآنية التي ترشد إلى المعاني السابقة، فمن هذا:

قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الفرقان: (﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [الفرقان:55]

وقوله تعالى في سورة الروم ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم:40]

1 - مفاتيح الغيب جـ 11 ص 658، وكذا الجامع لأحكام القرآن جـ 6ص 4865، وكذا د/ عبدالسلام الذهبي تيسير الرحمن في سورة الفرقان ص 36 ، ط الأولى دار الطباعة المحمدية 1986 م .

وقوله تعالى في سورة لقمان ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾ [لقمان:11]

وقول الحق سبحانه وتعالى في سورة لقمان: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [لقمان:30]

وقوله تعالى في سورة فاطر: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [فاطر:40]

وقوله في سورة يس: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يس:23]

وقوله تعالى في سورة الصافات: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصافات:96]

وقوله تعالى في سورة غافر: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [غافر:62].

ثم نجد الحق سبحانه وتعالى يثبت لنا وحدانيته عن طريق منهج له شأن عظيم في البحث والدراسة ذلك المنهج الذين يحدثنا الله سبحانه وتعالى فيه عن حقيقة تلكم الآلهة المزعومة التي لا توصف إلا بالنقص والعجز، وعلى الجانب الآخر يثبت لنا ما لذاته العلية من صفات دالة على طلاقة قدرته، والتي بها استحق أن يفرد بالعبادة دون سواه. يقول سبحانه وتعالى في سورة الشعراء: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ

يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء:82]

يقولا الإمام الرازي: وتقرير هذه الحجة التي ذكرها إبراهيم عليه السلام أن الغالب من حال من يعبد غيره أن يلتجئ إليه من المسألة ليعرف مراده إذا سمع دعائه ثم يستجيب له في بذل منفعة أو دفع مضرة، فقال لهم: فإذا كان من تعبدونه لا يسمع دعاءكم حتى يعرف مقصودكم، ولو عرف ذلك لما صح أن يبذل النفع أو يدفع الضرر، فيكف تستجيزون أن تعبدوا ما هذا وصفه [1]!!!.

ولما أقام الخليل عليه السلام هذه الحجة القاهرة التي بينت فساد ما يعبد أبوه وقومه لم يجدوا أمامهم إلا أن يركنوا إلي التقليد مرددين مقالة العاجز: بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، وهذا القول من جانب قوم إبراهيم عليه السلام نأخذ منه أمرين :

أولا : فساد التقليد والحث على النظر والاستدلال إذ لو كان النقيض لكان في هذا مدح للتقليد، ومن ثم مدح لطريقة الكفار وذم في الوقت ذاته للاستدلال، ومن ثم يكون ذمًا لطريقة إبراهيم عليه السلام وهذا لا يجوز .

ثانيا: إن هذا القول فيه إضراب عن أن يكون لهم سمع أو نفع أو ضر، وهذا اعتراف بما لا سبيل لهم إلي إنكاره، واضطروا إلي إظهار أن لا سند لهم سوى التقليد، فكأنهم قالوا: لا يسمعوننا ولا ينفعوننا ولا يضروننا، وإنما وجدنا آباءنا يفعلون مثل فعلنا ويعبدونهم مثل عبادتنا فاقتدينا بهم [2].

---

1 - مفاتيح الغيب جـ 12 ص 133، ويراجع أنوار التنزيل جـ 2 ص 107 .

2 - روح المعاني جـ 19 ص 94 .

ولما بين لهم الخليل عليه السلام فساد معتقدهم وهدم ما كانوا يؤمنون به بالحجة والبرهان نراه وقد بدأ بعد ذلك في تأسيس وبناء العقيدة الصحيحة مبينا لهم أن الذي يستحق أن يعبد هو الله تعالى الذي له طلاقة القدرة في الفعل ومن آثار قدرته التي بها استحق أن يفرد بالعبادة:

1. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨﴾ [الشعراء:78].

"فبدن الإنسان إنما يتولد عند امتزاج المني بدم الطمث، وهما إنما يتولدان من الأغذية المتولدة من تركيب العناصر الأربعة، وتفاعلها فإذا امتزج المني بالدم فلا يزال ما فيها من الحار والبارد والرطب واليابس متفاعلًا، وما في كل واحد منها من القوى كاسرًا ثورة كيفية الأخرى، فحينئذ يحصل من تفاعلهما كيفية متوسطة تستحر بالقياس إلي البادر، وتستبرد بالقياس إلي الحار، وكذا القول في الرطب واليابس، وحينئذ يحصل الاستعداد لقبول قوى مدبرة لذلك المركب، فبعضها قوى نباتية وهي التي تجذب الغذاء ثم تمسكه ثم تهضمه ثم تدفع الفضلة المؤذية ثم تقيم لكل الأجزاء بدل ما تحلل منها ثم تزيد في جوهر الأعضاء طولًا وعرضًا ...، ومنها قوى حيوانية بعضها مدركة كالحواس الخمس والخيال والحفظ والذكر، وبعضها فاعلة إما آمره كالشهوة والغضب، أو مأمورة كالقوى المركوزة في العضلات، ومنها قوى إنسانية وهي إما مدركة أو عاملة، والقوى المدركة هي التي تقوى على إدراك حقائق الأشياء ...، ثم إنك إذا فتشت عن كل واحدة من مركبات هذا العالم الجسماني ومفرداتها، وجدت لها أشياء تلائمها وتكمل حالها، وأشياء تنافرها وتفسد حالها، ووجدت فيها قوى جذابة للملائم دافعة للمنافي ...، فقد ظهر أن صلاح الحال في هذه الأشياء لا يتم إلا بالخلق

والهداية أما الخلق: فبتصيره موجودًا بعد أن كان معدومًا، وأما الهداية فبتلك القوى الجاذبة للمنافع والدافعة للمضار [1].

ومن ثم كان الثناء من الله على نفسه بهذين الأمرين الوارد ذكرهما في سورة الأعلى في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى:2 - 3].

2. ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩﴾ [الشعراء:79] .

وقد دخل بهذه الآية كل ما يتصل بمنافع الرزق، وذلك لأنه سبحانه إذا خلق للإنسان الطعام وملّكه له، فلو لم يكن معه ما يتمكن به من أكله و الاغتذاء به نحو الشهوة والقوة والتمييز لم تكمل هذه النعمة، والمعني أي هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية فساق المزن وأنزل الماء وأحيا به الأرض وأخرج به من كل الثمرات رزقًا للعباد وأنزل الماء عذبًا زلالا يسقيه مما خلق أنعاما وأناسي كثيرا[2] .

3. ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء:80].

إن المرض يحدث باستيلاء بعض الأخلاط على بعض، وذلك الاستيلاء إنما يحصل بسبب ما بينها من تنافر طبعي. أما الصحة فهي إنما تحصل عند بقاء الأخلاط على اعتدالها، وبقائها على اعتدالها إنما يكون بسبب قاهر يقهرها على العودة والاجتماع والاعتدال بعد أن كانت بطباعها تنزع إلي التفرق والنزاع وعلى هذا فالمعنى: "إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه [3] .

1 - مفاتيح الغيب جـ 12 ص 133 .

2 -تفسير القرآن العظيم جـ 3 ص 338، في رحاب التفسير جـ 19 ص 4413 .

3 - تفسير القرآن الغظيم جـ3 ص 338، مفاتيح الغيب جـ12 ص 137، إرشاد العقل السليم جـ 6 ص 248 .

4. ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾[الشعراء:81].

هذه هي الصفة الرابعة في الآية والتي تدل على كمال قدرة الله تعالى، والتي تظهر في الإماتة والإحياء.

يقول الإمام ابن كثير: أي هو الذي يحي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه، فإنه هو الذي يبدئ ويعيد (1) .

5. ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾[الشعراء:82].

هذه هي الصفة الخامسة التي استحق بها الحق أن يفرد بالألوهية، وفيها إشارة إلي ما هو مطلوب كل عاقل من الخلاص عن العذاب والفوز بالثواب، وهذا لا يقدر عليه إلا الإله الحق، فلو أخطأ الإنسان في حق الأصنام والأوثان أو تضرع إليها ماذا تملك له؟ هل تملك لخطيئته عقابا أو لطاعته ثوابا؟ كلا. وهذا ظاهر ببداهة العقل.

فإذا ثبت كل هذا ثبت انفراد الحق بالألوهية لأنه هو القادر على فعل ذلك فكأن إبراهيم عليه السلام أراد أن يقول: إن ربي هو الذي بيده نفعي وضري، وله القدرة والسلطان، وله الدنيا والآخرة لا الذي لايسمع إذا دعي ولا ينفع ولا يضر، وإنما كان هذا الكلام من إبراهيم عليه السلام احتجاجًا على قومه في أنها لا تصلح للألوهية، ولا ينبغي أن تكون العبودية إلا لمن يفعل هذه الأفعال لا لمن لا يطيق نفعًا ولا ضرًا (2).

إن طريقة الاستدلال على إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى من خلال الآيات الكريمات قد أشارت إلى منهج جديد في البحث والدراسة وزُعم السبق فيه "لفرنسيس بيكون" حتى

---

1 - تفسير القرآن العظيم جـ 3 ص 338 .

2 - جامع البيان جـ 9 ص 501 .

ألف فيه كتابا أطلق عليه "الأرجانون" [1] ذلك المنهج في البحث والاستدلال يقوم على جانبين:

جانب للهدم وجانب للبناء، أو بعبارة أخرى: جانب للسلب وجانب للإيجاب.

فجانب الهدم أو السلب: يتم فيه إزالة ما علق بالذهن من أوهام قد تعوق الوصول إلي الحق.

وجانب البناء أو الإيجاب: يتم فيه إعطاء الصفات الصحيحة للشيء المراد إثباته، وقد استخدم القرآن الكريم في الآيات السابقة هذا المنهج سابقًا "بيكون" بقرون عديدة إذ أن الخليل عليه السلام فيما مر من آيات قد أبطل وهدم خرافة عبادة الأوثان بالحجة والبرهان، وهذا هو جانب الهدم أو الجانب السلبي، وفي هذا تمهيد لجانب البناء أو الجانب الإيجابي: والذي تم فيه بناء العقيدة الصحيحة عن الإله الحق بتقرير صفاته التي بها استحق أن يبعد.

نقول: هذا مع تكرار التأكيد على أن القرآن الكريم قبل كل شيء هو كتاب هداية للناس من رب الناس.

وبعد فهذا جانب من الحديث العقلي للقرآن الكريم على إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى عن طريق إثبات طلاقة القدرة لله تعالى، وإثبات القصور والعجز في كل ما سواه .

ولعلنا لاحظنا في حديث الآيات القرآنية عن هذا الموضوع الموضوعية في أسمى صورها، والعقلانية في أبهى مشاهدها، ولا غرابة في ذلك فهذه هي سمة القرآن الكريم وتلك شيمته.

وقبل أن نختم هذا البحث نقول لمن أنكر وجود الله او عبد غيره: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أَمْ مَا تُشْرِكُونَ أَيُّهَا الْقَوْمُ خَيْرٌ، أَمِ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَيُنْشِئُهُ مِنْ

---

1 – الأرجانون المنهج أو الاداة .

غَيْرِ أَصْلٍ، وَيَبْتَدِعُهُ ثُمَّ يَفْنِيهِ إِذَا شَاءَ، ثُمَّ يُعِيدُهُ إِذَا أَرَادَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَفْنِيَهُ، وَالَّذِي يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَيُنْزِلُ مِنْ هَذِهِ الْغَيْثَ، وَيُنْبِتُ مِنْ هَذِهِ النَّبَاتَ لِأَقْوَاتِكُمْ، وَأَقْوَاتِ أَنْعَامكُمْ. (أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ) [النمل: 60] سِوَى اللَّهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ؟ وَإِنْ زَعَمُوا أَنَّ إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ أَوْ شَيْئًا مِنْهُ، فَ قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: (هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) أَيْ حُجَّتَكُمْ عَلَى أَنَّ شَيْئًا سِوَى اللَّهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ. (إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) فِي دَعْوَاكُمْ[1].

1 – جامع البيان 10/ 7، ويراجع أنوار التنزيل 2/ 122.

الباب الثاني

النبوات ودلائلها العقلية في القرآن الكريم

أنماط ونماذج

الفصل الأول

أوجه الإعجاز العقلية في القرآن الكريم

لقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يؤيد كل رسول من رسله بمعجزة تكون آية شاهدة على صدقه وبرهانًا مؤيدًا لدعوته، وهذه سنة الله قد خلت في الرسل السابقين، ولم تتخلف مع أحد منهم، ومن حكمة الله سبحانه وتعالى أن تكون معجزة كل رسول ملائمة لظروف عصره، فمثلا: من معجزات الخليل عليه السلام تأييده بسلب الناموس إذ النار خاصيتها الإحراق بيد أنه عندما ألقي الخليل في أتونها سلب منها ناموسها فكانت عليه بردا وسلاما، وعند التأمل في هذه المعجزة نراها وقد اتفقت تماما مع عصر نبي الله إبراهيم، فقد كان أهل زمانه يعبدون الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من دون الله، فكانت هذه المعجزة لتحمل في طيها مغزى عظيما وهو أن وراء كل قوة مادية على ظهر الأرض قوة أعلى تسيطر عليها وهي القدرة الإلهية المهيمنة على الكائنات.

وكذلك كان الحال مع موسى وعيسى عليهما السلام، وهكذا تترى معجزات الرسل صلوات الله وسلامه عليهم حتى كان عهد آخرهم رسولنا محمد صلي الله عليه وسلم الذي أيده الله سبحانه وتعالى بالمعجزة الكبرى الخالدة أبد الدهر "القرآن الكريم" والتي أمره الله سبحانه وتعالى أن يسمعه لخلقه فيكون فعله في القلوب والنفوس. يقول تعالى في سورة التوبة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [التوبة:6]

يقول الإمام الزركشي: فلولا أن إسماعه آية وحجة عليه لم يقف أمره على سماعه ولا يكون حجة إلا وهو معجزة [1].

---

1 - الإمام الزركشي البرهان في علوم القرآن ص 91 ج 2، ط المعرفة للطباعة والنشر ببيروت .

ويقول سبحانه وتعالى في سورة العنكبوت : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [العنكبوت:50]

إن المتأمل في هاتين الآيتين الكريمتين يجد الحق سبحانه وتعالى يخبر من خلالهما أن النبي صلي الله عليه وسلم وإن كان قد صدع بدعوته، فإن له مما نزل عليه حجة وبرهانا شاهدين بصدقه، ولا غرابة في ذلك فما نزل عليه معجز مثبت للرسالة، فإن القرآن الكريم "آية في نفسه دالة على صدق النبي صلي الله عليه وسلم، وأنه كاف في الدلالة قائم مقام معجزات غيره وآيات سواه من الأنبياء"(1).

وإذا كان القرآن الكريم آية أُيد بها الرسول صلي الله عليه وسلم مثل آيات إخوانه من الأنبياء والرسل إلا أن القرآن الكريم يمتاز عن هذه الآيات بعدة أشياء منها :

1. أن القرآن الكريم معجزة أبدية خالدة في حين أن معجزات الأنبياء السابقين انتهت بانتهاء حياتهم؛ ولأجل هذا كان ترتيب القرآن الكريم على غير نزوله، فلو أنه جمع حسب ترتيب نزوله لفهم بعض الناس أن آياته خاصة بحوادثها أو أنه حلول وقتية للمشكلات التي كانت على عهد الرسول صلي الله عليه وسلم فحسب، ولكن الله تعالى يريد لكتابه أن يكون عامًا خالدًا لا يختص بعصر دون عصر ولا بقوم دون قوم؛ لذلك قضت حكمته سبحانه أن يرتب القرآن الكريم ترتيبا به يتحقق هذا العموم وهذا الخلود ويبتعد عن الترتيب الزمني الذي نزل به لحكمة كانت مناسبة حين نزوله.

2. انتصاب الدليل والشاهد على مر العصور الأزمان على أن النبي صلي الله عليه وسلم بعث وبلغ رسالة ربه وكذا فعل سائر رسل الله حيث حكي القرآن الكريم ذلك عنهم فهو

1 - البرهان جـ 2 ص 91 ويراجع الإتقان جـ 2 ص 147 .

شاهد لهم أيضا، فالقرآن فيه دلالة على صدق الرسل السابقين ونفي ما نسب إليهم زورًا من أباطيل.

وإذا كنا قد عرفنا هذا بالنسبة للقرآن الكريم فالذي ينبغي أن نعلمه أن الرسول صلي الله عليه وسلم قد خص بجانب القرآن الكريم بالكثير من المعجزات الحسية مثل: نبع الماء من بين أصابعه، وسماعه تسبيح الحصى، وحنين الجزع إليه، وتسليم الحجر والشجر عليه، وتكثير الطعام بين يديه، ورد عين قتادة وقد سالت على خديه، وكانت معجزة الإسراء وغير ذلك من المعجزات الحسية التي يستوي في إدراكها العامي صاحب النظرة السطحية والمفكر صاحب الذهن الثاقب.

وهذا ينبهنا إلي أن أكثر معجزات بني إسرائيل كانت سائرها معجزات حسية، وذلك لبلادة عقولهم ولرسوخ التجسيم في نفوسهم حتى رأيناهم وقد شاهدوا جانبا من آثار قدرة الله باديا لهم عندما فلق البحر لأجلهم، ولكنهم لم يهضموا كون الإله مجردًا عن الجسمية وعلائقها، فما لبثوا أن عبروا البحر ورماله ما تزال عالقة بنعالهم حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فما كان منهم إلا أن تناسوا صنع الله لهم قائلين لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة.

يقول القاسمي: لقد جعل الله تعالى أكثر معجزات بني إسرائيل حسية؛ لبلادتهم وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية؛ لذكائهم وكمال أفهامهم، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على أبد الدهر غير معرضة للنسخ، وكانت العقليات باقية غير متبدلة جعل أكثر

معجزاتها مثلها باقية[1]. وينبغي أن نعلم أن المعجزة المتحدي بها هي المعجزة القولية التي صرح فيها بالتحدي، وذلك بخلاف المعجزة الفعلية من أمثال الإسراء والمعراج وغير ذلك.

هناك شبه على دلالة المعجزة على صدق الرسول منها:

1. احتمال ألا يكون ذلك الأمر من الله، بل يستند المدعي لخاصية في نفسه ومزاج في بدنه، أو لْإِطْلَاعِ منه على خواص الأجسام.

2. ألا يكون خارقا للعادة، بل ابتداء عادة أراد الله إجراؤها.

3 . أن تكون لطفًا بمكلف، أو إجابة لدعوته أو معجزة لبني آخر.

4 . طريق وصولها وهو التواتر لا يفيد اليقين.

ويمكن الإجابة على هذه الشبه بما يلي :

1 . أن هذه الشبه قائمة على أن هناك مؤثر في الأشياء سوى الله وقد قام الدليل على أن المؤثر في الأشياء وجودًا وعدمًا هو الله تعالى .

2 . إذا كان مرد المعجز إطلاع النبي على خواص الأجسام فإنه يمكن لغيره أن يطلع عليها أيضا، ويأتي بمثل ما أتى به، وهنا تكون المعارضة .

3 . أما كونه ابتداءً لعادةٍ أراد الله إجراءها=فهذا أيضا شيء جديد لم يألفه الناس، ولم يعتادوه من قبل .

4. أما كونها معجزة لنبي آخر، فإن شرط المعجزة أن تظهر على يد مدعي البنوة

5. أما كون التواتر لا يفيد فهذا باطل بالضرورة؛ لأن التواتر رواية جمع عن جمع يحكم العقل، وتحكم العادة بعدم اجتماعهم على الكذب .

1 - دلائل التوحيد ص 159 .

القرآن الكريم معجزة عقلية

لقد سبق أن بينا أن معجزة هذه الأمة معجزة عقلية، وذلك لفرط ذكائها وكمال فهمها؛ ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها خصت بالمعجزة العقلية ليراها ذوو العقول والبصائر، ولعل هذا هو المقصد من قول النبي صلي الله عليه وسلم في الحديث الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال: "ما من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثله أو من آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله فأرجو أني أكثرهم تابعا يوم القيامة "[1].

ومعنى الحصر في قول النبي صلي الله عليه وسلم "وإنما كان الذي أوتيت وحيا" : أن القرآن أعظم المعجزات وأفيدها وأدومها؛ لاشتماله على الدعوة والحجة ودوام الانتفاع إلى آخر الدهر، فلما كان لا شيء يضاريه فضلًا عن أن يساويه كان ما عداه بالنسبة إليه كأن لم يقع "[2].

إذًا فقد بلغ القرآن الكريم من الحجة والبيان والوضوح مبلغًا عظيمًا حتى أضحى بجانبه ما عداه من المعجزات.

1 – أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن باب كيفية نزور الوحي وأول ما نزل جـ 8 رقم 4981، كتابه الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبي صلي الله عليه وسلم بعثت بجوامع الكلم رقم 7274، وأخرجه مسلم في كتابه الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة النبي صلي الله عليه وسلم رقم 152 ، ط المؤسسة العرفان بيروت ، وأخرجه أحمد في المسند جـ 2 رقم 241، 451 بلفظ " ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ...."، ويراجع الإمام ابن حجر فتح الباري في شرح صحيح البخاري جـ 19 ص 282، تح طه عبد الرءوف سعد، ط دار الغد العربي .

2 – فتح الباري جـ 19 ص 283 .

ف"إن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض إعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلي يوم القيامة، وخرقه العادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون دالًّا على صحة دعواه.

وقيل: إن المعجزات الواضحة الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح، وعصا موسى، ومعجزات القرآن تشاهد بالبصيرة فيكون من يتبعها لأجلها أكثر؛ لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده، والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرا [1].

إن القرآن الكريم معجزة عقلية معنوية ترتبط ارتباطا وثيقا بالرسالة، وهي في جوهرها تخاطب الفكر البشري، وتقوم على الإقناع العقلي، ولذا عندما طلب مشركوا مكة من النبي صلي الله عليه وسلم الإتيان بخوارق الأعمال الحسية ليثبت لهم من خلالها أنه نبي مرسل من قبل الله، فما كان جوابه عليهم إلا أنه بشرًا رسولًا جاء ليخاطب العقل فيما خلق من أجله؛ ليستجيب لقوانينه الذاتية قوانين البديهيات والمألوف وما جرت عليه العادة.

وعند التدبر في المعاني السابقة فإننا نجد الحق سبحانه وتعالى يشير إليها بقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٤ ﴾[الإسراء:94]

وتمثلت المعجزة العقلية في القرآن بحله لمعضلات غمض فهمها على كثير من أصحاب الأذهان والعقول الثاقبة، وبجوابه عن كثير من التساؤلات العقلية المتعلقة بالدين والعقيدة وأصول التشريع، فبين كل هذا في يسر وسهولة ووضوحٍ ملائم للعقل ومقرراته.

---

1 - الإتقان جـ 2 ص 148، ويراجع المرشد الوافي ص 230 .

يقول صاحب كتاب العقائد الإسلامية: لقد جاء الوحي الإلهي ليحل المشكلات التي أعضلت الناس قديمًا وحديثًا وليجيب على كل سؤال من هذه الأسئلة:

1- ما الدين وما مبادئه؟ 2 - من الله وما صفاته؟ 3 - ما الرسالة؟ ومن الرسل وما وظائفهم؟ 4- ما ماهية الحياة بعد الموت؟ 5 - ما الخير وما الشر وما كيفية الجزاء عليهما؟ 6 - لماذا خلق الإنسان؟ وما مركزه في الكون؟ 7 - ما علاقة الإنسان بغيره؟ وما علاقة الأمم والشعوب بعضها ببعض؟ 8 - ما علاقة الرجل بالمرأة؟ 9 - ما الثروة وما مصدرها وما كيفية توزيعها؟ 10 - ما الحياة الطيبة وما السبيل إليها؟

وكهذا يمضي القرآن يضع أمام العقل الإنساني مئات المسائل التي لا يستغني عنها في دور العلم والفلسفة، والتي يحتاج إليها في قطع رحلة هذه الحياة لتكون أعلامًا هادية تجنبه الضلال في شئون الدين والانحراف في تقلبات الدنيا ... هذه هي معجزة القرآن التي أيد الله بها نبيه الأمي والتي غير بها نفوسًا وأحيا قلوبًا وأنار بصائر وربي أمةً وكون دولةً في سني تعد على الأصابع، فإذا كان قلب العصا حية معجزة فإن تغيير العقول والقلوب أبلغ في الإعجاز، وإذا كان إحياء الميت من الخوارق التي أيد الله بها بعض أنبيائه فإن إحياء أمة أمية من الجهل والرزيلة وجعلها مصدر إشعاع وهداية هو الخارق الذي تتضاءل بجوانبه جميع المعجزات[1].

1- العقائد الإسلامية ص 219، 220، ويراجع دراسات في العقيدة الإسلامية ص 148 .

الدلائل العقلية على الإعجاز القرآني من خلال آيات القرآن الكريم

لقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من الدلائل العقلية التي بها يثبت كونه معجزًا منزلًا من عند حكيم حميد، وليس من افتراء أحد من البشر. فمن هذه الدلائل :

أولا: الدعوة إلي التحدي مع عدم المعارضة:

فإنه حقًا أغرب تحدي في التاريخ، وأكثره إثارة للدهشة، فلم يجرؤ أحد من الكتاب في التاريخ الإنساني وهو بكامل عقله ووعيه أن يقدم تحديا ممثلا، فإن مؤلفًا ما لا يمكن أن يضع كتابا يستحيل على الآخرين أن يكتبوا مثله أو خيرًا منه، فمن الممكن إصدار مثيل من أي عمل إنساني في أي مجال، ولكن حين يدعى أن هناك كلاما ليس في إمكان البشر الإتيان بمثله، ثم تخفق البشرية على مدى التاريخ في مواجهة هذا التحدي حينئذ يثبت تلقائيا أنه كلام غير إنساني، وأنها كلمات صدرت عن صميم المنبع الإلهي، وكل ما يخرج من المنبع الإلهي لا يمكن مواجهة تحدياته [1].

ومن ثم نعلم أن كلام وفكر البشر يمكن محاكاته ومعارضته، فإذا وجد ثمة كلام قصرت قدرة البشر وفكرهم عن الإتيان ولو بكلمات قليلة منه، فإن هذا الكلام حتمًا خارج عن قدرات البشر إذ هو معجز، والقرآن الكريم في تحديه للمشركين والبشر قد تدرج في هذا التحدي فبدأ أولًا بالتحدي بالقرآن بأكمله في أن يستطيع أحد محاكاته أو معارضته، ثم تدرج بالتحدي فخفف وطلب المعارضة ولو بعشر سور ثم استرسل معهم عند العجز وطلب المعرضة ولو بسورة مستعينين في هذه المعارضة بما شاءوا ومن شاءوا، مع العلم أن أقصر سور القرآن هي سورة الكوثر ذات الآيات الثلاث، فلما عجزوا ناداهم القرآن الكريم مستحثا على المعارضة، وفي الوقت ذاته قاطعًا الأمل فيها: أن يا بني الإنسان لو اجتمعتم على قلب رجل واحد، ودعوتم الجن آملين منه المؤازرة كي تحاكوا القرآن أو تعارضوه فلن تجدوا لذلك حيلة، ولن تستطيعوا سبيلا، وهذا ماحكاه القرآن الكريم إذ أن مشركي مكة عندما

---

1 - الإسلام يتحدى ص 171 .

زعموا أن محمدًا قد تقول ما يدعي أنه وحي من عند الله، فكانت الحجة الدامغة عليهم هي أول آية من آيات التحدي في سورة الطور حيث يقول تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور:34]

إلا أنهم عجزوا عن الإتيان بكتاب مثل القرآن الكريم، فخفف عليهم التحدي وطلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثله، فقال تعالى في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود:13]. فلما عجزوا زاد في تخفيف التحدي فطلب منهم أن يأتوا بسورة واحدة، فقال تعالى في سورة يونس: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس:38].

وأحجم أبو سفيان عن تجنيد جيش من شعراء الجزيرة العربية وأدبائها لمعارضة القرآن بل جدّ في تأليف جيش من عشرة آلاف مقاتل يخاصم به النبي وحزبه.

يقول الإمام البيهقي : إن عدم المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة إليها ذلك مما لا يجوز أن يشك فيه عاقل من أنه لو كانوا قادرين عليه لبادروا إليه مع حرصهم على إبطال دعوته ونقض كلمته، ولما خرجوا في أمره إلي نصب القتال والتغرير بالأنفس وإتلاف الأموال ومفارقة الأهل والأوطان، ولكان ذلك أيسر عليهم من مباشرة هذه الخطوب ومقاساة هذه الشدائد والكروب، فلما لم يفعلوا دل على عجزهم عن ذلك، وسبيل هذا سبيل رجل عاقل اشتد به العطش و بحضرته ماء فجعل يتلوى من شدة الظمأ ولا يشرب الماء، فلا يشك شاك أنه عاجز عن شربه مع توفر الدواعي له وشدة الحاجة منه إليه [1].

1 - الاعتقاد ص 155، ويراجع نظرات في القرآن الشيخ الغزالي ص 144، ط دار الكتب الإسلامية ، ويراجع القرآن في شهر القرآن أ. د/ عبد الحليم محمود ص 140، ط دار المعارف ن مباحث في علوم القرآن ص 267 .

وها هنا أمر لا بد من الإشارة إليه: أن التحدي حتى يكون صحيحا فلابد له من شروط وهي:

1. أن يكون موضوع التحدي داخلا في قدرة من وجهه إليه، بل ويكون داخلا في اختصاصهم، ومما هم بارعون فيه، ومتفوقون ومشهورون به.
2. أن يكون من وجه إليهم راغبين كل الرغبة حريصين كل الحرص على إبطال دعوى المتحدي، والإجابة على تحديه.
3. أن لا يوجد مانع يعوق من وجه إليهم التحدي من الإجابة عليه مثل: الرهبة من المتحدي والخوف من بطشه وقوته وقدرته على إلحاق الأذى بهم.

وإذا كانت هذه شروط التحدي، فإذا أتينا لنقف على تحققها من خلال تحدى القرآن الكريم للمخالفين نجدها وقد وجدت بأسرها.

أولا: ففيما يخص الشرط الأول، وهو أن يكون موضوع التحدي داخلًا في اختصاص من وجه إليهم، فمن المعروف أن قريشًا وسائر العرب اشتهروا بالبلاغة والفصاحة والمعرفة باللسان العربي، وبرزوا في ذلك خطابةً ونثرًا وشعرًا وتذوقًا حتى أنهم كانوا يعقدون المواسم الأدبية لتخير أحسن الشعر، ومن المعلوم أيضًا أن القرآن الكريم أنزله الله بلغة العرب وبلسانهم، فإذا تحداهم به وقال لهم: إن كنتم في شك من أن هذا القرآن هو كلام الله المنزل على رسوله محمد صلي الله عليه وسلم، فأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله أو بسورة من مثله،

فإنما يتحداهم بشيء داخل في اختصاصهم داخل فيما هم فيه بارعون، فيكون هذا الشرط متحققا في تحدي القرآن للمخالفين [1].

ثانيا: أما فيما يخص الشرط الثاني، وهو وجود الرغبة والحرص عند المخالفين من قريش وغيرهم على إبطال دعوة النبي صلي الله عليه وسلم وإثبات إدعائهم، فهذا الشرط موجود ويعرفه أقل الناس إلمامًا بحوادث التاريخ، "فمن الواضح أن قريشًا لم ترض بدعوة النبي صلي الله عليه وسلم وحاولت محاولات شتى لإبطال هذه الدعوى سلكت سبيل الترغيب بأن عرضت على أبي طالب أن يمنع ابن أخيه من الاستمرار في دعوته، وهم مقابل ذلك يعطونه من الأموال ما يجعله أغناهم، ويجعلونه رئيسا عليهم فيكون هو صاحب السلطان، ثم سلكوا سبيل التهديد والإيذاء والمقاطعة الاقتصادية للنبي صلي الله عليه وسلم ولمن تبعه، وسبيل الافتراء عليه ورميه بما هو منه براء كقولهم: إنه مجنون أو ساحر أو مفتر، وعذبوا أصحابه وهاجر بعض المسلمين إلى الحبشة مرتين فرارًا من هذا العذاب، وهذا كله يد ل دلالة واضحة على الرغبة الكاملة والحرص الأكيد لدي قريش على إبطال دعوة النبي صلي الله عليه وسلم [2] .

ثالثا : أما عن الشرط الثالث، وهو عدم وجود مانع من الإجابة وتحطيم التحدي، فهذا شرط متوافر وثابت وموجود إذ من المعروف لكل من تعلم ألف باء التاريخ على أن السطوة والقهر كل ذلك كان بيد كفار قريش بالنسبة للمسلمين حتى اضطرهم إلي مغادرة الأوطان

---

1 - د / عبد الحليم محمود الرسول لمحات من حياته ونفحات من هديه ص 91، ط مجمع البحوث الإسلامية 1969.

2 - أصول الدعوة ص 29، ويراجع البداية والنهاية ج 2 ص 128، وكذا السيرة النبوية لابن هشام ج 1 ص 185 .

كارهين غير مرة بل وكان هذا حال النبي صلي الله عليه وسلم عندما أخرج من وطنه وهو أحب بلاد الله إليه.

ومما ينبغي استحضاره في الأذهان أن تحدى القرآن الكريم للمشركين كان في عصر الذروة للغة العربية ومجدها، ومع هذا عجزوا، فثبت بهذا عجز الذين جاءوا من بعدهم ممن انحدرت اللغة في أيامهم.

يقول ألفرد جيوم: لقد كان من حسن حظ الإسلام أن بلغت رسالته في وقت كان اللسان العربي في ذروة مجده، وكانت اللغة الآرية في فقر مدقع إذا قورنت باللغة العربية كما لم تكن اللغة العبرية المأثورة في عصرها الذهبي لتقوى على مناقشة هذه اللغة العربية في بلاغتها العجيبة [1].

وما يذكره الفرد جيوم في كلامه السابق عن بلوغ اللسان العربي ذرا الرفعة والمجد في ذلك العهد إقرار بأن التحدي القرآني كان تحديًا للقمة وأن الإقرار بالعجز إقرار من المقتدر في ذروته.

وإذا عرفنا هذا فإننا يجدر بنا أن نعمد إلي آيات التحدي السابق ذكرها لنقف على معانيها بشيء من التفصيل، فنجد:

أولا: قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الطور: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الطور: 34 - 36]

إن هاتين الآيتين قد وردتا بعد ذكر القرآن الكريم رمى المشركين للنبي صلي الله عليه وسلم مما هو منه براء حيث قالوا: إنه شاعر وكاهن ومجنون، ومن ثم كان قول الله سبحانه

1 – القرآن والمنهج العلمي ص 39 .

وتعالى: (فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) إبطال لجميع الصفات التي نعت المشركون بها رسول الله صلي الله عليه، وإظهار للتحدي بالقرآن وذلك لبيان إعجازه، ومن ثم فبالنظر إلى هاتين الآيتين وما تقدمها من آيات فإن العقل ممكن أن يقرر المعني بأنه إن كان محمد صلي الله عليه وسلم شاعرًا ففيكم الشعراء البلغاء والكهنة الأذكياء ومن يرتجل الخطب والقصائد ويقص القصص ولا يختلف الناقص والزائد فليأتوا بمثل ما أتي به [1].

ثانيًا: قوله تعالى في سورة هود "أم يقولون افتراه ... إن كنتم صادقين".

يقول الإمام الرازي: اعلم أن التحدي بعشر سور لابد وأن يكون سابقا على التحدي بسورة واحدة، وهو مثل أن يقول الرجل لغيره اكتب عشرة اسطر مثل ما اكتب فإذا أظهر عجزه عنه قال: قد اقتصرت منها على سطر واحد [2].

وتقريره أنهم "لما قالوا: افتريت القرآن واختلقته من عند نفسك وليس من عند الله قاودهم على دعواهم وارخى معهم العنان، وقال: هبوا أني قد اختلقته من عند نفسي ولم يوح إلي وأن الأمر كما قلتم، فأتوا أيضا بكلام مثله مختلق من عند أنفسكم فأنتم عرب فصحاء مثلي لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام[3].

ثالثًا: ثم نجد القرآن الكريم يتدرج معهم من الإتيان بعشر سور إلى طلب المحاكاة ولو بسورة منه مكررا هذا النوع من التحدي في سورة يونس وفي سورة البقرة المدينة، وكأنه بهذا يريد أن يقول للبشرية جمعاء: إن هذا التحدي قائم أمام كل عاقل في كل زمان ومكان. يقول سبحانه في سورة يونس: (أم يقولون افتراه)، ويقول تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي

1 - مفاتيح الغيب جـ 14 ص 586 .

2 - مفاتيح الغيب جـ 8 ص 487 .

3 - الكشاف جـ 2 ص 448 .

رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾.

إن القارئ لهذه الآيات يدرك تدرج القرآن الكريم فيطلب المعارضة من المشركين حتى انتهي إلي مطالبتهم ببذلها ولو بسورة، ومن خلال آية سورة يونس والآيتين الكريمتين من سورة البقرة يمكن أن يستشف العقل عدة أمور:

1- أن الحق سبحانه وتعالى في سورة يونس قال: (فأتوا بسورة مثله)، وفي سورة البقرة قال: (فأتوا بسورة من مثله). وكون النظم القرآني على هذا النحو يضع أيدينا على نوعين من الإعجاز العقلي:

الأول: أن السورة في ذاتها معجزة.

والثاني: إذا كانت السورة في ذاتها معجزة فصدورها من أمي أدخلُ في الإعجاز.

2- إن قول الله تعالى: (وادعوا من استطعتم، كنتم صادقين) هو بمثابة الإمعان في التحدي، والمراد من ذلك: أن البشر لو كانوا فرادي أو مثنى أو جماعات لن يقدروا على محاكاة القرآن الكريم أو معارضته، والمقصود من هذا الجزء من الآية أن الجماعة إذا تعاونت وتعاضدت صارت تلك العقول الكثيرة كالعقل الواحد فإذا توجهوا نحو شيء واحد قدر مجموعهم على ما يعجز كل واحد منهم، فكأنه تعالى يقول: هب أن عقل الواحد والإثنين منكم لا يفي باستخراج معارضة القرآن فاجتمعوا وليعن بعضكم بعضا في هذه المعارضة، فإذا عرفتم عجزكم حالة الاجتماع وحالة الانفراد عن هذه المعارضة فحينئذ يظهر أن تعذر

هذه المعارضة إنما كان لأن قدرة البشر غير وافية بها، فحينئذ يظهر أن ذلك فعل الله لافعل بشر [1].

3- إن كون القرآن الكريم معجزًا عقليًا عن طريق التحدي يعرف من شيئين:

الأول: إن هذا القرآن لا يخلو حاله من أحد وجوه ثلاثة: إما أن يكون مساويا لسائر كلام الفصحاء، أو زائدًا على سائر كلام الفصحاء بقدر لا ينقض العادة، أو زائدًا عليه بقدر ينقض، والقسمان الأولان باطلان فتعين الثالث، وإنما قلنا إنهما باطلان؛ لأنه لو كان كذلك لكان من الواجب أن يأتوا بمثل سورة منه إما مجتمعين أو منفردين، فإن وقع التنازع وحصل الخوف من عدم القبول فالشهود والحكام يذيلون الشبهة، وذلك نهاية في الاحتجاج؛ لأنهم كانوا في معرفة اللغة والإطلاع على قوانين الفصاحة في الغاية، وكانوا في محبة إبطال غيره في الغالية أيضا حتى بذلوا النفوس والأموال وركبوا ضروب المهالك والمحن، وكانوا في الحمية والأنفة على حد لا يقبلون الحق فكيف الباطل، وكل ذلك يوجب الإتيان بما يقدح في قوله، والمعارضة أقوى القوادح فلما لم يأتوا بها علمنا عجزهم عنها، فثبت أن القرآن لا يماثل قولهم، وأن التفاوت بينه وبين كلامهم ليس تفاوتًا معتادًا، فهو إذا تفاوت ناقض للعادة فوجب أن يكون معجزا [2].

الثاني: إن القرآن الكريم لا يخلو إما أن يقال إنه كان بالغا في الفصاحة إلي حد الإعجاز أو لم يكن كذلك، فإن كان الأول ثبت أنه معجز، وإن كان الثاني كانت المعارضة على هذا

1 - مفاتيح الغيب جـ 8 ص 363 .

2 - مفاتيح الغيب جـ 2 ص 511 .

التقدير ممكنة، فعدم الإتيان بها مع إمكانها وتوفر الدواعي عليها أمر خارق للعادة، فكان بذلك معجز فثبت أن القرآن الكريم معجز على جميع الوجوه[1].

هذا وقد رجح الإمام الرازي هذا الطريق، والواقع أن المتمعن في هذا القول يجده يؤول إلي القول بالصرفة وإني لأحس بشيء منه في نفسي حيث يرد عليه اعتراض مؤداه: إن مشركي مكة إن لكم يصرفوا عن المعارضة لاستطاعوا محاكاة القرآن والإتيان بمثله كما إن القول بالصرفة يشعر بالجبر وإلغاء العقل قسرًا مما يتعارض مع مبدأ الاختيار التي قامت عليه الرسالة ويتناقض مع الدعوة القرآنية إلي النظر العقلي.

4- إن الحق سبحانه وتعالى في آية البقرة قد عبر بقوله (نزلنا) بلا من (أنزلنا) مما يشعر معه بنزول القرآن الكريم نجوما، وهذا أدخل في الإعجاز العقلي عن طريق التحدي إذ أن مشركي مكة قالوا: ينبغي أن يخالف القرآن الكريم مؤلفات البشر، وينزل دفعة واحدة، وكأن الله تعالى بهذا يريد أن يقول لهم: إن القرآن الكريم نزل نجوما مفرقا حسب الدواعي والأحوال في كثير من الأحيان، ومع هذا فهو معجز لا تستطيعون له دفعا أو معارضة.

يقول الإمام الرازي : إنما قال تعالى (نزلنا) على لفظ التنزيل دون الإنزال؛ لأن المراد النزول على سبيل التدريج، وذكر هذا اللفظ هو اللائق بهذا المكان؛ لأنهم كانوا يقولون لو كان هذا من عند الله ومخالفا لما يكون من عند الناس لم ينزل هكذا نجوما سورة بعد سورة على حسب النوازل ووقوع الحوادث وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفرقا حينا فحينا بحسب ما يظهر من الأحوال المتجددة والحاجات المختلفة فإن الشاعر لا يظهر ديوان شعره دفعة، فلو أنزله الله لأنزله على خلاف هذه العادة جملة.

---

1 - مفاتيح الغيب جـ 1 ص 513، ويراجع الكشاف جـ 1، ص 96 .

يقول تعالى في سورة الفرقان: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان:32]

والله سبحانه وتعالى ذكر ها هنا ما يدل على أن القرآن معجز مع ما يُزيل هذه الشبهة.

وتقريره: أن هذا القرآن النازل على هذا التدريج إما أن يكون من جنس مقدور البشر أو لا يكون، فإن كان الأول وجب إتيانهم بمثله أو بما يقرب منه على التدريج، وأن كان الثاني ثبت أنه مع نزوله على التدريج معجز [1].

5- إن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم [2] مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فيه إبطال لعبادة ما زعمه مشركوا مكة من آلهة، وفيه إبطال لما أنكره هؤلاء المشركون من إعجاز للقرآن، وقولهم بأن هذا القرآن من قبل النبي صلي الله عليه وسلم، وكأن الله تعالى بهذا يريد أن يقول لهم: إن كان الأمر كما تقولون من أن الآلهة تستحق العبادة؛ لأنها تنفع وتضر في زعمكم، فقد بذلتهم في منازعة محمد صلي الله عليه وسلم إلي طاقة شديدة، ومحاجة عنيدة في التخلص منها فتعجلوا الاستعانة بها دون جدوى لذا فاعلموا أنكم مبطلون في ادعاء كونها آلهة وأنها تنفع وتضر [3].

6- إن قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة:24] يدل على الإعجاز العقلي للقرآن الكريم عن طريق التحدي، وذلك من خلال عدة أمور :

---

1 - مفاتيح الغيب جـ 1 ص 513، ويراجع الكشاف جـ 1 ص 96 .

2 - المراد بالشهداء على أرجح الأقوال أنها الآلهة .

3 - مفاتيح الغيب جـ 1 ص 515، ويراجع تأويلات أهل السنة جـ 1 ص 72 .

أ. إننا نعلم بالتواتر أن العرب كانوا في غاية العداوة لرسول الله صلي الله عليه وسلم، وفي غاية الحرص على إبطال أمره؛ لأن مفارقة الأوطان والعشيرة وبذل النفوس والمهج مما يدل على ذلك، فإذا أضيف إليه مثل التقريع الذي في قول الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ فلو كان في وسعهم وإمكانهم الإتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه لأتوا به ولكن هذا لم يحدث[1].

ب. إن النبي صلي الله عليه وسلم وإن كان متهما عندهم فيما يتصل بالنبوة، فقد كان معلوم الحال في وفور العقل والفضل والمعرفة بالعواقب فلو تطرقت التهمة إلى ما ادعاه من النبوة لما استجاز أن يتحداهم ويبلغ في التحدي إلي نهايته، بل كان يكون وجلا خائفا مما يتوقعه من فضيحة يعود وبالها على جميع أموره حاشاه صلي الله عليه وسلم من ذلك، فلولا أنه صلي الله عليه وسلم يعلم من حاله أنهم عاجزون عن المعارضة لما جوز من نفسه أن يحملهم عليها بأبلغ الطرق [2].

ج. إنه صلي الله عليه وسلم لو لم يكن قاطعا بصحة نبوته لما قطع في الخبر بأنهم لا يأتون بمثله إذ أن بداهة العقل تقول: إنه صلي الله عليه وسلم لو لم يكن على يقين بصحة نبوته كان يجوز خلافه، وبتقرير وقوع خلافه يظهر كذبه فالمبطل المزور لا يقطع في الكلام ولا يجزم به، فلما جزم دل على أنه صلي الله عليه وسلم قاطعا في أمره.

د. إن هذا التقريع الصارخ المنبئ عن التعجيز سُطر في كتاب الله منذ نزوله على النبي صلي الله عليه وسلم إلي وقتنا هذا، ولم يخل وقت من الأوقات ممن يعادي الدين والإسلام

1 - تأويلات أهل السنة جـ 1 ص 32، ويراجع الكشاف جـ 1 ص 102 .

2 - يراجع مفاتيح الغيب جـ1 ص 518، ويراجع الاعتقاد ص 154، وكذا إظهار الحق جـ 2 ص 49، ويراجع الإسلام في عصر العلم ص 161 .

وتشتد دواعيه في الوقيعة فيه، ثم إنه مع هذا الحرص الشديد وهذا التقريع الماثل أمام العقول مذكرًا لها بعجزها وضعفها لم يقو أحد على المعارضة مما يدل بهذا على الإعجاز.

ه. إن الإنسان إذا أعمل عقله في الآية الكريمة من سورة البقرة يرى الحق سبحانه وتعالى وقد اشترط في اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله، فماذا يا ترى سر العلاقة بين الأمرين؟

وجوابه: "أنهم إذ لم يأتوا بها وتبين عجزهم عن المعارضة صح عندهم صدق رسول الله صلي الله عليه وسلم، وإذا صح عندهم صدقه ثم لزموا العناد ولم ينقادوا ولم يشايعوا استوجبوا العقاب بالنار، فقيل لهم: إن استبنتم العجز فاتركوا العناد فوضع (فاتقوا النار) موضعه؛ لأن اتقاء النار لصيقة وضميمة لترك العناد من حيث إنه من نتائجه؛ لأن من اتقي النار ترك المعاندة [1].

ثانيا :الإخبار بالغيب :

بعد أن وقفنا آنفا على أن وجود التحدي في القرآن الكريم دليل عقلي على إعجازه، وأنه ليس من كلام البشر نقول أيضا من هذا المنطلق: إن هناك في القرآن الكريم أوجه أخرى تحمل في طيها الإعجاز العقلي للآيات القرآنية، فمن ذلك الإخبار بالغيب، فالإنسان مهما أوتي من قوة في الفهم ورجاحة في العقل لا يتسنى له أن يعرف ماضي الأمم إلا إذا أحاط بذلك علما عن طريق مطالعته للكتب، وفي الوقت ذاته لا يمكن للإنسان أن يقف على ما يستجد في مقتبل الأيام سواء كان ذلك لنفسه أو لغيره، كما أن الإنسان في الوقت ذاته ليس من المقدور له من تلقاء نفسه الاطلاع على ما في ضمائر البشر، ومن ثم نقول: إنه إذا وجد

---

1 - الكشاف جـ 1 ص 102 .

كلام أحاط بكل هذا علما: أنبأ عن الأمم وماضيها، وعن الأيام وما يستجد في مستقبلها، وعن الضمائر وما يستكن فيها. كلام بهذه المثابة لا يكون إلا خارجا عن نطاق البشر، ومن ثم يحكم العقل بإعجازه.

يقول صاحب الإتقان: ومن أوجه الإعجاز ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات ما كان منها مما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة، ممن كان لا يَعلم منهم القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك، وكذلك إخباره بما لم يكن فيوجد كما ورد [1].

إذا فحواجز الغيب ثلاثة: غيب ماضي، وغيب مستقبل، وغيب حاضر أو مكاني، والآن نتحدث عن كل واحد من هذه الثلاثة بشيء من التفصيل:

1- الغيب الماضي:

قال الله عز وجل في سورة يوسف: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) ﴾ [يوسف:102]، ويقول سبحانه في نفس السورة: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ [يوسف:111].

يقول الإمام الرازي: اعلم أن المقصد من هذا إخبار عن الغيب فيكون معجزا؛ وذلك لأن محمدا صلي الله عليه وسلم ما طالع الكتب ولم يتتلمذ لأحد مهما كانت البلدة بلدة

1 - الصافي النبوات والسمعيات من مباحث علم الكلام ص 40، ط الأولى 1982 دار الطباعة المحمدية .

العلماء فأتيناهم هم بهذه القصة الطويلة على وجه لم يقع فيه تحريف ولا غلط من غير مطالعة ولا تعلم ومن غير أن يقال إنه كان حاضرًا معهم لابد وأن يكون معجزا [1] .

ومن أمثلة الإخبار بالغيب السالف: حكاية نوح عليه السلام مع قومه، وقصة هود ثمود وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام.

والمتأمل في هذا القصص يجده وقد ورد على لسان النبي صلي الله عليه و سلم من غير أن يطالعه في كتاب أو يتلقاه عن أحد. هنا يقول العقل إن في هذا إعجازا عظيما يدل على أن ذلك كلام الله، وأن الذين نطق به نبي مرسل من عند الله، ومن ثم نرى الحق سبحانه وتعالى يبين لنا في آية أخرى أن هذا القرآن بما حواه من قصص لا دخل لمحمد فيه وإنما هو وحي أوحاه الله إليه فعلم أنباء الأولين وسير المتقدمين دون أن يدارس ذلك من أحد. يقول تعالى﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾[هود:120]

ولعل من الملاحظ في إخبار القرآن الكريم عن الغيب الماضي أنه لم يتناوله بالحديث على وجه العموم لدى الأنبياء السابقين، بل نراه يخبر عن تفصيلات ودقائق وقعت في الزمن الماضي من مثل إخباره عن مدة دعوة نوح لقومه ومدة أهل الكهف التي لبثوا فيها نِياما، ومن ثم يقول الدكتور محمد عبد الله دراز : ومن اللافت للنظر أن يخبر القرآن الكريم عن دقائق أخبار الأنبياء السابقين مثل إخباره عن نوح أنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، ونجد في سفر التكوين من التوراة أنه عاش تسعمائة وخمسين سنة، ومثل إخباره عن أصحاب الكهف أنهم لبثوا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا، ونجد أنه ورد في التوراة أن أهل الكهف لبثوا

1 - مفاتيح الغيب جـ 9 ص 266 .

ثلاثمائة سنة شمسية وهذه السنوات التسع الزائدة في القرآن هي الفرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية (1).

2- الغيب الحاضر أو المكاني :

فكما جاء القرآن الكريم ومزق بحديثه غياهب التاريخ الماضي نرى القرآن الكريم أيضا يخترق في أخباره حاجز الغيب المكاني إذ نراه يخبر عن أشياء تحدث في نفس اللحظة، ولكن لا يُعرف عنها شيئا إذ إنها تحدث في مكان خفي لا يعلمه إلا من يعلم غائبة الأعين وما تخفي الصدور كحديث النفس الذي أخبر عنه الحق سبحانه وتعالى في سورة المجادلة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ [المجادلة:8]

"فالقرآن الكريم هنا لا يقول لهم لقد هتكت حاجز الماضي وأخبرتكم بأنباء الأولين بل يقول لهم سأهتك حاجز النفس وأخبركم بما في أنفسكم بما في داخل صدوركم بما لم تهمس به شفاهكم، وكان يكفي لكي يكذبوا محمدًا أن يقولوا لم تحدثنا أنفسنا بهذا لو لم يقولوها بالفعل داخل أنفسهم لكان ذلك أكبر دليل لكي يكذبوا محمدًا ويعلنون أنه يقول كلاما غير صحيح.

إذًا فالقرآن الكريم في هتكه لحجاب المكان دخل إلي داخل النفوس البشرية، وإلي داخل نفوس من؟ إلي داخل نفوس غير المؤمنين الذين يهمهم هدم الإسلام، وقال ما يدور في أنفسهم فهل هناك أكثر من هذا تحديا لحجاب المكان؟ إنه تحدى فوق قدرة كل اختراعات البشرية التي وصل إليها العلم الآن لاختراق حجب المكان (2).

1 – دكتور محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم ص 40، ط دار القلم .

2 – معجزة القرآن ص 105 .

ونجد القرآن الكريم في آية أخرى من آياته يبين للمنافقين أيمانهم الكاذبة التي يحلفون بها على شيء هم في قرارة أنفسهم يضمرون نقيضه فيقول تعالى في سورة التوبة: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التوبة:56]

يقول فضيلة الشيخ الشعراوي في تعليقه على هاتين الآيتين السابقتين : هناك سر أخفيه في بصدري، ولا يعلمه أحد سواي فيأتي الله سبحانه وتعالى إلي السر الذي أخفيه في صدري ولا يعلمه أحد فيعلنه، وأنا في هذه الحالة أملك كل وسائل التكذيب؛ لأنه لا أحد يعرف هذا السر غيري، ومع ذلك أقف مبهوتا من أن القرآن الكريم قد أظهر ما في نفسي وما أخفيته، فلا أستطيع أن أكذب مع أنني جئت لأقول الكذب أي أن المنافقين الذين ذكرهم الله سبحانه وتعالى جاءوا ليكذبوا، ولكن عند فضح الله سرهم بهتوا فلم تستطع ألسنتهم أن تنطق بالكذب، بل وأكثر من ذلك قال الله سبحانه وتعالى: إنهم سيقولون كذا وسيفعلون كذا، ومع ذلك لم يستطع المنافقون أن يمنعوا أنفسهم من أن يقولوا ما أعلن الله سبحانه أنهم سيقولونه مع أن في امتناعهم عن القول هدما لقضية الدين والإيمان ... فلو كان هذا القرآن من عند غير الله لما استطاع أن يصل إلى داخل النفس البشرية وهي من أدق أسرار الدنيا التي لم يستطع علم أن يصل إليها حتى الآن، فإذا بالقرآن يأتي بكلام متعبد به إلي يوم القيامة لا يستطيع أحد تبديل حرف فيه ليكشف ما في داخل النفس، ويجرى ما تكتمه عن الناس جميعا وما هي حريصة على كتمانه حتى أنها تحلف بسم الله كذبا ليصدقها الناس يأتي القرآن فيمزق هذا كله أتريد إعجازًا أكثر من ذلك [1].

1 – معجزة القرآن جـ 1 ص 107، ويراجع المعجزة والإعجاز ص 126، وكذا نور اليقين ص 305، وكذا المرشد الوافي ص 256 .

3- غيب المستقبل :

بعد أن وجدنا القرآن الكريم في حديث عقلي سهل ميسر على الأفهام وقد أزاح حجاب الماضي عن مكانه فأخبرنا عن أحداثه، وأبعد ستار الحاضر والمكان فأنبانا عما يدور في الأصقاع المختلفة، وليس هذا فحسب بل أنبأنا أيضا عما يستكن في الأنفس والضمائر مما لا علم لاحد به سوى صاحبه. نراه بجانب هذا يخترق حجب المستقبل فينبئنا عما في يستجد مقبل الأيام على مر السنين والأعوام، وإنباء القرآن الكريم بالأحداث المستقبلية كما يقول فضيلة الإمام الشيخ الشعراوي: يسجل هذه الأحداث على قضية الإيمان نفسها، ويطعن الدين في صميمه خصوصا إذا تبين أن ما تنبأ به القرآن غير صحيح، ومن هنا فلابد أن يكون قائل القرآن متأكدًا من أن هذا سيحدث في المستقبل ... مَن مِن البشر يستطيع أن يتأكد ماذا سيحدث له بعد ساعة واحدة؟ فما بالك بعد أيام وسنوات.

الجواب: لا أحد. ذلك أن قدرة البشر في صنع الأحداث محدودة، فقد حجب عنهم الزمان وحجب عنهم المكان، ولكن الذين يستطيع أن يقول هذا يقينا هو الذي يملك القدرة، ومن هنا فإنه يستطيع أن يقول يقينا أن هذا سيحدث بعد فترة من الزمن، والذي يملك ذلك هو الله تعالى، ولقد أنبأنا القرآن الكريم بما سيحث بعد الآلف السنين، فالذين قال هذا هو القادر العالم بأن ذلك سيحدث يقينًا وهو الله تعالى [1].

ومن هذا المنطلق نريد أن نقف على بعض النماذج التي ساقها القرآن الكريم مخبرًا من خلالها عن الغيب المستقبلي :

1 - معجزة القرآن ص 108 .

أ. التنبؤ بانتصار الرومان على الفرس :

لقد أخبر القرآن الكريم بهذه النبوءة في قول الله سبحانه وتعالى من سورة الروم: (آلم غلبت الروم، الناس لا يعلمون).

ب. الإخبار عن القضاء على العدو قبل المعركة :

وهذا أمر وقع في القرآن الكريم في غير آية من كتاب الله، فمن ذلك قوله سبحانه وتعالى في سورة الأنفال: ﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧ ﴾ [الأنفال:7].

إن هذه الآيات الكريمات نزلت قبل موقعة بدر يبشر الله فيها نبيه والمسلمون بالنصر على أعداء الدين مع قلة العدد والعدة، والكافرون يومئذ عدد كثير بأسهم شديدة لدرجة أن المؤمنين أشفقوا من قتالهم، ولكن الله يريد أن يحق الحق بكلماته فوفى بوعده ونصر المؤمنين على أعدائهم وقطع دابر الكافرين، ولقد أخبر القرآن الكريم بالنصر قبل وقوعه مرتين الأولى قبل سير الرسول صلي الله عليه وسلم إلي بدر عندما نزلت أول آيتين من الآيات السابقة هنا قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: سيروا على بركة الله، فإن الله عز وجل قد وعدني إحدى الطائفتين، ولن يخلف الله وعده، والله لكأني أنظر إلى مصرع أبي جهل بن هشام، وعتبه بن ربيعة، وشيبه بن ربيعة، وفلان وفلان، وأمر الرسول صلي الله عليه وسلم بالرحيل والخروج إلى بدر (1).

وأما المرة الثانية التي أخبر الله نبيه فيها بالنصر: فكانت قبل المعركة أيضا، وذلك عندما نظر النبي صلي الله عليه وسلم إلي المشركين فرأى كثرة عدهم وعدتهم، فتضرع إلي ربه فأنزل

---

1 -الطبرسي: مجمع البيان جـ4 ص 522، دار إحياء التراث .

عليه: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩﴾ [الأنفال:9]

فقد روى الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: نظر نبي الله صلي الله عليه وسلم إلي المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، فاستقبل القبلة ثم مد يديه وجعل يهتف بربه: اللّهم أنجز لي ما وعدتني اللّهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض، فما زال يهتف بربه مادًا يده مستقبل القبلة حتى سقط رداءه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه وألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك لربك فإنه سينجز لك ما وعدك [1] فأنزل الله: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩﴾

ج. الإخبار عن نجاح الإسلام والرسول صلي الله عليه وسلم :

لقد أخبر الحق سبحانه وتعالى عن نجاح الإسلام وانتشار دعوته وظهورها على كل الأديان والملل، فقال سبحانه وتعالى في سورة التوبة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [التوبة:33]

ففي الآيات "وعد من الله لنبيه عليه الصلاة والسلام بأنه سيظهر دينه على الأديان كلها كما أخبر في هذه الآية، ففعل ذلك، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا أغزي جيوشه عرفهم ما وعدهم الله من إظهار دينه ليشعروا بالنصر ويستيقنوا بالنجاح، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفعل كذلك في أيامه حتى وقف أصحاب جيوشه عليه فكان سعد بن أبي وقاص وغيره من أمراء الجيوش يذكر ذلك لأصحابه ويحرضهم به ويوثق لهم حتى فُتح

1 - أسباب النزول جـ 1 ص 149، ويراجع البداية والنهاية جـ2 ص288، وكذا ابن سعد الطبقات الكبرى جـ 2 ص 11، تح د/ حمزة النشرتي وآخرون، ط الإيمان، وكذا ابن قيم زاد الميعاد جـ 2 ص 85، ط دار البيان، وكذا ش / محمود الخضري نور اليقين ص 107، ط دار الفكر .

إلي آخر أيام عمر بلخ وبلاد الهند وفتحت مملكة فارس وكل ما كان يملكه ملوك الفرس بين البحرين من الفرات إلي جيحون وكذا كان الحال مع ملك قيصر [1].

د. الإخبار بفتح مكة:

ونجد أيضا من الآيات ما تحدثت عن فتح مكة، ونزل في المدينة قبل الفتح وذلك في عام الحديبية الذي نزل فيه قول الله تعالى من سورة الفتح: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح:27]

إن هذه الآية الكريمة قد بشرت بالفتح لمكة قبل وقوعه وذلك في عام الحديبية في آخر سنة ست للهجرة وقد تحقق هذا الفتح والدخول بعد ذلك في شهر رمضان سنة ثمان للهجرة، فقد أخرج الفريابي وعبد بن حميد والبيهقي في الدلائل عن مجاهد قال: "رأي النبي صلي الله عليه وسلم وهو بالحديبية أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، فلما نحر الهدي بالحديبية قال أصحابه: أين رأياك يا رسول الله. فنزلة هذه الآية " [2].

يقول الإمام البيهقي : لقد حدث ما وعد الله نبيه ودخل المؤمنون المسجد الحرام على الصفة التي نطقت بها الآية، وكان ما وعده الله في هذه السورة من الفتح القريب وهو فتح خيبر، وقيل الصلح بالحديبية [3].

1 -إعجاز القرآن ص 12، 13، معالم النبوة ص 402، المعجزة والإعجاز ص 164، الإسلام يتحدي ص 179 .

2 - أسباب النزول ج2 ص 301، وكذا السيرة النبوية لابن هشام ج 3 ص 169، وكذا الطبقات الكبرى ج 2 ص 135، البداية والنهاية ج 2 ص 52، زاد المعاد ج 2 ص 122، مجمع البيان ج 5 ص 121 .

3 - الاعتقاد ص 145 .

ه. التنبؤ القرآني حول اليهود:

إن من دلائل الإعجاز العقلية المتعلقة بالإخبار بالغيب ما تنبأ به القرآن الكريم من عجائب وغرائب تحدى بها أشرَّ خلق الله وأخبثهم وهم اليهود حيث استحثهم أن يطلبوا الموت تمنيا له مع أن هذا من أبسط الأشياء وأسهلها، ولكن القرآن الكريم كتاب الله المعجز أخبر أن اليهود لحرصهم على الحياة لن يتمنوا الموت أبدًا، ولقد كان باستطاعتهم وهم ألد أعداد الإسلام أن ينقضوا الدين الإسلامي وذلك بتمنيهم للموت ولو بطرف ألسنتهم، ولكن ذلك لم يحدث مما يدل على أن القرآن الكريم هو كتاب الله المعجز المنزل من عند علام الغيوب العالم بأحوال خلقه وما يصدر عنهم. يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٩٤﴾ [البقرة:94]، ويقول تعالى سورة الجمعة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٦﴾ [الجمعة:6]

يقول العلامة رحمة الله الهندي في تعليقه على هذه الآيات: إن النبي صلي الله عليه وسلم مع تقدمه في الرأي والحزم وحسن النظر في العاقبة كما هو مسلم عند المخالف والموافق لا يجوز له وهو غير واثق من جهة الرب والوحي أن يتحدى أعدى الأعداء بأمر لا يأمن عاقبة الحال فيه، ولا يأمن من خصمه أن يقهره بالدليل والحجة؛ لأن العاقل الذي لم يجرب الأمور لا يكاد يرضى بذلك، فكيف الحال في أعقل العقلاء، فثبت أنه ما أقدم على هذا التحدي إلا بعد الوحي واعتماده التام، فلو لم يكن القرآن الكريم صادقا في دعواه عندهم لبادروا إلي القول به لتكذيبه، بل لأعلنوا هذا التمني بالقول مرارًا، ولكن هذا لم يحدث، ففي هذه الآيات إخباران عن الغيب:

الأول: كأن قوله: (لن يتمنوه) يدل دلالة بينة على أن ذلك لا يقع في المستقبل من أحد منهم، فيفيد عموم الأشخاص .

الثاني: أن قوله (أبدا) يدل على أنه لا يوجد في شيء من الأزمنة الآتية في المستقبل، فيفيد عموم الأوقات فبالنظر إلي العموميين هما غبيان[1].

ثالثًا: عدم تناقضه واختلافه مع طوله وامتداده :

وهذا وجه عقلي من أوجه الإعجاز القرآنية التي تدل عقلا على أن كتاب الله المسطر هو كلام رب البشر إذ المتأمل في كلام أي فرد من نوع الإنسان مهما علا شأنه وارتفعت منزلته وتناهت دقته يجده لا يخلو في كلامه من التضارب والتناقض إذ نراه يؤمن بشيء في موضع ثم يكفر به في موضع آخر، وهذا ليس بمستغرب فهذه سمة كل عمل بشري، وطبع جميع البشر.

وعلى النقيض من هذا نرى القرآن الكريم مع طوله وامتداده وحدة واحدة خاليًا من التناقض والتضارب والاختلاف في معانيه وأسلوبه، آياته عقد منظوم يأخذ بعضه برقاب بعض، ومجمله حلقه مفرغة لا يدري أين طرفاها.

وقد نبه الحق على هذا فقال في سورة النساء: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:82]

يقول الإمام الزمخشري: إن القرآن الكريم لو كان من عند غير الله لكان الكثير منه مختلفا متناقضا قد تفاوت نظمه وبلاغته ومعانيه، فكان بعضه بالغًا حد الإعجاز وبعضه قاصرًا عنه يمكن معارضته، وبعضه إخبارًا بالغيب قد وافق المخبر عنه، وبعضه إخبارًا مخالفا للمخبر عنه، وبعضه دالًا على معنى صحيح عند علماء المعاني، وبعضه دالًا على معنى فاسد غير

1 - إظهار الحق ج 2 ص 49، ويراجع معالم النبوة ص 410، وكذا نور اليقين ص 304 .

ملتئم، فلما تجاوب كله بلاغة معجزة فائقة لقوى البلغاء، وتناصر صحة معان وصدق إخبارٍ عُلم أنه ليس إلا من عند قادر على ما لا يقدر عليه غيره عالم بها لا يعلمه أحد سواه [1].

هذا وقد حاول بعض المستشرقين أن يجدوا سبيلا للطعن في القرآن الكريم من خلال هذا الوجه من الأوجه العقلية للإعجاز، والواقع أن المتأمل في كلامهم كما سيتبين لنا سيجد أن طعنهم هذا نابع من ضيق أفقهم وفساد طويتهم، فإذا كانت عين الرضا متهمة فعين السخط أولى بالتهمة، ولنضرب عدة أمثلة لما زعموه تناقضا ليتبين لنا من خلال ذلك أنهم ما فهموا القرآن وما أدركوا معانيه:

1- لقد أتي المستشرقون إلي مسألة خلق السماوات والأرض وزعموا وجود التناقض في حديث القرآن الكريم عنها إذ إن القرآن الكريم في سورة الأعراف قد صرح بأنه قد تم خلقهما في ستة أيام فقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ، ثم يأتي القرآن بعد ذلك في سورة فصلت فيذكر أنها ثمانية يقول سبحانه و تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾﴾ [فصلت:9]

والواقع أن الإنسان إذا أجال عقله في هذه الآيات لن يجد ثمة تناقض؛ لأن الأيام التي تحدثت عنها سورة فصلت ستة وليست ثمانية فالحق سبحانه وتعالى خلق الأرض في يومين وقدر فيها أقواتها في يومين فيكون المجموع أربعة، ثم كان يومان آخران قضى الله فيهما خلق السبع سماوات وما يتعلق بهما فيكون المجموع ستة، والخطأ الذي وقع فيه المستشرقون أنهم

1 - البحر المحيط جـ 3 ص 305 ، وكذا النهر الماد جـ 3 ص 305 .

جعلوا تقدير الأقوات في الأرض في أربعة أيام مستقلة، وغاب عن ذهنهم أن الأيام الأربعة التي ذكرت في الآية هي مجموع خلق الأرض وتقدير الأقوات فيها.

يقول فضيلة الشيخ الشعراوي: إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يقول: إنني خلقت الأرض في يومين ثم أتممت عملية الخلق بأن جعلت فيها رواسي من فوقها وباركت فيها أقواتها في أربعة أيام كأن الأيام الأربعة هي كل الفترة التي استغرقتها عملية خلق الأرض منها يومان لخلق الأرض ويومان لإتمام الخلق فالمدة كلها هي أربعة أيام وليست ستة أيام [1].

2- نجد المستشرقين أيضا زعموا أن ثمة تناقض في القرآن وذلك من خلال قول الحق سبحانه في سورة المجادلة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة:22].

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى ويقول في آية أخرى في سورة لقمان: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان:15]

يأتي المستشرقون فيقولون: إن الله سبحانه وتعالى ينهانا في الآية الأولى عن مودة من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءنا، وفي الآية الثانية يأمرنا بصحبتهما في الدنيا معروفا فكيف يستقيم الأمران.

1 - معجزة القرآن ص 69 .

والجواب: أن المودة عمل قلبي لا يكون إلا لمن يحبه الإنسان، والمعروف يكون لمن يحب الإنسان ولمن لا يحب، فالآية الأولى نهت عن الحب القلبي لمن يحآد الله ورسوله، ولكن إذا كان من يحآد الله ورسوله هما الأبوان اللذان ربيا الإنسان صغيرًا وتعهداه بالرعاية كبيرًا ماذا يكون موقف الابن منهما؟ هنا تقول له الآية: لا توآد من حآد الله ورسوله أي بقلبك، ولكن من حقهما عليك صنع المعروف لهما إرضاءً للجميل.

3- أيضا يحاول المستشرقون إظهار التناقض في القرآن الكريم من خلال قول الله سبحانه في سورة لقمان: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان:14] يأتي المستشرقون ويقولون: إن الله تعالى في هذه الآية أوصى بالوالدين ثم ذكر الأم وحدها دون الأب فكيف لم يوصِ إلا بالأم في حين أنه قد ورد في صدر الآية وعجزها ذكر للوالدين، ثم من الذي يوصى في هذه الآية الطفل وهو رضيع الذي يكون في مرحلة لا يفقه فيها شيئا أم يخاطب الإنسان بعد أن بلغ مبلغ الرجال، وإذا كان كذلك فكيف يخاطبه عن فترة لا يتذكرها ولا يعرفها.

والجواب: أن الذي تفوه بهذه الكلمات لم يفهم مغزى الآية الكريمة فالله سبحانه وتعالى في توصيته بالأم قد اختصها لأنها تقوم بالجزء غير المنظور في حياة الابن بمعني أن الطفل وهو رضيع ومن قبل الحمل والولاة وحتى يبلغ ويعقل فالأم هي التي تقدم له كل شيء من حمل وولادة وإرضاع وغير ذلك، فإذا عقل الطفل من الذي يجده أمامه أباه، فإذا أراد شيئا فإن أباه هو الذي يحققه له إذًا ففضل الأب ظاهر أمامه أما فضل الأم فهو مستتر، ولذلك جاءت التوصية بالأم أكثر من الأب. لماذا؟ لأن الطفل حينما يحقق له أبوه كل رغباته يحس بفضل أبيه عليه، ولكنه نادرًا ما يقدر التعب الذي تعبته أمه وهو يزيد أضعاف ما

يقدمه له أبوه من هنا جاءت التوصية بالأم. أما الهدف من تذكير الإنسان في حين أنه لا يعقل هذه الفترة الهدف أن يرى ذلك على غيره ينظر إلي الأمهات ليرى كيف يقاسين و يعانين وكيف يسهرن على أطفالهن، وعندما يرى ذلك على غيره يدرك أن هذا قد حدث له، فيشعر به فيرد الجميل [1].

4- أيضا جاء المستشرقون إلي قول الله سبحانه من سورة النحل: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١﴾ [النحل:1] وقالوا : لقد صدرت الآية بالفعل الماضي(أتى) والذي يدل على حدوث الفعل والانتهاء منه فكيف يقول بعد ذلك فلا تستعجلوه حيث أفاد ذلك الاستقبال؟

والجواب: أن أمر الله في الآية (أتي) بمعني سبق به القضاء في الماضي أما قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١﴾ [النحل:1]. فهو يدل على أن ما قُضي أزلًا له وقت مستقبلي معلوم سيقع فيه. إذًا فالساعة تقررت وانتهي أمرها فهي بالنسبة لله ماض تم وانتهي، ولكنه بالنسبة لي مستقبل آت يقول الإمام الرازي: "وحاصل الآية أن أمر الله بالساعة وحكمه بنزول العذاب قد وجد وحصل من الأزل إلي الأبد، فصح قولنا: أتي أمر الله إلا أن المحكوم به والمأمور به إنما لم يحصل؛ لأنه تعالى خصص حصوله بوقت معين فلا تستعجلوه [2].

5- ونجد قول الله سبحانه وتعالى الذي أراد المستشرقون إيهام التناقض في القرآن الكريم من خلاله وذلك في سورة النجم: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ٣٨﴾ [النجم:38]. فالله

---

1 – معجزة القرآن جـ 1 ص 74 .

2 –مفاتيح الغيب جـ 9 ص 495 .

سبحانه وتعالى حكم في هذه الآية بأن الإنسان مسئول عن أوزاره يحاسب عليها فلا تزر وزرة وزر أخرى، ثم يأتي سبحانه وتعالى في آية أخرى من سورة العنكبوت فيقول: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت:13].

أي: أوزارًا مع أوزارهم. أليس هذا تناقضا كما يزعم المستشرقون؟

والحق أنه ليس بين الآيتين أدنى تناقض وهذا جلي وواضح إذ الوزر في الآية الأولي هو وزر الإنسان ذاته، فإذا كنت ضالا و غيري ضال فكل إنسان يحمل وزر نفسه.

أما الآية الثانية فهي تحدثنا عن صنف من البشر لم يرض الضلال لنفسه فحسب بل عمل على إضلال غيره. هذا الصنف من الناس يحمل وزر نفسه ووزر من أضل أيضًا إذ هو ضال، ولذا فليس بين الآيتين ثمة تناقض، وفي النهاية فإنه بالنظر إلى ما تقدم نقول: إن القرآن الكريم سلم من الاختلاف والتناقض؛ لأنه كلام معجز منزل من رب العالمين، ولو أن المستشرقين وغيرهم ممن فسدت طويتهم تجاه الإسلام وكتابه قد أعملوا عقولهم لفهمه وتدبره بقدر إعمالها للطعن فيه؛ لأراحوا أنفسهم وما صدَّعوا عقولنا بهذه الترهات والأباطيل بيد أنا نقول لهم: تحدثوا كيف شئتم فأين الثرى من الثريا؟

وما ضر الورود وما عليها إذ المذكوم لم يطعم شذاها

الفصل الثاني
الدلائل العقلية على إثبات النبوة
في القرآن الكريم

تحدثنا في الفصل السابق عن جانب من دلائل الإعجاز العقلية للقرآن الكريم وتبين لنا من خلال هذا الجانب من الدراسة أن القرآن الكريم معجزة بهذه الوجوه العقلية وأنه أيضًا وإن كان معجزة عقلية حسية دالة على صدق النبي صلي الله عليه وسلم فيما يبلغ عن ربه فهو كذلك معجزة حوت في طيها دلائل إعجازه العقلية، وما ينبغي أن تعيه العقول أن القرآن الكريم وإن تعددت أوجه ودلائل إعجازه إلا أنه معجز بهذه الوجوه وهذه الدلائل كلها، ومن ثم فإننا لا نسلم لمن استبعد من ذهنه أوجه الإعجاز غير الإخبار بالغيب ورتب على وجود الإخبار بالغيب كوجه عقلي نقف على إعجاز القرآن من خلاله" أنه يستلزم منه أن الآيات التي لا خبر فيها عن المغيبات المستقبلية والماضية لا إعجاز فيها وهو باطل فقد جعل الله كل سورة معجزة بنفسها" (1).

فما ذكر هنا مجرد إلزام ومن المعروف أن لازم المذهب ليس بمذهب لاسيما إذا كان هذا اللازم ليس بينا هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أننا ما قلنا إن الإعجاز القرآني قد أنحصر في الإخبار بالغيب ولكننا نقول إن من أوجه إعجاز القرآن الكريم الأخبار بالغيب، وهذا يعني أن ثمة أوجه أخرى للإعجاز غير هذا بل ويمكن أن تكون الآية الواحدة بها العديد من أوجه الأعجاز فيجتمع فيها الفصاحة والبلاغة وعدم الاختلاف والتناقض، ويكون فيها أيضا الإخبار بالغيب، وتحوي الإشارة إلى جانب من الإعجاز الكوني، وعلى هذا فإن الآيات القرآنية التي لم يرد فيها إخبار بالغيب تكون معجزة لفصاحتها وبلاغتها أو بغير ذلك من أوجه الإعجاز، ومن ثم نرتب على كل ما تقدم أن القرآن الكريم بهذه الدلائل العقلية ثبت أنه معجز وهو في الوقت ذاته دليل على صدق النبي صلي الله عليه وسلم في دعواه النبوة

---

1 - البرهان جـ 2 ص 95 ، مباحث في علوم القرآن ص 269 .

والرسالة، وعلى هذا فإن الرسالة تثبت بثبوت الإعجاز للقرآن الكريم هذا من جهة من جهة أخرى أن القرآن الكريم كما حمل لنا في رحمه كثيرا من الدلائل العقلية على إعجازه فقد حمل لنا أيضا الكثير من الدلائل العقلية التي تثبت بها النبوة والرسالة والتي منها:

بشرية النبي صلي الله عليه وسلم :

"إن من دلائل الرسل عليهم السلام كونهم من البشر ومن تمام الحكمة الربانية أن يبعث إلي البشر رسولا منهم فيه جميع غرائز البشر ليكون في دعوته وأفعاله وأخلاقه حجة عليهم وليضرب بنفسه المثل على استطاعة البشر تطبيق أوامر الله واجتناب نواهيه.

وإذا تعجب أهل الكفر أن يكون المرسل إليه من الله بشرا فتعجبهم من ذلك هو الذي يستدعي العجب لأنه لو جاء الرسول للبشر من الملائكة فلابد أن يأتي على صورة بشرية حتى يستطيعوا مشاهدته وحتى تتلاءم صورته الجسدية مع مستوى حواسها ثم إذا عرفوا أنه ليس بشرا بتركه للطعام والشراب والنكاح وبقية الغرائز البشرية فأمرهم بالأوامر ونهاهم عن النواهي الشرعية لكان أبسط عذر لهم أمام هذا الملك الرسول في تبرير مخالفتهم لأوامر الله ونواهيه أن يقولوا له إنك لا تحمل مثل غرائزنا وليس لنفسك شهوات مثل شهواتنا ولوكا نلك غرائز وشهوات لخالفت الأوامر والنواهي مثلنا ولاضطرك ذلك أن تقع بالمعاصي ولكان ذلك مادة لاعتراضهم على ربهم ولأضافوه إلي شبهات كفرهم الباطلة وروجوا لها في صفوف السذج والمغفلين فصفة البشرية في رسل الله تعتبر في نظر العقل السليم من كمال الحكمة التي لا محيد عنها [1] .

---

1 – العقيدة الإسلامية وأسسها ص 344 .

إذا فمن كمال حكمة الله تعالى أن يكون الرسول بشرًا؛ لأنه لن يستطيع إبلاغ رسالة الله إلى خلقه إلا إذا كان بشرًا مثلهم فسكان الأرض بشر لا ملائكة فكان من عدالة الحق سبحانه وتعالى وإلزامه الحجة على خلقه أن يكون المرسل إليهم من نوعهم وطبيعتهم فطبيعة الدعوة تقتضي أن يكون الرسول بشرًا يمكنه الإقناع والبيان وليكون لقومه من خُلقه وعمله قدوة حسنة ومثلا أعلى.

وكون الأنبياء والرسل بشرًا يجعلهم يتفقون مع سائر الناس في أخص أوصاف البشرية، وبهذا يسهل التلقي عنهم والانصياع فيما يقولون ويفعلون، وبهذا تحدث الألفة ويحدث التقارب النفسي بينهم وبين أقوامهم.

ولست أدري كيف يكون الحال إذا كان ثمة ملك أرسل إلي البشر وأفضل البشر عليه الصلاة والسلام قد أخذته الروعة والفزع عند أول لقاء مع خبر السماء الذي رأي فيه جبريل عليه السلام ليبلغه وحي الله فما ظنك ببقية البشر.

ومن ثم يحدثنا القرآن الكريم في غير آية عن هذه المسألة مبينًا أن الكفار قد طلبوا أن يكون الرسول ملكًا بيد أنهم في غفلة إذ لو استجيب لهم للقوا حتفهم؛ لأنهم لا يطيقون رؤيته على هيئته الحقيقة، ولو استجيب لهم وكان الرسول من الملائكة فلابد أن يخلع ثوب البشرية عليه كي يألفونه ولا ينفرون منه، ولو كان الأمر كذلك لكان في هذا تلبيس لا يليق بالله، ولاعترضوا عليه لكونه بشرًا. يقول سبحانه وتعالى في سورة الأنعام: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ٩﴾ [الأنعام:8 - 9]

ففي الآيتين رد على شبهة مفادها: "لو بعث الله إلي الخلق رسولًا لوجب أن يكون ذلك الرسول واحدًا من الملائكة، فإنهم إذا كانوا من زمرة الملائكة كانت علومهم أكثر وقدرتهم أشد ومهابتهم أعظم وامتيازهم عن الخلق أكمل والشبهات في نبوتهم ورسالتهم أقل،

والحكيم إذا أراد تحصل مهم فكل شيء كان أشد إفضاء إلي تحصل ذلك المطلوب كان أولى، فلما كان وقوع الشبهات في نبوة الملائكة أقل وجب لو بعث الله رسولا من الخلق أن يكون ذلك الرسول من الملائكة [1].

وإذا كانت هذه شبهة من اعترض على كون الرسول بشرًا، فإن الحق سبحانه وتعالى من خلال القرآن الكريم قد أبطل الشبهة بدليلين عقليين:

الأول: قوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾. وهذا الجزء من الآية الكريمة إذا أمعن الإنسان نظره العقلي فيه فإنه يدل على إبطال هذه الشبهة من عدة وجوه:

أ. إن إنزال الملك على البشر آية باهرة فبتقدير إنزال الملك على هؤلاء الكفار فلربما لم يؤمنوا كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿۞ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ١١١﴾ [الأنعام:111]. وإذا لم يؤمنوا وجب إهلاكهم بعذاب الاستئصال فها هنا ما أُنزل الملكُ عليهم لئلا يستحقوا هذا العذاب.

ب. أنهم إذا شاهدوا الملك زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون، فإن الآدمي إذا رأي الملك فإما أن يراه على صورته الأصلية أو على صورة البشر، فإن كان الأول لم يبق الآدمي حيا ألا ترى أن رسول الله صلي الله عليه وسلم لما رأى جبريل على صورته الأصلية غشي عليه.

---

1 - مفاتيح الغيب جـ 6 ص 232، ويراجع الكشاف جـ 2 ص 7 .

وإن كان الثاني فحينئذ يكون المرئي شخصا على صورة البشر، وذلك لا يتفاوت الحال فيه سواء كان هو في نفسه مملكًا أو بشرًا ألا ترى أن جميع الرسل عاينوا الملائكة في صورة البشر كأضياف إبراهيم وأضياف لوط، وكالذين تسوروا المحراب، وكجبريل حيث تمثل لمريم بشرًا سويا.

ج. إن إنزال الملك آية باهرة جارية مجرى الإلجاء وإزالة الاختيار وذلك مخل بصحة التكليف.

د. إن إنزال الملك وإن كان يدفع الشبهات المذكورة إلا أنه يقوى الشبهات من وجه آخر، وذلك لأن أي معجزة ظهرت عليه قالوا: هذا فعلك فعلته باختيارك وقدرتك ولو حصل لنا ما حصل لك من القدرة والقوة والعلم لفعلنا مثل ما فعلته أنت، فعلمنا أن إنزال الملك وإن كان يدفع الشبهة من الوجوه المذكورة لكنه يقوي الشبهة من هذه الوجوه [1].

وهكذا عرفنا بدلائل العقل كيف تدفع الشبهة المتقدمة من خلال قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾ [الأنعام:8]. وعرفنا أيضا بالدلائل العقلية كيف تعد بشرية الرسول من دلائل صدقة وإثبات نبوته.

ولا بد أن نعلم أن العقل وحده لا يمكن أن يصل بحال إلي حقيقة النبوة، أو إلي ما جاء به النبي، وإنما دوره هنا في فهمه للنصوص الواردة في هذا الشأن وخطاب النص القرآني له.

---

1 - مفاتيح الغيب ج 6 ص 232، 233، ويراجع الكشاف ج 2 ص 7 ، 8، وكذا إرشاد العقل السلم ج 3 ص 115.

أما الوجه الثاني: فهو مأخوذ من قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام:9]. أي: لجعلناه في هيئة رجل من البشر، والحكمة في هذا أمور :

1. أن الجنس إلي الجنس أميل .
2. أن البشر كما قلنا لا يطيق رؤية الملك.
3. أن طاعات الملائكة قوية فيستحقرون طاعة البشر، وربما لا يعذرونهم في الإقدام على المعاصي.
4. أن النبوة فضل من الله فيختص بها من يشاء من عباده سواء كان ملكًا أو بشرًا [1].

أما قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾. فإنه يدل على امتناع كون الرسول مبيانا لنوعية البشر من جهتين:

أولا: أنه إذا كان الملك في صورة البشر فإنهم يظنون كون ذلك بشر فيعود استنكارهم إننا لا نرضى برسالة هذا الشخص .

ثانيا: أن الله لو فعل ذلك لصار فعل الله نظرًا لفعلهم في التلبيس، وإنما كان ذلك تلبيسا؛ لأن الناس يظنون أنه بشر مع أنه ليس كذلك، وإنما كان فعلهم تلبيسا؛ لأنهم يقولون لقومهم إنه بشر مثلكم والبشر لا يكون رسولا من عند الله تعالى [2].

ومن ثم كان تأكيد رسل الله عليهم السلام على كونهم بشرًا مبلغين عن الله رسالته فنرى النبي يؤكد هذه الحقيقة بنفيه صفة الملائكية عن نفسه يقول تعالى في سورة الأنعام: ﴿ قُل لَّآ

1 -مفاتيح الغيب جـ 6 ص 233 .

2 - مفاتيح الغيب جـ 6 ص 234، ويراجع الكشاف جـ 2 ص إرشاد السليم جـ 3 ص .

أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنعام:50]

والإنسان إذا تأمل بعقله فيما ذيلت به هذه الآية الكريمة يلحظ أن الحق سبحانه وتعالى وكل لعقل الإنسان وفكره بحث هذه المسألة؛ لأنه يعلم يقينا أن العقل السليم إذا تناول هذه المسألة بالبحث منصفًا ومجردًا عن الهوى سيوقن أن بشرية النبي صلي الله عليه وسلم دليل على صدق رسالته؛ لأنه بهذه البشرية ستحدث الألفة وتكون القدرة، ولكن لما استحبت عقول المشركين العمى على الهدى أنكرت كيف يبعث الله بشرًا رسولا؟ ولذا كان خطاب نوح لقومه كما بينت سورة الأعراف ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأعراف:63]

يقول فضيلة الشيخ الشعراوي: إن الله سبحانه وتعالى حين يرسل رسولا يكون هذا الرسول من البشر لماذا ؟ لأن رسالة الله في افعل ولا تفعل هي المنهج الذي اختاره الله سبحانه وتعالى للحياة الآمنة الطيبة على الأرض، ولكن الله لا يترك منهجه بدون تطبيق، بل هو يرسل المنهج ويرسل من يطبقه ليكون قدوة حسنة للمؤمنين بالمنهج، وليرى الناس كلهم المنهج يطبقه على الطبيعة بشيء مثلهم، فلا يقولون يا رب إن هذا المنهج لا نستطيعه أو أنه يا رب فوق طاقة وقدرات البشر، فيرسل الله تعالى بشرًا رسولا يطبق المنهج بحذافيره ويريه للناس في الحياة العملية، وفي التجارب اليومية حتى يكون هؤلاء الناس شهداء على أنفسهم يوم القيامة، ولا يقول واحد منهم إن الله قد حملنا فوق قدراتنا أو فوق ما نطيق إذا فبشرية الرسول أمر حتمي للرسلات كلها ولو كان الرسول فوق مستوى البشر لوجدنا عذرًا لأولئك الذين لا يتبعون المنهج ويخالفونه، ولقال هؤلاء: كيف تريدوننا أن نتبع منهجا وضع لمن هم فوق مستوى البشر ؟ هؤلاء الذين طبقوا المنهج ليسوا بشرا مثلنا.

أما نحن كبشر عاديين فقدراتنا تختلف وهي في جميع الأحوال أقل منهم قدرة، فإذا أردت يا رب أن ترسل لنا منهجا نتبعه فأرسل لنا بشرا رسولا يطبقه، ولا ترسل لنا رسولا فوق قدرة البشر؛ لأنك في هذه الحالة تطالبنا بما هو فوق البشر، ومن هنا كانت حتمية الرسالات تقتضي أن يكون الرسول بشرًا؛ ليكون قدوة مساوية لقدوة المؤمنين فيتخذوه قدوة حسنة دون ما حجة بأن يملك ما فوق طاقات البشر [1].

أمية النبي صلي الله عليه وسلم :

إن من الدلائل العقلية التي شرعها القرآن الكريم ليدلل بها عقلا على إثبات النبوة والرسالة أمية النبي صلي الله عليه وسلم إذ أنه كان لا يقرأ ولا يكتب، ولم يجلس إلي معلم ولم يطالع كتابا ولم يخط بيمينه حرفا، ومع هذا صدع بكلمات عَلّم فيه البشر ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ودنياهم فأخبر عن أحوال السابقين مما لا سبيل إلي العلم به إلا بمطالعة كتبهم وأمهات كتب التاريخ وأتي لنا بشرع به ينتظم المجتمع وتصلح أحواله وأخبر عن أحداث كونية وعلمية لم يحط البشر بها علما إلا منذ سنوات قليلة كل هذا وغيره وقع منه صلي الله عليه وسلم وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، فجعل العقل المنصف يجزم أن ما أتى به خارج عن نطاق البشر، ومرده إلي رب البشر الذي اختاره نبيا ورسولا ليبلغ عنه كل هذا.

يقول الإمام البيهقي: ومن دلائل نبوته صلي الله عليه وسلم أنه كان رجلا أميا لا يخط كتابا بيده ولا يقرأه ولد في قوم أميين ونشأ بين ظهرانيهم في بلد ليس به عالم يعرف أخبار المتقدمين، وليس فيهم منجم يتعاطى علم الكوامن، ولا مهندس يعرف التقدير ولا فيلسوف يبصر الطبائع، ولا متكلم يهتدي لرسوم الجدل ووجوه المحاجاة والمناظرة

1 - معجزة القرآن جـ 3 ص 371 .

والاستدلال بالحاضر على الغائب، ولم يخرج في سفر ضاربًا إلى عالم فيعكف، ويأخذ منه هذه العلوم وكل هذا معلوم عن أهل بلده مشهور عند ذوى المعرفة والخبرة بشأنه يعرف العالم والجاهل والخاص والعام منهم، فجاءهم بأخبار التوراة و الإنجيل والأمم الماضية بعد أن ذهبت معالم تلك الكتب، ودرست وحرفت عن مواضعها، ولم يبق من المتمسكين بها وأهل المعرفة بصحيحها من سقيمها إلا القليل، ثم حآج كل فريق من أهل الملل المخالفة له بما لو احتشد له حذاق المتكلمين وجهابذة المحصلين لم يتهيأ لهم نقض شيء منه فكان ذلك من أدل شيء على أنه أمر من عند الله عز وجل [1] .

ثم نجد بعد ذلك أن الإمام الشوكاني يفصل لنا وجه الاستدلال العقلي بأمية النبي صلي الله عليه وسلم على إثبات النبوة والرسالة بشيء من الإسهاب فيقول: معلوم لكل عاقل يعرف أحوال نبينا صلي الله عليه وسلم أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، وكان منذ ولد إلي أن بعثه الله عز وجل بين قومه وهم قوم مشركون لا يعرفون شيئا من أحوال الأنبياء ولا يدرون بشيء من الشرائع ولا يخالطون أحدا من اليهود والنصارى، ولا يعرفون شيئا من شرائعهم، وإن عرفوا فردًا منها فليس ذلك إلا في مثل ما هو متقرر بينهم يعملون به في عباداتهم ومعاملاتهم باعتبار ما يشتهر عنهم في ذلك، كما يبلغ بعض أنواع العالم عن البعض الآخر، فإنه قد يبلغهم بعض ما يتمسكون به في دينهم باعتبار ذلك عنهم، وأما العلم بأحوال الأنبياء وما جاءوا به وإلي من بعثهم الله، وما قالوا لقومهم وما أجابوهم به، وما جرى بينهم من الحوادث كلياتها وجزئياتها، وفي أي عصر كان كل واحد منهم وإلي من بعثه الله، وكون هذا النبي كان متقدما على هذا وهذا كان متأخرا عن هذا مع كثرة عددهم وطول مددهم

---

1 – الاعتقاد ص 147، 148، المعجزة والإعجاز ص 165، الإسلام والمذهب الفلسفية ص 87، والتفكير الفلسفي ص 45، القرآن في شهر القرآن ص 141 .

واختلاف أنواع أقوامهم، فهذا أمر لا يحيط بعلمه إلا الله عز وجل، ولولا اشتمال التوراة على حكاية أحوال من كانوا قبل موسى من الأنبياء؛ لانقطع علم ذلك عن البشر، ولم يبق لأحد منهم طريق إليه ألبتة، فلما جاءنا هذا النبي الآدمي المبعوث من بين طائفة مشركة تعبد الأوثان، وتكفر بجميع الأديان قد دبروا دنياهم بأمور جاهلية تلقاها الآخر عن الأول وسمعها اللاحق من السابق لا يرجع شيء منها إلي ملة من الملل الدينية، ولا إلي كتاب من الكتب المنزلة ولا إلي رسول من الأنبياء المرسلة ... وكان النبي العربي الأمي لا يعلم إلا بما يعلمون ولا يدري إلا بما يدرون، بل قد يعلم الواحد منهم المتمكن من قراءة الكتب وكتابة المقروء بغير ما يعلمه هذا النبي، فبينما هو على هذه الصفة بين هؤلاء القوم البالغين في الجهالة إلي هذا الحد جاءنا بهذا الكتاب العظيم الحاكي لما ذكرناه من تفاصيل أحوال الأنبياء وقصصهم وما جرى لهم مع قومهم على أكمل حال وأتم وجه، ووجدناه موافقا لما في تلك الكتب كل هذا كان على لسان أمي فكان ذلك من أعظم الأدلة الدالة على ثبوت نبوته على الخصوص وثبوت نبوة من قبله من الأنبياء على العموم [1] .

3-**أخلاق النبي قبل البعثة وبعدها :** إن من البراهين العقلية التي تثبت صدق النبي في دعوته أخلاقه قبل البعثة وبعدها إذ أنه صلي الله عليه وسلم نشأ في بيئة يسودها الجهل والانحراف الخلقي فوجدنا القوي يهضم حق الضعيف، ووجدنا أيضا الإنسان منهم إذا بُشر بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم، فكان ميلادها بمثابة عار لا منجى منه إلا بوأدها.

أيضا مما كان منتشرا بين العرب ومألوفا لديهم الزنا وشرب الخمر كما أن العزة بالإثم العصبية الجاهلية، وغير ذلك من الموبقات كانت زائعة ومنتشرة بينهم، فإذا أتيت إلي أحد

1 - إرشاد الثقات ص 40، 41، البداية والنهاية جـ 3 ص 544، نور اليقين ص 303، دلائل التوحيد ص 189 .

علماء النفس، أو أصول التربية وصورت له بيئة كهذه، وقلت له هب أن إنسانا نما وترعرع في بيئة كهذه فما شأنه، وما حاله أكاد أجزم أنه سيقول: إنه سيشابه قومه إذ الإنسان ابن بيئته، ومن ثم سيشرب في نفسه حب هذه البيئة، وما ألفته من أعراف وتقاليد، بيد أن النبي صلي الله عليه وسلم الذي نشأ في هذه البيئة كان على النقيض من ذلك، فلم يتأثر بذلك الجو الملوث الذي يحيط به، بل رأيناه مثلا أعلى وإنسانا متوحدا في أخلاقه معروفا بالصدق والأمانة وجوامع المروءة كل هذا وغيره اتصف به صلي الله عليه وسلم في وسط هذا الخضم الهائل من الموبقات، وتأكدت هذه الأخلاق بعدها فعرفنا حلمه وعفوه وسماحته وكرمه وشجاعته ورحمته وغير ذلك من الصفات التي اجتمعت له، ولا تكون إلا لنبي ولذا فهو صلي الله عليه وسلم قد خرق بأخلاقه المألوف لدى قومه وذلك قبل البعثة، ثم أرسى ورسخ لتلك القواعد الأخلاقية في نفوس أتباعه وأصحابه بعدها، وهذا هو حال وشأن رسل الله جميعا، ومن ثم كان تعويل كثير من الدارسين والباحثين على هذا المسلك كأحد الأوجه العقلية التي تعين على إثبات النبوة والرسالة .

ونجد أن الإمام ابن كثير من العلماء الذين يقررون هذا المسلك كبرهان ودليل على إثبات النبوة والرسالة حيث ذكر لنا كثيرًا من الجوانب الخُلقية التي يتمتع بها سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم في سيرته، والتي لا تكون إلا لنبي.

يقول الإمام ابن كثير :فسيرة الرسول وأخلاقه من آياته أي من دلائل نبوته فقد كان صلى الله عليه وسلم من أكمل الناس تربية ونشأة لم يزل معروفا بالصدق والبر ومكارم الأخلاق والعدل وترك الفواحش ونبذ الظلم، وكل وصف مذموم مشهودًا له بذلك عند كل من

يعرفه قبل النبوة، ومن آمن به ومن كفر بعد النبوة، ولا يعرف له شيء يعاب به لا في أقواله ولا أفعاله ولا في أخلاقه ولا جُرِّب عليه كذب قط ولا ظلم ولا فاحشة [1].

ومن هذا المنطلق كان حديث القرآن الكريم عن أخلاق الأنبياء والرسل ولذا نجده يحدثنا عن خاتمهم صلي الله عليه وسلم، وكيف أنه كان لين الجانب بأصحابه، وبهذا الخلق الكريم استطاع صلي الله عليه وسلم أن يستقطبهم إليه ولو اتصف بنقيض هذا من الغلظة والفظاظة لنفر الناس منه، وما تابعوه في دعوته إذ كيف يتأتى لعاقل أن يتبع فظًا غليظًا سيئ الخلق يقول تعالى في سورة آل عمران ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[آل عمران:159]

ولعلنا نلاحظ أن الآية الكريمة صدرت بقول الله تعالى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ وهذا التعبير يحمل مغزىً عظيمًا فيه الدلالة على أن أخلاق النبي صلي الله عليه وسلم وآدابه مردهما إلى ربه، وإذا كان الأمر كذلك، فقد خرق صلى الله عليه وسلم بسلوكه وأخلاقه قبل البعثة القول الشائع الذي يقول الإنسان ابن بيئته، فلم يتأثر ببيئته التي تقتضي المشابهة مع قومه في أفعالهم، وإنما كان صلي الله عليه وسلم نسقا فريدًا في أخلاقه لا يضاهي قومه ولا غرابة في ذلك؛ إذ أن مرد هذه الأخلاق ومرجعها إلي عصمة الله له، ولذا اتخذ كل ذي عقل من هذا السلوك الكريم دليلًا عقليًا على صدقه وإثبات الرسالة له إذ إنه لم يشابه قومه في أخلاقهم، ومن ثم كان تأويل اللين في الآية الكريمة بحسن الخلق عند كثير من المفسرين.

1 - البداية والنهاية جـ 3 ص 542 .

يقول الإمام الرازي: اعلم أن لينه صلي الله عليه وسلم مع قومه عبارة عن حُسن خلقه معهم، فلما كان صلي الله عليه وسلم إمام العالمين وجب أن يكون أكثرهم حلما وأحسنهم خُلقا.

واعلم أن سر الأمر في حسن الخلق أمران: اعتبار حال القائل، واعتبار حال الفاعل.

أما اعتبار حال القائل : فلأن نفسه صلي الله عليه وسلم كأنها من جنس أرواح الملائكة فلا تنقاد لشهوة، ولا تميل لدواعي الغضب، ولا تتأثر بحب المال والجاه، فإن من تأثر عن شيء كان المتأثر أضعف من المؤثر، والنفس إذا مالت إلى هذه المحسوسات كانت روحانيتها أضعف من الجسمانيات، وإذا لم تمل إليها ولم تلتفت إليها كانت روحانيتها أشد من الجسمانيات، وهذه الخواص نظرية، وكانت نفسه في غاية الجلال والكمال في هذه الخصال.

وإما اعتبار حال الفاعل: فإنه يعلم أن الحوادث الأرضية مستندة إلي الأسباب الإلهية، فيعلم أن الحذر لا يمنع القدر فلا جرم إذا فاته المطلوب لم يغضب، وإذا حصل له محبوب لم يأنس به؛ لأنه مطلع على الروحانيات التي هي أشرف من هذه الجسمانيات، فلا ينازع أحد في هذا العالم في طلب شيء من لذاتها وطيباتها ولا يغضب على أحد بسبب فوت شيء من مطالبها، ومتى كان الإنسان كذلك كان حسن الخلق طيب العشيرة مع الخلق، ولما كان صلى الله عليه وسلم أكمل البشر في هذه الصفات الموجبة لحسن الخلق لا جرم كان أكمل الخلق في حسن الخلق [1] .

ولا بد أن نعلم" أن المقصود من البعثة أن يبلغ الرسول تكاليف الله إلي الخلق وهذا المقصود لا يتم إلا إذا مالت قلوبهم إليه وسكنت نفوسهم لديه، وهذا المقصود لا يتم إلا إذا

1 - مفاتيح الغيب جـ 4 ص 524 .

كان رحيما كريما يتجاوز عن جفوتهم ويعفو عن إساءتهم ويخصهم بوجوه البر والمكرمة والشفقة، فلهذه الأسباب وجب أن يكون الرسول مبرأ عن سوء الخلق وكما يكون كذلك وجب أن يكون غير غليظ القلب، بل يكون كثير الميل إلي إعانة الضعفاء كثير القيام بإعانة الفقراء كثير التجاوز عن سيئاتهم كثير الصفح عن زلاتهم، فلهذا المعني قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ ولو انفضوا من حولك فات المقصود من البعثة والرسالة [1] .

وعلى هذا فحسن الخلق من دلائل البعثة والرسالة ومن الأشياء التي يكون بها تأليف القلوب إلي الدعوة والجذب إليها.

وإذا كان اللين والعفو وعدم الغلظة وغير ذلك من الصفات الخلقية التي بها تحلى النبي صلي الله عليه وسلم، فإن الحق سبحانه وتعالى قد وصفه في آية أخرى بالرأفة والرحمة المشتقتين من اسمين من أسماءه تعالى فيقول سبحانه وتعالى في سورة التوبة: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٢٨﴾ [التوبة:128]

وفي آية أخرى يبين لنا صفة أخرى تضاف إلي هذه الصفات السابق ذكرها وهي صفة الأمانة حيث نزه الله سبحانه وتعالى أنبياءه عن الغلول وهو الخيانة فقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١٦١﴾ [آل عمران:161]

وتنزيه الله سبحانه وتعالى له عن هذه الصفة الذميمة يشعر أنها من سوء الخلق الذي يطعن في النبوة والرسالة، فثبوت نقيضها للأنبياء والرسل وهي الأمانة مما يدل على تحقق

1 - مفاتيح الغيب جـ 4 ص 528 .

الرسالة وثبوتها، وبناء على ما تقدم يمكن القول: إن النبوة والخيانة لا يجتمعان؛ وذلك لأن الخيانة سبب للعار في الدنيا والنار في الآخرة، فالنفس الراعية فيها تكون في نهاية الدناءة، والنبوة أعلى المناصب الإنسانية فلا تليق إلا بالنفس التي تكون في غاية الجلالة والشرف، والجمع بين الصفتين في النفس الواحدة ممتنع فثبت أن النبوة والخيانة لا يجتمعان [1] .

ثم نجد القرآن الكريم يبين لنا أن من مقدمات الرسالة حسن الخلق فالمتتبع لموكب الرسالات يجد رسل الله عليهم السلام يحتجون على أقوامهم عند الدعوة والبلاغ بأنهم أمناء لهم وعليهم، وكأن هذا إيحاء إلي العقل يعطي فيه انطباعًا من خلاله يظهر أن ما عليه الأنبياء والرسل من شمائل خلقية له كبير الأثر في إثبات دعوى النبوة والرسالة فنجد قول الحق سبحانه وتعالى يقول في حق نوح عليه السلام كما جاء في سورة الشعراء: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الشعراء:107]

ونجد قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الشعراء أيضا في حق هود عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾﴾ [الشعراء:125]

كذلك قول الله تعالى في لوط في سورة الشعراء: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾﴾ [الشعراء:162]

وقوله عز شأنه في حق شعيب عليه السلام في سورة الشعراء أيضا: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [الشعراء:178]

إذا فعنوان كل بعثة ورسالة الأمانة والأمانة من حسن الخلق إذا فحسن الخلق من البراهين العقلية التي يعول عليها في إثبات النبوة والرسالة يقول الإمام الرازي في تعليقه على الآيات السابقة : أن الرسل كانوا مشهورين بالأمانة في أقوامهم كمحمد صلي الله عليه

1 – الكشاف جـ 1 ص 435 .

وسلم في قريش فكأنه قيل كنا أمناء من قبل فكيف تتهموننا اليوم (1) وكأن أخلاق الأنبياء عليهم السلام قبل البعثة دليل على صدق دعوى النبوة لهم بعدها ومن ثم نجد الحق سبحانه وتعالى يأتي إلي خاتم أنبيائه وصفوة رسله عليه الصلاة والسلام فيصفه بجماع الخلق بل بالاستعلاء عليه، وكأنه صلي الله عليه وسلم بخصاله وشمائله الشريفة صار في مرتبة هو فيها أولًا والخلق ثانيها يقول تعالى في سورة القلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم:4]

وهذه الشهادة الإلهية بعظم خلق النبي صلي الله عليه وسلم والتي سجد لها الواقع كانت مناطا في إثبات صدقه عليه السلام وإثبات رسالته في كثير من المواطن وإني سأذكر مواطن ثلاثة فقط على سبيل المثال لا الحصر كان فيها الاستشهاد بأخلاقه صلي الله عليه وسلم كدلائل على صدقه :

1 – ففي أول لقاء بين خبر السماء بالأرض أخذ رسول الله عليه وسلم من الرهبة والفزع ما أخذه، فلما انصرف إلي السيدة خديجة رضي الله عنها وحكى لها ما وقع له هدَّأت من روعه قائلة له: "أبشر فو الله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق". والمتأمل بعقله في قول السيدة خديجة السابق يجدها، وقد استدلت رضوان الله عليها من خلال كمال صفاته التي تعرفها فيه صلي الله عليه وسلم على أن الله سبحانه وتعالى لا يخزيه أبدا، وما هذه الحادثة التي عايشها في غار حراء إلا مظهرٌ من مظاهر اصطفاء الله تعالى له وتقدمة لرسالته ولذلك حينما أمر رسول الله صلي الله عليه وسلم بالدعوى والتبليغ كانت رضي الله عنها أول من آمن به من

1 – مفاتيح الغيب جـ 12 ص 150 ، ويراجع الجامع لأحكام القرآن جـ 7 ص 4998 .

النساء وبرهانها في الإيمان كمال أخلاقه وسمو صفاته التي كانت عندها شاهد صدق على إثبات نبوته صلي الله عليه وسلم .

2 . أيضا كان الاحتجاج بخلقه الكريم في إثبات نبوته عليه الصلاة السلام عندما أُمر من قبل ربه بأن يؤذن في ظلام الجاهلية بفجر الإسلام مجاهرًا بالدعوة فاحتج عليهم صلي الله عليه وسلم بما عرفوه عنه من أخلاق وصدقه قائلا لهم " أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي، قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقا. فقال: "إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد". [1] فآمن به فريق واستكبر وأصر على العناد فريق آخر، وكان دليل المؤمنون صفات الرسول صلي الله عليه وسلم السامية والتي نبههم في مبتدأ حديثه على جانب منها، وهو جانب الصدق الذي هو بعض أخلاقه العظيمة، والتي يعرفونه فيه.

وهنا يمكن أن يعترض على المقدمة الثانية ويقال: إذا كان ثمة إنسان صادق غير النبي صلي الله عليه وسلم وادعى النبوة فهل تثبت له هنا نقول: إن ذلك الإنسان بادعائه للنبوة انتقل من الصدق إلي الكذب فبادعائه لها وهو ليس أهلا لها أصبح كاذبا لا صادقا .

---

1 -فتح الباري جـ 13 ص 443، ويراجع السيرة النبوية لابن هشام ص 186 جـ 1 ، البداية والنهاية جـ 2 ص 47، الطبقات الكبرى جـ 1 ص 271، نور اليقين ص 36، فقة السيرة ص 180 ، السيرة النبوية جـ 1 ص 46، العقيدة الإسلامية وأسسها ص 289 واللفظ للبخاري ، أخرجه البخاري في كتاب التفسير عن ابن عباس وحديث (4771) عن أبي هريرة كتاب وتفسير حديث رقم (4971) ورقم (4973) ، ولكنه مختصر وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان حديث (355)، وأخرجه الترمذي في كتاب التفسير (سورة الشعراء) حديث رقم (3185)، وأخرجه النسائي في كتاب الوصايا، باب [6]، وأخرجه أحمد في المسند (1 / 307)، وأخرجه الدارمي في كتاب الرقاق رقم الحديث (2732)، وأخرجه البيهقي في الدلائل ، باب ما ورد في أبي لهب ورده على النبي صلي الله عليه وسلم (2 / 181) .

3 وإذا كنا قد رأينا فيما سبق كيف اتخذت أم المؤمنون خديجة رضي الله عنها من الخلق العظيم للنبي صلي الله عليه وسلم دليلًا على صدقه وكذلك رأينا كيف اتخذ الرسول من إقرار المشركين بصدقه وعظيم خلقه برهانا ومدخلا لإثبات النبوة، فإننا نجد إنسانا آخر ما شاهد الرسول صلي الله عليه وسلم وما سمع مما نزل عليه حرفا وما رأى ما أجرى على يديه من خوارق كونية، ومع هذا فقد أقر بصدقه ونبوته من خلال ما سمعه من سمات شخصيته وصفاته الخلقية ذلك الرجل هو هرقل ملك الروم فقد روي عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا سفيان بن حرب أخبره قال: " انْطَلَقْتُ فِى الْمُدَّةِ الَّتِى كَانَتْ بَيْنِى وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – – قَالَ – فَبَيْنَا أَنَا بِالشَّأْمِ إِذْ جِىءَ بِكِتَابٍ مِنَ النَّبِىِّ – صلى الله عليه وسلم – إِلَى هِرَقْلَ قَالَ وَكَانَ دِحْيَةُ الْكَلْبِىُّ جَاءَ بِهِ فَدَفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى ، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ بُصْرَى إِلَى – هِرَقْلَ – قَالَ فَقَالَ هِرَقْلُ هَلْ هَا هُنَا أَحَدٌ مِنْ قَوْمِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِى يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِىٌّ فَقَالُوا نَعَمْ . قَالَ فَدُعِيتُ فِى نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَدَخَلْنَا عَلَى هِرَقْلَ ، فَأُجْلِسْنَا بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِى يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِىٌّ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ فَقُلْتُ أَنَا . فَأَجْلَسُونِى بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَجْلَسُوا أَصْحَابِى خَلْفِى ، ثُمَّ دَعَا بِتُرْجُمَانِهِ فَقَالَ قُلْ لَهُمْ إِنِّى سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِى يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِىٌّ ، فَإِنْ كَذَبَنِى فَكَذِّبُوهُ . قَالَ أَبُو سُفْيَانَ وَايْمُ اللَّهِ ، لَوْلاَ أَنْ يُؤْثِرُوا عَلَىَّ الْكَذِبَ لَكَذَبْتُ . ثُمَّ قَالَ لِتُرْجُمَانِهِ سَلْهُ كَيْفَ حَسَبُهُ فِيكُمْ قَالَ قُلْتُ هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ . قَالَ فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ قَالَ قُلْتُ لاَ . قَالَ فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ قُلْتُ لاَ . قَالَ أَيَتَّبِعُهُ أَشْرَافُ النَّاسِ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ قَالَ قُلْتُ بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ . قَالَ يَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ قَالَ قُلْتُ لاَ بَلْ يَزِيدُونَ . قَالَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ ، بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ ، سَخْطَةً لَهُ قَالَ قُلْتُ لاَ .

قَالَ فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ قَالَ قُلْتُ نَعَمْ . قَالَ فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ قَالَ قُلْتُ تَكُونُ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالاً ، يُصِيبُ مِنَّا وَنُصِيبُ مِنْهُ . قَالَ فَهَلْ يَغْدِرُ قَالَ قُلْتُ لاَ وَنَحْنُ مِنْهُ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ لاَ نَدْرِي مَا هُوَ صَانِعٌ فِيهَا . قَالَ وَاللَّهِ مَا أَمْكَنَنِي مِنْ كَلِمَةٍ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ . قَالَ فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ قُلْتُ لاَ . ثُمَّ قَالَ لِتُرْجُمَانِهِ قُلْ لَهُ إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ حَسَبِهِ فِيكُمْ ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو حَسَبٍ ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ فَقُلْتُ لَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ آبَائِهِ ، وَسَأَلْتُكَ عَنْ أَتْبَاعِهِ أَضُعَفَاؤُهُمْ أَمْ أَشْرَافُهُمْ فَقُلْتَ بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخْطَةً لَهُ فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ إِذَا خَالَطَ بَشَاشَةَ الْقُلُوبِ ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ فَزَعَمْتَ أَنَّكُمْ قَاتَلْتُمُوهُ فَتَكُونُ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ سِجَالاً ، يَنَالُ مِنْكُمْ وَتَنَالُونَ مِنْهُ ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ لاَ يَغْدِرُ ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لاَ تَغْدِرُ ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ فَزَعَمْتَ أَنْ لاَ ، فَقُلْتُ لَوْ كَانَ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ قُلْتُ رَجُلٌ ائْتَمَّ بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ . قَالَ ثُمَّ قَالَ بِمَ يَأْمُرُكُمْ قَالَ قُلْتُ يَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّلَةِ وَالْعَفَافِ . قَالَ إِنْ يَكُ مَا تَقُولُ فِيهِ حَقًّا فَإِنَّهُ نَبِيٌّ ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ ، وَلَمْ أَكُ أَظُنُّهُ مِنْكُمْ ، وَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لأَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ ، وَلَيَبْلُغَنَّ مُلْكُهُ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ . "(1) .

---

1 –فتح الباري ص 88، وما بعدها، أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي، باب [6] رقم الحديث (7) . عن ابن عباس " أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ..." وكتاب الإيمان، باب (38) رقم الحديث

هكذا استدل هرقل على تصدق النبي وإثبات الرسالة له من خلال سمات شخصيته وصفاته الخلقية التي سمع بها من أحد أعدائه ومن هنا نعلم أن أخلاق الأنبياء والرسل قبل البعثة وبعدها من الدلائل العقلية التي تعين على إثبات الرسالة لهم .

4- الاستدلال بجوهر الرسالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم :

إنَّ هذا المسلك العقلي الذي نحن بصدد الحديث عنه، والذي من خلاله نحاول إثبات النبوة والرسالة إنما نتناوله من خلال ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم إذ أن رسالته فقط هي المتوفرة بين أيدينا دون أن تمسها يد الجهالة بالتحريف والتزييف، وإن حدث وتطرقنا إلي هذا المسلك عند أحد الرسل والأنبياء والسابقين، فإننا نتناوله من خلال حديث الآيات القرآنية عنه، والتي هي شاهد صدق على نبوتهم ورسالتهم، وإن كان يكفى في إثبات النبوة والرسالة لهم إثباتها للنبي صلي الله عليه وسلم حيث إنه أقر برسالتهم وبعثتهم وجعل من أركان الإيمان في رسالته الإقرار بنبوة رسل الله السابقين.

وهذا المسلك العقلي الذي نحن بصدد الحديث عنه لكي تثبت من خلاله الرسالة إنما تظهر قيمته وأهميته إذا تمثلنا في العقول شرعة ومنهج الجاهلية التي كان يسير عليها لا أقول العرب فحسب، بل العالم أجمع، فلقد كان العالم قبل بعثة النبي صلي الله عليه وسلم في ظلام دامسٍ وفي جهالة عمياء القوي فيه يهضم حق الضعيف والغني يستعبد الفقير وكانت شريعة الغاب هي التي تسودهم وتحكمهم، فكانوا لا يفرقون بين الحق ولا الباطل وبين طيب

---

(51) مختصر جدا وأحاديث (2681، 20804، 2978، 3174 ، 4553، 5980، 6260، 7196، 7541)، وأخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير [26] باب كتاب النبي إلي هرقل يدعوه إلي الإسلام حديث (74)، وأخرجه البيهقي في الدلائل، باب ما حاء في بعث الرسول صلي الله عليه وسلم دحية الكلبي رضي الله عنه إلي هرقل ملك الروم (4/ 377) .

يصلح لهم وخبيث يضرهم كما أن المعاملات الربوية كانت نظامًا سائدا بينهم، وظل الحال كذلك حتى رحم الله سبحانه وتعالى البشرية على وجه العموم والعرب على وجه الخصوص ببعثة النبي صلي الله عليه وسلم بشريعة أحلت لهم الطيبات وحرمت عليهم الخبائث وقومت كل معوج فيهم.

"فإن أي إنسان ينظر بإمعان العاقل المنصف فيما جاء به مثلا نبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم من دعوة التوحيد، ومن بيان لأصول العبادات ونظم المعاملات ومناهج الأخلاق ومبادئ السياسة ثم يراقب موافقتها لمصالح الناس وسعادتهم في شتى مطالب حياتهم، ويرى أن كل جزئية فيها موافقة للحق بلا مرية فلا تهافت في نصوص دعوته ولا ضعف في أصول شريعته ولا فروعها علما بأن ما يأتي به أي إنسان بالغا ما بلغت به العبقرية، أو أي جماعة في مؤتمر تشريعي بالغا ما بلغ بهم التجرد والإنصاف لا يخلو من شيء من الضعف والنقص والجهل والباطل والتهافت إنه متى أمعن في جوهر هذه الرسالة بفهم وإنصاف سيجد أن مصباحا من المعرفة قد أضاء في قلبه، فيؤمن بلا تردد أن صاحب هذه الرسالة رسول من عند الله فجوهر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وكمال أصولها وفروعها شاهد عظيم على صدق أنه رسول الله [1] .

إذا فالمنهج الذي أرسل به النبي صلى الله عليه وسلم وما تضمنه من أحكام وتشريعات وآداب حوت كل ما ينفع الأمم بالحال وأبطلت كل ما يضرهم بالحرمة، فلو تمعن كل منصف وكل ذي عقل سليم في ذلك لعلم أن هذا من دلائل النبوة التي يؤمن بها العقل، ومن ثم يقول الإمام الطحاوي: في معرض حديثه عن دلائل النبوة :إن من عرف صدق ما جاءت

1 - أصول العقيدة الإسلامية وأسسها ص 285، 286، ويراجع مبادئ الإسلام ص 61، 65 .

به الرسل من الشرائع وتفاصيل أحوالها تبين له أنهم أعلم الخلق وأنه لا يحصل مثل ذلك من كذاب جاهل[1] .

و الشريعة فيما اشتملت عليه من أحكام شاهد صدق على إثبات الرسالة وبجانب ذلك تلاءم البشر بحيث لا يمكن أن يرد سؤال من ذي عقل راشد وفطرة سليمة يمكن أن يقال فيه لشيء أحل لما أحل ولشيء حرم لما حرم .

يقول الإمام ابن كثير: ومن دلائل نبوته شريعته حيث يأمر الخلق فيها بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويشرعها شيئا بعد شيء حتى أكمل الله دينه الذي بعثه الله به وجاءت شريعته أكمل شريعة لم يبق معروف تعرف العقول أنه معروف إلا أمر به ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهى عنه لم يأمر بشيء فقيل ليته لم يأمر به ولا نهي عن شيء فقيل ليته لم ينه عنه، وأحل لهم الطيبات ولم يحرم منها شيئًا كما حرم في شريعة غيره وحرم الخبائث ولم يحل منها شيئا كما استحل غيره[2] .

وعلى هذا فإننا نقول إن صحة المباديء التي جاء بها صلى الله عليه وسلم وصدقها وصلاحيتها لكل زمان ومكان وظهور نتائجها طيبة مباركة تشهد أنها من عند الله وأن من أنزلت عليه رسول الله ونبيه

وبعد أن وقفنا على تقرير هذا المسلك من واقع كلام العلماء والدارسين هيا بنا نلتف حول مائدة الرحمن لنرى كيف تمثل كل هذا وغيره في كتاب الله تعالى، فنجد الحق سبحانه وتعالى بداية يحضنا على التماس هذا المسلك العقلي وبيانه من خلال الحق الذي جاء به الرسول صلي الله عليه وسلم من عند الله تعالى مستدلين به على صدقه ونبوته يقول سبحانه وتعالى في

1 - أصول العقيدة الإسلامية ص 51 .

2 - البداية والنهاية جـ 2 ص 180، ويراجع عين هذا الكلام النبوات والسمعيات من مباحث علم الكلام ص 53 .

سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧٠﴾ [النساء:170].

وإذا تتبعنا الآيات القرآنية فإننا نجد هذا المسلك يتراءى لنا بوضوح في كل ما أمر الله به وكل ما نهى الله عنه فنجد الحق سبحانه وتعالى قد أحل لعباده الطيبات وأمرهم بتناولها والأكل منها وكذلك حرم عليهم أشياء وأمرهم ألا يقربوها لما في اقترافها من ضرر وخيم ووبال يعود عليهم يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة:172].

ونلحظ من خلال الآية السابقة صلاحية هذه الرسالة وعمومها لكل زمان ومكان حيث تمخض ذلك من كون علام الغيوب علم من أحوال عباده أنه قد تنزل بهم مجاعات أو يضلون في الصحاري والقفار فلا يجدون بدا لحفظ حياتهم إلا بتناول ما حرم الله فكان الخطاب الإلهي لكل من كان في مثل هذا الموقف العصيب ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ ثم طمأنهم قائلا لهم (إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ) لماذا ؟ لأنه قد يتناول الإنسان في حالة اضطراره شيئا مما حرم الله عليه، فيصيبه من جراء ذلك الألم النفسي الذي هو أشد أنواع الألم حيث إنه اقترف شيئًا قد حرمه الله عليه، فأراد الحق سبحانه أن يذهب هذا الألم من الصدور فكانت هذه العبارة التي تقع على القلوب بردا وسلاما .

والحق سبحانه وتعالى بتحريمه لهذه الأشياء إنما هو تحريم لما يُلحق الأذى بالإنسان، وكما يقول فضيلة الشيخ الشعراوي : إن الحيوانات الميتة تحتبس فيها خلاصة الأغذية التي تناولتها وهي الموجودة بالدم وهذا الدم فيه أشياء ضارة كثيرة ففي الدم مواد ضارة فاسدة استخلصتها أجهزة الجسم وهو حي وكانت في طريقها إلي الخروج منه، فإذا ما ذبحناه سال

كل الدم الفاسد والسليم؛ ولأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة فإننا نضحي بالدم السليم مع الدم الفاسد، وهذا الدم يختزنه الجسم عندما يموت وتظل بداخله الأشياء الضارة فيصبح اللحم مملوءا بالمواد الضارة التي تصيب الإنسان بالأمراض

أما بالنسبة لتحريم الخنزير فقد شاءت إرادة الله أن يكشف لخلقه سر التحريم، فأثبت العلماء أن هناك أمراضا في الخنزير لم تكن معروفة قبل ذلك، وتبين لهم خطورتها مثل الدودة الشريطية، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد كشف لهم سرا واحدا هو الدودة الشريطية فربما هناك أسرار أخرى أخطر منها.

أما ما أهل به لغير الله فيدلنا على أن الذبح نوعان: ذبح لنفعك لتأكل ويأكل غيرك، وذبح قربي لله، وما أهل به لله هو ذبح قربي لله.

أما ما أهل به لغير الله فهو الذبح لمنفعة الإنسان فقط وتقربا إلي الأصنام والأوثان مما يعبد من دون الله، وما دام الله هو الذي أعطى الحيوانات وسخرها لنا من أجل أن نأكلها فعلينا أن نذكر المنعم وأن تكون القربى لله وحده هي المقصد الأول، ولذلك فالمؤمنون يتقربون ويأكلون.

أما الكفار فيأكلون ولا يتقربون لله إنما يذبحون ويتقربون إلي آلهتهم [1] .

ومن الآيات التي تقرر هذا المسلك قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران:164]

يقول الإمام الرازي : اعلم أن كمال الإنسان في أمرين في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به، وبعبارة أخرى للنفس الإنسانية قوتان: نظرية وعملية، والله تعالى أنزل

1- تفسير الشعراوي جـ 2 ص 732 .

الكتاب على محمد صلى الله عليه وسلم؛ ليكون سببا في تكميل الخلق في هاتين القوتين فقوله تعالى (يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ) إشارة إلي كونه مُبلغا بذلك الوحي من عند الله إلي الخلق وقوله (ويزكيهم) إشارة إلي تكميل القوة النظرية بحصول المعارف الإلهية و (الكتاب) إشارة إلي ظواهر الشريعة و(الحكمة) إشارة إلي محاسن الشريعة وأسرارها وعللها ومنافعها، ثم بين تعالى ما تكمل به هذه النعمة وهو أنهم كانوا من قبل في ضلال مبين؛ لأن النعمة إذا وردت بعد المحنة كان توقعها أعظم، فإذا كان وجه النعمة العلم، والإعلام ورد عقيب الجهل والذهاب عن الدين كان أعظم[1] .

وإذا كان الأمر كذلك فإن هذه الرسالة قائمة على الحق في كل شيء في الاعتقاد والشريعة والآداب والأخلاق والأحكام والسلوك في كل ما يتصل بحياة الإنسان مما يشعر أن كل هذا إنما هو من وضع إله حكيم حميد، وأن من بلَّغه نبي صادق مرسل من قبل الله تعالى ولذا كان وصف الكتاب بالحق فيما تضمنه من أحكام تتعلق بكل نواحي الحياة في قول الله تعالى من سورة النساء ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء:105] ومن ذلك الحق المنزل تحريم الله عز وجل لكل ما يضر الإنسان ومنه ما سبق بيانه من خلال آية سورة البقرة السابق ذكرها والتي نبه الحق سبحانه وتعالى عليها في موضع آخر من سورة المائدة بقوله ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ

1 - مفاتيح الغيب جـ 4 ص 550 .

وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣﴾ [المائدة:3]

كذلك نجد القرآن الكريم في سبيل المحافظة على الإنسان نراه قد حرم الخمر؛ ليحافظ على عقل الإنسان وبدنه، إذ إن الخمر تخالط العقل فتغيبه وعندئذ يأتي الإنسان بأشياء تخل بمروءته، وبين العلم الحديث أن الإنسان الذي يعاقر الخمر عرضة للإصابة بالكثير من الأمراض الخبيثة التي يصعب الشفاء منها.

وكما حافظ الإسلام على عقل الإنسان وبدنه حافظ كذلك على ماله فكان تحريم الميسر وما يلحقه من أمور بها يذهب مال الإنسان سدى في غير وجهه يقول سبحانه وتعالى في سورة المائدة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة:91]

أيضا كان من تشريع الرسالة وجوهرها ما بينه الحق سبحانه وتعالى من أشياء حافظ على المجتمع بتحريمها من خلال الوصايا العشر التي ورد ذكرها في سورتي الأنعام والإسراء، فكان في صدر المحرمات الشرك بالله وعقوق الوالدين وقتل الأبناء خشية الفقر واقتراف الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وقتل النفس بغير حق وأكل مال اليتيم من القائم عليه وتطفيف الكيل والميزان وعدم القيام بالعدل في الشهادة والخيانة لعهد الله والتنكب عن صراطه المستقيم الذي يبوء بالخسران المبين كل من حاد عنه.

ومن ثم فالمتأمل بعقله في الرسالة وجوهرها وما تضمنته من آداب وأحكام يجدها تدل عقلا على أنها ليست وضعًا بشريا إذ الحكماء في أرجاء المعمورة قبل بزوغ شمسها ما استطاعوا أن يأتوا ولو بجانب يسير من آدابها أو تشريعاتها وإلى هذه اللحظة الأمر كذلك فكل من أراد أن يقنن منهجا فإنه سرعان ما يتبدى له عيوبه وهفواته، فيبحث عن غيره

ويضرب الصفح عنه، ومن ثم فحكم العقل المنصف يقول: إن الرسالة بما حوته من اعتقادات وعبادات ومعاملات وسياسات وآداب وما فيها من دقائق الحكمة ليست إلا وضعا إلهيا ووحيا سماويا والمبعوث بها لا يكون إلا نبي مبلغ عن الله شرعه ومنهجه.

5 – مآل السابقين بعد التكذيب :

وهذا مسلك آخر يمكننا من خلاله أن نبرهن عقلا على إثبات النبوة والرسالة؛ فإن العقل الحصيف يقول دائما إن الإنسان في حياته يجب أن يعتبر بغيره، ويعتمد في هذا على قياس حاله بحاله وشأنه وبشأنه، فلقد تواتر في الأمم والقرون الأولى جزاء المكذبين بالأنبياء والرسل في كل زمان ومكان مع أنه كان من المفترض عند أهل كل عصر ظهر فيهم نبي أن لا يسارعوا في تكذيبه، بل ينبغي أن يمعنوا عقولهم فيما أتى به فيدركون أن ما يدعوهم إليه هو نفس ما دعا من خلوا قبله من الأنبياء والرسل، وأن أقوامهم عندما أعرضوا عن دعوتهم نزل بها العذاب مستأصلا أشفتهم فيأخذوا العبرة والمثل ممن سبقهم، فيدركون أن هذا مصيرهم إن هم كذبوا.

ولذا كان من الواجب عليهم أن يؤمنوا بمن أرسل إليهم مصدقين إياه ومسلمين له بالرسالة كي لا يحيق ما نزل بغيرهم يقول صاح بكتاب دلائل التوحيد : إن من دلائل النبوات وآياتها الباهرة ما نزل بالأقوام بعد تكذيب الرسل فقد جاءت الرسل عليهم السلام تترى مبشرين ومنذرين تعاضدين لفطرة الله التي فطر الناس عليها، فادعوا وبرهنوا وقاوموا وانتصروا فلم يكن أشفى ولا أنفع من النظر في كتبهم وهديهم وآياتهم ومعجزاتهم. وقد اعتضد ذلك باستمرار نصر الأنبياء في عاقبة أمرهم وإهلاك أعدائهم بالآيات الرائعة مع سلامتهم وأتباعهم ونجاتهم على الدوام من نزول العذاب بهم، كما نزل على أعدائهم وذلك بين في القرآن وجميع كتب الله تعالى وجميع تواريخ العالم، حيث دلت على عقوبات الظالمين

المتواترة والمشاهدة، وقصت ما حل على من مضى من المكذبين مما يحمل النفس على أخذ الأهبة والعمل للحيطة، إذ العقل يدعو إلي الاعتبار والحكمة تحث على الاستبصار، وفي وجدان الأنفس الخوف عند التخويف نزول عن القطع بالتكذيب الذي هو أول ما يرومه الشيطان، فإذا نزلت من ذلك وجب عليها في شرع العقل تصديق الثقة[1]

إذًا فَسُنَّةُ الله التي مضت في الذين خلوا من قبل تقتضي التعقل والاستبصار والاعتبار حيث كان العذاب الأليم جزاء تكذيبهم ونكرانهم، وكان ذلك آية واضحة وبينة للأنبياء والرسل ينبغي أن يأخذ بها كل ذي عقل ولب، فيسارع إلي تصديق نبيه والتسليم بالرسالة له ومن ثم يقول القاضي على بن أبي العز الحنفي : ونحن اليوم علمنا بالتواتر من أحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم علما يقينيا أنهم كانوا صادقين من وجوه متعددة، منها أنهم أخبروا الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أولئك، وبقاء العاقبة لهم وما أحدثه الله لهم من نصرهم وإهلاك عدوهم، إذا عرف الوجه الذي حصل عليه كغرق فرعون وغرق قوم نوح عرف صدق الرسل.

فإن الله سبحانه وتعالى أبقى في العالم الآثار الدالة على ما فعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة وما فعله بمكذبيهم من العقوبة كثبوت الطوفان وإغراق فرعون وجنوده، ولما ذكر سبحانه قصص الأنبياء نبيا بعد نبي في سورة الشعراء كقصة موسى وإبراهيم ونوح ومن بعده يقول في آخر كل قصة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ [2]

1 – دلائل التوحيد ص 56 .

2 –أصول العقيدة الإسلامية ص 50، 51 .

ونجد ابن تيمية يحدثنا عن هذا الدليل بشيء من الإسهاب إذ يبين أولا أن لله تعالى سنن كثيرة لا تتخلف والتي منها طلوع الشمس والقمر، فكذلك من سننه إهلاك المكذبين للأنبياء إثر تكذيبهم، مما يعطى اعتقادا عقليا راسخا بصدق الأنبياء.

يقول الإمام ابن تيمية في معرض حديثه عن الدلائل العقلية التي تثبت بها النبوة والرسالة: ونعلم من خلالها صدق المبلغين عن الله شرعه ومنهجه: وإما الاستدلال بعادته فهو أيضا طريق برهاني ظاهر لجميع الخلق فإنه قد علم عادته سبحانه في طلوع الشمس والقمر والكواكب والشهور والأعوام، وعادته في خلق الإنسان وغيره من المخلوقات وعادته فيما عرفه الناس من المطاعم والمشارب والأغذية والأدوية ولغات الأمم كالعلم بنحو كلام العرب وتصريفه والعلم بالطب وغير ذلك، كذلك سنته تعالى في الأنبياء الصادقين وأتباعهم وفيمن كذبهم أو كذب عليهم فأولئك ينصرهم ويعزهم ويجعل لهم العاقبة المحمودة والآخرون يهلكهم ويذلهم ويجعل لهم العاقبة المذمومة كما فعل بمن كذب محمدا من قومه قريش ومن سائر العرب [1] .

ويبرهن الإمام ابن تيمية على كلامه السابق بما يناسبه من الآيات القرآنية الكثيرة والتي منها قوله تعالى في سورة الصافات ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الصافات:171]وقوله تعال في سورة هود ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [هود:100] ثم نجد ابن تيمية بعد أن يذكر لنا طائفة من هذه الآيات يحدثنا كيف يمكن لأهل مكة وكفارها أن يأخذوا من مآل السابقين إثر تكذيبهم وإعراضهم عبرة ودليلا به، يقفون بعقولهم على صدق النبوة والرسالة مستخدمين في ذلك القياس والاعتبار فنراه يمهد لكلامه بعدة آيات منها قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ

1 - النبوات ص 375 .

يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران:13] وقوله تعالى في سورة يوسف ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف:111]

ولعلنا لاحظنا في هذه الآيات وجود لفظ (الاعتبار) وما اشتق منه كقاسم مشترك بينها والذي يعني القياس العقلي ومن ثم كان مناطا لهذا الدليل حيث يقول الإمام ابن تيمية : وإنما تكون العبرة به بالقياس والتمثيل، فإذا عرفت قصص الأنبياء ومن اتبعهم ومن كذبهم وأن متبعيهم كان لهم النجاة والعاقبة والنصر والسعادة، ومن كذبهم كان شقيا، وهذه سنة الله وعادته، ولهذا يقول سبحانه وتعالى في تحقيق عادته وسنته وأنه لا ينقضها ولا يبدلها في سورة القمر ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر:43] فإذا لم يكونوا خيرا منهم فكيف ينجون من العذاب مع مماثلتهم لهم هذا بطريق الاعتبار والقياس ثم قال (أم لكم براءة في الزبر) أي معكم خبر من الله بأنه لا يعذبكم فنفي الدليلين العقلي والسمعي [1] .

ومآل السابقين وهلاكهم إثر تكذيبهم لا يسع ذو عقل إنكاره إذ إنه من أظهر الأمور المتواترة التي يتناولها الناس على مر الأزمنة والعصور، ولذا فيه من دلائل صدق النبوة وإثبات الرسالة، يقول الإمام الطحاوي: العلم بأنه كان في الأرض من يقول: إنه رسول وإن أقواما اتبعوه وإن أقواما خالفوه وإن الله نصر الرسل والمؤمنين وجعل العاقبة لهم وعاقب أعدائهم هو من أظهر العلوم المتواترة وأجلاها، ونقل أخبار هذه الأمور أظهر وأوضح من نقل أخبار من مضى من الأمم من ملوك الفرس وعلماء الطب كبقراط وجالينوس وبطليموس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وأتباعه ونحن اليوم إذ علمنا بالتواتر من أحوال

1 - النبوات ص 379، ويراجع شخصية السلم ص 91 .

الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم علمنا يقينا أنهم كانوا صادقين على الحق حيث نصرهم الله وأهلك عدوهم، فكان غرق فرعون وغرق قوم نوح وبقية أحوالهم التي يعرف منها صدق الرسل[1] .

وإذا أتينا إلي هذا الدليل لنتعرف عليه من خلال الآيات القرآنية فإننا نجده متناثرا في كثير منها فنجد هودا عليه السلام في دعوته لقومه قد ذكرهم بأنها مستخلفين في الأرض إثر إهلاك قوم نوح عليه السلام، ومعنى هذا أن خبر قوم نوح معلوم لديهم وإلا فكيف يحتج عليهم بما يجهلون وأن ما يدعوهم إليه هو عين مادعي إليه نوح قومه، بيد أنهم أعرضوا فحاق بهم العذاب ونجي المؤمنون، فإن صاحب العقل كان من الواجب عليه أن يعتبر بكل هذا آخذا منه الدليل على صدق المرسل وإثبات الرسالة، يقول تعالى في سورة الأعراف ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف:69] بيد أنهم أعرضوا مستحبين العمى على الهدى فلم يعتبروا بالسابقين وأحوالهم فحاق بهم مثل ما حاق بغيرهم من العذاب يقول تعالى في سورة الأعراف ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف:71].

وإذا كان هذا هو حال هود مع قومه فإن صالحا عليه السلام لم يكن حاله ليختلف كثيرا مع من أرسل إليهم إذ إنه عندما صدع فيهم بالدعوة كذبوه وأعرضوا عنه مع أنه ذكرهم واستدل عليهم بما يعلمون من مجيئهم إثر إهلاك قوم هود الذين أهلكوا لإعراضهم

---

1 - شرح العقيدة الطحاوية ص 156 .

وتكذيبهم فكان قومه خلفاء لهم ورثوا الأرض من بعدهم وبذلك احتج عليهم مخاطبا عقولهم بما يعلمون يقول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف:74] ولكنه بدلا من أن يعتبروا فيصدقوا ويؤمنوا ويستدلوا من خلال ما آل إليه م ورثوا الأرض من قبلهم على صدق نبيهم كذبوا فأخذهم العذاب المذكور فيقول الحق سبحانه في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف:78]

أيضا نجد شعيبا عليه السلام وقد استخدم هذا الدليل العقلي في دعوته لقومه إذ دعاهم إلي الإيمان بالله تعالى ونبه عقولهم في نهاية أمره بما يعرفون من أنباء السابقين وكيف كانت عاقبتهم عندما أعرضوا وعاثوا في الأرض فسادا وكأنه يقول لهم خذوا من أحوال السابقين وما ينزل بهم عندما كذبوا برهانا على صدقي في رسالتي واحذروا أن تخالفون فينزل بكم ما ينزل بهم يقول تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف:86]

6 – تصديق الرسالة لما في الكتب السابقة قبل تحريفها :

إن من الدلائل العقلية التي تثبت بها النبوة والرسالة أيضا تصديقها لكتب الرسل السابقين شريطة عدم تحريفها، وهذا الوجه من الدلائل العقلية القرآنية يعرفه ويوقن به كل منصف من القائمين على أمر هذه الكتب والدارسين لها، إذ إن دين الله سبحانه وتعالى واحد مهما تعددت الرسالات، فأصول العقائد واحد، وأصول الشرائع أيضا كذلك واحد، وإن

حدث اختلاف بين نبي ونبي، فإنه يكون في فرع من فروع الشريعة، ويكون منشأ هذا الاختلاف المصلحة التي تتلاءم مع عصر كل نبي ورسول، فلو لم تكن الرسالة مصدقة لصحيح الكتب السابقة التي أنزلت على رسول الله بأن كان ثمة اختلاف في أصول العقيدة مثلا، لكان هذا مدخلا خطرا للطعن في الرسالة، فمن الممكن أن يقال للنبي الذي خالف برسالته صحيح الكتب السابقة: لقد وقفنا على وحي الله الذي يُصدِّق ما سلف من الكتب في أحكامها فلماذا خرجت برسالتك عن هذه الكتب ونطاقها، وخالفت ما ورد فيها؟

وهنا يمكن أن يقال له: إن ما أتيت به ليس من الوحي الإلهي في شيء. ولكن لما كانت الرسالة سالمة من هذا المطعن فدلت بهذا على ثبوتها وثبوت نبوة من أتى بها، وتُحدثنا كتب التاريخ عن أناس أدركوا نبوة النبي صلي الله عليه وسلم من خلال هذا الطريق، فها هو أمية بن أبي الصلت وقد التقى بكثير من علماء النصارى في أسفاره، وسمع منهم كلاما عن نبي آخر الزمان ودرس كتبهم حتى وقف على كثير مما ورد فيها، وحدث ذات مرة أن أخبر أبا سفيان بن حرب في أحد أسفاره عن البعث والمعاد الذي اطلع عليه من خلال صحيح هذه الكتب حتى أقسم له قائلًا: والله يا أبا سفيان لتبعثن ثم لتحاسبن وليدخلن فريق في الجنة وفريق في النار.

قال أمية هذا الكلام من خلال ما اطلع عليه من حديث علماء النصارى وكتبهم أملًا أن يكون هو ذلك النبي المرتجى، فلما بعث الله سبحانه وتعالى سيدنا محمدًا صلي الله عليه وسلم نبيًا ورسولًا وسمع أمية جانبًا من كلام الله الذي أنزله على نبيه والتقى به أبا سفيان، وقال له: لقد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعت، فقال: قد كان لعمري. قلت: فأين أنت منه يا أبا عثمان، فقال: أما وإنَّ ما جاء به حق فاتبعه. قلت: وما يمنعك من اتباعه. قال: ما

يمنعني إلا الاستحياء من نساء ثقيف إني كنت أحدثهن أني هو ثم يرونني تابعًا لغلام من بني عبد مناف [1] .

إذن فمن خلال ما تقدم يمكن القول أن أمية بن أبي الصلت مع عدم إيمانه إلا أنه أقر بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم استنادًا على أن ما نزل عليه من قرآن لا يخالف في أحكامه ما عرفه من صحيح الكتب السابقة .

وقد أخرج ابن أبي حاتم والنسائي والطبراني عن سعيد بن المسيب وأبي بكر بن عبد الرحمن وعروة بن الزبير قالوا: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري وكتب معه كتابا إلي النجاشي فقدم على النجاشي، فقرأ كتاب رسول الله صلي الله عليه وسلم، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه، وأرسل إلي الرهبان والقسيسين ثم أمر جعفر بن أبي طالب فقرأ عليهم من سورة مريم [2] فآمنوا بالقرآن وفاضت أعينهم من الدمع فأنزل الله تعالى فيهم قوله من سورة المائدة ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [المائدة:83] [3] إذًا فما فعله هؤلاء القوم من الإيمان والإقرار بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم مرده إلي ذلك الحق الذي عرفوه عندما تليت عليهم آيات الله، والتي لأجلها فاضت أعينهم من الدمع إجلالا وخشية للحق الذي لمسوه بأيديهم حيث أدركوا أن ما تلي عليهم مصدق لصحيح كتبهم إذ إنهما يخرجان من مشكاة واحدة .

1 – يراجع تفصيل هذه القضية في البداية والنهاية ج 1 ص 614 .

2 –وفي رواية أخرى لابن أبي حاتم عن سيعد بن جبير أنه قرأ عليهم سورة يس .

3 – أسباب النزول ج 1 ص 129 .

إذا فتصديق الرسالة لصحيح الكتب الإلهية السابقة كان له مدخل في إيمان هؤلاء القوم ومن ثم ورد في بعض الروايات أن النجاشي عندما سمع كلام الله يتلي عليه " أخذ تبنه من الأرض وقال والله ما زاد على ما قال الله في الإنجيل مثل هذا [1] .

وقد كان لهذا القول الذي سمعوه وعرفوه مصدقا لما معهم كبير الأثر في إقرارهم بنبوة النبي صلي الله عليه وسلم والإيمان بما جاء به حيث قالوا كما حكت سورة المائدة ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [المائدة:84]

يقول الشوكاني :اعلم أن الأنبياء عليهم السلام على كثرة عددهم واختلاف إعصارهم، وتباين أنسابهم وتباعد مساكنهم قد اتفقوا جميعا على الدعاء إلي الله عز وجل، وصار الآخر منهم يقر بنوة من تقدمه وبصحة ما جاء به... وبالجملة فلا شك ولا ريب أن الأنبياء متفقون على تصديق بعضهم بعضًا، وأن ما جاء به كل واحد منهم هو من عند الله عز وجل وقد بلغ عدد الأنبياء إلى مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا، ولا خلاف بين أهل النظر أن اتفاق مثل هذا العدد يفيد العلم الضروري بصدق ما اتفقوا عليه، بل اتفاق عشر هذا العدد بل اتفاق عشر عشره يفيد ذلك، ومن أنكر هذا الاتفاق فعليه بمطالعة التوراة فإنها قد اشتملت على حكاية حال الأنبياء من لدن آدم إلي بعثة موسى، وفيها التصريح بتصديق بعضهم بعضا، ولم يقع من أحد منهم الإنكار لنبوة أحد ممن تقدمه ثم جاء من بعد موسى وهارون أنبياء بني إسرائيل وكل واحد منهم يقر بمن تقدمه، وما جاء به وكذا أيضًا الإنجيل، فإن المسيح عليه السلام كان يحتج على المخالفين له من اليهود بنص التوراة في غالب فصوله المشتملة على حكاية المسائل التي أنكرها عليه اليهود، ومع هذا فلم يقع اختلاف بينهم قط في الدعاء إلي توحيد

---

1 - مفاتيح الغيب جـ 6 ص 114 .

الله وإثبات المعاد وصحة نبوة كل واحد منهم وصدقه فيما جاء به من الشرع وفيما حكاه عن الله سبحانه [1].

إذا فتصديق كل نبي لما أتى به الأنبياء السابقون إنما هو إشعار بوحدة الدين الذي يتفق في أصول عقائده وأصول شرائعه وإن اختلف في بعض فروع الشريعة بما يلاءم مصلحة كل عصر ومن ثم كان التنبيه على هذا بقول الله تعالى في سورة البقرة ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة:136] ويقول سبحانه وتعالى أيضا في سورة الشورى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورى:13]

يقول الإمام الرازي :شرع لكم من الدين دينا تطابقت الأنبياء على صحته بتصديق بعضهم بعضا [2] .

بل لسنا مبالغين إن قلنا إن تصديق الرسول من خلال ما نزل عليه لما حوته الكتب السماوية الأخرى هو المدخل لإثبات صحيحها وإثبات نبوة من ورد من الأنبياء فيها؛ لأنها بحالها الموجود الآن لا تعين على ذلك، وكما يقول الإمام ابن كثير : فالقرآن الكريم يعتبر كتاب النبوات القديمة كلها وفي صحائفه المصونة كل ما تنزل به الوحي لهداية البشر وإقامة مصالحهم في المعاش والمعاد وهو الوثيقة العلمية الباقية لإثبات نبوة موسى وعيسى وغيرهما، فإن الأسانيد الأخرى لا يعول عليها في وجود أولئك الأنبياء، ولذلك أنكر نفر من مفكري الغرب نبوتهما، وقال بعضهم إن عيسى رمز وضعته الأفلاطونية الحديثة لترويج

---

1 - إرشاد الثقات ص 25، 26، ويراجع دلائل التوحيد ص 165، 166 .

2 - مفاتيح الغيب جـ 14 ص 18 .

مبادئها بيد أن القرآن الكريم أعلن في وضوح تصديقه لنبوة عيسى وقص خبر حياته دون غلط أو غلو وذكر كذلك أسماء عدد كبير من الأنبياء الذين نزل عليهم الوحي وكلفهم الله بالبيان عنه [1] .

ومن ثم قال الله تعالى لخاتم أنبيائه وصفوه رسله في سورة النساء: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء:163]

يقول الإمام الرازي : اعلم أن هذه الآية تدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من حيث إنه صلي الله عليه وسلم أخبر عن كتبهم ولم يكن له معرفة بذلك إلا من قبل الوحى.

ويقول الإمام الماتريدي أيضا : وآمنوا بما أنزلت على نبي محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن حيث إنه موافق لما معكم من الكتب من التوراة والإنجيل وحيث عرفتم موافقته لكتبكم إذ لم تتكلفوا جمع هذا إلي كتبهم ومقابلة بعضه ببعض ؛ لأنها إنما نزلت من واحد لا شريك له.

يقول صاحب إرشاد العقل السليم في تقديره لهذا الوجه العقلي من الاستدلال على إثبات الرسالة من خلال الآية الكريمة: (آمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم). حيث إنه نازل وموافق لها في القصص والمواعيد والدعوة إلي التوحيد والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش، وأما ما يتراءى من مخالفته لها في بعض جزئيات الأحكام المتفاوتة بسبب تفاوت الأعصار فليست بمخالفته في الحقيقة بل هي موافقة لها من حيث إنَّ كلا منها حق بالإضافة إلي عصره وزمانه متضمن للحكم التي عليها يدور فلك التشريع، فإذًا مناط المخالفة في

1 – البداية والنهاية جـ 3 ص 545، ويراجع نظرات في القرآن ص 80 .

الأحكام المنسوخة إنما هو اختلاف العصر حتى لو تأخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتأخر ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم قطعا ولذلك قال عليه السلام " لو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعي[1] وتقييد المنزل بكونه مصدقا لما معهم؛ لتأكيد وجوب الامتثال بالأمر بأن إيمانهم لما معهم مما يقتضي الإيمان بما يصدقه قطعا [2]

وعلى هذا فتصديق النبي محمد صلي الله عليه وسلم لما نزل على الرسل السابقين يكون كما قال الإمام الرازي : بالموافقة في التوحيد والنبوات وأصول الشرائع، فإذا جاء الرسول بعد ذلك وأخبر أن الله أمر الخلق بالإيمان به عرفوا عند ذلك وجوب نبوته [3] .

وبالتأمل فيما تقدم من آيات وغيرها كثير يمكن أن نقرر أن تصديق الرسالة لما ورد في الكتب الإلهية السابقة من عقائد وتشريعات مسلك عقلي عول عليه القرآن الكريم كأحد الدلائل العقلية التي تُعين على إثبات النبوة والرسالة .

7- عصمة النبي من البشر :

إن من الدلائل العقلية التي تثبت النبوة للنبي صلي الله عليه وسلم والتي تناولها القرآن الكريم في حديثه العقلي عصمته صلي الله عليه وسلم من البشر إن أرادوه بقتل أو غير ذلك، فقد أتى النبي صلى الله عليه وسلم من قبل ربه بدين لم يألفه أو يعهده أهل المجتمع الجاهلي القبلي، سفه فيه أحلامهم وعاب فيه آلهتهم حتى أوغر الصدور عليه، فنسجت من حوله خيوط المنايا تهتف بحتفه، ولكنهم شاءوا وشاءت الأقدار يريدون الموت والله يريد الحياة

---

1 أخرجه أحمد ج3ص 338.

2 إرشاد العقل السليم ج1 ص95.

3 مفاتيح الغيب ج 4 ص 309.

يطلبون النهاية وتهتف الأقدار بالبداية إذعانا بقضاء الله الذي سطر فيه قوله تعالى من سورة المائدة ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ **[المائدة:67]**

فكانت عصمته صلي الله عليه وسلم من البشر برهانا على صدق نبوته ودليلًا على إثبات ورسالته، فلم ينله أحد بسوء مع كثرة الأعداءوالمتربصين حتى أتاه اليقين على فراشه تنفيذًا لأمر الله تعالى وقدره، وكأن الحق سبحانه وتعالى يتحدى الكفار والمشركين بهذا فيقول لهم: هذا نبي ورسولي أمامكم فمن أراد له قتلا فليفعل، لكن الأيدي قد غُلت والمرادات قد قصرت حتى ماتوا بغيظهم خاضعين لهذا التحدي مذعنين بالعجز أمامه.

يقول الإمام ابن حزم :إن من البراهين الضرورية لنبوته صلي الله عليه وسلم أن عصمه الله من كل من أراده بلا حرس ولا حاجب ولا بواب ولا قصر يمتنع فيه على كثرة من أراد قتله من شجعان العرب وفتاكهم كعامر بن الطُّفَيْل وأربد بن جزءٍ وغورث بن الْحَارِث وَغَيرهم مَعَ إِقْرَار أعدائه بنبوته كمسيلمة وسجاح وطليحة وَالْأسود وَهُوَ مكذب لَهُم فَهَل بعد هَذَا برهَان أَو بعد هَذِه الْكِفَايَة من الله تَعَالَى كِفَايَة، فبقي عليه الصلاة و السلام بين أظهرهم بلا حارس ولا ديوان جند محروسًا معصومًا[1] .

فلو لم يكن النبي محمد صلي الله عليه وسلم مرسلا من قبل ربه لأقدر غيره عليه لاسيما إذا أحاطت به مثل تلك الخطوب والمهالك بيد أنه سبحانه عصمه من البشر، فلم يصل إليه أحد بأذى أو يناله منه سوء فدل ذلك عقلا على إثبات نبوته وصدق رسالته، ولقد نبه الحق سبحانه وتعالى على عصمة نبيه صلي الله عليه وسلم من أعدائه بأنهم وإن أرادوه بسوء فإن ربه حافظه ومنجيه ويرد سهامهم إلي نحورهم فينقلبوا خاسرين، ولقد وضح ذلك في غير آية

1 - الفصل ج1 ص 78.

فيقول سبحانه وتعالى في سورة البقرة :﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ **[البقرة:137]**.

والمتأمل بعقله في هذه الآية الكريمة يجد الحق سبحانه وتعالى وقد بين لنبيه أن لا يعبأ بكفر الكافرين ولا يخشى شيئا من كيدهم ومكرهم إذ إنه تعالى كافيه شرهم ومظهره عليه، وما ذلك إلا لأنه تعالى سميع أحاط بكل شيء علما فهو النصير فوق كل نصير والظهير فوق كل ظهير، وإحاطته سبحانه وتعالى علمًا بجميع الأشياء علة في كفايته لنبيه مما يدبر له إذ هو محيط وعالم به، ولذا فهو القادر على إحباطه وإبطاله يقول الإمام القرطبي: سيكفي الله رسوله عدوه فكان هذا وعدا من الله تعالى لنبيه عليه السلام أنه سيكفيه من عانده وأنجز له الوعد (1) .

ويقول الإمام الرازي في تعليقه على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ **[البقرة:137]**: هذا وعيد للمعاندين؛ لأنه تعالى يدرك ما يضمرون وما يقولون، وهو عليم بكل شيء، فلا يجوز لهم أن يقع منهم أمر إلا وهو قادر على كفايته إياهم فيه وهذا أمر معجز؛ لأنه تعالى كفاه شر الكافرين والمتخرصين لا يصيب في مثل هذا على التفضيل (2)

ولقد حاول اليهود قتل رسول الله صلي الله عليه وسلم أكثر من مرة وحاولوا إيذاءه بالسحر، فأبطل الله كيدهم وأظهر ما خفي منه، وأطلع رسوله عليه فمهما استخدموا من وسائل ظاهرة أو خفية فسيكفيك الله شرها (3) .

---

1 - تفسير القرطبي ج1 ص634.

2 - مفاتيح الغيب ج2 ص 454.

3 - تفسير الشعراوي ج1 ص 629.

وكانت هذه العناية والعصمة علة في الصبر على تبليغ الرسالة وعدم المبالاة بالشدائد والمكائد، ومن ثم كان قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الطور ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ **[الطور:48]**

والمعنى كما يقول الإمام الطبري: امض يا محمد لأمر الله ونهيه وبلغ رسالته فإنك بمرأًى منا نراك ونرى عملك ونحن نحوطك ونحفظك، فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين والله يعصمك من الناس .

وإلي هذا المعنى كانت الإشارة أيضًا بقول الحق سبحانه وتعالى من سورة المائدة ﴿ ﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ **[المائدة:67]**

والمتأمل بعقله في هذه الآية الكريمة يجدها تثبت العصمة للنبي صلى الله عليه وسلم من البشر ومن ثم فإن هذا الإثبات يحمل في طيه إثبات آخر وهو ثبوت النبوة والرسالة له صلى الله عليه وسلم كما سبق وأسلفنا ولعل مما يعين على بيان هذه العصمة من القتل ومن أذى الخلق الوقوف على سبب نزول الآية، فقد أخرج الحاكم والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: " كان النبي صلي الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ **[المائدة:67]**

فأخرج رأسه من القبة فقال: "يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله " [1] .

وأخرج الطبراني عن أبى سعيد الخدري قال: كان العباس عم رسول الله صلي الله عليه وسلم فيمن يحرسه فلما نزلت ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ **[المائدة:67]** ترك الحرس [1] .

---

1 - أسباب النزول ج 1 ص 127.

وأخرج ابن حبان عن أبى هريرة قال: كنا إذا أصبحنا ورسول الله صلي الله عليه وسلم في سفر تركنا له أعظم شجرة وأظلها، فينزل تحتها فنزل ذات يوم تحت الشجرة وعلق سيفه فيها، فجاء رجل فأخذه وقال يا محمد من يمنعك مني فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم الله يمنعني منك ضع السيف فوضعه. [2] فنزلت الآية الكريمة .

وهذه العصمة من قبل الله لنبيه والتي أخبر القرآن الكريم عنها رأينا التطبيق العلمي لها في غير موضع فكانت الهجرة النبوية درسًا عمليًا للمعية الإلهية التي حفته فيها صلي الله عليه وسلم في مختلف مراحلها ففي أول مرحلة اجتمع المشركون في دار ندوتهم لما علموا عزم النبي صلي الله عليه وسلم على الخروج من مكة إلي المدينة فتشاوروا في أمره فقال أحدهم نثبته في داره فلا يبرحها ومن قائل نخرجه من بين أظهرنا ومن قائل نقتله بيد أن الله سبحانه وتعالى عالم بمكرهم فكاد لهم وأبطل عملهم فباءوا بالخزي المبين وعصم الله نبيه من شرهم يقول تعالى في سورة الأنفال ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ **[الأنفال:30]**

فأخبر الله تعالى نبيه بما يبيتون ويضمرون ومن ثم كانت الهجرة.

يقول فضيلة الشيخ الشعراوي: إن الله يقول لنبيه أنهم يكيدون ويبيتون لك بالمكر ولكنهم لا يعلمون أن من أرسلك لا تخفى عليه خافية، فقد يقدرون على المكر لمن هو في مثلهم من القدرة لكنك يا رسول الله محاط بعناية الله تعالى وقدرته وحامل لرسالته فأنت في حفظه ورعايته [3] .

---

1 - المرجع السابق.

2 - أسباب النزول ج 1 ص 128.

3 - تفسير الشعراوي ج8 ص 4680

وكان النبي صلي الله عليه وسلم وهو في موقفه العصيب في غزوة حنين يقف واثقا من عصمة ربه له بين قوم مدججين بالسلاح ناقمين عليه قارعا آذانهم بقوله " أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب " وكأنه يريد أن يقول لهم والواقع يصدق على قوله أنا نبي ورسول وبرهاني نبوتي ورسالتي أني أقف بينكم وأنتم تريدون قتلي والقضاء علي ولكن لا سبيل لكم إلي ذلك لأنني معصوم منكم من قبل من أرسلني واصطفاني.

إذا فمن خلا ما تقدم وغيره يمكن أن نقرر أن من المسالك العقلية التي بها تثبت النبوة والرسالة العصمة للنبي من أن يناله أحد بأذى مما أخبر الله عنهم بذلك، وبناء على ما تقدم يمكن أن نقرر هذا المسلك في شخص النبي محمد صلى الله عليه وسلم في هيئة قياس نقول فيه:

محمد صلي الله عليه وسلم ثبتت عصمته من القتل، وكل من ثبت عصمته من القتل فهو نبي إذن فمحمد صلي الله عليه وسلم نبي .

8 – تسجيل العتاب في القرآن الكريم دليل على صدق نبوته صلي الله عليه وسلم :

إن من الدلائل العقلية التي تثبت بها النبوة والرسالة اشتمال الآيات القرآنية الكريمة على العتاب للنبي صلي الله عليه وسلم إذ إنه يقف شاهد صدق على نبوة من نزلت عليه الرسالة على مر السنين والأعوام فلو كان النبي صلي الله عليه وسلم دَعِيًّا في موكب الرسالات فهل من المستساغ عقلا أن يسجل على نفسه أمرا عوتب فيه، ولكن لما كان الأمر على خلاف ذلك ووجد العتاب في القرآن الكريم فقد دل هذا عقلًا على أن القرآن كلام الله، وأن النبي محمد صلي الله عليه وسلم رسول من قبل الله ليس له من أمر الرسالة شيء سوى البلاغ لما أمر به " فإن الآيات التي تحمل العتاب الإلهي لهي دلالة ناطقة بصدق محمد صلي الله عليه وسلم وشاهدة على نبوته، فلو كان القرآن من عند غير الله أو من عند محمد لما ارتضى محمد صلى

الله عليه وسلم أن يثبت العتاب على نفسه أو من يوجه إليه؛ إذ العتاب شديد الوطأة على النفس ذات الحساسية والشعور المرهف فآيات العتاب دالة على صدق القرآن وصدق من نزل عليه القرآن [1] .

وعلى هذا نقول إن وجود آيات العتاب في القرآن الكريم لحجة عقلية واضحة على نبوة النبي صلي الله عليه وسلم، ولذا يمكن القول أن اشتمال آيات القرآن الكريم عليها يشير إلي عدة أشياء منها :

1. أن القرآن الكريم كتاب منزل من عند الله سبحانه وتعالى.
2. أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما قام بإبلاغ هذه الآيات إلي البشرية جمعاء برهن بهذا على أمانته في إبلاغ وحي الله.
3. أن القرآن الكريم باشتماله على هذه الآيات رغم مرور مئات السنين على نزولها يدل دلالة قاطعة على أن وحي الله قد وصل إلينا كما نزل على النبي صلي الله عليه وسلم دون تحريف أو تبديل.

يقول صاحب كتاب معجزة القرآن :إن وجود آيات العتاب في القرآن الكريم يثبت بما لا يدع مجالا للشك أن القرآن الكريم منزل من عند الله سبحانه وتعالى وأنه لم يحدث فيه تبديل ولا تغيير حتى وصل إلينا، فلو حدث فيه تبديل أو تغيير لحذفت منه الآيات التي تتضمن عتابا من الله لرسوله أو على الأقل حرفت ولكن كون القرآن قد جاءنا وفيه هذه الآيات مع ما يمكن استغلاله فيها وكونها لم تتغير ولم تتبدل فيه دليل على أن القرآن قد وصلنا كما أنزله الله، وكون هذه الآيات نزلت في القرآن الكريم في زمن رسول الله صلي الله عليه وسلم

1 – الأديان في القرآن ص 277، الإسلام عقيدة وشريعة ص 39.

وكان رسول الله يتلقى المُوحَى من الوحي ويبلغه للمؤمنين، ومن هنا فإنه صلي الله عليه وسلم لو لم يكن أمينا في إبلاغ الرسالة لأخفى هذه الآيات، وما كان أحد من البشر يستطيع أن يعرف إذا كانت قد أنزلت أم لا ولو أن هذا القرآن كلام البشر ما كان يحتوي عتابا لرسول الله، فالبشر من عادتهم لا يقبلون النقد ويدَّعون الكمال، وما من منهج بشري يلوم فيه صاحبه نفسه أو يعاتبها، بل كل منهج وضعه بشر يحاول أن يوهم الناس بأنه هذا هو الكمال المطلق، ومن هنا فكون هذه الآيات قد نزلت دليل على أن القرآن الكريم من عند الله سبحانه وتعالى وليس كلام بشر وكون أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قد قام بإبلاغ هذه الآيات دليل على أنه أمين في إبلاغ الرسالة التي كلفه الله سبحانه وتعالى بها لم يخف منها حرفا واحدا وكونها موجودة في القرآن حتى الآن رغم مرور ألف وأربعمائة سنة على نزوله دليل على أن كلام الله قد وصلنا كنا أنزل بلا تحريف ولا تبديل [1] .

وإذا كان وجود العتاب في القرآن الكريم من دلائل النبوة فإننا نورد بعضا من هذه الآيات والتي منها قول الحق سبحانه وتعالى في سورة التوبة ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٤٣﴾ **[التوبة:43]**

وقد نزلت هذه الآية في قوم تخلفوا عن الغزو مع الرسول صلي الله عليه وسلم بإذنه فقد أخرج ابن جرير عن عمرو بن ميمون الأزدي قال " اثنتان فعلهما رسول الله صلي الله عليه لم يؤمر فيهما بشيء إذنه للمنافقين وأخذه الفداء من الأسرى " [2] فنزلت هذه الآية .

---

1 - معجزة القرآن ج2 ص 242.

2 - أسباب النزول ج1 ص 164.

وأما الآية التي عوتب فيها بأخذه صلى الله عليه وسلم الفداء من الأسرى قوله سبحانه وتعالى في سورة الأنفال ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ **[الأنفال:67]**

فقد نزلت في قبول النبي صلي الله عليه وسلم الفداء من أسرى بدر فقد روى الإمام أحمد والترمذي والحاكم عن ابن مسعود قال " لما كان يوم بدر وجيء بالأسارى قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : ما تقولون في هؤلاء الأسارى فقام عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله: اضرب أعناقهم فأعرض عنه، فقام أبو بكر فقال : أرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء فعفا عنهم وقبل منهم الفداء، فنزلت الآية [1] .

أيضًا من الآيات التي نزلت تعاتب النبي صلي الله عليه وسلم قوله سبحانه وتعالى في سورة (عبس) : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾. فهذه الآيات الكريمات نزلت عندما عبس الرسول صلى الله عليه وسلم من سؤال عبد الله بن أم كلثوم وانشغاله عنه بدعوة أحد مشركي مكة، فقد أخرج الترمذي والحاكم عن عائشة قالت " أُنز ل " عبس وتولى " في ابن أم مكتوم الأعمى أتى رسول الله صلي الله عليه وسلم، فجعل يقول يا رسول الله أرشدني وعند رسول الله صلي الله عليه وسلم رجل لمن عظماء المشركين، فجعل رسول الله صلي الله عليه وسلم يعرض عنه ويقبل على الآخر يقول له أترى بما أقول بأسا فيقول لا فنزلت ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ ﴾ [2] .

---

1 - أسباب النزول ج1 ص 158.

2 - أسباب النزول ج2 ص 366.

وإذا كانت آيات العتاب تبرهن عقلًا على إثبات النبوة والرسالة فإننا نقول إن هذه الآيات ليست مما يؤخذ على سلوك النبي صلي الله عليه وسلم في شيء، وإن كان هذا ليس مجال بيان تفصيل الكلام وتجلية المغزى من هذه الآيات وغيرها لكننا نشير في عجالة سريعة وخطوط عريضة إلي ما ينبغي أن تستحضره في العقول عند تناول هذه الآيات منها :

1- إن المتأمل في هذه الآيات بعقله يجدها تنبئ عن ود وحب كبيرين من الله لنبيه، ولله المثل الأعلى نرى الإنسان لا يعاتب إلا من يحب وعلى قدر الود والحب يكون العتاب الذي يشعر المعاتب بمدى الحرص عليه .

2 – إن العتاب إنما كان في أشياء لم يرد نصٌ بالحكم فيها ولذا فالرأي عند تناولها متروك للاجتهاد .

3 – إن الرسول صلي الله عليه وسلم باجتهاده في هذه الحوادث التي عوتب فيها مأجور في كل أحواله، فإن أصاب فله أجران وإن تكن الأخرى فله أجر واحد .

4 – إن حكم النبي صلي الله عليه وسلم في الحوادث التي عوتب فيها إنما هو نزوع إلي خلاف الأولى والنزوع إلي خلاف الأولى لا يعد مطعنا في سلوك النبي صلي الله عليه وسلم أو حكمه .

5 – إن المتأمل في آيات العتاب يجدها تحمل في طيها معاني عظيمة وشمائل للنبي صلى الله عليه وسلم، فمثلا المنافقون الذين أذن لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالتخلف عن الغزو معه كان في إذنه صلى الله عليه وسلم فائدة إذ لو خرجوا معه لثبطوا همم المسلمين ولأوقدوا بينهم نار الفتنة في حين أن الموقف العصيب الذي كان فيه المسلمون لم يكن ليحتمل مثل هذا، وصدق الله القائل في سورة التوبة ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ **[التوبة:47]**

وإن كان في خروجهم بيان لنواياهم ومعرفة الصادق من الكاذب.

وحينما عوتب في أمر عبد الله ابن أم مكتوم رضي الله عنه لم يكن صلى الله عليه وسلم منشغلًا عنه بأمر من أمور الدنيا، وإنما كان يقوم بأعباء الدعوة والرسالة حيث كان حريصا على هداية نفر من قريش ليجنبهم سوء العاقبة التي أمن منها عبد الله بن أم مكتوم بإيمانه وإسلامه ومن ثم نقول إن هذه الحوادث التي عوتب فيها النبي صلى الله عليه وسلم لا يمكن بحال أن تكون مأخذا يمكن امتطاؤه للطعن في سلوكه صلى الله عليه وسلم.

ومن خلال ما تقدم ندرك أن اشتمال آيات القرآن الكريم على آيات العتاب بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم لمن البراهين الواضحة والحجج العقلية الظاهرة على إثبات النبوة والرسالة

9- تصديق الله لنبيه وإظهاره لأمره من دلائل النبوة العقلية :

" إن من دلائل نبوة سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم تصديق الله تعالى له؛ لأنه لو كان كاذبا لكان في هذا طعن في الرب تبارك وتعالى ونسبته له إلي الظلم والسفه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، بل جحد للرب بالكلية وإنكاره، وبيان ذلك أنه إذا كان محمد عندهم ليس بنبي صادق بل ملك ظالم فقد تهيأ له أن يفتري على الله ويتقول عليه ويستمر حتى يحلل ويحرم ويفرض الفرائض ويشرع الشرائع وينسخ الملل ويضرب الرقاب ويقتل أتباع الرسل وهم أهل الحق ويسبي نسائهم ويغنم أموالهم وزراريهم وديارهم ويتم له ذلك حتى يفتح الأرض وينسب ذلك كله إلى أمر الله ومحبته له والرب تعالى يشاهده وهو يفعل هذا بأهل الحق وهو مستمر بالافتراء عليه ثلاثا وعشرين سنة وهو مع ذلك كله يؤيده وينصره ويعلي أمره ويمكن له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر، وأبلغ من ذلك أنه يجيب دعواته ويهلك أعداءه ويرفع له ذكره هذا، وهو عندهم في غاية الكذب والافتراء والظلم، فإنه لا أظلم ممن كذب

على الله وأبطل شرائع أنبيائه وبدّلها وقتل أولياءه واستمرت نصرته عليهم دائما، والله تعالى يقره على ذلك ولا يأخذ منه باليمين ولا يقطع منه الوتين، فيلزمهم أن يقولوا لا صانع للعالم ولا مدبر، ولو كان له مدبر قدير حكيم لأخذ على يديه ولقابله أعظم مقابلة وجعله مكانا للصالحين إذ لا يليق بالملوك غير ذلك، فكيف بملك الملوك وأحكم الحاكمين، ولا ريب أن الله تعالى قد رفع له ذكره وأظهر دعوته والشهادة له بالنبوة على رؤوس الأشهاد في سائر البلاد فدل بهذا على صدق نبوته ونحن لا ننكر أن كثيرًا من الكذابين قام في الوجود وظهرت له شوكة، ولكن لم يتم أمره ولم تطل مدته، بل سلط الله عليه ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ **[الطور]** رسله وأتباعه وقطعوا دابره واستأصلوه. هذه سنة الله التي قد خلت من قبل حتى إن الكفار يعلمون ذلك قال تعالى في سورة الطور أفلا نراه يخبر أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن تقر من تقول عليه بعض الأقاويل لابد أن تجعله عبرة لعباده كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه يقول تعالى في سورة الشورى ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ **[الشورى:24]**

فكان جواب الشرط ثم أتبع بخبر جازم غير معلق أنه يمح الباطل ويحق الحق ويقول تعالى في سورة الأنعام ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ **[الأنعام:91]**

فأخبر سبحانه وتعالى أن من نفى عنه الإرسال لم يقدره حق قدره [1].

---

1 – شرح العقيدة الطحاوية ص 158.

ولقد صدق الواقع كل هذا فأخمد الله تعالى بقدرته ذكر من ادعى النبوة كذبا وافتراء عليه وجعل مصيرهم البوار والهلاك كما حدث مع مسيلمة الكذاب وصاحبته سجاح وكان هذا أيضا مصير الأفاقين من متنبئ البهائيين الذين هلكوا بأبشع الأمراض وأشنع الميتات، ورأينا بأعيننا المصير المظلم الذي آل إليه كل من ادعى النبوة كذبا وافتراء في هذا العصر ومن على شاكلتهم من المجرمين.

وإذا أتينا إلي جانب من الآيات القرآنية التي تناولت هذا المسلك العقلي بالحديث فإننا سنجد ثمة آية من كتاب الله تبين لنا أن الرسول صلي الله عليه وسلم في دعوته يستند إلي أن الله تعالى شاهد ومطلع على قوله وفعله وسائر أمره مما يعطي الإحساس بالثقة واليقين المصاحب لهذا البيان وأن الله مصدقه وناصر إياه.

يقول تعالى في سورة سبأ (﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ **[سبأ:47]** .

يقول الإمام الرازي:إن هذا تقرير وإثبات للرسالة لأنها لا تثبت إلا بالدعوى والبينة بأن يدعي شخص النبوة ويظهر الله له المعجزة فهي بينه شاهدة والتصديق بالفعل يقوم مقام التصديق بالقول في إفادة العلم بدليل أن من قال لقوم إني مرسل من هذا الملك إليكم وألزمكم فيقول قولي والملك حاضر ناظر ثم قال للملك أيها الملك إن كنت أنا رسولك فقل لهم إني رسولك، فإذا قال: إنه رسولي إليكم لا يبقى فيه شك، كذلك إذا قال يا أيها الملك إن كنت أنا رسولك إليهم فألبسني قباءك فلو ألبسه قباءه في عقب كلامه يجزم الناس بأنه رسوله كذلك حال الرسل يحصل الجزم بصدقهم من خلاله [1] .

1 - مفاتيح الغيب ج13 ص 16.

إذا فتصديق الله لرسوله ولعامة رسله وإظهاره لأمرهم بشتى الطرق والوسائل مع دعوى الرسالة دليل على صدقهم، ومن ثم كان الاستناد إلي هذه الشهادة وهذا التصديق في قول الحق سبحانه وتعالى سورة الأنعام ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ **[الأنعام:19]** .

فكانت دعوى الرسول والإنذار بالآيات القرآنية مع شهادة الله على ذلك وكان تصديق الله لرسوله صلى الله عليه وسلم عندما استند إلى شهادته في إثبات رسالته كما قال تعالى في سورة النساء ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ **[النساء:166]** . وكأن الله يريد أن يقول لنبيه ومصطفاه إن الملائكة وإن كانت تشهد بنبوتك وصدقها لكن يكفيك شهادتي لأنك مرسل من قبلي ودليل شهادتي لدعوتك وصدقك مؤازرتي إياك في جميع أحوالك وإظهاري لأمرك، فلو كنت كاذبا متقولا لتركتك لنفسك وما أنعمت عليك بمؤازرتي، ومن ثم فالرسول صلى الله عليه وسلم قال أنا نبي واستند إلي شهادة ربه وتصديقه له وصدع بأمر الرسالة صراحة حتى قيل له يا محمد قل مبلغا عني كما حكت سورة الأعراف ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ **[الأعراف:158]**

ومن ثم كان التعبير في صدر الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿قُلْ﴾ **[الأعراف:158]**

ليدل بهذا على أن هذا القول كلام الله وشهادته لنبيه ولكن هل تعطى هذه الشهادة لكل أحد سواء بحق أم بباطل كلا، وإلا لكان في هذا تصديق للكاذب وتصديق الكاذب كذب

والكذب على الله محال ومن ثم كان الخزي والبوار عاقبة ومصيرا لكل من تقول على الله وادعى الرسالة زورا وبهتانا يقول تعالى في سورة الحاقة ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47)﴾

يقول الإمام الرازي في تعلقيه على هذه الآيات الكريمات: اعلم أن الله يريد أن يقول لنا أنه لو نسب إلينا قولا لم نقله لمنعناه عن ذلك إما بواسطة إقامة الحجة فمثلا نقيض له من يعارضه فيه وحينئذ يظهر للناس كذبه فيه، فيكون ذلك إبطالا لدعواه وهدما لكلامه وإما بأن نسلب عنه القدرة على التكلم بذلك القول وهذا هو الواجب في حكمة الله تعالى لئلا يشتبه الصادق بالكاذب.

ويقول العلامة رحمة الله الهندي: إنه عليه السلام ادعى بين قوم لا كتاب لهم ولا حكمة فيهم أني بعثت من عند الله بالكتاب المنير والحكمة الباهرة لأنوار العالم بالإيمان والعمل الصالح، وانتصب مع ضعفه وفقره وقله أعوانه وأنصاره مخالفًا لجميع أهل الأرض آحادهم وأوسطهم وسلاطينهم وجبابرتهم فضلل أرائهم وسفه أحلامه وأبطل مللهم وهدم دولهم وظهر دينه على الأديان في مدة قليلة شرقا وغربا وزاد على مر الإعصار والأزمان، فهل يكون ذلك إلا بعون إلهي وتأييد سماوي فلو لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم من الصادقين لأهلك الرب طريقه ورزله وأباد ذكره وأفناه، لكنه لم يفعل شيئا منها فكان محمد صلى الله عليه وسلم من الصادقين [1] .

1 - إظهار الحق ج2 ص 181.

10- تأليف الله بين قلوب المؤمنين من دلائل النبوة العقلية :

إن من الدلائل العقلية الظاهرة تأليف الله بين قلوب المؤمنين فقد بُعث النبي صلى الله عليه وسلم بين قوم تأخذهم العزة والأنفة لأتفه الأشياء ويتعصب بعضهم لبعض بسبب وغير سبب وينتصر بعضهم لبعض بحق وبباطل يأبون الخضوع لأحد والانقياد له وكانت العصبية الجاهلية متمكنة منهم حتى النخاع فيضرب بعضهم رقاب بعض لأدنى الأسباب وأوهاها حتى صور القرآن الكريم عصبيتهم هذه بقوله تعالى في سورة الفتح ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ **[الفتح:26]** .

فجاءهم النبي صلى الله عليه وسلم بدعوته فأذعنوا لها طوعا لا كرها مؤمنين اختيارًا لما تمليه عليهم من حدود بها تهذب طباعهم، ومن خلالها ينتقلون من الهمجية إلي رقي الإنسانية نافضين في الوقت ذاته عن أنفسهم غبار ما ألفوه من عصبيه حتى صارت صلة الدين بينهم أقوى من صلة النسب.

إنَّ هذا التحول العجيب في الطباع والسلوك لا يمكن إلا أن يكون مآله إلي من يحول بين المرء وقلبه سبحانه وتعالى، ولذا فعند التأمل العقلي في هذه الصورة نجد ذلك معجزة عقلية شهدت بصدق النبي صلى الله عليه وسلم.

يقول الإمام ابن حزم: إن من البراهين الضرورية لنبوته صلي الله عليه وسلم لمن تدبر برهان لا محيد عنه وهو أن النبي صلي الله عليه وسلم أتى إلى قوم لقاح [1] ولا يطيعون لأحد ولا ينقادون لرئيس.

1 – أي : لا يخضعون لأحد مهما كانت قوته.

نشأ على هذا آباءهم وأجدادهم وأسلافهم منذ ألوف من الأعوام، قد سرى الفخر والعزة والنخوة والكبر والظلم والأنفة في طباعهم، وهم أعداد عظيمة ملئوا جزيرة العرب.

طباعهم طباع السباع وهم ألوف الألوف قبائل وعشائر يتعصب بعضهم لبعض أبدا فدعاهم بلا مال ولا أتباع بل خذله قومه إلي أن ينحطوا من ذلك العز إلي غرم الزكاة ومن الحرية والظلم إلي جرى الأحكام عليهم ومن طول الأيدي بقتل من أحبوا وأخذ مال من أحبوا إلي القصاص من النفس ومن قطع الأعضاء ومن اللطم من أجل من فيهم لأقل علج[1] غريب دخل فيهم وإلي إسقاط الأنفة والفخر إلي ضرب الظهور بالسياط أو بالنعال إن شربوا الخمر أو قذفوا إنسانًا وإلى الضرب بالسوط والرجم بالحجارة إلي أن يموتوا إن زنوا فانقاد أكثرهم لكل ذلك طوعا بلا طمع ولا غلبة ولا خوف لذا وضح ضرورة أنهم إنما آمنوا به طوعًا لا كرها وتبدلت طبائعهم بقدرة الله تعالى من الظلم إلي العدل ومن الجهل إلي العلم ومن الفسق والقسوة إلي العدل العظيم الذي لم يبلغه أكابر الفلاسفة، وأسقطوا كلهم أوله عن آخرهم طلب الثأر وصحب الرجل منهم قاتل ابنه وأبيه وأعدي الناس له صحبة الأخوة المتحابين دون خوف يجمعهم ولا رياسة ينفردون بها دون من أسلم من غيرهم ولا مال يتعجلونه فقد علم الناس كيف كانت سيرة أبى بكر وعمر رضي الله عنهما وكيف كانت طاعة العرب لهما بلا رزق ولا عطاء ولا غلبة فهل هذا إلا بغلبة من الله تعالى على نفوسهم.

ومن ثم كان امتنان الحق سبحانه وتعالى على نبيه بهذا الأمر في قوله تعالى من سورة الأنفال ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ **[الأنفال:63]** .

1 – الكافر من العجم.

والمتأمل بعقله في هذه الآية الكريمة يجد الحق سبحانه وتعالى وقد امتن على نبيه بهذه النقلة التي أخرج الله بها المسلمون من نعرة وعصبية الجاهلية إلي ألفة الإيمان مبينا أن هذا أمر مرده إلي الله وحده وليس في مكنة أحد مهما أوتي من حكمة وقوة أن يؤلف بين قلوب العباد إذ إن الأمور النفسية من الصعوبة بمكان بحيث يمكن السيطرة عليها، ومن ثم كانت المبالغة التي هي من صميم الحقيقة والواقع لتأكيد هذا المعنى وهي أنك يا محمد مهما أوتيت من مال يبلغ في كثرته كل ما في الأرض لتؤلف بالإنفاق منه بين قلوبهم، فلن تستطيع إلي ذلك سبيلا، ولعل الدارسين النفسيين يدركون صعوبة هذا الأمر وهو السيطرة على القلوب والتأليف بينها حتى لو استطاع أحد أن يجعل إنسانًا يقلع عن شيء ما، فإنه سرعان ما يحن إليه، فتراه يأتي من الأفعال ما ينقض ذلك حتى قيل : إن الطبع يغلب التطبع .

بيد أن الله تعالى خرق لنبيه هذه المقولة حتى صار التطبع طبعًا أذهب بالطبع الأول، ومن ثم كان في هذا إعجازًا عقليا به يبرهن الحق سبحانه وتعالى على صدق نبوة رسوله.

يقول الإمام الرازي في تعليقه على الآية السابقة: إنَّ النبي صلي الله عليه وسلم بعث إلي قوم أنفتهم شديدة وحميتهم عظيمة حتى لو لطم رجل من قبيلة لطمة قاتلت عنه قبيلته حتى يدركوا ثأره ثم إنهم انقلبوا عن تلك الحالة حتى قاتل الرجل أخاه وأباه وابنه واتفقوا على الطاعة وصاروا أنصارا وعادوا أعوانا، ثم زالت الضغائن وحصلت الألفة والمحبة فإزالة تلك العداوة الشديدة وتبديلها بالمحبة القوية الخالصة التامة مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، وصارت تلك معجزة ظاهرة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد رأينا الأمثلة الرائعة التي تعبر عن كل هذا حيث كانت الألفة والمحبة بين الأوس والخزرج التي مَنَّ الله عليهم بها الإسلام بعد سنوات مريرة من الحروب والضغائن، ورأينا هذه الألفة في قمة صورها بين المهاجرين والأنصار حيث استضاف الأنصاري أخاه من

المهاجرين عارضًا عليه بالفعل اقتسام داره وماله، ثم كانت الأثرة في قمة صورها والتي تتجلى فيها أسمى صور التأليف بين القلوب عندما عرض الأنصار أن يتنازلوا عن نصيبهم من الغنائم للمهاجرين مع اقتسام ديارهم وأموالهم معهم، فنزل فيهم قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الحشر ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ **[الحشر:9]** .

ونلحظ في الآية الكريمة قوله تعالى﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ ليدل بهذا على أنّ فعل الأنصار كان عن طيب نفس مرده إلى ما أودعه الله في القلوب من الألفة والمحبة ويعيننا على إدراك هذا المغزى العظيم ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما " أن النبي صلي الله عليه وسلم قال للأنصار: إن شئتم قسمتم للمهاجرين من دوركم وأموالكم وقسمت لكم من الغنيمة كما قسمت لهم، وإن شئتم كان لهم الغنيمة ولكم دياركم وأموالكم، فقالوا: لا بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا ولا نشاركهم في الغنيمة.

فأنزل الله قوله تعالى﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

من خلال ما تقدم نعلم أن التأليف بين قلوب المؤمنين أمر عسير لا يقدر عليه أحد سوى الله سبحانه وتعالى ومن ثم كان هذا الأمر من الدلائل العقلية التي برهن الله سبحانه وتعالى بها على إثبات النبوة لنبيه صلي الله عليه وسلم .

الباب الثالث

البعث بين الإمكان والوقوع

الفصل الأول

الدلائل العقلية على إمكان البعث

في القرآن الكريم

أنماط ونماذج

إن من الأمور العقدية المهمة والتي ينبغي على كل إنسان أن يوقن ويؤمن بها عقيدة البعث، والذي يعني الرجوع إلي الوجود بعد الفناء أو رجوع أجزاء البدن إلي الاجتماع بعد التفرق وإلي الحياة بعد الموت ورجوع الأرواح إلي الأبدان بعد المفارقة .

وإنما قلنا البعث عقيدة ينبغي على كل إنسان أن يؤمن بها؛ لأن كل إنسان بقليل من التجرد والبعد عن الهوى لا يسعه إلا الإيمان بها بغض النظر عن ملته، فإننا نرى الحياة مليئة بالشرور والآثام وكثيرًا ما يهضم القوي حق الضعيف وقد تنتهي الحياة بكليهما دون أن يدرك الضعيف ثأره من ذلك القوي.

هنا يقول العقل السليم إن العدالة الإلهية لا يمكن أن ترضى بهذا فلابد من يوم ينتصف الله تعالى فيه للمظلوم من الظالم .

ومن ثم قال أحد الحكماء: ما من ظالم إلا ويقتص الله تعالي منه قبل موته، فأخبر بعد ذلك أنه مات في مكان كذا أحد الظالمين دون أن يلحقه ضر أو أذى ففكر مليا ثم قال مُقسمًا على صدق ويقين كلامه: إن كان هذا الظالم قد مات دون أن يلحقه الجزاء الإلهي فو الله إنه لابد بعد هذه الحياة من يوم ينتصر الله فيه للمظلوم من الظالم .

وجاءت رسل الله جميعا من لدن آدم عليه السلام إلي خاتمهم صلى الله عليه وسلم لتؤكد على الإيمان بهذا اليوم والإقرار به، فعندما أهبط آدم من قبل ربه قال له الحق تبارك وتعالى كما حكت سورة الأعراف ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ **[الأعراف]** .

ونرى نوح عليه السلام وقد ذكَّر قومه بهذه الحقيقة اليقينية مستخدما معهم قياس الإعادة على البدء فقال كما حكت سورة نوح ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨﴾ **[نوح]** .

وقال الخليل عليه السلام في معرض الحديث عن رب العالمين عندما سئل عنه كما حكت سورة الشعراء ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾ **[الشعراء:82]**

وقال أيضا معرض الدعاء كما حكت سورة إبراهيم ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾ **[إبراهيم:41]** .

أما كليم الله موسى عليه السلام، فقد قال له الحق سبحانه وتعالى عند المناجاة كما حكت سورة طه ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥﴾ **[طه:15]** .

ونجد مؤمن آل فرعون وقد أيقن بهذا اليوم ومن ثم حدثنا عنه قائلًا كما حكت سورة غافر ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾ **[غافر]**

إلي أن قال في السورة ذاتها ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩﴾ **[غافر:39]**، بل لقد أثبت الحق سبحانه وتعالى البعث بطريقة فعلية عملية لقوم موسى عليه السلام، وذلك في قصة بقرة بني إسرائيل عندما قال تعالى في سورة البقرة ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٧٣﴾ **[البقرة:73]**

ثم يبين الحق سبحانه وتعالى في آية أخرى أنه ما من رسول إلا وأنذر قومه بهذا اليوم، ومن ثم كان إقرار الكافرين في قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الزمر﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ

كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١﴾ **[الزمر:71]** .

وهذا اعتراف من أصناف الكافرين المُساقين إلي جهنم زمرا بأن الرسل قد أنذروا قومهم لقاء يومهم هذا، ومن ثم كان قسم النبي صلى اله عليه وسلم أمر البعث ليقينه وتحققه من وقوعه كما ورد في سورة سبأ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣﴾ **[سبأ:3]** وقال تعالى في سورة يونس﴿ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٥٣﴾ **[يونس:53]**

وقال تعالى في سورة التغابن ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾ **[التغابن:7]**

ومع أن رسل الله جميعًا عليهم السلام قد أنذروا قومهم بهذا اليوم مما كان ينبغي على المنذرين أن يؤمنوا ويصدقوا لما يذعن به العقل السليم من تحقق عدالة قد لا تدرك في هذه الحياة إلا أنهم استحبوا العمى على الهدى فأعرضوا وأنكروا قائلين كما حكت سورة الأنعام ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٢٩﴾ **[الأنعام:29]** وحكى القرآن الكر يم عنهم استبعادهم لوقوع هذا اليوم فقال كما أخبرت سورة الإسراء ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ٤٩﴾ **[الإسراء:49]** وحكى القرآن عنهم أيضا تهكمهم وتكذيبهم بهذا اليوم حيث قال في سورة المؤمنون﴿ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ٣٥﴾ **[المؤمنون:35]** وليت الكافرين على مر العصور عندما أنكروا البعث والمعاد قد اعتمدوا

في إنكارهم على يقين به يحآجون عند ربهم ولكن الظن والتوهم والزعم والتخرص هو مستندهم في هذا الإنكار، فيخبر عنهم القرآن الكريم في سورة القصص (وظنوا أنهم ، لا يرجعون) وقال تعالى في سورة القيامة ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾ **[القيامة:3]**

وقال تعالى في سورة الذاريات ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢﴾ **[الذاريات]** ولا يمكن لصاحب عقل منصف أو فكر مستقيم أن يعول على الظن أو الزعم في رد عقيدة من العقائد لاسيما وأن البعث والمعاد لا يتنافى مع مقررات العقل، بل إن العقل يحكم بإمكانه ولما لا يكون ممكنا وإثباته لا يوجب أي تناقض عقلي أبدً، ا وكل ما لا يوجب تصور وقوعه تناقضا عقليا فهو من قبيل الجائز الممكن، فهل تصور وقوع الحياة بعد عدمها كما كانت وأفضل مما كانت يوجب تناقضا عقليًا بالتأكيد كلا، وما دام الأمر كذلك إذًا فالمعاد وهو إحياء الخلائق بعد عدمهم الذي طرأ على حياتهم الأولى ممكن وجائز .

أيضا نقول إن المعاد ليس بمستحيل إذ إن المستحيل ما يمتنع وجوده أصلًا إذ لو وجد لكان في وجوده تناقضا عقليا بأن يكون الشيء موجودًا وغير موجود في آن واحد في حين أن من المعلوم أن الشيء إذا لم يقم دليل على امتناعه فلنحكم بإمكانه .

أيضًا نقول إننا فيما مضى ثبت لدينا بيقين لا يقبل أدنى ريب صدق النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته وفي كل ما أخبر به، والذي من جملة ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم البعث والمعاد. إذا فيلزم من إثبات نبوته صلي الله عليه وسلم لزومًا بيننا إثبات صدقه في كل ما أخبر به.

ويمكن أن نقرر هذا في هيئة قياس منطقي نقول فيه:

البعث أمر أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم، وكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم حق وواقع، إذا فالبعث حق وواقع .

وإذا أتينا إلى القرآن الكريم، وهو كتاب العقل نجده قد سلك في إثبات المعاد والحياة الآخرة مسالك عقلية متنوعة هي في غاية الظهور والوضوح منها :

1- قياس الإعادة على البدء :

إن من الأدلة العقلية التي قررها القرآن الكريم وعول عليها في إثبات البعث والمعاد قياس الإعادة على البدء بمعنى أن من بدأ وتولى إنشاء الحياة في الخلائق أول مرة قادرٌ على أن يوجدها فيهم بعد موتهم فينشئهم للحياة الآخرة؛ وذلك لأن القدرة الإلهية لا تتفاوت المقدورات لديها، بل المقدورات بالنسبة لها على مر الأزمنة واختلافها سواء فإذا كانت القدرة قد صلحت للإيجاد عند البدء فليزم لزومًا بيننا أن تكون كذلك عند الإعادة، وهذا ما يجزم به كل ذي عقل ولب.

وأيضًا "لما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوقات وعلمه بتفاصيل خلقه إذ هو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته ومواده وصورته فكذلك الثاني فإذا كان تام العلم كامل القدرة كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم" [1] .

ويقول فضيلة الشيخ محمد الغزالي : إن الشيء إذا لم يكن ثُم كان وأعدم كانت إعادته أيسر وأهون على من بدأه أول مرة ثم أعدمه وأفناه، فالذي بنى دارًا ثم هدمها لا يستحيل عليه ولا في حقه إعادة بنائها كما كانت أو خيرًا مما كانت، والذي يصنع آلة من الآلات مخترعا لها لا

1 - شرح العقيدة الطحاوية ص 407، الفصل ج 4 ص 81، عقيدتنا ص 177 الدعوة الإسلامية في عهدها المكي ص 502، الإيمان والحياة ص 36 .

يستصعب عليه أن يعيدها كما كانت إذ هو كسرها بإرادته واختياره ليحولها إلي آلة أفضل منها. [1]

ونحن وإن كنا نسلم بهذا إلا أنه ينبغي أن لا يعزب أو يغيب عن العقل أنه لا يوجد بالنسبة لله تعالى شيء هو أسهل وأصعب، وإنما القدرة الإلهية واحدة لا يتفاوت المقدور بالنسبة لها بدءا أو إعادة.

ومن ثم نجد بعد ذلك صاحب كتاب دلائل التوحيد يقرر لنا هذا الدليل على نحو ما سبق إلا أنه يبين لنا في الوقت ذاته أنه عملية الإعادة والبعث شيء نراه ونشاهده بأعيننا في الأشجار فنرى الشجرة جرداء ميتة ثم بعد ذلك نراها وقد كسيت برداء أخضر جميل وطلع نضيد، ثم لا تلبث بعد ذلك إلا أن تعود لسيرتها الأولى ثم يعود إليها مرة أخرى الإيراق والإثمار، وهذا أمر نشاهده عيانا أفلا نتخذ منه شاهدا ودليلا عقليا على بعث الموتى وإحيائهم؟

يقول صاحب كتاب دلائل التوحيد : إذا قضت قدرة القادر جل جلاله بأن يكسو الأشجار بعد عُريِّها ويلون الأزهار مرة أخرى، وينبت الأعشاب ويرد الزرع بعد فنائه، فيجدد له كل ما فقده ويرجعه لحاله الأولى أفلا يكون ذلك شهادة لقيامة الموتى وبعثهم؟

فقول الملحد من أين تتجمع أجزاء كل فرد وقد تبعثرت ودخلت في تكوين كثيرين آخرين؟

1- عقيدة المؤمن ص 324 ويراجع منهاج المسلم ص43 وكذا العقيدة الإسلامية وأسسها ص 560 .

يجاب عنه: بأن تجمعها بقدرة الله الذي خلقها أول مرة، ولو تعذر فهم كيفية تكونه، فهل يسوغ إنكار وجوده وإلا فقل له أَبن لي من أين تتجمع مواد الأعشاب التي تنبت وتصير أزهارا، ثم ثمرا ثم شجرا بعد أن يقع ذرعها في الأرض ويفسد؟

هل تفهم كيف يتصور الحيوان في الرحم ثم ينشأ هو وأعضاؤه؟

هل تفهم كيف تستحيل الأطعمة في الحيوان والإنسان إلي لحم وعظام وشريانات وأوردة وجلدٍ وشعر وحواس كلها في غاية الدقة والارتباط فإن كنت لا تفهم جميع ذلك فهل يمكن لك أن تنكره؟ وقد ثبت في علم (الفيزيولوجيا) [1].

ونرى بعد ذلك صاحب كتاب الإسلام يتحدى يحرر لنا هذا الدليل فيحدثنا : أن الحياة التي نشاهدها الآن ونعيشها لتعد شهادة تجريبية بالنسبة للحياة الآخرة إذ كيف يعجز من ابتدأ الحياة عن إعادتها والملاحدة الذين ينكرون وجود الإله ويردون كل شيء في الوجود إلي المصادفة يزعمون بإمكان الحياة الآخرة بعد هذه الحياة إذا كانت هناك ظروف مناسبة تساعد على ذلك، فإذا كان دعاة المصادفة والطبيعة العمياء يعتقدون هذا فما بالنا نحن أرباب الدين الذين يؤمنون بوجود إله مدبر قادر حكيم ألا يرسخ في أذهاننا قدرته تعالى على إعادة الحياة كما بدأها أول مرة روحا وجسدا.

يقول الأستاذ وحيد الدين خان : هل هناك شهادة تجريبية تثبت الحياة بعد الموت إن أول دليل على الحياة الثانية هو حياتنا الأولى في حد ذاتها فإن الذين ينكرون الحياة الثانية يقرون بداهة الحياة الأولى، فإن تلك القوة التي أظهرت الحياة مرة واحدة كيف تعجز عن إعادة نفس العملية مرة أخرى أهذه التجربة التي نعيشها نحن اليوم كيف يستحيل حدوثها ثانية إنه

1 – علم الفيزيولوجيا هو علم وظائف الأعضاء .

لا شيء أكثر عداء للمنطق والعقل الإنساني من أن نسلم بوقوع حادث في الحال وننكره في المستقبل ياله من تناقض عجيب.. إن الإنسان يدعي أن الآلهة التي اخترعها هو بقدرته الخارقة لتفسير الكون تستطيع إعادة وقائع الكون مرة أخرى ولكنه يرفض بعناد تلك النظرية المماثلة التي يتقدم بها الدين، ويعبر السير جيمس جينز عن نظرية هؤلاء قائلا :لا غرابة إذا كانت أرضنا قد جاءت صدفة نتيجة بعض الحوادث، وإذا بقى كوننا على الحالة الراهنة لمدة طويلة مماثلة لمدة حدوثه صدفة " فلا تستبعد حدوث أي شيء يمكننا قياسه على الأرض، وترى نظرية [1] النشوء والتطور أن جميع أنواع الحيوانات تنحدر من نوع بدائي واحد، وأنها ارتقت إلي ما هي عليه الآن خلال مراحل نظرية من متطاولة وبناء على هذا التفسير الذين قام بوضعه داروين صاحب هذه الفكرة، فإن الزراف الموجود حاليا كان في بدء الأمر من عشيرة الحيوانات الصغيرة ذوات الظلف، ولكن هذا الحيوان من خلال العمليات الطويلة التي أعقبت التوالد والتناسل والتغيرات والفوارق الصغيرة التي طرأت على الجنس الحيواني استطاع أن يحصل على هذا الهيكل العظيم غير العادي الذي نشهده اليوم.

يقول داروين موضحا نظريته: "ومن الأمور الحتمية عندي أنه إذا ما أجريت العملية المطلوبة خلال زمن طويل، فمن الممكن أن نجعل من حيوان ذي ظلف عادي حيوانًا مثل الزراف"، وهكذا اضطر جميع العلماء الذين حاولوا شرح الكون والحياة بطرق طبيعية إلي أن يُسلموا بأنه لو هيئت نفس الأحوال التي ساعدت في خلق الحياة الأولى فمن الممكن حدوث الحياة ولوازمها مرة أخرى.

---

1 – النظرية فرض ثبت صدقه بالبرهان والدليل، وعلى هذا فليس من المقبول إطلاق اسم نظرية على ما قاله دارون في النشوء والارتقاء من أقوال متهافتة ثبت زيفها .

إن إمكان حدوث الحياة الأخرى أقوى نظريا من إمكان الحياة الأولى الذي وقع فعلا و الإله الذي خلق الحياة لابد لنا أن نسلم بصفة بديهية بأن ذلك الخالق يستطيع بالتأكيد إعادة نفس الحوادث التي أنشأها للمرة الأولى ولابد لنا من هذا الاعتراف اللّهم إذا أنكرنا الحياة الأولى الموجودة الآن [1] .

وإذا كنا بهذا قد قررنا الدليل ومعرفة وجه الاستدلال به فإن القرآن الكريم قد نثره في كثير من آياته ليدلل به عقلا على البعث وإمكانه فنجد قول الحق سبحانه من سورة البقرة﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾**[البقرة:28]** .

إن المتأمل بعقله في هذه الآية الكريمة يجدها تشير إلي دليلين يمكن من خلالها البرهنة على إمكان البعث:

أما الأول : فإن الإنسان قبل أن تطرأ الحياة عليه كان في طي العدم فلما وهب الحياة من خالقه انتقل من العدم إلي الحياة، وبعد فترة يموت الإنسان، ثم تكون بعد ذلك حياة أخرى فيها يبعث من موته، فهل يمكن أن يرتاب ذو عقل راشد في هذه الحياة الأخرى؟

وكيف يرتاب فيها وقد أيقن أنه قبل ولادته كان معدومًا فخلق عند النشأة الأولى من عدم، فمن قدر على إحيائه في أول مرة يقدر على إعادته مرة أخرى للبعث والجزاء.

أما الدليل الثاني: فيمكن أن نستخلصه من قوله تعالى ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ **[البقرة:28]**

---

1 - الإسلام يتحدى ص 142 .

بمعنى أن كل إنسان يسير في هذه الحياة فيشاهد فيها ألوانا من الظلم تحيق بغيره، وقد لا ينزل بما اقترفه عقابا، ويرى أناسا هم بمثابة شمعة تحترق لتنير للغير، ومع هذا لا يجدون الجزاء الأوفى لما قدموا، فإن منطق العقل يقول: إنه لابد من العودة والبعث والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى ليجازي المحسن بإحسانه فيجد في الآخرة ما يناسبهم من خير غلت أيدهم عن أن تناله في الدنيا ويجد المسيء جزاء آثامه وشروره مما لم ينزل به يد العقاب في حياته الأولى.

يقول الإمام البيضاوي: في تعلقيه على الآية الكريمة ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾ **[البقرة:28]**

بعد الحشر فيجازكم على أعمالكم أو تنتشرون إليه من قبوركم للحساب، فما أعجب كفركم مع علمكم بحالتكم هذه !!

فإن قيل: إن علموا أنهم كانوا أمواتا فأحياهم ثم يميتهم لم يعلموا أنه يحييهم ثم إليه يرجعون.

قلت: تمكنهم من العلم بهما لما نصب لهم من الدلائل منزل منزلة علمهم في إزاحة العذر لاسيما وفي الآية تنبيه على ما يدل على صحتيهما وهو أنه تعالى لما قدر على إحيائهم أولا قدر على أن يحييهم ثانيا فإن بدء الخلق ليس بأهون عليه من إعادته [1] .

ثم نجد صاحب كتاب تأويلات أهل السنة يحدثنا أيضًا عن دليل قياس الإعادة على البدء وكيف يثبت به البعث من خلال هذه الآية فيقول :كيف تكفرون بالبعث بعد الموت وكنتم نطقا فأحياكم وأنتم لا تنكرون الإنشاء الأول، فكيف تنكرون البعث والإحياء بعد الموت [2]

1 - أنوار التنزيل ج 1 ص 33.

2 – تأويلات أهل السنة ج 1 ص 81 .

ولعل مقصد صاحب التأويلات من قوله: "وكنتم نطفا فأحياكم " تمام الحياة على النحو المعهود لها ؛ لأن النطفة أيضا خلية حية بما تحمله من حيوانات منوية، ويوجه صاحب التأويلات الآية الكريمة توجيها آخر به يبرهن على إثبات البعث، كذلك من أن انتهاء الحياة بالموت وعدم وجود حياة بعد ذلك أمر هزل وعبث لا يليق بالحكيم، فلابد من يوم البعث والنشور الذي يلقى فيه كل أحد جزاء ما علمت يداه.

يقول الإمام الماتريدي: كيف تكفرون بالإحياء والبعث بعد الموت وفي العقل أن خلق الخلق للإفناء والإماتة من غير قصد العاقبة عبث ولعب؛ لأن كل بان بنى للنقض فهو عابث، وكذلك كل ساع فيما لا عاقبة له فهو عابث هازل، فكيف تجعلون فعله عز وجل إذ لو لم يجعل للخلق دارًا للجزء والعقاب كان في خلقه إياهم عابثًا هازلًا خارجًا من الحكمة تعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا [1] .

والواقع أن هذا الوجه من تأويل الآية الكريمة أكثر ملائمة ومناسبة لعجزها، وهو قوله تعالى أما الوجه الأول من التأويل فهو الملائم لصدرها، ويقرر الإمام القرطبي بناء على هذه الآية الكريمة أن إنكار البعث أمر لا حجة ولا دليل عليه ولا يستقيم مع مقررات عقل النصف، وإنما الذي يستقيم مع مقررات العقل السليم الإقرار بالبعث؛ لدلالة هذه الحياة وما نشاهد فيها من النشأة الأولى عيانا عليه.

يقول الإمام القرطبي: لقد كنتم أمواتا معدومين قبل أن تخلقوا فأحياكم أي خلقكم ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم ثم يحييكم يوم القيامة، وهذا القول هو المراد بالآية، وهو الذي لا محيد للكفار عنه لإقرارهم بهما، وإذا أذعنت نفوس الكفار لكونهم أمواتًا معدومين

---

1 - تأويلات أهل السنة ج 1 ص 82 .

للإحياء في الدنيا ثم للإماتة فيها =قوى عليهم لزوم الإحياء الآخر وجاء جحدهم له دعوى لا حجة عليها (1)

والمتأمل بعقله في هذه الآية الكريمة يجدها تدل على ما يلي :

1- أنها تشير على أنه لا يقدر على الإحياء والإماتة إلا الله تعالى، فيبطل به قول أهل الطبائع من أن المؤثر في الحياة والموت كذا وكذا من الأفلاك والكواكب والأركان والمزاجات.

2 – إنها تدل على صحة البعث والمعاد مع التنبيه على الدليل العقلي الدال عليه؛ لأنه تعالى بين أنه أحيا هذه الأشياء بعد موتها في المرة الأولى فوجب أن يصح ذلك في المرة الثانية (2) .

ثم نجد الحق سبحانه وتعالى يقرر هذا الدليل العقلي على إمكان البعث والمعاد في آية أخرى فيقول تعالى في سورة يونس ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ **[يونس:4]** المتأمل في هذه الآية يجد فيها الاستدلال بالنشأة الأولى على الإعادة، فمن قدر على خلق الإنسان من العدم يقدر على خلقه للبعث والحساب.

ومن ثم نرى الإمام الرازي : ينطلق من هذه الآية الكريمة ليقرر لنا كيفية دلالتها هي ومثيلاتها على صحة البعث والمعاد، فيبين أولًا أن إنكار البعث والمعاد لا يعد من الأمور البديهية، ويدلل على ذلك بما يلي :

1 . أن العقلاء اختلفوا في وقوعه وعدم وقوعه وقال بإمكانه عالم من الناس وهم جمهور أرباب الملل والأديان، وما كان معلوم الامتناع بالبديهة امتنع وقوع الاختلاف فيه (1) .

---

1 – الجامع لأحكام القرآن ج 1 ص 293 .

2 - مفاتيح الغيب ج8 ص 563 .

ونحن وإن كنا نوافق الإمام الرازي فيما ذهب إليه إلا أننا ننبه أن ثمة من ينتسبون إلي الملل والدين قد أنكروا البعث كلية وهم على سبيل المثال فرقة الصدوقيين من اليهود الذين يرون أن الحياة الدنيا هي محل الثواب والعقاب .

2 – أيضا أننا إذا رجعنا إلي عقولنا السليمة وعرضنا عليها أن الواحد ضعف الاثنين وعرضنا عليها أيضا هذه القضية لم نجد هذه القضية في قوة الامتناع مثل القضية الأولى .

3 – إننا إما أن نقول بثبوت النفس الناطقة أو لا نقول به، فإن قلنا به فقد زال الإشكال بالكلية، فإنه كما لا يمنع تعلق هذه النفس بالبدن في المرة الأولي لم يمتنع تعلقها بالبدن مرة أخرى، وإن أنكرنا القول بالنفس فالاحتمال أيضًا قائم؛ لأنه لا يبعد أن يقال إنه سبحانه يركب تلك الأجزاء المفرقة تركيبًا ثانيًا ويخلق الإنسان الأول مرة أخرى [2] .

وبعد أن يذكر الإمام الرازي هذه الأوجه من الدلائل العقلية التي يتبين من خلالها أنَّ إنكار البعث ليس من الأمور البديهية، وإلا لما حدث الاختلاف حوله، نراه يبين لنا بعد ذلك أن الحق سبحانه وتعالى ذكر أمثلة كثيرة في القرآن الكريم دالة على إمكان البعث والمعاد منها:

1 – أن الحق سبحانه وتعالى ابتدأ خلق الإنسان وعندما خلقه زاده في الخلق في مختلف مراحل عمره وتارة ينقصه فيه كل هذا يحدث للإنسان بمرآى ومسمع منه، فهل يمتنع عقلا أن يعيده مرة أخرى للبعث والحساب .

يقول الإمام الرازي : إن ما يجده كل واحد منا في نفسه من الزيادة والنمو بسبب السمن ومن النقصان والذبول بسبب الهزال، ثم إنه قد يعود إلي حالته الأولى بالسمن، وإذا ثبت هذا فنقول ما جاز تكون بعضه لم يمتنع أيضا تكون كله، ولما ثبت ذلك ظهر أن الإعادة غير

---

1 – مفاتيح الغيب ج 8 ص 253 .

2 - مفاتيح الغيب ج8 ص 253 .

ممتنعة وإليه الإشارة بقوله تعالى في سورة الواقعة ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ **[الواقعة:61]**

يعني أنه سبحانه لما كان قادرا على إنشاء ذواتكم أولا، ثم على إنشاء أجزائكم حال حياتكم ثانيا شيئا فشيئا من غير أن تكونوا عالمين بوقت حدوثه وبوقت نقصانه، فوجب القطع أيضا بأنه لا يمتنع عليه سبحانه إعادتكم بعد البلى في القبور؛ لحشر يوم القيامة [1].

2 -إذا كان الحق سبحانه وتعالى قد أوجد الإنسان من غير مثال سبق فإنه يكون قادرًا على خلقه وإعادته مرة أخرى من باب الأولى مع سبق الحياة الأولى.

يقول الإمام الرازي : إنه تعالى لما كان قادرًا على أن يخلقنا ابتداءً من غير مثال سبق ؛ فلأن يكون قادرًا على إيجادنا مرة أخرى مع سبق الإيجاد الأول كان أولى، وهذا الكلام قرره تعالى في آيات كثيرة منها هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ **[يونس:4]** [2].

3- ثم نرى الإمام الرازي بعدُ يحدثنا عن البعث أيضًا مثبتا إياه من خلال مثالين نراهما :

الأول: سائر الحيوان حيث نشاهده وقد يسقط منه شعرٌ أو يقطع منه ظلفٌ، ثم نراه لا يلبس إلا أن يعود إليه مرة أخرى ويخرج بدلًا منه.

أما المثال الثاني: فهو الأرض نراها جدباء فيأتي الربيع عليها فتهتز وتربو وتُورِقُ ما عليها من أشجار منبتة الثمار وما تلبث الأرض وما عليها إلا أن تعود لحالة الجدب مرة أخرى، فإذا أتى الربيع التالي عليها فإنها تعود الحياة إليها مرة ثانية فتورق وتثمر، فإذا كان هذا هو حال

1 - مفاتيح الغيب ج8 ص 254 .

2 - مفاتيح الغيب ج 8 ص 255 ويراجع فتح القدير ج8 ص 255 ويراجع فتح القدير ج 2 ص423 .

الحيوان والأرض ألا يتأتى مثل ذلك لأشرف الكائنات وهو الإنسان. **فإن قيل**: إن أجسام البشر تتفرق أمَّا الأرض فليست كذلك.

قيل في الجواب: إن الإنسان له نفس هي جوهر باق، وله أجزاء أصلية لا تتفرق ومن ثم تكون الإعادة من خلالها .[1]

4 - نجد الإمام الرازي أيضًا يبرهن على إثبات البعث من خلال نطفة الإنسان التي تكونت بفضل تعاون الجسم والتي نتجت من التغذي عن أشياء شاركت في صنعها أشياء خارجية متفرقة في مشارق الأرض ومغاربها، وحصل من نتيجتها النطفة التي يتكون منها، ثم بعد ذلك يخرج إلى الحياة، ويبلغ مراحل مختلفة يتخلل فيها أشياء منه، ويختلف في هيئته من مرحلة إلى أخرى في حين أنه بعينه ذلك الجنين الذي تكون من النطفة، فالإنسان عندما يكون صبيا هو بعينه الذي كان بالأمس طفلًا وهكذا، مما يدل على أن الإنسان إذا لحقه الفناء، والتحلل فليس بمحال أن يعود بعينه مرة أخرى للبعث والحساب.

يقول الإمام الرازي :لا شكل أن بدن الحيوان إنما تولد من النطفة، وهذه النطفة إنما اجتمعت من جميع البدن بدليل أنَّ عند انفصال النطفة يحصل الضعف والفتور في جميع البدن.. ثم إن مادة النطفة إنما تولدت من الأغذية المأكولة، وتلك الأغذية إنما تولدت من الأجزاء العنصرية، وتلك الأجزاء كانت متفرقة في مشارق الأرض ومغاربها، واتفق لها أن اجتمعت فتولد منها حيوان أو نبات، فأكلها إنسان فتولد منه دم فتوزع ذلك الدم على أعضائه= فتولد منها أجزاء لطيفة، ثم عند استيلاء الشهوة سال من تلك الرطوبات مقدارٌ معين، وهو : النطفة، فانصب إلي فم الرحم، فتولد منه هذا الإنسان، فثبت أن الأجزاء التي

1 - انظر فيما سبق تقريره: مفاتيح الغيب ج8 ص 264 .

تولد منها بدن الإنسان كانت متفرقة في البحار والجبال وأوج الهواء، ثم إنها اجتمعت بالطريق المذكور، فتولد منها هذا البدن، فإذا مات تفرقت تلك الأجزاء على مثال التفرق الأول، وإذا ثبت هذا= فنقول وجب القطع أيضًا بأنه لا يمتنع أن يجتمع مرة أخرى على مثال الاجتماع الأول، وأيضًا فذلك المنى لما وقع في رحم الأم فقد كان قطرة صغيرة، ثم تولد منه بدن الإنسان وتعلقت الروح به حال ما كان ذلك البدن في غاية الصغر، ثم إن ذلك البدن لا شك أنه في غالية الرطوبة، ولاشك أنه يتحلل منه أجزاءً كثيرةً بسبب عمل الحرارة الغريزية فيها، وأيضا فتلك الأجزاء البدنية الباقية أبدا في طول العمر تكون في التحلل، ولولا ذلك لما حصل الجوع، ولما حصلت الحاجة إلي الغذاء، مع أنا نقطع بأن هذا الإنسان الشيخ هو عين ذلك الإنسان الذي كان في بطن أمه، ثم انفصل، وكان طفلا ثم شابا، فثبت أن الأجزاء البدنية دائمة التحلل، وأن الإنسان "هو" "هو" بعينه فوجب القطع بأن الإنسان:

1- إمَّا أن يكون جوهرًا مفارقا مجردًا.

2- وإما أن يكون جسما لطيفا نورانيا باقيًا مع تحلل هذا البدن.

فإذا كان الأمر كذلك فعلى التقديرين يمتنع عَودُه إلي الجثة مرة أخرى، ويكون هذا الإنسان العائد عين الإنسان الأول فثبت أن القول بالمعاد صدق [1] .

ونجد الرازي يحدثنا عن شبهة لمنكري البعث مؤداها أن الإنسان إذا مات ولحقه التحلل فإن عناصره تتفرق وتختلط بالعناصر الأخرى الموجودة في العالم، فكيف تكون إعادة الإنسان بجسده؟.

1- مفاتيح الغيب جـ 8 ص 264 .

يحتج الإمام الرازي في دفعه هذه الشبهة بالعلم والقدرة اللذين يمكن من خلالهما القول بالإعادة والبعث مهما تفرق الجسد واختلطت عناصره بغيرها من العناصر.

يقول الإمام الرازي : وأما تقرير شبهة القوم ...أن الإنسان إذا مات جفت أعضاؤه وتناثرت وتفرقت في حوالي العالم، فاختلط بتلك الأجزاء سائر أجزاء العالم المائية في البد، ن فتختلط بمياه العالم، وأما الأجزاء الترابية فتختلط بتراب العالم، وأما الأجزاء الهوائية فتختلط بهواء العالم، وأما الأجزاء النارية فتختلط بنار العالم.

وإذا صار الأمر كذلك فكيف يعقل اجتماعها بأعينها مرة أخرى وكيف يفعل عود الحياة إليها بأعيانها مرة أخرى؟ فهذا هو تقرير الشبهة .

والجواب عنها: أن هذا الإشكال لا يتم إلا بالقدح في كمال علم الله وفي كمال قدرته أمَّا إذا سلمنا كونه تعالى عالما بجميع الجزئيات= فحينئذ هذه الأجزاء وإن اختلطت بأجزاء العالم إلا أنها متمايزة في علم الله، ولما سلمنا كونه تعالى قادرًا على كل الممكنات= كان قادرًا على إعادة التأليف والتركيب والحياة والعقل إلى تلك الأجزاء بأعيانها، فَثَبَتَ أَنَّا مَتَى سَلَّمْنَا كَمَالَ عِلْمِ اللَّهِ وَكَمَالَ قُدْرَتِهِ زَالَتْ هَذِهِ الشُّبْهَةُ بِالْكُلِّيَّةِ.[1]

هذا هو رد الإمام الرازي على هذه الشبهة، وقد أقامه على التسليم بكمال العلم والقدرة.

والواقع أننا نلمح وجها آخر في الآية الكريمة ندفع به هذه الشبهة سقناه آنفا حال حديثنا عن آية سورة يونس وهو الاحتجاج بالبدء على الإعادة حيث إن النطفة التي بدء منها خلق الإنسان كونت من عناصر كثيرة متفرقة أتت إلي الجسد من أنحاء شتى من العالم، وعلى هذا

1 - مفاتيح الغيب جـ 10 ص 109، 110، فتح القدير جـ 2 ص 234 .

فمن قدر على بدء الخلق من عناصر متفرقة في بقاع العالم يمكنه أن يجمع عناصر الجسد، ولو تفرقت في جميع بقاع الأرض، ويعيدها كما ابتدأ خلقها أول مرة.

ثم نرى الإمام الرازي بعد ذلك يحدثنا عن قوله تعالى ﴿۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠﴾ **[الإسراء:50]** إذ يبين أن منكري البعث لما استبعدوا أن يعيدهم الله مرة أخرى وهم عظام نخرة قال لهم: إنِّي أقدر على بعثكم وإعادتكم ولو كنتم في حالة تستبعد معها الحياة بأن تكونوا حجارة أو حديدا.

يقول الإمام الرازي في تعليقه على هذا الجزء من الآية الكريمة : إن القوم لما استبعدوا أن يردهم الله إلا حال الحياة بعد أن صاروا عظامًا ورفاتا وهو وإن كانت منافية لقبول الحياة بحسب الظاهر لكن قدروا انتهاء هذه الأجسام بعد الموت إلي صفة أخرى أشد منافاة لقبول الحياة من كونها عظاما ورفاتا مثل: أن تصير حجارة أو حديدًا، فإن المنافاة بين الحجرية والحديدية وبين قبول الحياة أشد من المنافاة بين العظمية وبين قبول الحياة، وذلك أن العظم قد كان جزءًا من بدن الحي.

أما الحجارة والحديد فما كانا ألبتة موصوفين بالحياة، فبتقدير أن تصير أبدان الناس موصوفة بصفة الحجرية والحديدية بعد الموت، فإن الله تعالى يعيد الحياة إليها ويجعلها حية عاقلة كما كانت.

والدليل على صحة ذلك: أن تلك الأجسام قابله للحياة العقل إذ لو لم يكمن هذا القبول حاصلا= لما حصل العقل والحياة لها في أول الأمر، وإله العالم عالم بجميع الجزئيات فلا تشتبه عليه أجزاء بدن زيد المطيع بِأَجْزَاءِ بَدَنِ عَمْرٍو الْعَاصِي، وقادرٍ على كل الممكنات، وإذا ثبت أن عود الحياة إلى تلك الأجزاء ممكن في نفسه وثبت أن إله العالم عالمٌ بجميع المعلومات

قادر على كل الممكنات، كان عود الحياة إلى تلك الأجزاء ممكنًا قطعًا، سواء صارت عظامًا ورفاتًا أو صارت شيئا أبعد من العظم في قبول الحياة، وهي أن تصير حجارة أو حديدا[1] .

وعلى هذا فالمراد أن أجساد الأحياء على أي وجه تكون عليه بعد الموت لا تعجز القدرة الإلهية عن إعادتها وبعثها وذلك كقول القائل للرجل كيف تجرأ على طلب كذا مني وأنا ابن فلان؟

فيقول له: كن من شئت كن ابن الحاكم فسأطلب حقي منك.

ثم نجد الإمام الرازي بعد ذلك يستطرد في الحديث عن الآية الكريمة ودلالتها العقلية على البعث من خلال قول الحق سبحانه وتعالى فيها ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ **[الإسراء:51]** .

يقول الإمام الرازي: إنَّ كون الحجر والحديد قابلًا للحياة أمر مستبعد. فقيل لهم: فافرضوا شيئا آخر أبعد عن قبول الحياة من الحجر والحديد بحيث يستبعد عقلكم كونه قابلًا للحياة= إذ إن أبدان الناس وإن انتهت بعد موتها إلى أي صفة فرضت، وأي حالة قدرت، وإن كانت في غاية البعد عن قبول الحياة، فإن الله تعالى قادر على إعادة الحياة إليها [2] .

ثم يستطرد الحق سبحانه وتعالى في خطاب العقل الإنساني ليزيل ما قد يعلق بالذهن من تعجب من القدرة على البعث على أي وجه أو حالة كان الجسد، فيبين أنه فطر الخلائق أولًا أفلا يقدر على إعادتها ثانيا.

---

1 - مفاتيح الغيب جـ 10 ص 110 ويراجع فتح القدير جـ 2 ص 234 .

2 - مفاتيح الغيب جـ 10 ص 110، 111 .

ومن ثم كان قول الحق سبحانه وتعالى﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ ﴾[الإسراء:51] .

يقول الإمام الرازي في تعليقه عل هذا الجزء من الآية :إن الله لما قال لهم كونوا حجارة أو حديدا أو شيئًا أبعد في قبول الحياة من هذين الشيئين فإن إعادة الحياة إليه ممكنة فعند ذلك قالوا من هذا الذين يقدر على إعادة الحياة إليه، قال تعالى قل يا محمد الذي فطركم أول مرة .

يعني أن القول بصحة الإعادة فرع على التسليم بأن خالق الحيوانات هو الله تعالى، فإذا ثبت ذلك= فنقول أن تلك الأجسام قابلة للحياة والعقل وإله العالم قادر لذاته عالم لذاته فلا يبطل علمه وقدرته ألبتة فالقادر على الابتداء يجب أن يبقى قادرًا على الإعادة [1] .

إذًا فالحق سبحانه وتعالى متصف بالقدرة والعلم التآمين ولا يتخلف شيء منها بأي حال من الأحوال عن ذاته، ومن ثم فإنه تعالى بكونه متصفا بالعلم التام والقدرة التامة= كان ابتداء الخلق في أول مرة ولكون هاتين الصفتين لا تنفكان عنه بأي حال من الأحوال يعيد الخلائق ويبعثهم مرة أخرى إليه على أي حال كانوا عليه سواء كانوا عظاما تقرب للحياة أو حجارة أو حديدا أو غير ذلك مما تستبعد معه الحياة.

يقول الإمام الزمخشري: إنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم ويرده إلى حال الحياة وإلي رطوبة الحي وغضاضته بعدما كنتم عظاما يابسة مع أن العظام بعض أجزاء الحي، بل هي عمود خلقه الذي يبنى عليه سائره، فليس ببدع أن يردها الله تعالى بقدرته إلي حالتها الأولى، ولكن وإن كنتم أبعد شيء من الحياة ورطوبة الحي، ومن جنس ما ركب منه البشر، وهو أن تكونوا حجارة يابسة أو حديدًا مع أن طباعها الجسارة والصلابة أو خلقًا مما يكبر عندكم عن

1 - مفاتيح الغيب جـ10 ص 111 .

قبول الحياة، ويعظم في زعمكم على الخلائق إحياءه لكان قادرا على أن يردكم إلي حال الحياة كما ابتدأها [1].

وإذا كان ما تقدم جانب من توجيه للآية الكريمة ودلالتها العقلية على أمر البعث والمعاد، فإننا نرى العلم الحديث له رأي في الآية الكريمة أيضًا يتمثل في أن الإنسان إذا مات، فإنه بعد فترة يصير ترابا، ثم اكتشفوا أن أجساد الحيوان والنبات يمكن تحت ظروف جيولوجية معينة يمكن أن تكون أحفورة حجرية، وعند حدوث ظروف معينة أخرى فإنها تكون أحفورة من حديد، وعلى هذا التحقيق العلمي يكون القرآن الكريم قد تحدى منكري البعث بأن الله قادر على إعادتهم وبعثهم إذا كانوا عظاما أقرب للحياة أو ترابا أو تغيرت أجسامهم بفعل ظروف معينة، فكانوا حجارة أو حديدا، فإنه تعالى يقدر على إعادتهم وبعثهم، كما ابتدأ حياتهم أول مرة.

يقول الدكتور أحمد شوقي إبراهيم: إنه بعد أن يموت الجسم يعود ترابا، وفي بعض الأحوال وتحت ظروف معينة تتوقف حالات التحلل في الأجسام الميتة إلى تراب وبمرور الزمن الطويل تتبدل مكونات الجسم بمواد أخرى مثل بعض الرواسب الصخرية، ويقول علماء الجيولوجيا: إن بقايا الأجسام تتحجر دون أن يحدث لها تغير في التركيب الكيميائي لموادها الأصلية نتيجة لفقدان المادة العضوية في تلك الأجسام، وتبقى المواد غير العضوية فقط، ويستغرق ذلك زمنًا طويلا ويلاحظ علماء الجيولوجيا أن بعض أجسام المخلوقات الحية وبعض الأشجار المدفونة في صخور الأرض تتحجر مع احتفاظها بشكلها المميز لها غير أن مادتها صارت مكونة من صخور السليكون بدلًا من المواد العضوية التي كانت فيها

1 - الكشاف جـ2 ص 671 .

ويسمون تلك الأجسام المتحجرة (الأحافير) فالأحافير هي بقايا أجسام الكائنات الحية، فإذا كانت تلك الكائنات بعد دفنها في الأرض في عصور جيولوجية قديمة وتحولها إلى أجسام متحجرة في الصخور الرسوبية، وتتكون أنواع أخرى من الأحافير تستبدل فيها المواد العضوية في أجسامها، ليس بصخور السليكون ولكن بالأملاح المعدنية فيصير الجسم معدنا كمعدن الحديد، وكيف يحدث ذلك؟ يقول العلماء: إنه تحت ظروف جيولوجية معينة يستبدل كل جزئي من المواد العضوية في الجسم المدفون بجزئيين من مادة معدنية في صخور الأرض فيصير الجسم أحفرة معدنية، ولما كان معظم صخور الأرض من معدن الحديد، فإن تلك الأحافير تكون أحافير من حديد، ومعدن الحديد ليس هو الحديد الذي نعرفه في صناعة السيارة والقضبان الحديدية كلا فهذا هو (فلز الحديد)، ولكن معدن الحديد هو المواد الطبيعية المكونة لمعظم صخور الأرض مثل أكسيد الحديد المائي وأكسيد الحديديك وكربونات الحديد، فصخور الأرض وترابها خليط من عدة معادن، وتقوم المياه الجوفية باستبدال المواد العضوية في الأجسام الميتة المدفونة في التراب بالمواد الموجودة في التراب فإن استبدلتها بكربونات الكالسيوم أو السليكا صارت الأجسام حجارة وإن استبدلتها ببعض المعادن في صخور الأرض كمعدن الحديد صارت الأجسام وما يحدث لأجسام النباتات والكائنات الحية جميعا يحدث لجسم الإنسان بعد موته ودفنه في تراب الأرض:

1 . يتحول أولا إلي تراب .

2 . وإذا حدثت ظروف جيولوجية معينة صارت الأجسام أحفرة من حجارة .

3 . وإذا حدثت ظروف جيولوجية أخرى صارت الأجسام أحفرة من حديد .

ويتساءل الكافرون كيف سيبعثهم الله خلقا جديدا بعد أن تتحول أجسامهم إلى تراب في الأرض وبعد ملايين السنين فيتحداهم الله تبارك وتعالى بأنه سيبعثهم خلقًا جديدا ليس بعد

تحول أجسامهم إلي تراب فحسب، ولكن بعد أن تتحول أجسامهم إلى أحافير من حجارة أو أحافير من حديد، ولم يكن القدامى يعلمون شيئا عن الأحافير فإذا تكلم القرآن العظيم عن مصير الأجسام الحية مما لم يكشفه علم الجيولوجيا إلا حديثًا، فإن ذلك دليل على أن القرآن العظيم رسالة من الله إلي البشر جميعا في كل عصر من العصور من يوم نزوله وإلي يوم القيامة يحدثهم ويهديهم إلى سواء السبيل على قدر ما تطيق عقولهم وتستوعب أفكارهم والله عز وجل هو الذي خلق الناس وهو الذي يميتهم وهو الذي يحييهم وإليه يرجعون [1] فذلك قول الله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾﴾ **[الإسراء]**

ثانيا :إخراج الشيء من نقيضه.

إن من الدلائل القرآنية التي تخاطب العقل الإنساني في أمر البعث وا لمعاد هذا الدليل الذي نحن بصدد الحديث عنه والذي يتمثل في إخراج الشيء من نقيضه إذ نرى بأعيننا جمعًا من الأشياء المتناقضة التي يخلف بعضها بعضًا ويخرج بعضها من بعض، فنرى الليل يخرج من النهار ونرى النهار يولد من الليل ونرى الفرخة تخرج من البيضة والبيضة تخرج من الفرخة، ونشاهد الأرض الجدباء الميتة ينزل عليها الماء فتهتز به مخضرة تدب فيها الحياة مخرجة النبات والأشجار وغير ذلك كثير، وكثير من الأمور المتناقضة التي يخلف بعضها

1- أطوار الخلق في تاريخ الإنسان ص 137، 138 .

بعضا والتي نقف عليها بأعيننا، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يستبعد المنكرون للبعث خروج الوجود من العدم وخروج الإنسان حيا بعد أن كان ميتا.

يقول الدكتور عبد الحليم محمود: إن من الدلائل التي ثبت بها إمكان البعث والمعاد ظهور الشيء من نقيضه، كظهور النار من الشجر الأخضر مثلا، فهذا ممكن وواقع تحت الحس، وإذا يمكن أن تدب الحياة في الجسد المتحلل الهامد مرة أخرى، وذلك أيضًا على أساس المبدأ الأكبر، وهو أن الشيء يمكن أن يوجد من العدم المطلق بفعل المبدع الحق (1) .

ويقرر صاحب كتاب شرح العقيدة الطحاوية هذا الدليل فيبين أن الإنسان المنكر للبعث قد يقول إن العظام إذا رمت وبليت، فإنها تكون باردة يابسة في حين أن مادة الحي الرطوبة مع الحرارة، فكيف تكون الإعادة، فكان هذا الدليل إجابة لهذا السائل المستنكر عن شبهته تلك أن انظر إلي الوجود وما يحويه ترى أمورًا كثيرة تحمل فيما بينها تناقضا، ومع هذا يخرج بعضها من بعض، فنرى الشجر الأخضر وقد خرجت منه نارٌ مستعرة، مع ما بين الشجر الأخضر والنار من تناقض وتنافر، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يستبعد أن يخرج الله الوجود من العدم .

يقول شارح العقيدة الطحاوية: إن من الأمور المؤكدة لإمكان البعث تلك الحجة القاهرة والبرهان الظاهر الذي يتضمن جوابًا عن سؤال ملحد يقول العظام إذا صارت رميما عادت طبيعتها باردة يابسة والحياة لابد أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة بما يدل على أمر البعث وكان الدليل والجواب في قول الله سبحانه وتعالى من سورة يس ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ **[يس:80]**

---

1 - التفكير الفلسفي ص 57 ، ويراجع القرآن في شهر القرآن ص 95 .

فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذي يخرج الشيء من ضده وتتناوله مواد المخلوقات وعناصرها لا تستعصي عليه أن يفعل ما أنكره الملحدون ودفعه من إحياء العظام وهي رميم[1] .

ويقرر هذا الدليل أيضا صاحب كتاب البراهين العقلية والنقلية : مستندًا على القدرة الإلهية التي ترينا من عجائبها كيف يخرج الشيء من نقيضه فتخرج النار من الشجر الأخضر فيقول : إن دليل إخراج الضد قد جاء في سياق الرد على منكري البعث فقد بين الله تعالى أن استبعاد منكري البعث لإمكانية البعث والحياة الأخرى لا محل لله= إذ إن الأمر متعلق بقدرة الله تعالى، وهو تعالى قادر قدرة تامة وكل الممكنات واقعة تحت قدرته، والدليل على أن أمر البعث واقع تحت قدرته أنه أخرج الشيء من ضده، فقد أخرج النار التي هي في غاية الحرارة من ضدها وهو الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، ومن قدر على إخراج الشيء من ضده قادر بلا شك على إخراج الحياة من الموت وجمع العظام وهي رميم وبعث الحياة فيها [2]

ويقول صاحب كتاب عقيدة المسلم : إن الزروع التي تكسو وجه الأرض وتمشي فيها بالحياة والنماء ليست مما يصح الغفلة عن دلالته.

إن الفلاح يستودع في ظلمات التراب حبة واحدة أو ساقا واحدة فإذا حقله يتحول بسم الله إلي جنان يانعة وثمار شهية كيف تحول الكدر والقذر والطين إلي ثمار وأغصان ورياحين، والمادة الميتة تتحول في كل غذاء نتناوله إلي خلايا حية في جسومنا يسري فيها الشعور وتنتفض بالحركة، فما معنى استنكار ما يقع شبيهه بيننا أبدا هل النشور إلا هذا [3] .

---

1 – شرح العقيدة الطحاوية ص 4408 . أصول العقيدة الإسلامية ص 162 . الأسماء والصفات ص 647 .

2 – البراهين العقلية والنقلية على العقائد الإيمانية ص 224 .

3 – عقيدة المسلم ص 238 .

وإذا أتينا إلى الآيات القرآنية الكريمة لنقف على بيان هذا الدليل من خلالها سنجد قول الحق سبحانه وتعالى من سورة آل عمران ﴿ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧ ﴾ **[آل عمران:27]** .

هذه الآية الكريمة أخبرتنا عن جانب من الأشياء المتناقضة التي يخرج بعضها من بعض، فنجد الليل والنهار يأخذ كل من الآخر ليزاد في أمده، وذلك طبقا لظروف فلكية معينة فنشاهد زيادة النهار في فصل الصيف ونرى زيادة الليل في فصل الشتاء، ومع أن كليهما مناقض للآخر إلا أنه يولج أحدهما في الآخر .

ونرى أيضا الإنسان الحي يخرج من النطفة الميتة بحسب الظاهر الذي يتراءى أمام أعين الناس، وكذا الدجاجة تخرج من البيضة وكذا النبات يخرج من الأرض الميتة، كذلك نرى خروج الميت من الحي فنشاهد خروج النطف من الحيوانات بحسب الظاهر وخروج البيض من الدجاج والنواة من النبات، وإن كان في كل ما ذكر حياة لا يدركها إلا أصحاب العلوم، فمن قدر على إخراج هذه الأشياء من نقائضها بحسب ما نرى ونشاهد كيف يبعد عن قدرته إخراج الوجود من العدم وإخراج الإنسان حيًا مرةً أخرى بعد موته وتفرق أجزائه.

يقول صاحب كتاب أوضح التفاسير : إن إيلاج الليل في النهار إدخاله فيه بزيادة النهار ونقصان الليل، وإيلاج النهار في الليل إدخاله فيه بزيادة الليل ونقصان النهار كما هو مشاهد في نهار الصيف والشتاء وليليهما، وإخراج الحي من الميت بإخراج الدجاجة وهي حية من البيضة وهي ميتة، والإنسان وهو حي من المني وهو ميت في الظاهر وإخراج الميت من الحي

بإخراج البيضة وهي الميتة من الدجاجة وهي حية، والمني وهو ميت ظاهر من الإنسان وهو حي، أو تخرج النخلة والأشجار وهما أحياء بالفاكهة والثمار من النواة والبذرة [1] .

فمن قدر على إخراج هذه الأشياء المتناقضة بعضها من بعض ألا يقدر على إحياء الإنسان بعد موته، ويكون هذا إخراجا للحي من الميت الذي رأينا له أمثله كثيرة بأعيننا.

ونجد الإمام الطبري بعد أن ذكر تلك الأمثلة السابق ذكرها من إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي وغير ذلك نراه يرجح منها أن المقصود بها:

إخراج الإنسان الحي وما يشاركه في جنسه القريب من النطف، وإخراج النطف من الإنسان وغيره من الكائنات الحية، ويربط الإمام الطبري هذا الكلام بالبعث من طرف خفي من خلال ربط هذه الآية الكريمة بقول الله تعالى في سورة البقرة ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ **[البقرة:28]**

يقول الإمام الطبري: وأولى التأويلات التي ذكرناها في هذه الآية بالصواب تأويل من قال: يخرج الإنسان الحي والأنعام والبهائم الأحياء من النطف الميتة، وذلك إخراج الحي من الميت، ويخرج النطفة الميتة من الإنسان الحي، والأنعام والبهائم الأحياء، وذلك إخراج الميت من الحي، وذلك أنَّ كل من فارقة شيء من جسده، فذلك الذي فارقه منه ميت، فالنطفة ميتة لمفارقتها جسد من خرجت منه، ثم ينشأ الله منها إنسانا حيا وبهائم وأنعام أحياء، وذلك هو نظير قوله تعالى ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ **[البقرة:28]** [2]

1 - أوضح التفاسير ص 64 .

2 - جامع البيان جـ 3 ص 332 .

والواقع أن الترجيح بين التأويلات المختلفة في الآيات الكريمة لا يتعلق به كبير غرض إذ كلها تدل على القدرة الإلهية عقلا في بعث الموتى من قبورهم عن طريق نشاهده من إخراج الشيء من نقيضه .

و لفضيلة الشيخ الشعراوي تعليق على هذه الآية الكريمة يقول فيه : إن الوقفة هنا تجعلنا نرى كيف اهتدينا بما أفاض الله على بعض خلقه من اكتشاف لبعض أسرار كونه، ولقد وصل العلم لمعرفة أن لكل شيء حياة خاصة، فنرى أن ورقة النبات تحدث فيها تفاعلات، ولها حياة خاصة، ونرى أن الذرة فيها تفاعلات ولها حياة خاصة، والتفاعل معناه الحركة، والحياة كما نعرف مظهرها الحركة، وغاية ما هناك أنه يوجد فرق في رؤية الحياة عند العامة ورؤية الحياة عند الخاصة.

إن الإنسان العامي لا يعرف أن النطفة فيها حياة، وأن الحبة فيها حياة ولا يعرف ذلك إلا الخاصة من أهل البلد، والعامة من الناس لا يعرفون أن الحبة توجد لها حياة مرتبة، ويمكن فيها نمو غير ظاهر، ولا يعرف العامة أن هناك فرقًا بين شيء حي وشيء قابل بأن يحيا. ومثال ذلك نواة البلح التي نأخذها ونزرعها لتخرج منها النخلة، إذا فالنواة قابلة للحياة، وعندما ننظر إلي ذرات التراب فإننا لا نستطيع أن نضعها في بيئة لنصنع منها شيئا رغم ذلك، فإن لذرة التراب حركة.

إن هذه أمور يعرفها الخاصة ولا يعرفها العامة، فإن نظرنا إلى العامة عندما يسمعون القول الحق ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ **[آل عمران:27]**

كانوا يقولون إن المثل على ذلك نواة البلح، وكانوا يعرفون أن النخلة تنمو من النواة، ولكن الخاصة بحثوا واكتشفوا أن في داخل النواة حياة، وعرفوا كيفية النمو، وعرف العلماء

أن لكل شيء في الوجود حياة مناسبة لمهمته، فليست الحياة هي الحركة الظاهرة والنمو الواضح أمام العين فقط لا، بل إن هناك حياة في كل شيء.

إن العامة يمكنهم أن يجدوا المثال الواضح على أن الحق يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، أما الخاصة فيعرفون قدرة الله عن طريق معرفتهم أن كل شيء فيه حياة والتراب الذي نضع فيه البذر لو أخذنا بعضًا منه في مكان معزول، فلن يخرج منه شيء فيه حياة، هذا التراب هو ما يصفه العلماء بوصف الميت في الدرجة الأولى، وأما النواة التي يمكن أن نأخذها ونضعها في هذا التراب= فيصفها العلماء بأنها الميت من الدرجة الثانية، وعندما ننقل الميت في الدرجة الأولى ليكون وسطا بينيا للميت في الدرجة الثانية تظهر لنا نتائج تدلل على حياة كل من التراب والنواة معا، وقد مس القرآن ذلك مسا دقيقا؛ لأن القرآن حين يخاطب بأشياء قد تقف فيها العقول، فإنه يتناولها التناول الذي تتقبلها به كل العقول، فعقل الصفوة يتقبلها وعقل العامة يتقبلها أيضًا؛ لأن القرآن عندما يلمس أي أمر إنما يلمسه بلفظ جامع واق يتقبله الجميع، ثم يكتشف العقل البشري تفاصيل جديدة في هذا الأمر[1].

ثالثا : قياس خلق الإنسان على خلق السماوات والأرض ودلالة ذلك على إثبات البعث :

إن من الدلائل العقلية التي استخدمها القرآن الكريم ملفتا الأذهان إليها في مسألة إثبات البعث والمعاد دليل عقلي هو من الأهمية بمكان والذي يتمثل في مقارنه خلق الإنسان بخلق السماوات والأرض وتعلق ذلك بإثبات البعث فالمتأمل في خلق السماوات والأرض وما

1 - تفسير الشعراوي جـ 3 ص 1914 .

فيهما يجد أنهما جرمان يبلغان من العظمة والاتساع ما لا يحيط به علم البشر وما لا ذكر بجواره لخلق الإنسان، فأي ذكر لمخلوق صغير ضعيف بجانب مخلوق قوى كبير؟

فإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد خلق السماوات والأرض على هذا النحو الهائل العظيم الذي لا نعلم عن كنهه أو حقيقته إلا شيئًا يسيرًا فهل يخرج عن نطاق قدرته إعادة الإنسان الذي لا يذكر خلقه بجوار ما خلق الله من سماوات وأرض.

إن العقل المنصف يقول والحالة هذه: إن من خلق هذه الأجرام العظيمة الهائلة المتسعة من الميسور له أن يبعث الإنسان ويحيه بعد موته يقول صاحب كتاب العقيدة الإسلامية وأسسها :إن قدرة الله تعالى لا تقف دونها حدود في مجال الأمور الممكنة عقلًا التي لا استحالة فيها قادرة على أن تحي الموتى حياة جسدية، وروحية لتسوقهم إلى العالم الآخر عالم الجزاء، أو ليس من خلق السماوات والأرض دون أن يجهد بخلقهن بقادر على إحياء الموتى وإعادتهم إلي الحياة مرة ثانية، بلي إنه لقادر [1].

إذا فخلق الأجرام العظيمة من سماء وأرض وما بينهما حجة عقلية واضحة وبرهان ساطع على طلاقة القدرة الإلهية = هذه القدرة التي لا يذكر بجانب فعلها في خلق السماوات والأرض خلق الإنسان أو إحياءه وإعادته بعد موته.

"فإن أظهر الدلائل على إثبات البعث وإمكانه أخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر الأصغر فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر فمن قدر على حم لقنطار فهو على حمل أوقية أشد اقتدارا فالذي أبدع السماوات

---

1 – العقيدة الإسلامية وأسسها ص 560 ، التذكرة ص 210 .

والأرض على جلالتهما وعظم شأنهما وكب وأجسامهما وسعتهما وعجيب خلقهما أقدر على أن يحيي عظاما قد صارت وميا فيردها إلي حالتها الأولى [1] .

وإذا كنا نقول إن خلق الإنسان وبعثه بعد موته ليسره وسهولته لا يرد له ذكر بجوار خلق السماوات والأرض فإن هذا إنما يكون بحسب ما تعارفنا عله في نطاق القدر البشرية وإلا فإن القدرة الإلهية كما سبق وقررنا مرارا لا تتفاوت المقدورات لديها بيسر وصعوبة يقول صاحب كتاب البراهين العقلية: إن هذا الدليل يقوم على أن من قدر على خلق الأمور العظيمة قدر بلا شلك على خلق الأصغر منها وخلق الإنسان بحسب المقاييس البشرية أيسر وأسهل من خلق العالم الأكبر الإنسان بالنشأة الأخرى ليلقى الجزاء ثوابا أو عقابا [2] .

ولصاحب كتاب عقيدتنا كلام مثل هذا به يثبت البعث عن طريق هذا الدليل العقلي فيقول: إن من أدلة إثبات البعث أن من قدر على الأكبر قدر على الأصغر من باب الأولى فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو ما دونه بكثير أقدر وأقدر فمن قدر على حمل مائة كيلو جرام فهو على حمل كيلو جرام واحد أشد اقتدارًا، فأخبر أن الذي أبدع السماوات والأرض على عظم شأنهما وكبر حجهما وعجيب خلقهما أقدر على أن يحيي عظامًا قد صارت رميما [3] .

إذا فهذا المسلك من مسالك الاستدلال العقلي على إمكان البعث وإثباته إنما هو قائم على وجود موجودات وأجرام هي في خلقتها وهيئتها أعظم من الإنسان، ومن ثم فلا يذكر خلق

1 – شرح العقيدة الطحاوية ص 408، الأسماء والصفات ص 647 .

2 – البراهين العقلية والنقلية على العقائد الإيمانية ص 235، عقيدة المؤمن ص 326 .

3 – عقيدتنا ص 178، الدعوة الإسلامية في عهدها المكي ص 502، المدخل للتفسير الموضوعي ص 245 .

الإنسان بجوارها وإذا كان الأمر كذلك فإن من خلقها أقدر على بعث الإنسان وإحيائه بعد موته وبلاه.

ونرى صاحب كتاب عقيدة المسلم يحدثنا عن عظم خلق السماوات والأرض مشبهها إياهما بقصر ضخم منيف، ثم يشبه الإنسان بجوارهما بهيئة كوخ صغير يتضاءل إذا ذكر معهما، ثم نراه يعقب على ذلك بأن من قدر على بناء ذلك القصر الضخم العظيم-أي: السماوات والأرض- يقدر من باب أولى على بناء هذا الكوخ الصغير -أي الإنسان- [1].

وإذا كان هذا هو تقرير هذا المسلك العقلي من حيث دلالته على إمكان البعث، فإن القرآن الكريم في غير موضع من آياته قد تعرض له موضحًا إياه ولعلنا لاحظنا أن هذا الدليل العقلي يستند قيامه إلي التنبيه بما هو مشاهد لدى الإنسان من عظم جرمي السماوات والأرض، وهذه حقيقة واقعية ينبغي أن يضعها الإنسان في فكره ويعييها بعقله عندما يرى القرآن الكريم في غير موضع من آياته، وقد قرن بين خلق السماوات والأرض، وبين إحياء الموتى، ومن ثم كان التنبيه على هذه المسألة في قول الله تعالى من سورة غافر﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾[غافر:57]

وكأن القرآن الكريم يريد أن يقول للعقول انظروا إلي خلق السماوات والأرض؛ لتقفوا من وراء ذلك على طلاقة قدرة الخالق في الخلق حيث لا يرد ذكرٌ لخلق الإنسان، أو إعادته بجانب ما تشاهدون، وكأن القرآن الكريم يطلب منا أن نضع هذه الآية الكريمة في الحسبان على الدوام لاسيما ونحن نشاهد الآيات الأخرى، وقد مزج فيها بين خلق السماوات

1 - انظر: عقيدة المسلم ص 139 .

والأرض وإحياء الموتى، ومن ثم يسهل علينا الاهتداء إلي وجه الاستدلال العقلي من خلال تلك الآيات.

يقول الإمام الزمخشري: إن مجادلة الكافرين في آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث وهو أصل المجادلة ومدارها فحجوا بخلق السماوات والأرض؛ لأنهم كانوا مقرين بأن الله خلقهما وبأنهما خلق عظيم لا يُقدر قدره، وخَلقُ الناس بالقياس إليه شيء قليل مهين، فمن قدر على خلقهما مع عظمهما كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر [1].

ويرى صاحب الانتصاف أن دلالة تلك الآية الكريمة العقلية على الإعادة والبعث فيقول: إن الأولية بالاستشهاد في هذه الآية ثابتة بدرجتين :

أحدهما : ما ذكره من أن القادر على العظيم هو على الحقير أقدر .

الثانية : أن مجادلتهم كانت في البعث، وهو الإعادة ولاشك أن الابتداء أعظم وأبهر من الإعادة، فإذا كان ابتداء خلق العظيم يعني السماوات والأرض داخلًا تحت القدرة، فابتداء خلق الحقير يعني الناس أدخل تحتها، وإعادته أدخل من ابتدائه، فهو أولى بأن يكون مقدورًا عليه مما اعترفوا به من خلق السماوات والأرض بدرجتين [2] .

ولعل صاحب الانتصاف لاحظ أنه لم يبعد كثيرا بكلامه هذا عما ذكره صاحب الكشاف لذا نراه يقول : إذا تأملت ما ذكرته منسوبا لما ذكره الزمخشري علمت أن ما ذكره هو لباب المراد فجدد عهدًا به إن لم تعلم ذلك [3] .

1 - الكشاف جـ 4 ص 174 .

2 - الانتصار جـ 4 ص 174 .

3 - المرجع السابق جـ 4 ص 174 .

ثم نجد الإمام الرازي يحدثنا عن هذه الآية الكريمة ودلالتها العقلية على إمكان البعث فيقول:

إن القادر على الأكبر قادر على الأصغر لا محالة، وتقرير هذا الكلام أن الاستدلال بالشيء على غيره على ثلاثة أقسام :

أحدهما: أن يقال لما قدر على الأضعف وجب أن يقدر على الأقوى وهذا فاسد .

ثانيهما : أن يقول لما قدر على الشيء قدر على مثله، فهذا الاستدلال حق لما ثبت في العقول أن حكم الشيء حكم مثله.

ثالثهما : أن يقال لما قدر على الأقوى الأكمل، فبأن يقدر على الأقل الأرذل كان أولى، وهذا الاستدلال في غاية الصحة والقوة ولا يرتاب فيه عاقل ألبتة...ثم إن هؤلاء القوم يسلمون أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، وكان حقهم أن يقروا بأن القادر على خلق السماوات والأرض يكون قادرًا على إعادة الإنسان الذي خلقه أولى فهذا برهان جلي في إفادة المطلوب [1] .

ثم يوجه الحق سبحانه وتعالى نظر الإنسان إلي برهان عقلي آخر به يستدل على إمكان البعث ويتمثل في كون المتأمل في خلق الأرض، وما بث الله فيها سبحانه وتعالى من منافع، وخلق السماوات وما وضح فيها من التئام واتساق لا يرى معه أدني تفاوت يعلم ويوقن بلا ريب أنَّ هذا الخلق أعجب وأكبر من خلق الإنسان الضعيف، ومن ثم فإن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الإنسان الضعيف، ولذا نقول إن خلق السماوات والأرض وما فيهن أقدر على بعث الإنسان وإعادته يقول سبحانه وتعالى في سورة البقرة ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ

1 - مفاتيح الغيب جـ 13 ص 571 ويراجع البحر المحيط جـ 7 ص 472 وكذا الفتوحات الإلهية جـ4 ص20 .

وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ **[البقرة]** .

لقد ذهب معظم المفسرين إلي أنَّ هذه الآية تدل على القدرة الإلهية على الخلق، ومن ثم فقد برهن هذا على إثبات الوجود والوحدانية، والواقع أنهم لم يبينوا إمكان الربط بين الآيتين كي يستخلص الدليل العقلي على إمكان البعث من خلالهما، ومن ثم يمكن أن نقول في توجيه ذلك أن الحق سبحانه وتعالى يمَمَ نظر الإنسان إلي نفسه؛ ليرى من خلال ذلك أن ما حدث في بدء نشأته الأولى من الخلق يمكن أن يتخذ دليلًا وبرهانا عقليًا على إثبات إمكان النشأة الثانية، ولما كان القرآن الكريم يخاطب جميع العقول وكافة المستويات ويقرر الحقيقة الواحدة بأكثر من دليل قال لهم إذا لم تدركوا هذا من أنفسكم، فانظروا إلي الوجود من حولكم تجدوا سماوات وأرض فيها من الدقة في الصنع والعظم في الجرم والدلالة على القدرة ما لا يذكر بجواره خلقكم أو بعثكم، فإن من خلقهما قادر على إعادتكم بعد مماتكم، ولعل ما يعين على تأييد هذا ختام الآية يقول الله تعالى ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ **[البقرة:29]**

وكأن الحق سبحانه وتعالي يريد أن يقول يا من استبعدتم البعث والإعادة بعد المات قائلين أني يحيي الله العظام بعد تفرقها وبلاها واختلاطها مع غيرها من العناصر اعلموا إنكم غير معجزي الله فإن من قدر على خلق السماوات والأرض مع عظمهما قادر على إعادتكم بغير أن تشتبه عليه أجزاؤكم بأجزاء غيركم إذ إنه تعالى موصوف بكمال العلم وتمامه فهو بكل شيء عليم وأجزاؤكم التي تفرقت وعادت إلي عناصرها الأولى هي شيء من الأشياء، ومن ثم فإنه تعالى عالم بها .

هذا، ونرى الإمام الرازي يحدثنا عن هذا الدليل العقلي الذي نحن بصدد الحديث عنه من خلال الآيتين السابقتين بصورة مقتضبة فيقول : كيف تكفرون بقدرة الله على الإعادة وقد أحياكم بعد موتكم، ولأنه خلق لكم ما في الأرض جميعًا فكيف يعجز عن إعادتكم [1].

ونرى الإمام البيضاوي يحدثنا في تفصيل رائع عن المعاني العقلية المستشفة من الآيتين السابقتين رابطًا في وحدة واحدة بين ابتداء الخلق والقدرة على خلق الأجرام العظيمة المتمثلة في خلق السماوات والأرض وكمال العلم الإلهي المبين يقول الله تعالى (هو بكل شيء عليم) وارتباط كل هذا ودلالته على البعث ولا معاد فيقول في تعليقه على قول الله سبحانه﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ **[البقرة:29]** : فيه تعليل كأنه قال ولكونه عالما بكنه الأشياء كلها خلق ما خلق على هذا النمط الأكمل والوجه الأنفع، والاستدلال بأن من كان فعله على هذا النسق العجيب والترتيب الأنيق كان عليمًا فإن إتقان الأفعال وإحكامها وتخصيصها بالوجه الأحسن الأنفع لا يتصور إلا من عالم حكيم رحيم، وإزاحة لما يختلج في صدورهم من أن الأبدان بعدما تبددت وتفتت أجزاؤها واتصلت بما يشكلها كيف تجمع أجزاء كل بدن مرة ثانية بحيث لا يشذ شيء منها، ولا ينضم إليها ما لم يكن معها فيعاد منها كما كان، ونظيره قوله تعالى ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ **[البقرة:29]**، واعلم أن صحة النشر مبنية على ثلاث مقدمات وقد برهن عليها في هاتين الآيتين:

أما الأولى: فهو أن مواد الأبدان قابلة للجمع والحياة، وأشار إلي البرهان عليها بقوله ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾**[البقرة:28]**

1 - مفاتيح الغيب جـ 1ص 564 .

فإن تعاقب الافتراق والاجتماع والموت والحياة عليها يدل على أنها قابلة لها بذاتها، وما بالذات يأبي أن يزول أو يتغير.

وأما الثانية والثالثة: فإنه عالم بها وبمواقعها قادر على جمعها وإحيائها وأشار إلي وجه إثباتها بأنه تعالى قادرٌ على إبدائهم وإبداء ما هو أعظم خلقًا وأعجب صنعا، فكان أقدر على إعادتهم وإحيائهم وأنه تعالى خلق ما خلق خلقًا مستويا محكما من غير تفاوت واختلال مراعيا فيه مصالحهم وسد حاجاتهم، وذلك دليل على تناهي علمه وكمال حكمته جلت قدرته ودقت حكمته [1].

ثم نجد أيضًا الإشارة إلي هذا الدليل العقلي في قول الحق سبحانه وتعالى من سورة المائدة: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

إن تعذيب الخلائق ومغفرة الذنوب لهم إنما يكون عند الحساب يوم أن نلقى الله، وهذا لا يتم إلا ببعث الأجسام وحشرها والذي برهن على إمكانه ما رسخ لدي الخلائق من يقين به علموا أن الحق سبحانه وتعالى خالق ومالك للسماوات والأرض ومن كان خالقًا لهما مع عظمهما بل قد دانتا له ملكا وتصرفا قادر من باب الأولى على إعادة من دونهما وبعثهم للحساب والجزاء، ومن ثم كان التأكيد على هذه القدرة في عجز الآية الكريمة يقول الله سبحانه (والله على كل شيء قدير) وبعث الأجساد ونشرها للحساب والجزاء شيء من الأشياء إذا فالله سبحانه وتعالى قادر عليه .

---

1 - أسرار التنزيل جـ 1 ص 24 .

أيضا نجد الإشارة إلي هذا المعني في قول الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢ ﴾[الأنعام:12] .

إنَّ هذا الاستفهام التقريري الذي ساقته الآية الكريمة، والذي يجد الإنسان نفسه مضطرًا أمامه إلى الإذعان بأن خالق السماوات والأرض ومالك ما فيهما هو الله، وهذا يجعل الإنسان مضطرًا أيضًا أن يتخذ من هذا شاهدا وبرهانا على إثبات الإمكان للبعث والمعاد حيث إن من خلق السماوات والأرض وملك ما فيهما هو القادر من باب الأولى على جمع الخلائق وبعثهم للحساب والجزاء.

يقول الإمام الرازي: اعلم أن المقصود من تقرير هذه الآية تقرير إثبات المعاد ... وبيانه أنَّ أحوال العلم العلوي والسفلي يدل على أن جميع هذه الأجسام موصوفة بصفات كان يجوز عليها اتصافها بأضدادها ومقابلاتها، ومن كان كذلك فاختصاص كل جزء من الأجزاء الجسمانية بصفته المعينة، فهذا يدل على أن العالم مع كل ما فيه مملوك لله تعالى، وإذا ثبت هذا ثبت كونه قادرًا على الإعادة والحشر والنشر؛ لأن ملكه لما في السماوات والأرض إنما حصل لكونه قادرا على كل الممكنات عالما بكل المعلومات وهذه القدرة والعلم يمتنع زوالهما فوجب صحة الإعادة ثانيا (1) .

ولأجل هذه الدلائل العقلية الظاهرة على إمكان البعث من خلال خلق السماوات والأرض كان الإنكار لأمر البعث مع وضوح هذه الدلائل العقلية أمرًا مثيرا للدهشة والعجب، ومن ثم فقد بين الحق سبحانه وتعالى ذل في قوله عز وجل من قائل في سورة

---

1 - مفاتيح الغيب جـ 6 ص 236 .

الرعد﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾**[الرعد]** .

يقول الإمام الرازي: إن تعجب يا محمد فقد عجبت في موضع العجب؛ لأنهم لما اعترفوا بأنه تعالى مدبر السماوات والأرض وخالق الخلائق أجمعين، وأنه هو الذي رفع السماوات بغير عمد وهو الذي سخر الشمس والقمر على وفق مصالح العباد، وهو الذي أظهر في العالم أنواع الغرائب والعجائب، فمن كانت قدرته وافية بهذه الأشياء العظيمة كيف لا تكون وافيه بإعادة الإنسان بعد موته ؛ لأن القادر على الأقوى الأكمل فلأن يكون قادرًا على الأقل الأضعف أولى [1] .

ويحدثنا الإمام الزمخشري عن مناط التعجب في قول الكافرين ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ﴾**[الرعد:5]**

وكيف عميت أبصارهم عما عدده الله لهم من أشياء خلقها دالة على قدرته فكان الأحرى بهم أن يتخذوا من خلالها دلائل بها يقينون بالبعث بدلاً من الكفر به.

1 - مفاتيح الغيب جـ 9 ص 190 .

يقول الزمخشري: وإن تعجب يا محمد من قولهم في إنكار البعث فقوله عجيب حقيق بأن يتعجب منه؛ لأن من قدر على إنشاء ما عدد عليك في الفطر العظيمة ولم يعي بخلقهن كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره [1].

ويقول الإمام البيضاوي في تعليقه على هذه الآيات الكريمات : إن القول بإنكار البعث واستبعاده حقيق بأن يتعجب منه فإن من قدر على إنشاء ما قص عليك مع عظمه كانت الإعادة أيسر شيء عليه، والآيات المعدودة كما هي دالة على وجود المبدأ، فهي دالة على إمكان الإعادة من حيث إنها تدل على كمال علمه وقدرته وقبول المواد لأنواع تصرفاته [2] ..

وإذا كنا قد قررنا فيما سبق موضع الاستدلال بالآيات القرآنية على إمكان البعث، فإن الإمام الرازي نراه ينطلق من قول الله تعالى في الآيات السابقة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ ليسجل أن الآية الكريمة قد توجهت بالكفر على من وقف من البعث والمعاد موقف الإنكار إذ إن في إنكار البعث طعن في القدرة والعلم الإلهي.

يقول الإمام الرازي : إن قول الله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ يدل على أن كل من أنكر البعث والقيامة فهو كافر، وإنما لزم من إنكار البعث الكفر بربهم من حيث إن إنكار البعث لا يتم إلا بإنكار القدرة و العلم والصدق، أما إنكار القدرة فكما إذا قيل: إن إله العالم موجب بالذات لا فاعل بالاختيار، فلا يقدر على الإعادة، أو قيل إنه وإن كان قادرا لكنه ليس تامَّ القدرة، فلا يمكنه إيجاد الحيوان إلا بواسطة الأبوين وتأثيرات الطبائع والأفلاك .

---

1 – الكشاف جـ 2 ص 513 .

2 – أنوار التنزيل جـ 1 ص 358 .

أما إنكار العلم، فكما إذا قيل: إنه تعالى غير عالم بالجزئيات فلا يمكنه تمييز هذا المطيع عن العاصي .

أما إنكار الصدق، فكما إذا قيل: إنه وإن أخبرعنه لكنه لا يفعل؛ لأن الكذب جائز عليه، ولما كان كل هذه الأشياء كفر ثبت أن إنكار البعث كفر بالله [1] .

وإذا كان هذا هو جانب من الدلالة العقلية على أمر البعث والمعاد من خلال هذه الآية الكريمة فإننا نجد مثل هذه الدلالة العقلية في قول الحق سبحانه وتعالى من سورة الروم﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ **[الروم:27]** . لقد حدثتنا هذه الآية الكريمة عن البعث والمعاد بدليلين عقليين الأول ما تقدم ذكره من قياس الإعادة على البدء، وكيف أن الإعادة للشيء أهون وأيسر في عرف الناس من الابتداء على غير مثال سبق، وإن كانت القدرة الإلهية كما نبهنا مرارا لا تتفاوت المكنات لديها بيسر أو صعوبة، ثم كان الدليل الثاني الذي بين لنا الحق سبحانه وتعالى من خلاله صورة أخرى لهذه الأهونية على حسب ما هو متعارف عندنا، والتي من خلالها نقف على إثبات البعث حيث إن خلق السماوات والأرض أمر كبير عظيم، فمن قدر عليه تثبت له القدرة على ما دونه وهو إعادة الإنسان وبعثه بعد موته وبلاه.

يقول الإمام الرازي : إن الإعادة التي يخرج من خلالها الإنسان بشرا سويًا أهون على الله إذ الهين ما لا يتعب منه الفاعل والأهون مالا يتعب فيه الفاعل بالطرق الأولى، فإذا قال قائل إن الرجل القوي لا يتعب من نقل شعيرة من موضع إلي موضع وسلم السامع له بذلك، فإذا قال فكونه لا يتعب من نقل خردلة يكون ذلك كلامًا معقولًا مبقي على حقيقته، ولذا كان

1 - مفاتيح الغيب ج9 ص 190 .

قوله تعالى ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ **[الروم:27]** ويفهم منه ما ذكرنا من الأولوية من غير لزوم تعب في الآخر [1]

ويحكي القرآن الكريم في موضع آخر إنكار الكافرين لأمر البعث واستبعادهم له عندما أخبروا به وكيفية الاحتجاج عليهم بخلق السماوات والأرض إذ يقول تعال في سورة سبأ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ **[سبأ:9]** .

يقول الإمام ابن كثير : لقد استبعد الكفار أمر البعث فقالوا: إذا تفرقت أجسادكم في الأرض وذهبت كل مذهب وتمزقت كل ممزق أتعودون أحياء مرة أخرى.

فكان الجواب عليهم: إن في النظر إلى خلق السماوات والأرض لدلالة لكل عبد فطن على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد، ووقوع المعاد؛ لأن من قدر على خلق السماوات في ارتفاعها واتساعها وهذه الأرضيين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام [2]

وبعد أن بين لنا الإمام ابن كثير موطن شبهة الكافرين في إنكار البعث من خلال هذه الآيات وكيف دفع القرآن الكريم هذه الشبهة بالاستدلال العقلي عليها بعظم خلق السماوات والأرض مما لا يذكر بجانبه أمر الإعادة للإنسان نرى الأستاذ المراغي بعد ذلك يذكر لنا

1 – مفاتيح الغيب جـ 12 ص 466 .

2 – تفسير القرآن العظيم جـ 3 ص 526 وكذا الجامع لأحكام القرآن جـ 8 ص 5532 .

أيضا موطن الاستدلال العقلي على إمكان البعث بعد خلال تلك الآيات بشيء من الإسهاب إذ يقول : أفلم ينظر هؤلاء المكذبون بالمعاد الجاحدون للبعث بعد المات فيعلموا أنهم حيث كانوا فإن أرضي وسمائي محيطة بهم، فَذَكَّرَهُمُ الله تعالى بأظهر شيء لديهم يُعاينونه حيثما وجدوا ولا يغيب عن أبصارهم حيثما ذهبوا، فهذا دليل على قدرته على البعث والإحياء، فإن من قدر على خلق تلك الأجرام العظام لا تعجزه إعادة الأجسام، فهي إذا قيست بها كانت كأنها لا شيء، ثم نرى الحق سبحانه وتعالى ذكر ما هو كالعلة في الحث على الاستدلال بذلك ليزيح إنكارهم بالبعث فقال﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾[سبأ:9]

أي: إن النظر إلي خلق السماوات والأرض لدلالة لكل عبد فطن على كمال قدرتنا على بعث الأجسام ووقوع المعاد؛ لأن من قدر على خلق هذه السماوات على ارتفاعها واتساعها وعلى هذه الأرض على انخفاضها وطولها وعرضها قادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام [1] .

ومن ثم نرى و جها آخر للاستدلال العقلي على البعث وهو : لما استبعد الكفار هذه الحقيقة ووقفوا من البعث موقف الإنكار مرددين في جرأة وقحة تدل على غياب عقولهم كما حكت سورة ق﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾[ق:3] .

إذا كان هذا هو زعم الكافرين فإن الحق سبحانه وتعالى قد خاطب عقولهم وأبطل زعمهم فاحتج عليهم في السورة ذاتها بقوله ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق] إذا فقد احتج الحق تبارك وتعالى على من زعم كذبا

1 – تفسير المراغي جـ 8 ص 62 .

أن البعث حديث خرافة بخلق السماوات والأرض، وما فيهما من آثار القدرة التي تدل على أن من قدر على خلق السماوات والأرض مع عظمهما أقدر على إحياء والموتى وبعثهم من قبورهم.

يقول الإمام الرازي في بيان الدلالة العقلية لخلق السماء على الإحياء والإعادة للموتى: أما وجه الدلالة فإن الإنسان له أساس هي العظام التي هي كالدعامة وقوى وأنوار كالسمع والبصر .

فبناء السماء أرفع من أساس البدن وزينة السماء أكمل من زينة الإنسان بلحم وشحم، وأما الأولوية فإن السماء مالها من فروج فتأليفها أشد وللإنسان فروج ومسام، ولاشك أن تأليف الأشد كالنسج الأضعف كالنسج الأسخف والأول أصعب عند الناس وأعجب فكيف يستبعدون الأدون مع علمهم بوجود الأعلى من الله تعالى[1] .

وبعد أن ذكر الإمام الرازي دلالة خلق السماوات على أمر البعث والمعاد يعود فيذكر لنا بعد ذلك الدلالة العقلية من خلال خلق الأرض على أمر البعث والمعاد فيقول ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾ **[الحجر:19]** إشارة إلي دليل آخر ووجه دلالة الأرض هو أنهم قالوا : الإنسان إذا مات وفارقته القوة الغازية والنامية لا تعود إليه تلك القوة فنقول : الأرض أشد جمودا وأكثر خمودا والله تعالى ينبت فيها أنواع النبات وينمو ويزيد، فكذلك الإنسان تعود إليه الحياة، وذكر في الأرض ثلاثة أمور كما ذكر في السماء ثلاثة أمور في الأرض المد وإلقاء الرواسي والإنبات فيها، وفي السماء البناء والتزين وسد الفروج وكل واحد في مقابله واحد، فالمد مقابله البناء؛ لأن المد وضع والبناء رفع،

1 - مفاتيح الغيب ج14 ص 425 .

والرواسي في الأرض ثابتة والكواكب في السماء مركوزة مزينة لها والإنبات في الأرض شَقُّهَا وهو على خلاف سد الفروج وإعدامها، وَإِذَا عَلِمْتَ هَذَا فَفِي الْإِنْسَانِ أَشْيَاءُ مَوْضُوعَةٌ وَأَشْيَاءُ مَرْفُوعَةٌ وَأَشْيَاءُ ثَابِتَةٌ كَالْأَنْفِ وَالْأُذُنِ وَأَشْيَاءُ مُتَحَرِّكَةٌ كَالْمُقْلَةِ وَاللِّسَانِ، وَأَشْيَاءُ مَسْدُودَةُ الْفُرُوجِ كَدَوْرِ الرَّأْسِ والأغشية المنسوجة نسجا ضعيفا وأشياء لها فروج وشقوق كالْمَنَاخِرِ وَالصِّمَاخِ وَالْفَمِ وَغَيْرِهَا، فالقادر على خلق المهاد والسبع الشداد على هذا النحو العظيم وعلى خلق الأضداد فيهما غير عاجز عن خلق نظيرها في هذه الأجسام [1] .

وعلى هذا فكلام الإمام الرازي يوحي بأنه يمكن الاستدلال من خلال هذه الآيات على إمكان البعث بدليلين:

الأول : إخراج الشيء من نقيضه ودلالته على إخراج الوجود من العدم .

والثاني : قياس خلق السماوات والأرض وما فيهما من أوجه العظمة الدالة على القدرة وطلاقتها في خلق وإعادة من دونهما من أفراد الإنسان، وبناء على ما تقدم نعلم أن من البراهين العقلية اليقينية التي يثبت بها الإعادة والبعث لأفراد الإنسان الاستدلال بعظم خلق السماوات والأرض على ذلك، وهذا أمر قد قرره القرآن الكريم في غير موضع من آياته، وعلى هذا فيمكن صياغة هذا الدليل العقلي في هيئة قياس منطقي نقول فيه: الله قادر على خلق السماوات والأرض وكل من كان كذلك تثبت له القدرة على ما دونهما من إحياء الموتى، فالنتيجة: الله تثبت له القدرة على إحياء الموتى .

رابعا طلاقة القدرة في الإعادة والتكوين :

1 - مفاتيح الغيب جـ 14 ص 426 .

إن من الدلائل العقلية التي أقامها القرآن الكريم على إثبات البعث وإمكانه دليل المقارنة بين فعل الله وفعل البشر إذ البشر متصفون بمحدودية القدرة، ومن ثم فإذا قصدوا إلي شيء يفعلونه فإنهم يحتاجون إلي مادة يكون منها صنع هذا الشيء، وزمان يتم فيه الصنع والمنكرون للبعث قاسوا الإعادة على هذا النحو من القدرة البشرية، ومن ثم كان مكمن الخطأ؛ إذ القدرة الإلهية لا تتوقف فعلها على مادة أو زمان، وإنما هناك أمر تكويني يتلاشى بجانبه المادة والزمان وإلا فعلام الفرق بين القدرة التي كان بها الحق تبارك وتعالى إلها والقدرة التي كان بها الإنسان عبدًا مألوها، ومادام قد رسخ في الأذهان الفرق بين القدرتين وبين الفعل الإلهي والفعل البشري، فلا مجال لاستنكار البعث أو استبعاده على أي وجه أو وضع يكون الجسم فيه بعد الموت .

ويحدثنا الدكتور: عبد الحليم محمود عن هذا الدليل العقلي وكيفية البرهنة به على إمكان البعث فيقول : الخلق والفعل مطلقا مهما عظم المخلوق لا يحتاج من جانب الله المبدع لا إلى مادة ولا إلي زمان خلافًا لفعل البشر الذي لا يتم إلا في زمان، ويحتاج إلي مادة تكون موضوع الفعل وهذا هو قول الله في سورة يس ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ **[يس:82]** إذ إن هذا القول إجابة عما في قلوب الكفار من النكير بسبب ظنهم أن الفعل الإلهي المتجلي في خلق العالم الكبير يحتاج إلي زمان يناسب عظمته قياسًا منهم لفعل الله على فعل البشر؛ لأن فعل البشر لما هو أعظم يحتاج إلي مدة زمنية أطول، فجاء هذا الجزء من الآية حاسما في بيان نوع الفعل الإلهي وأنه إبداع بالإرادة الخالقة [1] والقدرة المطلقة لا يحتاج إلي مادة ولا إلى امتداد زماني [2] .

1 – الأوفق أن يقال الإرادة المخصصة والقدرة الخالقة المطلقة .

2 – التفكير الفلسفي ص 57 ويراجع القرآن في شهر القرآن ص 140، الدعوة الإسلامية في عهدها المكي ص 508.

وإذا أتينا إلى القرآن الكريم لنقف على هذا الدليل العقلي من ثنايا آياته، فإننا سنجده وقد ذكر في غير آية إما تضمينا يلزم الآية لزوما بينا، وإمَّا تصريحًا سيق لبيان الإثبات للبعث والدلالة العقلية على إمكانه، فمن النوع الأول الذي يدل على وجود الفرق الجلي، والواضح بين الفعل الإلهي والفعل البشري ويدل على انسحاب ذلك على أمر البعث عن طريق اللزوم البيّن قول الحق سبحانه وتعالى في سورة البقرة﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧ ﴾**[البقرة:117]** .

إن هذه الآية الكريمة وإن كانت لا تدل على إثبات البعث صراحة عن طريق المقارنة بين الفعل الإلهي والفعل البشري بيد أنها تدل على أن الفعل الإلهي لا يتوقف على مادة أو آلة أو زمان أو معين وإنما هناك أمر تكويني نابع من إرادة إلهية فتنساق لقدرته الأشياء فلا يحدث منها إباء أو امتناع بخلاف الفعل البشري الذي يفتقر إلي كل هذا، ومن ثم فإن الآية الكريمة تبرهن بوضوح على أنَّ الحق سبحانه وتعالى إذا أراد أمرًا من الأمور فإنه واقع لا محالة إذ قدرته تعالى التي بها يتأتى ذلك الأمر لا تتوقف في فعلها على مادة أو آلة أو زمان أو معين، ومن ثم فإن الأمر المراد من اليسر والسهولة وقوعه، وإمكان حصوله، وإذا كان هذا على وجه العموم، فإنَّ إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم أمر من الأمور التي قضت الآية بإمكان وقوعه ما دام قد تعلق بها الأمر التكويني وعلى هذا فالمفهوم من الآية الكريمة أنَّ الحق سبحانه وتعالى إذا أراد أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، وإحياء الموتى وبعثهم من قبورهم أمر من الأمور، ولذا على ضوء هذه الآية الكريمة فإن هذا الأمر يسهل حصوله، ويمكن وقوعه من الحق تبارك وتعالى دون توقف على مادة أو آلة وغير ذلك من مقومات وقوع الفعل بخلاف ما إذا كان هذا الفعل واقعًا من أحدٍ من البشر، فإنه في حاجة وافتقار إلى كل ما تقدم.

يقول الإمام الزمخشري في جانب من تعلقيه على هذه الآية الكريمة : إن ما قضاه الحق من الأمور، وأراد كونه فإنما يتكون ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف، كما أن المأمور المطيع الذي يؤمر فيمتثل، ولا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء، ومن كان بهذه الصفة من القدرة كانت حاله مباينة لأحوال الأجسام في القدرة على إيتاء الأفعال [1].

وهذه المخالفة في القدرة على الفعل بين الله وبين خلقه أمر تقتضيه ضرورة العقل؛ وذلك لأن الحق سبحانه وتعالى قد ثبت له من خلال ما تقدم وجوب الوجود الذاتي، وكذلك ثبت له الانفراد بالملك دون منازع أو شريك، وهذا كله إنما كان عن طريق ثبوت طلاقة القدرة في الخلق والإيجاد وإثبات القصور فيها بالنسبة لما سواه ومن ثم كان الحق تبارك وتعالى إلها وما سواه مألوها ومادام الأمر كذلك، فلابد من الفوارق الذاتية التي يكون بها المخالفة بين الخالق والمخلوق والإله والمألوه، وإلا إذ لم يتحقق هذا فما المسوغ في كون هذا خالقًا وهذا مخلوقًا وهذا إلهًا وهذا مألوهًا .

ويقول الإمام البيضاوي: لقد أراد الله تعالى بهذه الآية بيان حصول ما تعلقت به إرادته بلا مهلة بطاعة المأمور المطيع بلا توقف، وفيه تقرير لمعنى الإبداع وإيماء إلي أن فعل البشر مما يكون بأطوار ومهلة وفعله تعالى يستغني عن ذلك [2] .

ويحدثنا فضيلة الشيخ الشعراوي عن هذه الآية الكريمة ودلالتها العقلية مبينا كيف يفترق الفعل الإلهي عن الفعل البشري: إن خلق الله للأشياء إنما يكون على غير مثال سابق فلم يكون هناك عند الخلق شيء موجود ثم جاء الله تعالى، وأوجد متشابها له في شكل أو حجم أو قدرة أي أنه سبحانه لم يلجأ إلي ما نسميه نحن بالقالب.

---

1 - الكشاف جـ 1 ص 182 .

2 - أنوار التنزيل جـ 1 ص 59 .

إن الذي يصنع كوب الماء يضع أولا قالبًا يصب فيه خام الزجاج المنصهر، فتخرج في النهاية أكواب متشابهة، وكل صناعة لغير الله تتم على أساس صنع القالب أولًا، ثم بعد ذلك يبدأ الإنتاج، ولذلك فإن التكلفة الحقيقية هي في إعداد القالب الجيد الذي يعطينا صورة لما نريد، والذي يخبز رغيفا مثلا قد لا يستخدم قالبًا، ولكنه يقلد شيئا سبق... فشكل الرغيف وخامته سبق أن تم وهو يقوم بتقليدها في كل مرة، ولكنه لا يستطيع أن يعطى التماثل في الميزان أو الشكل أو الاستدارة، بل هناك اختلاف في التقليد، ولا يوجد كمال في الصناعة وحين خلق الله عز وجل الخلق من آدم إلى أن تقوم الساعة جعل الحلق متشابهين في كل شيء في تكوين الجسم وفي شكله في الرأس والقدمين واليدين والعينين وغير ذلك من أعضاء الجسم تماثلًا دقيقًا في الشكل وفي الوظائف بحيث يؤدي كل عضو مهمته في الحياة، ولكن هذا التماثل لم يتم على قالب وإنما تم بكلمة ﴿كُن﴾

ورغم التشابه في الخلق بين البشر تجد الواحد مختلفًا عن الآخر اختلافًا يجعلك قادرا على تمييزه بالعلم والعين، فبالعلم كل منا له بصمة أصبع، وبصمة صوت يمكن أن يميزها خبراء التسجيل، وبصمة رائحة قد لا نميزها نحن، ولكن تميزها الكلاب المدربة فتشم الشيء ثم تسرع فتدلنا على صاحبه ولو كان بين ألف من البشر، وبصمة شفره تجعل الجسد يعرف بعضه بعضا فإن جئت بخلية من جسد آخر لفظها، وإن جئت بخلية من نفس الجسد اتحد معها...إن هذا الاختلاف يمثل لنا طلاقة قدرة الله في الخلق على غير مثال فكل مخلوق يختلف عمن قبله وعمن بعده وعمن حوله مع أنهم في الشكل العالم متماثلون، ولو أنك جمعت الناس كلهم منذ عهد آدم إلي يوم القيامة تجدهم في صورة واحدة وكل واحد منهم مختلف عن الآخر، فلا يوجد بشران من خلق الله كل منهما طبق الأصل من الآخر هذه دقة الصنع التي تظهر المفارقة بين صنع الله وصنع البشر وتعظم الحكمة... والإبراز في صور

متعددة يعطي القدرة ولذلك بعد أن نموت وتتبعثر عناصرنا في التراب يجمعنا الله يوم القيامة والإعجاز في هذا الجمع في أن كل إنسان سيبعث من نفس عناصره ونفس صورته ونفس هيئته التي كان عليها في الدنيا، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى في سورة ق ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾﴾ **[ق:4]** إذا الله سبحانه بطلاقة قدرته في الإيجاد قد خلقنا وبطلاقة قدرته في إعادة الخلق يحيينا بعد الموت بشكلنا ولحمنا وصفتنا وكل ذرة فينا هل هناك دقة بعد ذلك؟ ولو أننا أتينا بأدق الصناع وأمهرهم، وقلنا له: أصنع لنا شيئا تجيده فلما صنعه قلنا له : أصنع مثله إنه لا يمكن أن يصنع نموذجًا مثله بنفس المواصفات؛ لأنه يفتقد المقاييس الدقيقة التي تمده بنفس المواصفات التي صنعها إنه يستطيع أن يعطينا نموذجا متشابها، ولكن ليس مثل ما صنع تماما لكن الله سبحانه وتعالى يتوفى خلقه وساعة بعثهم يعيدهم بنفس مكوناتهم التي كانوا عليها دون زيادة أو نقص؛ وذلك لأن الله جل جلاله لا يخلق وفق قوالب، أو مواد معينة وإنما يقول للشيء ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ **[يس:82]**

ومعنى هذا أن الأمر موجود عنده موجود في علمه، ولكنه لم يصل إلي علمنا أي أنه ليس أمرًا جديدًا؛ لأنه مادام الله سبحانه وتعالى قال (يقول له) كأنه جل جلاله يخاطب موجودًا، ولكن هذا الموجود ليس في علمنا ولا نعلم عنه شيئا، وإنما هو موجود في علم الله سبحانه وتعالى ولذلك قيل: إن لله أمورًا يبديها ولا يبتديها إنها موجودة عنده؛ لأن الأقلام رفعت والصحف جفت ولكنه يبديها لنا الذين لا نعلمها فنعلمها [1] .

1 - تفسير الشعراوي جـ1 ص 564، 566، 568 .

ثم أراد الحق سبحانه وتعالى أن يرينا صورة بها نعرف كيف أن الخلق الإلهي لا يتوقف في وقوعه على مادة أو سبب أو غير ذلك مما يكون في الفعل البشري، ولذا كان الخلق العجيب لعيسى عليه السلام والذي ما إن بُشرت به العذراء مريم عليها السلام تملكها الإغراب والعجب فكان دفع هذا التعجب بتوجيه نظرها إلي الفرق بين فعل الله وفعل البشر حيث يقول سبحانه وتعالى في سورة آل عمران ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ **[آل عمران:47]**

وإذا كان حصول الفعل منه في كل أمر لا يتأتى بمادة أو زمان وإنما يحدث بالكاف والنون فإحياء الموتى وبعثهم من قبورهم بعد مماتهم أمر من الأمور الميسور حصولها للأمر التكويني.

يقول الإمام البيضاوي في تعليقه على هذه الآية الكريمة : إن هذه الآية تشير إلي أنه تعالى كما يقدر أن يخلق الأشياء مدرجا بأسباب ومواد يقدر أن يخلقها دفعة من غير ذلك [1] .

ويزيد صا حب إرشاد العقل السليم من بيان هذه الآية الكريمة في المقارنة بين فعل الله وفعل البشر فيقول : إن قوله تعالى كن فيكون تمثيل لكمال قدرته تعالى وسهولة تأتي المقدورات حسبما تقضيه مشيئته وتصور لسرعة حدوثها بما هو علم فيها من طاعة المأمور المطيع للآمر القوي المطاع، وبيان؛ لأنه تعالى كما يقدر على خلق الأشياء مدرجا بأسباب ومواد معتادة يقدر على خلقها دفعة من غير حاجة إلى شيء من الأسباب والمواد [2] .

ويقول فضيلة الشيخ الشعراوي في توجيهه لهذه الآية الكريمة من خلال ما تدل عليه من إثبات طلاقة القدرة الإلهية في إيجاد الأفعال بخلاف القدرة البشرية القاصرة والفاعلة في

---

1 - البيضاوي جـ 1 ص 116، السراج المنير جـ 1 ص 216 .

2 - إرشاد العقل السليم جـ 2 ص 38 .

نطاق أطر وحدود معينة : لقد دلت هذه الآية على إرادة الحق التي تُوجد وتحُدث دون اعتماد على اكتمال العناصر وكأنه يقول أنتم أيها المحدثون تفعلون بالأسباب لكن الذي خلقكم وخلق الأسباب لكم هو الذي بيده أن يوجد بلا أسباب لأنه أنشأ العالم أول ما أنشأ بدون أسباب [1] .

إذا فبناء على هذا يثبت إمكان البعث بناء على أن القول به ليس هناك ما يحيله كما أنه ثبت أن أمر البعث موكول إلي الله تعالى الذي يتأتي فعله بلا سبب أو مادة أو زمان أو معين أو مثال، ومن ثم يكون الحكم بإمكان الإعادة والبعث، وإذا كان ما تقدم من الآيات يثبت بها إمكان البعث عن طريق المقارنة بين فعل الله وفعل البشر التزامًا بينا، فإننا نرى آيات أخرى كان الاحتجاج فيها بهذا الدليل العقلي الذي نحن بصدد الحديث عنه على إمكان الإعادة والبعث صراحة فمن ذلك قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الأنعام ﴿وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٢ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٧٣﴾ **[الأنعام]** .

لقد بين الحق سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين أن مصير العباد ومآلهم إنما مرده إليه إذ أنه تعالى يبعثهم ويحشرهم ثم أتبع ذلك بذكر دليلين على أمر البعث والحشر :

الأول : الاستدلال بعظم خلق السماوات والأرض فمن نظر متأملًا فيمها يدرك أن إعادة الإنسان وبعثه لا ذكر لها بجوار خلقهما .

---

1 – تفسير الشعراوي جـ 3 ص 1480 .

الثاني : أن أمر الإعادة والبعث لا يمكن استبعاده وخطأ كبير يقع فيه الإنسان أن يقيس أمر الإعادة والبعث بمقاييس قدرة البشر وإنما ما يصح أن يكون أن يقيسها بقدرة خالق البشر على إيتاء الأفعال التي يظهر من خلالها إيجاد المقدور بلا سبب أو مادة أو زمان، وإنما مرد ذلك إلي الأمر التكويني الذي لا يقف أمام نفاذه شيء، وعلى هذا فعلي أي نحو يكون الإنسان بعد موته يمكن إعادته وبعثه بناء على هذا الأمر التكويني، ولعل مما يؤكد هذا المفارقة بين القدرة الإلهية والقدرة البشرية وصف الحق سبحانه وتعالى بكونه ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾**[الأنعام:73]**

إذ العلم أساس للقدرة وما دام قد وسع علمه تعالى كل حاضر وغائب فمهما تفرقت أجزاء الإنسان وعلى أي وجه كانت عناصره فإنها لا تعزب عن علم الحق سبحانه وتعالى فلا تختلط بغيرها، ومن ثم تكون القدرة على الإعادة.

يقول صاحب إرشاد العقل السليم قوله تعالى ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ **[الأنعام:73]** استئناف لبيان أن خلقه تعالى لما ذكره من حشر الأجساد وخلق السماوات والأرض ليس مما يتوقف على مادة أو مدة، بل يتم بمحض الأمر التكويني من غير توقف على شيء آخر أصلا، وأن ذلك الأمر المتعلق بكل فرد من أفراد المخلوقات في حين معين من أفراد الإحياء حق في نفسه متضمن للحكمة والمراد بقوله ﴿ٱلۡحَقُّۚ﴾ أي قوله ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ﴾الذي يحصل عنه تكون الأشياء وأحداثها التي منها حشر الأجسام وإحيائها بلا مادة أو مدة [1] .

---

1 - إرشاد العقل السليم جـ 3 ص 150 .

ويقول الإمام الرازي متحدثا عن دلالة هذه الآية الكريمة عقلا على إمكان البعث عن طريق المقارنة بين فعل الله وفعل البشر: إن الله تعالى هو الخالق للدنيا والأفلاك والطبائع والعناصر والخالق ليوم القيامة والبعث ولرد الأرواح إلي الأجسام على سبيل كن فيكون [1] .

ثم يربط الإمام الرازي بين هذا الدليل وبين قوله تعالى ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ﴾ **[الأنعام:73]** بقوله : واعلم أنا ذكرنا في هذا الكتاب الكامل أنه سبحانه ما ذكر أحوال البعث في القيامة إلا وقرر فيه أصلين:

الأصل الأول: كونه قادرا على كل الممكنات

الأصل الثاني :كونه عالما بكل المعلومات؛ لأن بتقدير ألا يكون قادرًا على كل الممكنات لم يقدر على البعث والحشر ورد الأرواح إلي الأجسام وبتقرير أن لا يكون عالمًا بجميع الجزئيات لم يصح ذلك أيضا منه؛ لأنه ربما اشتبه عليه الطيع بالعاصي والمؤمن بالكافر والصديق بالزنديق، فلا يحصل المقصود الأصلي من البعث والقيامة.

أما إذا ثبت بالدليل حصول هاتين الصفتين فقد كمل الغرض والمقصود فقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ ﴿٧٣﴾﴾ **[الأنعام:73]** يدل على كمال القدرة، وقوله تعالى ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ﴾ يدل على كمال العلم فلا جرم لزم من مجموعها أن يكون قوله حقًا وأن يكون حكمه صدقا [2] .

من خلال كل ما تقدم ندرك أن البعث والمعاد أمر ممكن دل على إمكانه براهين كثيرة والتي منها طلاقة القدرة الإلهية التي تجلت في المقارنة بين فعل الله وفعل البشر، والتي

1 - مفاتيح الغيب جـ 6 ص 372 .

2 - مفاتيح الغيب جـ6 ص 372 .

أدركنا أن فعلها في الكائنات لا يتوقف على مادة أو زمان أو آلة أو معين وإنما هناك الأمر التكويني الذي لا يملك المقدور أمامه إلا النفاذ والحصول ومادام الأمر كذلك فالبعث والمعاد أمر ممكن؛ لأن مرد إمكانه كما سبق وقرنا إلى القدرة الإلهية الصالحة للعمل في كل زمان، ومن كان كذلك فهو قادر على إحياء الموتى وبعثهم.

خامسًا : الجزء مقابل الأعمال :

إن من الدلائل العقلية التي تشير إلي إمكان البعث بل ضرورته دليل الجزاء مقابل الأعمال وهذا الدليل العقلي يقوم على أن الحياة الدنيا يوجد فيها الخير والشر، فهناك من يكدح فيها ويطلب العيش من خلالها بوسائله المشروعة ولكن تقصر الإرادة وتقف العوائق حائلة بين الإنسان وبين إدراك ما يتمنى، وهناك إنسان انحرف عن جادة الصواب وعاث في الأرض فسادًا ومع هذا أقبلت عليه الدنيا باسمة ضاحكة .

ونرى في الحياة أيضًا صنفٌ من الناس اغتر بقوته فطغى وتكبر فأكل حق هذا وسفك دم هذا، وقد تنقضِ الحياة دون أن يصل للظالم عقابا وللمظلوم ثوابا، هنا يقول العقل إن الله حكيم إن الله عادل، ولا يمكن أن يقف الأمر عند هذه المساواة بين الحسنة والسيئة وبين الظالم والمقتصد والسابق بالخيرات، فلا بد من البعث والحياة بعد الموت كي يؤاخذ كل إنسان بما كسب ويحاسب بما قدم ويجازى بما عمل، وينتصف للمظلوم من الظالم، ولابد أن تكون هذه الحياة حياة جسمانية كي يجرع كل إنسان من الكأس التي سقى منها غيره في الدنيا.

يقول الإمام الماتريدي متحدثا عن دلائل البعث لاسيما هذا الدليل : كيف يكفر الإنسان بالبعث بعد الموت، وفي العقل أن خلق الخلق للإفناء والإماتة من غير قصد العاقبة عبث ولعب لأن كل بانٍ بنى للنقض فهو عابث، وكذلك كل ساعٍ فيما لا عاقبة له فهو عابث

هازل، فكيف تجعلون فعله عز وجل إذ لو لم يجعل للخلق دارًا للجزاء والعقاب كان في خلقه إياهم عابثًا هازلا خارجًا من الحكمة تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا [1].

ويحدثنا فضيلة الإمام الدكتور عبد الحليم محمود عن هذا البرهان العقلي: لقد أنكر طبعيوا العرب البعث ولم يكن عندهم في هذه المسألة منطق جدلي فلسفي وليس لهم من دليل سوى الإنكار والاستبعاد والقرآن يرد عليهم بدلائل كثيرة منها تذكيرهم بمظاهر قدرة الله تعالى السائدة في الكون وبأنه ليس من العدالة الإلهية أن يترك الإنسان سدى فلا يجازي على ما قدم[2].

ويحدثنا فضيلة أستاذنا الدكتور رشدي عزيز عن هذا البرهان العقلي ودلالته المنطقية على إثبات البعث وملائمة ذلك لمقتضيات الحكمة الإلهية فيقول : إن إنكار البعث يتنافى مع الإيمان بحكمة الله تعالى ومن ثم فالعقل يمكنه أن يدلل على البعث من خلال إيضاحه للغاية التي من أجلها خلق الإنسان وهي العبادة والتكليف ولا تتحقق الغاية من العبادة والتكليف إلا بالبعث والجزاء، وإلا كان إيجاده وتكليفه عبثا..... ثم كيف تتحقق العدالة الإلهية إذا لم يكن هناك بعث بعد الموت إنه لكي تتحقق العدالة الإلهية لابد وأن يكون هناك يوم يبعث فيه الناس ويثاب فيه المحسن ويعاقب فيه المسيء [3].

وإذا كان هذا جانب من حديث المفكرين والباحثين عن هذا المسلك العقلي لإثبات البعث ولمعاد فإننا نجد بعد ذلك هذا النوع من البرهنة العقلية وقد تناوله القرآن الكريم في

1- تأويلات أهل السنة جـ 1 ص 81، 82 .

2 - التفكير الفلسفي ص 65 ويراجع الدعوة الإسلامية في عهدها المكي ص 502 .

3 - الإسلام عقيدة ونظام ص 107 ويراجع د / محمد عبد الواجد قضية البعث بين المثبتين والمنكرين ص 155، ط دار الإشعاع 1991م .

غير موضع من آياته فنجد قول الحق سبحانه وتعالى في سورة البقرة ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ **[البقرة:281]**

فالإنسان يرى الحياة وقد ملئت بالأخيار والأشرار وقد يموت كلاهما دون أن يلحق كلا منهما جزاء مناسبا على عمله هنا يقول العقل: إن دورة الحياة لا يمكن أن تنتهي بالموت، ولكن لا بد من البعث والقيام من الموت ليلقى كل إنسان جزاء ما كسب وقدم.

يقول الإمام الرازي : إن من دلائل البعث الاستدلال بأنه لابد من إثابة المحسن وتعذيب العاصي وتميز أحدهما عن الأخر إذ إن من لوازم حكمته ورحمته أن يحصل بعد هذا اليوم يوم آخر يظهر فيه تميز المحسن عن المسيء ويظهر فيه الإنصاف للمظلومين من الظالمين ولو لم يحصل هذا البعث والحشر؛ لقدح ذلك في كونه تعالى إلها [1] .

ويحدثنا الحق سبحانه وتعالى في موضع آخر عن أمر البعث والمعاد مبينا إمكانه وثبوته بدليلين:

الأول: قياس الإعادة على البدء.

والثاني : كون الجزاء مقابلا للأعمال حتى لا تحصل التسوية بين المحسن والمسيء والمطيع والعاصي يقول تعالى في سورة يونس ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ **[يونس:4]** إذا فقد بين الحق سبحانه وتعالى أن إليه مرد ومرجع الخلائق جميعا إذ إن ذلك لا يستحيل عليه حيث إنه سبحانه وتعالى كما ابتدأ إحياء الخلائق فإنه يعيدهم .

---

1 - مفاتيح الغيب جـ 1 ص 325، 326 .

وكما اختلفوا في سلوكهم في هذه الحياة بالخير والشر والإحسان والإساءة والطاعة والمعصية، فإنه ينشئهم للحياة الآخرة ليلقى كلا منهم جزاء ما كسبت يداه.

يقول الإمام البيضاوي : إنه لابد من الآخرة والبعث وذلك اقتضاء للعدالة الإلهية التي تجزي الذين كفروا بشراب من حميم وعذاب أليم بسب كفرهم، وهذا تنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة .

والعقاب واقع بالعرض، وأنه تعالى يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه ولذلك لم يعينه .

وأما عقاب الكفرة، فكأنه داء ساقه إليهم سوء اعتقادهم وشؤم أفعالهم والآية كالتعليل لقوله ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ﴾ فإنه لما كان المقصود من الإعادة مجازاة الله المكلفين على أعمالهم كان مرجع الجميع إليه لا محالة [1] .

ويحدثنا الإمام الرازي عن هذه الآية الكريمة وكيف أنه يمكن الاستدلال من خلالها على إثبات المعاد بوجوه منها :

1- إن الله تعالى خلق الخلق وأمدهم بعقول بها يمايزون بين السيئ والحسن وبين الخير والشر وفي الوقت ذاته نراه وقد رغبهم في الخير ورعبهم من الشر ولا شك أن ذلك لا يستقيم إلا إذا ربط بالثواب والعقاب، ومن هنا نقول إنه لابد من دار أخرى يحصل فيها الثواب والعقاب إذ أن هذا هو مطلوب كل منصف ومبتغاه وإلا لزام إلصاقه تعالى بالكذب وهذا محال.

يقول الإمام الرازي : لقد احتج على وجود المعاد من وجوه :

1 – أنوار التنزيل جـ1 ص 308 .

الأول : أنه تعالى خلق الخلق وأعطاهم عقولا بها يميزون بين الحسن والقبيح، وأعطاهم قُدَرًا بها يقدرون على الخير والشر وإذا ثبت هذا فمن الواجب في حكمة الله تعالى وعدله أن يمنع الخلق عن شتم الله و ذكره بالسوء وأن يمنعهم عن الجهل والكذب وإيذاء أنبيائه تعالى وأوليائه والعالمين من خلقه، ومن الواجب في حكمته أن يرغبهم في الطاعات والخيرات والحسنات، فإنه لم يمنع عن تلك القبائح ولم يرغب في هذه الخيرات قدح ذلك في كونه محسنًا عادلًا ناظرا لعباده، ومن المعلوم أن الترغيب في الطاعات لا يمكن إلا بربط الثواب بفعلها والزجر عن القبائح لا يمكن إلا بربط العقاب بفعلها وذلك الثواب المرغب فيه والعقاب المهدد غَيْرُ حَاصِلٍ فِي دَارِ الدُّنْيَا فَلَا بُدَّ مِنْ دَارٍ أُخْرَى يَحْصُلُ فِيهَا هَذَا الثَّوَابُ، وَهَذَا الْعِقَابُ، وَهُوَ الْمَطْلُوبُ وإلا لزام كونه كاذبا وأنه باطل [1] .

2 - والحجة الثانية إن من مقررات العقل حصول التفرقة بين المحسن والمسيء والطائع والعاصي والخيِّر والشرير ولا يكون كل أولئك في منزلة واحدة، وهذه التفرقة لابد لها من البعث والآخرة؛ لأننا نرى الدنيا وقد تنتهي بهم دون أن يلقى كل جزاءه المناسب لما قدم.

يقول الإمام الرازي : الحجة الثانية إن صريح العقل يوجب في حكمة الحكيم أن يفرق بين المحسن وبين المسيء، وأن لا يجعل من كفر به أو جحده بمنزلة من أطاعه، ولما وجب إظهار هذه التفرقة فحصول هذه التفرقة إما أن يكون في دار الدنيا أو في دار الآخرة والأول باطل [2] لأننا نرى الكفار والفساق في الدنيا في أعظم الراحات.

---

1 - مفاتيح الغيب جـ 8 ص 257 إن شاء الله تعالى سنعق عند الفراغ من ذكر الدلائل التي أثبتها الإمام الرازي في كتابه مفاتيح الغيب عليها بما يتلاءم معها .

2 - ليس هذا على اضطراد وكثيرا من الأحيان في الدنيا يعز الله م ولاه ويخذل من عاداه .

ونرى العلماء والزهاد بالضد منه فثبت أنه لابد بعد هذه الدار من دار أخرى وهو المراد من الآية [1] .

3 - إن المعاد لابد منه حتى لا يكثر الخطأ والفساد بين الناس وحتى يمكن للمكلف الاشتغال بأنواع التكاليف هو مطمئن فارغ البال.

يقول الإمام الرازي :الحجة الثالثة أنه تعالى كلف عبيدة بالعبودية والحكيم إذا أمر عبده بشيء فلابد وأن يجعله فارغ البال منتظم الأحوال حتى يمكنه الاشتغال بأداء تلك التكاليف، والناس جبلوا على طلب اللذات وتحصل الراحات لأنفسهم، فلو لم يكن زاجرا من خوف المعاد لكثر الهرج والمرج ولعظمت الفتن، وحينئذ لا يتفرغ المكلف للاشتغال بأداء العبادات، فوجب القطع بحصول دار الثواب والعقاب لتنتظم أحوال العالم حتى يقدر المكلف على الاشتغال بأداء العبودية [2] .

4- الدليل الرابع الذي أقيم لإثبات المعاد من خلال هذه الآية أنه سبحانه قاهر قادر حكيم، ومن كان هذا شأنه فإنه ينتصف للمظلوم من الظالم ويعطيه ما لم يدركه في الدنيا.

يقول الإمام الرازي : الحجة الرابعة إن السلطان القاهر إذا كان له جمع من العبيد وكان بعضهم أقوياء وبعضهم ضعفاء وجب على ذلك السلطان إذا كان رحيما ناظرا مشفقا عليهم أن ينتصف لمظلوم الضعيف من الظالم القادر القوي فإذا لم يفعل ذلك كان راضيا بذلك الظلم والرضا بالظلم لا يليق بالرحيم الناظر المحسن .

إذا ثبت هذا فنقول: إنه سبحانه سلطان قاهر قادر حكيم منزه عن الظلم والعبث فوجب أن ينتصف لعبيده المظلومين من عبيده الظالمين وهذا الانتصاف لم يحصل في هذه الدار؛ لأن

---

1 - مفاتيح الغيب جـ 8 ص 258 .

2 - مفاتيح الغيب جـ 8 ص 259 .

المظلوم قد يبقي في غاية الذلة والمهانة والظالم يبقى في غاية العزة والقدرة، فلابد من دار أخرى يظهر فيها العدل وهذا الإنصاف [1] .

5- إن الله تعالى خلق الخلق لمنافع ومصالح كثيرة جليلة، وحصول هذه المنافع في الدنيا إنما يكون مصحوبا بالألم والعنت والمشقة، فعلمنا أنه هناك دارًا أخرى وحياة ثانية يحصل فيها المنافع والثواب مبراً عن الألم والعنت والمشقة.

يقول الإمام الرازي : إنه تعالى خلق هذا العالم وخلق كل من فيه من الناس فإما أن يقال: إنه تعالى خلقهم لا لمنفعة ولا لمصلحة. أو يقال: إنه تعالى خلقهم لمصلحة ومنفعة.

الأول : لا يليق بالرحمن الكريم. الثاني: وهو أن يقول إنه خلقهم لمقصود ومصلحة وخير، فذلك الخير والمصلحة إما أن يحصل في هذه الدنيا أو في دار أخرى والأول باطل؛ لأن لذّات هذا العالم ممزوجة بالآلام والمحن، بل الدنيا طافحة بالشرور والآفات والمحن والبليات واللذة فيها كالقطرة في البحر، فعلمنا أن الدار التي يصل فيها الخلق إلى تلك الراحات المقصودة دار أخرى سوى دار الدنيا [2] .

6- إن الإنسان ميز عن جنس الحيوان بالعقل، هذا العقل في بعض الإنسان قد يكون سببا في شقائه بما يجلبه على صاحبه من فكر في الأحزان الماضية، وخوف من الأطراح المقبلة ومادام الأمر كذلك، فلابد من حياة أخرى تناسب الإنسان وما ميز به من عقل، وإلا صار في رتبة واحدة مع الحيوان.

يقول الإمام الرازي : لو لم يحصل للإنسان معاد لكان الإنسان أخس من جميع الحيوانات في المنزلة والشرف واللازم باطل فالملزوم مثله .

---

1 - المختصر في العقيدة والأخلاق جـ 8 ص 261 .

2 - المختصر في العقيدة والأخلاق جـ 8 ص 261 .

بيان الملازمة أن مضار الإنسان في الدنيا أكثر من مضار جميع الحيوانات فإن سائر الحيوانات قبل وقوعها في الآلام والأسقام تكون فارغة البال طيبة النفس؛ لأنه ليس لها فكر وتأمل.

أمَّا الإنسان فإنه بسبب ما يحصل به من العقل يتفكر أبدا في الأحوال الماضية والأحوال المستقبلة، فيحصل له بسبب أكثر الأحوال الماضية أنواع من الحزن والأسف، ويحصل له بسبب أكثر الأحوال الآتية : أنواع من الخوف؛ لأنه لا يدري كيف تحدث الأحوال، فثبت أن حصول العقل للإنسان سبب لحصول المضار العظمية في الدنيا والآلام النفسانية الشديدة القوية، وأما اللذات الجسمانية وهي مشتركة بين الناس وبين سائر الحيوانات .

إذا ثبت هذا فنقول :لو لم يحصل للإنسان معاد به تكمل ذاته وتظهر سعادته؛ لوجب أن يكون كمال العقل سببا لمزيد من الهموم والغموم والأحزان من غير جابر يجبر، ومعلوم أن كل ما كان كذلك فإنه يكون سببا لمزيد من الخسة والدناءة والتعب الخالية عن المنفعة، فثبت أنه لولا حصول السعادة الأخروية لكان الإنسان أخس الحيوانات، ولما كان ذلك باطلا قطعا علمنا أنه لابد من الدار الآخرة، وأن الإنسان خلق للآخرة لا لدنيا وأنه بعقله يكتسب موجبات السعادات الأخروية، فلهذا السبب كان العقل شريفًا [1].

7 – الحجة السابعة التي ذكرها الإمام الرازي :أقامها على أن النعيم الذي يصل للإنسان إنما هو على ضربين الأول : نعيم مشوب بالأحزان، والثاني : منزه عنها. أما محل الأول فالدنيا، وأما محل الثاني فالآخرة، ومن ثم يكون إثبات الآخرة لحصول على ذلك النوع الثاني من النعيم .

1 – مفاتيح الغيب جـ 8 262 .

يقول الإمام الرازي الحجة السابعة أنه تعالى قادر على إيصال النعيم إلي عبيده على وجهين:

الأول : أن تكون النعم مشوبة بالآفات والآحزان.

الثاني : أن تكون خالصة عنها فلما أنعم الله تعالى في الدنيا بالمرتبة الأولى، وجب أن ينعم علينا بالمرتبة الثانية في دار أخرى إظهارًا لكمال القدرة والرحمة والحكمة، فهناك ينعم على المطيعين ويعفوا عن المذنبين ويزيل الغموم والهموم والشبهات، والذي يقوي ذلك ويقرر لهذا الكلام من وجهين :

أن الإنسان حين كان جنينا في بطن أمه كان في أضيق المواضع وأشدها عفونة وفسادًا، ثم خرج من بطن أمه كانت الحالة الثانية أطيب وأشرف من الحالة الأولى، ثم إنه عند ذلك يوضع في المهد ويُشد شدُا وثيقُا، ثم بعد حين يخرج من المهد ويعدو يمينا وشمالًا وينتقل من تناول اللبن إلي تناول الأطعمة الطيبة وهذه الحالة الثالثة لاشك أنها أطيب من الحالة الثانية ..

ثم إنه بعد حين يصير أميرًا نافذا لحكمٍ على الخلق، أو علما مشرفًا على حقائق الأشياء، ولاشك أن هذه الحالة الرابعة أطيب وأشرف من الحالة الثالثة .

وإذا ثبت هذا وجب بحكم هذا الاستقراء أن يقال الحالة الحاصلة بعد الموت تكون أشرف وأعلى وأبهج من اللذات الجسدية والخيرات الجسمانية [1] .

8 - الحجة الثامنة التي ذكرها الإمام الرازي كانت على سبيل التوخي والاحتراز وهي تكمن في أنَّ البعث إن كان حقا فقد نجا المحسن وهلك المسيء، وإن كان غير ذلك لم يكن ليضر هذا الاعتقاد بالإنسان.

---

1 - مفاتيح الغيب ج8 ص 262 .

يقول الإمام الرازي :الحجة الثامنة :طريقة الاحتياط فإنا إذا آمنا بالمعاد وتأهبنا له كان هذا المذهب حقًا، فقد نجونا وهلك المنكر وإن كان باطلا لم يضرنا هذا الاعتقاد غاية ما في الباب أن يقال إنه تفوتنا هذه اللذات الجسمانية إلا أنا نقول يجب على العاقل أن لا يبالي بقوتها لأمرين :

الأول :أنها في غاية الخساسة؛ لأنها مُشْتَرَكٌ فيها بين الخنافس والديدان والكلاب .

الثاني : أنها منقطعة سريعة الزوال فثبت أن الاحتياط ليس إلا في الإيمان بالمعاد، ولهذا قال الشاعر :

قَالَ الْمُنَجِّمُ وَالطَّبِيبُ كِلَاهُمَا ... لَا تُحْشَرُ الْأَمْوَاتُ قُلْتُ إِلَيْكُمَا

إِنْ صح قولكما فَلَسْتُ بِخَاسِرٍ ... أَوْ صَحَّ قَوْلِي فَالْخَسَارُ عَلَيْكُمَا [1]

9- الدليل التاسع :

يقول الإمام الرازي: الحجة التاسعة دلت الدلائل على أن العالم محدث ولابد له من محدث قادر، ويجب أن يكون عالمًا؛ لأن الفعل المحكم المتقن لا يصدر إلا من العالم، ويجب أن يكون غنيا عنها، وإلا لكان قد خلقها في الأزل وهو محال، فثبت أن لهذا العالم إلهًا قادرا عالمًا غنيًا .

ثم لما تأملنا فقلنا هل يجوز في حق هذا الحكيم الغني عن الكل أن يهمل عبيده ويتركهم سدى، ويجوز لهم أن يكذبوا عليه ويبيح لهم أن يشتموه ويجحدوا ربوبيته، ويأكلون نعمته ويعبدوا الجبت والطاغوت ويجعلوا له أندادا وينكروا أمره ونهيه ووعده ووعيده؟

1 – مفاتيح الغيب ج8 ص 263، والبيتان لم ينسبهما الإمام الرازي لأحد والواقع أنهما لأبى العلاء المعري .

فها هنا حكمت بديهة العقل بأن هذه المعاني لا تليق إلا بالسفيه الجاهل البعيد من الحكمة القريب من العبث، فحكمنا لأجل لهذه المقدمة أن له أمرا ونهيا .

ثم تأملنا فقلنا :هل يجوز أن يكون له وعد ووعيد، ثم إنه لا يفي بوعده لأهل الثواب ولا بوعيده لأهل العقاب.

فقلنا: إن ذلك لا يجوز؛ لأنه لو جاز لما حصل الوثوق بوعده، ولا بوعيده، وهذا يوجب أن لا يبقى فائدة في الوعد والوعيد، فعلمنا أنه لابد من تحقيق الثواب والعقاب .

ومعلوم أن ذلك لا يتم إلا بالحشر والبعث وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فهذه المقدمة يتعلق بعضها بالبعض كالسلسلة متى صح بعضها صح كلها، ومتى فسد بعضها فسد كلها.

تدل مشاهدة أبصارنا لهذه التغيرات على حدوث العالم ودل حدوث العالم على وجود الصانع الحكيم الغني، ودل ذلك على وجود الأمر والنهي، ودل ذلك على وجود الثواب والعقاب ودل ذلك على وجوب الحشر فإن لم يثبت الحشر أدى ذلك إلى بطلان جميع المقدمات المذكورة، ولزم إنكار العلوم البدهية وإنكار العلوم النظرية القطعية فثبت أنه لابد لهذه الأجسام البالية والعظام النخرة والأجزاء المتفرقة المتمزقة من البعث بعد الموت؛ ليصل المحسن إلى ثوابه والمسيء إلى عقابه، فإن لم تحصل هذه الحالة لم يحصل الوعد والوعيد، وإن لم يحصلا لم يحصل الأمر والنهي، وإن لم يحصلا لم تحصل الإلهية وإن لم تحصل الإلهية لم تحصل التغيرات في العالم [1] .

1 - مفاتيح الغيب ج8 ص 268 .

ويقول الدكتور بيصار : إننا في هذه الحياة الدنيا لا نرى قاعدة الجزاء تيسير على نحو ولا يضطرد فيه الثواب والعقاب مع خيرية العمل أو شريته، بل لا تكون سعادة الإنسان في كثير من الأحيان ثمرة لما يأتي من أعمال خيّرة أو لما يتصف به من فضيلة أو خلق حميد كما لا تكون شقاوته، كذلك نتيجة لما يأتي من أعمال الشر أو لما يتصف به من رذيلة أو خلق سيء، وكثيرا ما نرى الأشرار من الناس، بل والكفار منهم يعطون الصحة و المال والجاه ورغد العيش، ويحيون في بحبوحة من النعيم بينما ترى الأخيار وصالح المؤمنين والأتقياء من الناس مبتلون بالمرض والفقر وضعف الجاه وضيق الرزق، وليس هذا أو ذاك مقتضي العدالة الإلهية أو الحكمة السماوية، فليس من العدل أن يستوي عند الله الخيّر والشرير ولا المحسن والمسيء ولا الضار والنافع، وإنما قضت حكمته سبحانه وشاءت إرادته عز وجل تحقيقا لعدله بين الناس أن يجعل لهم من حياتهم الفانية طريقًا إلي حياتهم الباقية، وأن تكون الأولى دار ابتلاء واختبار، وبهذا يكون ما يتقرر في الثانية من الثواب والعقاب، وهذا يدركه المرء بعقله بقليل من التأمل [1] .

من خلال ما تقدم ندرك أن الإنسان بقليل من النظرة المتعقلة المنصفة يمكن أن يتخذ من مبدأ الجزاء على الأعمال دليلًا وبرهانا عقليا على إثبات البعث وقد وضح لنا من خلال كل ما تقدم إدراكنا لكيفية الاستدلال به، وبانتهائنا من الحديث عنه نكون قد انتهينا من جانب من حديث القرآن الكريم عن البعث ودلائله العقلية، والآن لنبدأ الحديث عن دلائل وقوعه من خلال آيات القرآن الكريم .

1 - المختصر في العقيدة والأخلاق ص 89، 90 .

الفصل الثاني

دلائل وقوع البعث في القرآن الكريم

بعد أن تحدثنا في الفصل السابق عن الدلائل العقلية التي ساقها القرآن الكريم على إمكان البعث نتحدث الآن عن دلائل وقوعه، ودلائل الوقوع يمكن أن نستشف من خلال الحديث عنها عدة أشياء :

1 – إن دلائل الوقوع وإن كانت تدل على إثبات وقوع البعث فإنها أيضا تدل على إمكانه إذ الدّال على الوقوع دال على الإمكان .

2 – إن للعقل مدخلًا في إثباتها والدلالة علها= إذ أن من أخبر بها ثبت يقين نبوته وصدقه من قبل بالكثير من البراهين العقلية اليقينية التي لا تقبل الشك، ومن ثم فهذا دليل أيضا على صدقها ووقوعها حيث أخبر بها النبي صلي الله عليه وسلم، ومن ثم فإننا وإن كنا نقول البعث ممكن عقلا واجب سمعا، فإنه بناء على ما تقدم يمكننا القول البعث ممكن عقلا واجب سمعا وعقلًا حيث سيتبين لنا كذلك في موضع لاحق إن شاء الله تعالى كيف يدل العلم الحديث القائم على التفكير العقلي والتجربة على إثبات البعث .

3 – إن كثيرا من دلائل وقوع البعث مثل ما ورد في قصة العزيز وإحياء عيسى عليه السلام للموتى، وغير ذلك يقف ذلك بقوة في وجه المنكرين للبعث الجسماني= حيث إن هذه الدلائل في كثير منها كان المقصد منها الإعجاز وإقامة الحجة، فأي إعجاز وأي حجة في بعث أرواح لا تُرى، ومن ثم فإن هذه الدلائل ينتفي معها القول بالبعث الروحاني فقط حيث إن البعث من خلالها كان للروح والجسد، ولذا كانت حجة أيقن بها أصحابها مذعنين لها .

ولذا فأية شبهة تكون لمنكري المعاد الجسماني يمكن الرد عليها: بأن البعث بالروح والجسد قد وقع وشوهد بالأعين = حيث أخبر بذلك الصادق، فيجب أن يؤمنوا به حيث إن القدرة التي فعلت في الماضي تفعل في المستقبل، وإلا لزمهم إنكار القدرة التي كانت تفعل في

الماضي وعدم صلاحيتها لهذا الفعل مستقبلًا، وهذا فيه خطورة واضحة وصريحة على ما يعتقد بالنسبة للذات الإلهية .

ولكي نلقي الضوء أكثر على دور العقل في فهم النصوص علينا أن ندرك أن القرآن الكريم قد اشتمل على نوعين من الأدلة :

أولهما: ما يقتنع به العقل المؤمن وغيره، وقد تمثل فيما سبق، وأوردناه في الفصل السابق،

وثانيهما : ما يقتنع به المؤمنون فقط من نصوص نقلية عقلية، ولذا سنشير إلى نماذج من هذا النوع :

1- قصة الصعق ودلالتها على وقوع البعث :

وهذه حادثة تبرز قيمة النص القرآني في خطابه العقل الإنساني، ولقد حدثت هذه الواقعة عندما طلب جماعة من قوم موسى عليه السلام رؤية الحق تبارك وتعالى عيانًا جهارًا على ما ألفت نفوسهم وأشربت قلوبهم من تجسيم الإله، ولجرم طلبهم أخذتهم الصاعقة فماتوا، وبعد فترة من الزمن بعثهم الحق تبارك وتعالى ردت أرواحهم إلي أجسادهم وإلي هذا كانت الإشارة بقول الحق سبحانه وتعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ **[البقرة]** .

ويحدثنا الإمام ابن كثير عن واقعة هذه الآية فيقول: قال ابن جرير حدثنا محمد بن حميد حدثنا سلمه بن الفضل عن محمد بن إسحاق قال " لما رجع موسى عليه السلام إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامري ما قال وحرق العجل، وذراه في اليم اختار موسى منهم سبعين رجلًا الخيّر فالخيّر، وقال انطلقوا إلى الله وتوبوا إلى الله مما

صنعتم، واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم، فخرج بهم إلي طور سيناء لميقات وقته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه، فقال له السبعون فيما ذكر لي حين صنعوا ما أمروا به وخرجوا للقاء الله، قالوا يا موسى أطلب لنا إلي ربك لنسمع كلام ربنا، فقال أفعل، فما لم دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا، وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودا، فسمعوه وهو يكلم موسى وهو يأمره وينهاه :أفعل ولا تفعل، فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام فأقبل إليهم فقالوا لموسى : ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْـرَةً﴾ **[البقرة:55]**

فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة فماتوا جميعا، وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ﴾ **[الأعراف:155]** [1] قد سفهوا أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل بما فعل السفهاء منا، أي إن هذا لهم هلاك وأخذت منهم سبعين رجلًا الخير فالخير أرجع إليهم وليس معي منه رجل واحد فما الذي يصدقوني به و يأمنون عليه بعد ذلك، فلم يزل موسى يناشد ربه عز وجل ويطلب إليه حتى رد إليهم أرواحهم " [2].

فهذه رواية من روايات كثيرة وردت في تفسير الآية الكريمة، وكلها تدل على وقوع البعث لهؤلاء النفر الذين صعقوا وماتوا إثر طلبهم رؤية الله جهرة، وقد استحسن الإمام ابن

---

1 – هذا الدعاء ذكر في سورة الأعراف آية 155 ونصه كاملا (رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ)

2 – تفسير القرآن العظيم جـ1 ص 93، 94، والطبري جـ 1 ص 314، صفوة التفاسير جـ1 ص 40 .

كثير وهو المحدث والباحث هذه الرواية ورد ما سواها، فمثلا رد ما أورده الإمام الرازي حيث ورد في روايته أن هؤلاء النفر عندما بعثوا بعد موتهم فقالوا لموسى عليه السلام ادعو الله أن يجعلنا أنبياء فدعا، فصاروا كذلك في حين أنه لم يعرف نبوة في زمن موسى سوى هارون على حسب ما أخبر القرآن الكريم.

يقول الإمام ابن كثير : وقد أغرب الرازي في تفسيره حين حكى في قصة هؤلاء السبعين أنهم بعد إحيائهم قالوا يا موسى إنك لا تطلب من الله شيئا إلا أعطاك فادعه أن يجعلنا أنبياء فدعا بذلك فأجاب الله دعوته وهذا غريب جدا إذ لا يعرف في زمان موسى سوى هارون ثم يوشع بن نون [1] .

إذن فهذه الآية الكريمة تفيد إثبات وقوع البعث بها لا يدع مجالا للشك، ومن ثم فهي دالة على إمكانه، ولذا فهي احتجاج واضح على كل من أنكر البعث عامة والمعاد الجسماني خاصة إذ كيف تحصل الآية بهؤلاء السبعين والشهادة منهم لو كان المعاد قد تم للأرواح فقط.

يقول الإمام القرطبي: هذا احتجاج على من لم يؤمن بالبعث من قريش، واحتجاج على أهل الكتاب إذ خبروا بهذا [2] .

ونلحظ في الآية الكريمة التعبير ب(ثم) مما يدل معه على أنه بين زمن الصعق والبعث زمنا وهذا يدل على طلاقة القدرة الإلهية على الإحياء مهما طالت أو قصرت مدة فناء الأجساد.

1 - مفاتيح الغيب جـ 2 ص 121 ويراجع تفسير القرآن العظيم جـ1 ص 93 .

2 - الجامع لأحكام القرآن جـ1 ص 444 .

يقول صاحب البحر المحيط : لقد دل العطف بثم على أن بين أخذ الصاعقة والبعث زمانًا يتصور فيه المهلة، ولقد أحياهم الله جميعا رجلا بعد رجل ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون [1] .

ولو شاء الله تعالى لأحياهم جميعا دفعة واحدة، ولعل إحياءهم على هذه الطريقة ليدلهم على التفاوت بين الصفات الإلهية والصفات البشرية، فينتبهوا إلى أن الإله لا يدرك كما هو الحال في سائر المخلوقات بدليل طلاقة القدرة التي لا توجد لأحد، والتي شاهدوا أثرها في الإحياء مما لا قدرة لهم عليه .

وتقييد البعث (بالموت) في الآية الكريمة يفيد أن إعادتهم كانت بعد أن فارقت الأرواح أجسادهم، وهذا ينفي كونه عن النوم أو غير ذلك مما يستدل به على طلاقة القدرة في الإحياء.

يقول الإمام الألوسي: والموت هنا ظاهر في مفارقة الروح الجسد، وقيد بالبعث؛ لأنه قد يكون من نوم، كما هو في شأن أصحاب الكهف وقد يكون بمعنى إرسال الشخص وهو في القرآن كثير [2] .

وهذه القصة التي حدثتنا عنها الآية الكريمة كما تخبرنا بوقوع البعث فإنها تنبئنا كذلك عن شيئين :

الأول : أن اليهود في عقيدة الألوهية أُشرب في قلوبهم تجسيد الإله، فلم تقوَ عقولهم على هضم عقيدة يكون فيها الخضوع لإله مجرد عن صفات وعلائق البشر .

الثاني : أن هذه الآية الكريمة من الدلائل العقلية التي تثبت صدق النبي صلي الله عليه وسلم في دعوته، ومن ثم في كل ما أخبر به من أمور الألوهية و والنبوة والمعاد وغير ذلك،

---

1 - البحر المحيط جـ1 ص 12 ويراجع صفوة التفاسير جـ1 ص 44 .

2 -روح المعاني جـ1 ص 262 ويراجع السراج المنير جـ1 ص 61 ويراجع أوضح التفاسير ص 11 .

حيث إنها مصدقة لما في التوراة إذ وردت هذه القصة بتمامها في سفر الخروج في الإصحاح : الثاني والعشرون والثلاث والعشرون والرابع والعشرون : بيد أن ذكر هذه الواقعة في القرآن الكريم محفوف بالكمال والتنزيه المطلق للذات العلية .

ثانيا : قصة بقرة بني إسرائيل ودلالتها على وقوع البعث :

ويحدثنا القرآن الكريم عن هذه الواقعة بمناسبة مقتل إنسان من بني إسرائيل اختلف الناس في قاتله فقال لهم موسى عليه السلام إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، فتعجبوا من قوله، وأخذوا يشددون على أنفسهم في بيان صفاتها حتى اقتنعوا بأمرها وأتوا بها، فذبحوها وضربوا المقتول بعضها فقام بينهم حيا بإذن الله مخبرا إياهم عن اسم قاتله، فكانت حياة ذلك الرجل المقتول بعد مماته دليلًا وبرهانًا ساطعًا على وقوع البعث والنشور.

يقول تعالى في سورة البقرة﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ **[البقرة :67 - 73]**

ولقد ورد في التفسير هذه الآيات الكريمات روايات كثيرة نذكر منها ما هو أقرب إلي سياق هذه الآيات الكريمات فقد ذكر الإمام ابن كثير عن ابن عباس وعبيدة السلماني ...

وغير واحد من السلف: " كان رجل في بني إسرائيل كثير المال، وكان شيخا كبيرا وله بنو أخ، وكانوا يتمنون موته ليرثوه، فعمد أحدهم فقتله في الليل وخرجه في مجمع الطرق ويقال على باب رجل منهم، فلما أصبح الناس اختصموا فيه، وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم، فقالوا مالكم تختصمون ولا تأتون نبي الله، فجاء ابن أخيه فشكى أمر عمه إلي رسول الله موسى عليه السلام، فقال موسى : أنشد الله رجلا عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به، فلم يكن عند أحد منهم علم منه، وسألوه أن يسأل في هذه القضية ربه عز و جل، فسأل ربه عز وجل في ذلك، فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة فقال ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾

يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتيل وأنت تقول هذا ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾

أي: أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحي إلي، وهذا هو الذي أجابني عنه حين سألته عما سألتموني عنه أن أسأله فيه... فسألوا عن صفتها ثم عن لونها ثم عن سنها، فأجيبوا بما هو عز وجوده عليهم ،المقصود أنهم أمروا بذبح بقرة عوان وهي الوسط بين النصف الفارض وهي الكبيرة والبكر وهي الصغيرة، ثم شددوا وضيقوا على أنفسهم، فسألوا عن لونها فأمروا بصفراء فاقع لونها أي مشرب بحمرة تسر الناظرين، وهذا اللون عزيز، ثم شددوا أيضا﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ

فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ **[البقرة:68 -71]** هذه الصفات أضيق مما تقدم حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذلول، وهي المذللة بالحراثة وسقى والأرض مسلمة من العيوب ومن مخالفة سائر الألوان غير لونها، فلما حددوها بهذه الصفات وحصروها بهذه الأوصاف والنعوت ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ **[البقرة:71]**

ويقال: إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان بارًا بأبيه فطلبوها منه فأبي عليهم، فأرغبوه في ثمنها حتى أعطوه بوزنها ذهبًا فأبى عليه حتى أعطوه بوزنها عشر مرات، فباعها لهم، فأمرهم نبي الله موسى بذبحها ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ **[البقرة:71]**

أي: وهو يترددون في أمرها، ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها، فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى، فقام وهو يشخب أوداجه دما، فسأله نبي الله من قتلك. قال: قتلني ابن أخي، ثم عاد ميتا كما كان قال الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ **[البقرة:73]**

أي كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له، كذلك أمره في سائر الموتى إذا شاء إحياءهم أحياهم في ساعة واحدة [1] ليس هذا فقط، بل في لمح البصر.

والذي يعنينا ملاحظته في هذه الواقعة دلالتها على وقوع البعث وتحققه حيث ضرب ميت بجزء من حيوان ميت فأحياه الله بذلك، وهذا برهان على إمكان البعث وعدم وجود مجال لاستبعاده.

---

1 – البداية والنهاية جـ 1 ص 332 .

أما هذه القصة فقد ورد لها روايات كثيرة بصور شتى في كتب التفسير ومن ثم نردد مع الإمام ابن كثير قوله الذي تابعه عليه فضيلة الدكتور محمد حسين الذهبي والذي يقول فيه : الظاهر من هذه الاختلافات أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل، وهي مما يجوز نقلها ولكن لا نصدق ولا نكذب، فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا والله أعلم [1]

وإذا أتينا إلي الآيات الكريمات والتأمل العقلي فيها نجد قول الحق سبحانه وتعالى ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾[البقرة:73]

وهذه الجملة تصلح أن تكون خطابا للمؤمنين ودليلا على إقامة الحجة على المشركين المنكرين لأمر البعث والمعاد، ومن ثم يقو الإمام الطبري : قوله ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [البقرة:73]

مخاطبة من الله لعباده المؤمنين واحتجاجا منه على المشركين المكذبين بالبعث، وأمر لهم بالاعتبار بما كان منه جل ثناؤه من إحياء قتيل بني إسرائيل بعد مماته في الدنيا فقال لهم تعالى ذكره: أيها المكذبون بالبعث بعد الممات اعتبروا بإحيائي هذا القتيل بعد مماته، فإني كما أحييته في الدنيا، فكذلك أحيي الموتى بعد مماتهم، فأبعثهم يوم البعث، فإنما احتج جل ذكره بذلك على مشركي العرب، وهم قوم أميون لا كتاب لهم؛ لأن الذين كانوا يعلمون علم ذلك من بني إسرائيل كانوا بين أظهرهم، فأخبرهم جل ذكره بذلك ليعرفوا علم من قبلهم. [2]

ومما يؤيد ما ذكره الإمام الطبري أن جانبا من هذه القصة موجود في العهد القديم في إصحاح 21 من سفر التثنية بالفقرة الأولى وما بعدها . ثم نجد الإمام الرازي يفصل لنا ما

---

1 -تفسير القرآن العظيم جـ1 ص 110 ويراجع د / محمد حسين الذهبي، الإسرائيليات في التفسير والحديث ص 172 ط مجمع البحوث الإسلامية 1995 .

2 - جامع البيان جـ1 ص 386 .

أجمله الإمام الطبري في كلامه السابق من كون الاحتجاج بإحياء الموتى في الآية موجه إلى المشركين أم غيرهم، فنراه يذكر ما قاله الإمام الطبري ويزيد عليه رأيا آخر مؤداه: أن الاحتجاج موجه إلى بني إسرائيل، ويدل هذا الاحتجاج على أنه تعالى كما أحيا هذا الميت كذلك يكون الحال بالنسبة لسائر الموتى[1]

ونلحظ كذلك في الآيات الكريمات الجمع في قوله تعالى﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ **[البقرة:73]**

مما يعطي إشارة واضحة إلى طلاقة القدرة الإلهية في سريان الحياة في العضو الميت، والإخبار باسم القاتل وغير ذلك من الإشارات.

يقول صاحب إرشاد العقل السليم : إنَّ التعبير في الآيات بالجمع لاشتماله على أمور بديعة من ترتب الحياة على عضو ميت، وإخباره بقاتله وما يلابسه من الأمور الخارقة للعادة[2]

هذا يشير بالنسبة إلى القصة الأولى:" طلاقة القدرة والتصرف في جميع الشئون فأصحاب الصعق لما لم يكن أجلهم قد حان بعدُ بعثوا وقاموا والذي ضُرب ببعض البقرة كي تعود إليه الحياة عاد بعد بعثه إلي حالته الأولى، ثم كان مات بعد ذلك مما يشير إلى أن أمر الموت والإحياء في أي وقت وعلى أي نحو إنما هو ميسور بالنسبة للقدرة الإلهية .

ونلحظ أيضًا أن الآيات الكريمات قد ذيلت بقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ **[البقرة:73]**

---

1 – مفاتيح الغيب جـ2 ص 114 .

2 – إرشاد العقل السليم جـ 1 ص 114 .

وهذا يعطي إلى أن الاستدلال على إثبات أمر البعث أمر ميسور للعقل، وأن المجادلة فيه من قبيل السفسطة هذا من جهة، ومن جهة أخرى يشير إلى أن الإنسان إذا عرض هذه المسألة على عقله بنبئه أن من قدر على إحياء ميت واحد كذلك يقدر على إحياء وبعث كل ميت على أي وجه كان.

يقول الإمام الرازي : إن المراد من قوله تعالى﴿ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ **[البقرة:73]**

أن تعرضوا القضية على عقولكم، فتدركوا أن من قدر على إحياء نفس واحدة قادر على إحياء الأنفس كلها لعدم الاختصاص [1] .

ثالثا : قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت :

وتلك قصة أخرى من القصص القرآني الذي يخاطب العقل والتي تنبئنا عن عبر ودلائل كثيرة فتبين لنا أنه لا يغني حذر عن قدر، ومن ثم تغرس الشجاعة في النفوس عند مواجهة المكاره وتبين لنا طلاقة القدرة الإلهية في الإماتة والإحياء، ولو كان الفعل منصبا على جموع كثيرة تبلغ الآلاف المؤلفة، بل ما لا يتناهي من الخلق من البشر وتعطينا الدلالة من واقع الحياة والتاريخ على أن من قدر على بعث الخلق الكثير من الناس بعد موتهم في هذه الحياة يقدر على إعادة جميع الناس بعد موتهم عند الحساب في الآخرة.

هذه العبر والدلائل وغيرها كثير أنبئنا عنه قول الحق في سورة البقرة ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ **[البقرة:243]** .

1 - مفاتيح الغيب جـ2 ص 174، الكشاف جـ1 ص 153 .

فقد أنبأتنا هذه الآية الكريمة عن جمع كثير من الناس بلغ آلاف من البشر دخل الخوف قلوبهم بسبب من الأسباب، فخرجوا من ديارهم بعد أن غلب الظن على عقولهم أنهم بخروجهم يكونون بمنأى ومأمن منه، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يريهم جانبا من قدرته ليعلموا من خلالها أنهم على أي وجه وفي أي مكان كانوا لا يعجزون القدرة الإلهية، فكان الأمر التكويني لهم بالموت حيث كان موتهم خارقًا للنواميس الكونية إذ ماتوا موته رجل واحد، ثم بعد مضي فترة من الزمن أحياهم الحق سبحانه وتعالى؛ ليدل بذلك على أنه لا مفر ولا مهرب من قدر الله، وأنه تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وليظل هذا الحدث شاهد صدق على وقوع البعث في هذه الحياة ومن ثم إمكانه عند النشأة الآخرة .

يحدثنا الإمام ابن كثير عن قصة هؤلاء القوم حال تفسيره لهذه الآية الكريمة فيقول: ذكر غير واحد من السلف : "أنَّ هؤلاء القوم كانوا أهل بلدة في زمان بني إسرائيل استوخموا أرضهم وأصابهم بها وباء شديدٌ فخرجوا فرارا من الموت هاربين إلى البرية فنزلوا واديا أفسح فملأوا مَا بَيْنَ عُدْوَتَيْهِ فأرسل الله إليهم ملكين أحدهما من أسفل الوادي والآخر من أعلاه، فصاحا بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم موته رجل واحد، فَحِيزُوا إِلَى حَظَائِرَ وبني عليهم جدران وَقُبُورٌ وفنوا وتمزقوا وتفرقوا، فلما كان بعد دهر مر بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل يقول له حزقيل، فسأل الله أن يحييهم على يديه فأجابه إلى ذلك، وأمره أن يقول أيتها العظام البالية إني آمرك أن تجتمعي، فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلي بعض، ثم أمره أن ينادي أيتها العظام إن الله يَأْمُرُكِ بِأَنْ تَكْتَسِيَ لَحْمًا وَعَصَبًا وَجِلْدًا. فَكَانَ ذَلِكَ، وَهُوَ يُشَاهِدُهُ ثُمَّ أَمَرَهُ فَنَادَى: أَيَّتُهَا الْأَرْوَاحُ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكِ أَنْ تَرْجِعَ كُلُّ رُوحٍ إِلَى الْجَسَدِ الَّذِي كَانَتْ تَعْمُرُهُ،

فقاموا أحياء ينظرون قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة وهو يقولون سبحانك لا إله إلا أنت [1].

ويبدوا أن الإمام ابن كثير قد استحسن هذه القصة ومن ثم أخذ يستخرج منها العبر ويلتمس لها من صحيح السنة النبوة الشريفة ما يعضدها ومن ثم يقول معقبًا على هذه القصة " وكان في إحياءهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة ولهذا قال﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾**[البقرة:243]**

أي فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة والدلالات الدافعة...وفي هذه القصة عبرة ودليل على أنه لا يُغني حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن هؤلاء خرجوا فرارا من الوباء طلبا لطول الحياة، فعوملوا بنقيض قصدهم وجاءهم الموت سريعا في آن واحد .

ومن هذا القبيل الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلي الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام فذكر الحديث، فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبا لبعض حاجاته، فقال إنَّ عندي من هذا علما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " إذا كان الوباء بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه " فحمد الله عمرُ ثم انصرف وأخرجاه في الصحيحين أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو في الشام عن النبي صلي الله عليه وسلم " إن هذا السقم عذب به الأمم

1 - تفسير القرآن العظيم جـ1 ص 298 .

قبلكم، فإذا سمعتم به في أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا " قال فرجع عمر من الشام [1] .

والمتأمل لقوله تعالى﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ يجد أن فعل الإماتة ثم الإحياء لم يقع على نفس واحدة، بل على جمع كثير منها وهذا يعطي بيانًا لمدى طلاقة القدرة الإلهية في الفعل إذ أن إحياء وبعث ما لا يتناهى من الأنفس بمنزلة إيحاء وبعث نفس واحدة بالنسبة للقدرة الإلهية، ومن ثم نلحظ أن الحق تعالى بين لنا فيها سبق طلاقة قدرته في بعث السبعين من الأموات، ثم في بعث النفس الواحدة وهنا في بعث الآلاف من الأنفس مما يشير إلى أن الكم في البعث والإحياء مهما كان لا عبرة ولا وزن له لدى القدرة الإلهية .

ويبين ابن خزيمة أن أمر الموت بالنسبة لتلك الأنفس هو أمر تكويني كما يعطي إشعارًا بطلاقة القدرة الإلهية في موتهم، وكأنهم رجل واحد. يقول ابن خزيمة : إن هذا الأمر أمر تكوين [2] أماتهم الله بقوله ﴿مُوتُواْ﴾؛ لأن سياق الآية دال على أنهم ماتوا، والإحياء إنما كان بعد الإماتة؛ لأن قوله عز وجل ﴿أَحْيَاهُمْ﴾ دال على أنهم قد كانوا ماتوا فأحياهم ا لله بعد الموت[3] .

1 – تفسير القرآن العظيم جـ1 ص 298، 299 . حديث " إذ وقع الطاعون بأرض قوم ....." أخرجه الإمام أحمد في المسند جـ1 رقم (1554) مسند سعد بن أبي وقاص وأخرجه الإمام البخاري في كتاب الطب باب ما يذكر في الطاعون 21 / 303 ط الكليات الأزهرية، والإمام مسلم في كتاب السلام باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها 14 / 204 شرح النووي .

2 – يراجع ما ذكر آنفا بالمراد بالأمر التكويني حال الحديث عن دلائل إمكان البعث والتي منها المقارنة بين فعل الله وفعل البشر .

3 – ابن خزيمة، التوحيد وإثبات صفات الرب ص 3 دار الكتب العلمية بيروت .

إذا فهذه الآية الكريمة دالة على أنه تعالى أحياهم بعد موتهم فوجب التصديق والقطع بذلك حيث أن المقدرور أمر ممكن وقد أخبر به الصادق صلى الله عليه وسلم، ومن ثم وجب القطع به وهكذا يكون الحال في الدلالة على النشأة الآخرة .

رابعًا : قصة العزيز ودلالتها على وقوع البعث :

لقد أخبرنا القرآن الكريم أيضا بلغة عقلية مفهومة لا يماري في تعقلها إلا جاحد أو صاحب هوى عن وقوع البعث في قصة ذلك الإنسان الذي مر على قرية، وقد خربت وأصبحت أثرًا بعد عين أطلالا، فتساءل متعجبا كيف يحيي الله هذه القرية بعد خرابها؟

فأراه الله الحق تبارك وتعالى كيفية ذلك في نفسه، وفيما كان معه من طعام وشراب وحيوان= إذ أماته الله مائة عام، وكذا فعل بحماره، ثم أحياهما بعد موتهما وسأله :كم لبثت ؟

فرد عليه قائلا : لبثت يوما أو بعض يوم.

فقال الله له : بل لبثت ميتًا مائة عام، فانظر إلى طعامك وشرابك تجدهما لم يتغيرا أو يفسدا مع مرور السنين والأيام، وانظر إلى حمارك كيف نرفع عظامه ونحركها ونردها إلى مكانها من الجسم، ثم نكسوها لحما كما فعلنا بعظامك وجسدك، فأقر بقدرة الله سبحانه وتعالى على كل شيء، ومن ثم كان تقرير هذا الدليل في قول الحق سبحانه وتعالى من سورة البقرة﴿ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ

كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة:259] .

يقول الإمام ابن كثير : إن عزيرًا كان عبدًا صالحًا حكيمًا خرج ذات يوم إلي ضيعة له يتعهدها فلما انصرف أتى إلى خَرِبَةٍ حين قامت الظهيرة وأصابه الحر ودخل الخربة، وهو على حماره فنزل عن حماره ومعه سلة فيها تين وسلة فيها عنب، فنزل في ظل تلك الخربة وأخرج قصعة معه فاعتصر من العنب الذي كان معه في القصعة، ثم أخرج خبزا يابسا معه فألقاه في تلك القصعة في يالعصير ليتبلل ليأكله، ثم استلقى على قفاه وأسند رجليه إلى الحائط، فنظر سقف تلك البيوت، ورأى ما فيها وهي قائمة على عروشها، وقد باد أهلها ورأى عظامًا بالية فقال: ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ ﴾ [البقرة:259]

فلم يشك في أن الله يحييها، ولكن قالها تعجبا، فبعث الله ملك الموت فقبض روحه، فأماته الله مائة عام، فلما مرت عليه مائة عام وكانت فيما بين ذلك في بني إسرائيل أمور وأحداث قال : فبعث الله إلى عزير ملكا، فخلق قلبه ليعقل به وعينيه لينظر بهما فيعقل كيف يحي الله الموتى، ثُمَّ رَكَّبَ خَلْقَهُ وهو ينظر ثم كسا عظامه اللحم والشعر والجلد، ثم نفخ فيه الروح كل ذلك وهو يرى ويعقل، فاستوى جالسا فقال الله الملك : كم لبثت. قال: لبثت يوما أو بعض يوم، وذلك أنه كان لبث صدر النهار عند الظهيرة، وبعث في آخر النهار والشمس لم تغرب، فقال أو بعض يوم ولم يتم لي يوم.

فقال له الملك: بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك يعني الخبز اليابس، وشرابه العصير الذي اعتصره في القصعة فإذا هما على حالهما لم يتغير العصير والخبز، فذلك قوله تعالى ﴿لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ ﴾ [البقرة:259]

يعني لم يتغير وكذلك التين والعنب غض لم يتغير شيء من حالهما، ثم قال له الملك انظر إلي حماك فنظر إلي حماره قد بليت عظامه وصارت نخرة، فنادي الملك عظام الحمار فأجابت وأقبلت من كل ناحية حتى ركّبه الملك وعزير ينظر إليه، ثم ألبسها العروق والعصب، ثم كساها اللحم ثم أنبت عليها الجلد والشعر، ثم نفخ فيه الملك فقام الحمار رافعا رأسه وأذنيه إلى السماء ناهقًا فذلك قوله تعالى ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ﴾ **[البقرة:259]**

يعني وانظر إلى عظام حمارك كيف يركب بعضها بعضا في أوصالها حتى إذا صارت عظما مصورا حمارا بلا لحم، ثم انظر كيف نكسوها لحما فلما تبين له قال ﴿قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩﴾ **[البقرة:259]** من إحياء الموتى وغيره [1].

وها هنا سؤال يفرضه الإمام الرازي ويجيب عنه.

يقول الإمام الرازي :ما الفائدة في إماتة الله له مائة عام مع أن الاستدلال بالإحياء بعد موت يوم أو بعض يوم حاصل ؟

قلنا : لأن الإحياء بعد تراخي المدة أبعد في العقول من الإحياء بعد قرب المدة، وأيضًا فلأنَّ بعد تراخي المدة ما يشاهد منه ويشاهد هو من غيره أعجب [2].

ويلاحظ في الآية الكريمة أيضًا أن الحق سبحانه وتعالى قال ﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ﴾ **[البقرة:259]** بدلا من (أحياه) مما يشعر معه من أنه عاد عاقلا كهيئته قبل موته، وهذا يؤذن بأن الناس حال النشأة الآخرة يكونون على هذا النحو.

---

1 -البداية والنهاية جـ 1 ص 432، 433، ويراجع تفسير القرآن العظيم جـ 1 ص 314 وكذا الإسلام عقيدة ونظام ص 103 .

2 - مفاتيح الغيب جـ 3 ص 573 .

يقول صاحب إرشاد العقل السليم : وإيثار ﴿بَعَثَهُۥ﴾**[البقرة:259]**

على أحياه للدلالة على سرعته وسهولة تأتيه على الباري تعالى كأنه بعثه من النوم، وللإيذان بأنه أعاده كهيئته يوم موته عاقلا فاهما مستعدا للنظر والاستدلال (1) .

وهذه الآية الكريمة أفادت ظهور طلاقة القدرة الإلهية التي بها يكون البعث والمعاد بعد الموت، والتي رأينا منها أشياء كثيرة في هذه القصة.

إذ نراها بحال الحمار صدقت قول الحق ﴿بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ﴾**[البقرة:259]**

وبحال الطعام صدقت قول العبد المؤمن ﴿قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ﴾**[البقرة:259]**

مما يعطي طلاقة القدرة الفاعلة التي لا يصعب عليها أمر الإحياء بعد الإماتة.

وهكذا وقفنا من خلال قصة العزير كما أخبرنا بها القرآن الكريم على جانب من آثار القدرة الإلهية التي تعين على إثبات إمكان المعاد والبعث عن طريق دلالتها الفعلية على وقوعه في الدنيا .

خامسًا : إحياء عيسى عليه السلام الموتى بإذن الله ودلالته على إثبات البعث :

إن من الدلائل القرآنية التي تخاطب العقل والتي يمكن من خلالها إثبات البعث والمعاد إحياء عيسى عليه السلام للموتى بإذن الله إذ تواترت الأخبار بذلك، وذلك في أحوال مخصوصة وأوقات مخصوصة ألا يكون من باب أولى إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم أمر مقدور وممكن لصاحب القدرة الأصلية الموصوفة بالطلاقة الفاعلة في كل زمان ومكان غير المقيدة بسبب أو شرط.

---

1 - إرشاد العقل السليم ج2 ص 253 .

إن العقل الإنساني إذا استحضر حديث القرآن الكريم عن ذلك لا يمكنه إلا أن يذعن بهذا دون رهبة أو جبر .

يقول سبحانه وتعالى متحدثا عن معجزات عيسى عليه السلام والتي منها إحياء الموتى بإذن الله في سورة آل عمران ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ **[آل عمران :48 -49]**

ويقول تعالى أيضا في سورة المائدة ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ **[المائدة:110]** .

وإذ أتينا إلي العهد الجديد لتقف من خلاله على إحياء عيسى عليه السلام للموتى بإذن الله فإنه يحدثنا أنه أحيا ثلاث أموات :

الأول : ابن أرملة وحيد في " نابين " كانوا يحملونه على النعش فلمس النعش وأمر الميت أن يقوم منه فقام، فقال الشعب " قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه " (1) .

الثاني : ابنة رئيس ماتت ودعاه لإحيائها فجاء بيته وقال للجميع " تنحوا ففعلوا عليه، فلما أخرج الجمع دخل وأمسك بيدها فقامت الصبية " (1) .

---

1 - لوقا الإصحاح السابع فقرات 11، 17 .

الثالث:" لعاذر" صديقه إذ مات فوضع في بيت " عنيا" ثم وضع بعد ذلك في مغارة فجاء المسيح وكان له أربعة أيام فرقع عينيه إلي أعلى وقال : " أيها الأب أشكرك لأنك سمعت ليه وأنا عملت أنك في كل حين تسمع لي، ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت: ليؤمنوا إنك أرسلتني، ولما قال هذا شرخ بصوت عظيم لعاذر هلم خارجا فخرج الميت [2].

ونلاحظ في حديث العهد الجديد عن هذه الوقائع الثلاثة أنها مقرونة بدعوى النبوة ومقرونة بالضراعة إلى الله في أن يجيبه عليه السلام إلى طلبه، وهذا يشعر بل يدل بقوة على عدم ألوهية المسيح وأن هذه الأفعال ليست بقدرة ذاتية فيه، وإنما بأثر من قدرة الله مما يشعر بمصداقية النص القرآني حين يقول ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ **[المائدة:110]**

وعن دلالة إحياء عيسى عليه السلام للموتى بإذن الله على إثبات البعث يقول فضيلة أستاذنا أ.د رشدي عزيز : إذا كان الله أخبرنا أن عيسى عليه السلام كان يجعل الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ويدعو للميت فيحيا بإذن الله، فهل يسوغ لبشر أن ينكر عليه سبحانه وتعالى إعادة الموتى [3].

سادسًا : يقظة الإنسان بعد نومه دليل على إثبات البعث :

إن نوم الإنسان واستيقاظه من الدلائل القرآنية التي تخاطب العقل كي يثبت بها البعث إذ تشافه العقل بأمر واقع مشاهد كل يوم إذ النوم يعتبر موتًا مصغرا، والاستيقاظ يعتبر حياة مصغرة أيضًا، فكما تتم عملية النوم للإنسان وعملية الاستيقاظ له تتم عملية الموت والحياة

---

1 - متى الإصحاح التاسع فقرة 18، 26 .

2 - يوحنا إصحاح 11 فقرات 42، 43، 44، وابن كثير، معجزات النبي ص 465، ط المكتبة القيمة ، ت د/ حمزة النشرتي وآخرون .

3 - الإسلام عقيدة ونظام ص 106، 107 .

الكاملة له أيضا وهذه المعاني نجدها في آيات كثيرة أخبر بها القرآن الكريم في غير موضع، فمثلا نجد قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الأنعام﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ **[الأنعام:60]**.

يقول الإمام الرازي: إن النائم لا شك أنه حي ومتى كان حيا لم تكن روحه مقبوضة ألبتة، وإذا كان كذلك لم يصح أن يقال إن الله توفاه، فلابد هنا من تأويل، وهو أن حال النوم تغور الأرواح الحاسة من الظاهر في الباطن، فصارت الحواس الظاهرة معطلة عن أعمالها، فعند النوم صار ظاهر الجسد معطلًا عن بعض الأعمال، وعند الموت صارت جملة البدن معطلة عن كل الأعمال، فحصل بين النوم والموت مشابهة من هذا الاعتبار، فصح إطلاق لفظ الوفاة والموت على النوم من هذا الوجه، واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه ينيمهم أولًا، ثم يوقظهم ثانيا، كان ذلك جاريًا مجرى الإحياء بعد الإماتة لا جرم استدل بذلك على صحة البعث والقيامة فقال تعالى : ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ **[الأنعام:60]** في ليلكم ونهاركم وفي جميع أحوالكم وأعمالكم [1].

وإلي مثل هذا المعنى كانت الإشارة أيضًا بقول الحق سبحانه وتعالى في سورة الفرقان﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ **[الفرقان:47]** .

لقد فسر صاحب الكشاف السبات في الآية بالموت؛ لأنه سيق في مقابلة النشور الذي يعني البعث، ومن ثم كان في استيقاظ الإنسان بعد نومه دليل على إثبات الميعاد والحشر.

---

1 - مفاتيح الغيب ج 6 ص 347، ويراجع الكشاف جـ2 ص 32 .

يقول صاحب الكشاف : لقد شبه الله ما يستر في ظلام الليل وباللباس الساتر والسبات الموت، والمسبوت الميت؛ لأنه مقطوع الحياة.

فإن قلت: هلَّا فُسرت بالراحة، قلت: النشور في مقابلته، وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته على خلقه؛ لأن الاحتجاب بستر الليل كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية والنوم واليقظة شبههما بالموت والحياة أي عبرة فيها لمن اعتبر ودلالة على البعث والنشور وعن لقمان أنه قال لابنه " يا بني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر " [1].

ويقول الإمام البيضاوي في تعليقه على هذه الآية الكريمة ودلالتها على أمر البعث : لقد جعل الله النوم سباتا بقطع المشاغل وموتا؛ لأنه قطع الحياة وجعل النهار نشورًا أي ذا انتشار ينتشر فيه الناس للمعاش أو بعثا من النوم بعث الأموات، ويكون إشارة إلي أن النوم واليقظة نموذجا للموت والنشور [2].

وإليه هذا المعني كانت الإشارة أيضا بقول الحق سبحانه وتعالى في سورة الزمر ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾**[الزمر:42]** .

إن من يتفكر في حال نوم الإنسان وكيف أن النوم شبيه بالموت بيد أنه طرح روحي مؤقت واستيقاظ الإنسان بعده حتى يبلغ الكتاب أجله، فيكون الطرح الروحي التام إن من يتفكر في هذا ليقول إن من أعاد تعلق الروح بالبدن بعد طرحها مؤقتا بالنوم لقادر على جعلها معلقة بالبدن بعد الطرح التام، فيكون البعث والنشور وقيام الناس لرب العالمين.

---

1 - الكشاف جـ3 ص 284 .

2 - أنور التنزيل جـ2 ص 98 .

ويقول الإمام الرازي في تعليقه على بعض الآيات السابقة والاستدلال من خلال الاستيقاظ بعد النوم على البعث والنشور : إن ما يستدل به على البعث حصول اليقظة بعد النوم، فإنه يستدل بها على جواز الحشر والنشر فإن النوم أخو الموت واليقظة شبيهة بالحياة بعد الموت قال تعالى في سورة الأنعام ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ **[الأنعام:60]** .

ثم ذكر عقبه أمر الموت والبعث فقال تعالى أيضا في سورة الزمر ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ **[الزمر:42]**

والمراد الاستدلال بحصول هذه الأحوال على صحة البعث والحشر والنشر (1) .

ويقول فضيلة أستاذنا الدكتور رشدي عزيز في حديثه عن هذا الآية الكريمة مقارنا بين النوم والموت وكيف أن النوم أخو الموت، ومن ثم يحصل به، وبما يترتب عليه من الاستيقاظ بعده التدليل على إثبات البعث مستدلا على ذلك أيضا ببعض الأحاديث النبوية الشريفة التي تفيد ذلك فيقول : إن من الأدلة التي يثبت بها البعث دليل مستنبط من نوم الإنسان ويقظته ويمكن لأي عاقل أن يلاحظه كل يوم في الصباح وفي المساء، فإن النوم أخو الموت واليقظة تشبه البعث كما تشير إلي ذلك الآية الكريمة، ولذلك أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن تتحول هذه الحقيقة الاعتقادية إلي أمر واقعي عملي، فنذكره كل صباح ومساء حتى لا نغفل يومًا واحدًا عن مصيرنا فأمرنا أن نقول عند النوم فيما رواه البخاري عن أبى هريرة رضي الله

1 – مفاتيح الغيب جـ 8 ص 256 ويراجع ابن قيم الجوزية، الروح ص 58 .

عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فأحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين".

وفي دعاء آخر رواه مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلي الله عليه وسلم "اللّهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفاها لك مماتها ومحياها إن أحييتها فأحفظها وإن أمتها فاغفر لها، اللّهم إني أسألك العافية". أما عند اليقظة فقد ندب النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين إلي هذا الذكر الذي جاء في الصحيحين عن أبى هريرة: " الحمد لله الذي عافاني في جسدي ورد على روحي وأذن لي بذكره " أو أن يقول كما جاء في الصحيحين عن حذيفة وأبى ذر "الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور" [1].

ولعلنا أدركنا بهذه النماذج السابق ذكرها أنها تصرخ في وجوه الذين ركبوا متن خيالهم ولا أقول عقولهم فتجرؤا على جانب الغيب الذي هو فوق عقولهم، بيد أنهم بغرابة تفكيرهم

1 – الإسلام عقيدة ونظام ص 98 . حديث " باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه " أخرجه البخاري تعليقا كتاب الدعوات باب حدثنا أحمد بن يونس رقم (6320) وكتاب التوحيد باب السؤال بأسماء الله وال استعادة بها رقم (7393) ، ط بيروت، وأخرجه أبو داود كتاب الأدب باب ما يقال عند النوم رقم (5050) ، ط الريان، وأخرجه النسائي في باب 2 رقم 220، حديث " اللّهم أنت خلفت نفسي وأنت تتوفاها ... الحديث أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (17 / 35) ، حديث " الحمد لله الذي عافاني في جسدي ورد على روحي " ذكره النبوي في الأذكار ص 21، ط النور الإسلامية وعزاه لابن السني بإسناد صحيح، حديث " الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور، أخرجه البخاري في كتاب الدعوات باب ما يقول إذا نام رقم (6312) وباب وضع اليد اليمني تحت الخد الأيمن رقم (6314) وباب ما يقول إذا أصبح رقم) 6324) وفي كتاب التوحيد باب السؤال بأسماء الله تعالى رقم (7394) وأخرجه أبو داود في كتاب الأدب رقم (5049)، ط الريان، أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات رقم (3417)، ط دار الفكر، ابن ماجه في كتاب الدعاء رقم (3880)، ط الريان والإمام أحمد في المسند (5 / 385، 387، 397، 399، 407) وأخرجه مسلم في كتاب الذكر رقم (2711)

أولجوه فيه، فحملوه فوق طاقته في حين أنهم كان ينبغي عليهم أن يضربوا من حول العقل سترا منيعا من النص القرآني العقلاني الموضوعي يدثرونه لئلا تختلط الأمور عليه .

الباب الرابع
أثر العقل في القرآن الكريم
على الفكر الإسلامي
أنماط ونماذج

الفصل الأول
الإلهيات
أنماط ونماذج

لقد مر بنا آنفا حديث القرآن الكريم عن العقل ومنزلته وتبين لنا من خلاله كيف حث القرآن الكريم أصحاب العقول بل أمر العقل في عبارات صريحة قوية بالنظر والتفكر والتدبر مبينا له أنه بهذا يمتاز عن سائر الخلائق ويرتفع عن الحيوان وسائر الدواب وفي سبيل ذلك نهاه عن التقليد والمتابعة المقززة من غير تدبر وروية للغير مبينا أنه بهذا يكون كإنسان استحب العمى على البصر ثم في سبيل التكوين القرآني للفكر المستقيم مر بنا كيف نهى الإنسان عن الظن وأمره بتأسيس علومه على يقين لا يعتريه ريب أو شك ورأينا كيف أن القرآن الكريم قد ساق أمام العقل بتأسيس علومه على يقين لا يعتريه ريب أو شك ورأينا كيف أن القرآن الكريم قد ساق أمام العقل كل ذلك في صورة عملية، فكان الفكر والنظر المصحوب بالحرية أساسًا وقاعدة للإيمان واعتناق الإسلام هذا من جهة، ومن جهة أخرى قدم له في صورة عملية كما مر بوضوح القضايا مشفوعة بدلائلها العقلية والعلمية التجريبية وقد ظهر هذا بجلاء في الباب الأول والثاني والثالث من هذا البحث والذي وقفنا من خلالهم على الدلائل العقلية الواضحة والحجج الفكرية الدامغة التي تخاطب العقل والفكر في مسائل الإلهيات والنبوات والبعث متنوعا في الخطاب والدلائل بما يتلاءم مع كل عقل ومقررات، واصلاً بالإقناع والبرهنة العقلية الفكرية اليقينية إلي السنام والذروة التي يضمحل بجوارها التقليد والجهل ولا غرابة إذا لمس العقل البشري في آخر هدي السماء إلي الأرض هذا الاحتفاء العظيم فهو أحد الكليات التي حافظ القرآن الكريم عليها محرما ومجرما الاعتداء عليه بسكر أو تغييب أو جناية توجب دية كاملة لذهابها بإنسان كامل وكان الإسلام بتشريعه هذا يريد أن يقول لنالا إنسانية لمن لا عقل له .

ولهذا يرتفع التكليف عن الإنسان عند ذهاب العقل الذي به يرفع القلم عن صاحبه ومن الأمور التي كرم بها الإسلام وكتابه العقل أنه لم يكلفه فوق طاقته، فلم يكلفه مشقة البحث

في مجال يعلو عنه بل لحرصه عليه وضع له مجالا يدور في فلكه كي لا يشت أو يشط وهو مجال الكون المادي أو الجانب الفيزيقي هذا المجال الإنسان مأمور بالبحث فيه ومثاب على بحثه، أما ما وراء الطبيعة الجانب الميتافيريقى فهو جانب يعلو فوق العقل الإنساني، ومن ثم ينبغي أن يعرف العقل قدره بالنسبة لهذا الجانب، فلا يخوض فيه تاركًا لنفسه العنان دون رقيب أو حسيب، وإنما ينبغي عليه أن يعتصم بالوحي المعصوم بالنسبة لهذا الجانب فلا يلج هذا الجانب إلا في ستره وحرزه وحجابه؛ لئلا يضل أو يشقى؛ لأنه من غير المستساغ أن يحيط المتناهي بغير المتناهي والمحدود باللا محدود، وهذا أمر صدقة الواقع فعندما أوغل بعض الطوائف الإسلامية عقولهم في هذا الجانب ارتدوا إلينا من وراء بحثهم بأمور منكرة تخرج عن ربقة الملة وأشاعوا بها بين العباد الفرقة فكان من جراء هذا تكييف وتشبيه لا يليق بالذات العلية وتصور عقلي للنبوة منافي للثوابت الشرعية وإنكار للحشر والمعاد الجسماني وإنكار للعلم جزئي المتعلق بالذات الإلهية وكل ضال له عل ضلاله الكثير من الحجج العقلية التي زينها له شيطانه هي في حقيقتها سفسطة محضة وشبه واهية .

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود: إن البحث العقلي في الإلهيات أمر طبيعي بالنسبة للمفكرين الذين نشئوا في أقاليم لا يوجد فيها كتاب مقدس إنه من الطبيعي أن يوجد في هذه الأقاليم رجال يحاولون ابتداع مذهب فيما وراء الطبيعة ذلك أن الإنسان بفطرته طلعة وهو يحاول دائما إلي معرفة الأسباب ويتشوف إلي رؤية المجهول ويتطلع إلي الكشف عن عالم الغيب أما في البيئات التي فيها نص مقدس يحتفظ بنضرته ولا شك إنسان في صحته، فإن من غير الطبيعي أن ينشأ بجوار هذا النص المعصوم اختراعات ذهنية تتصل بعالم الغيب ذلك أن ثمرة التفكير الإنساني عرضة للخطأ والخطأ في الذات الإلهية أو في الصفات الإلهية الخطأ في عالم الغيب على وجه العموم فيه خطورة كبيرة الطريق المستقبل إذن هو ألا ينشأ بجوار النص

المقدس اختراع عقلي يتصل بعالم الغيب تلافيا لما عصاه يكون في نتائج البحث العقلي من أخطاء .التسليم للنص المقدس إذن هو المبدأ السليم عند ذوي العقول [1] .

وإذا عرفنا هذا فإنه يجدر بنا الآن أن تطوف مع أبرز الطوائف الإسلامية؛ لنرى أثر الدلائل العقلية القرآنية فيها، ولنعرف أيهم عرف للعقل قدره فأنزله منزلته، وأيهم اغتر بعقله فأسلم له زمامه والجًا به حجبا لا طاقة له بها فباء بالخسران المبين .

وينبغي أن نعلم أنه ليس هناك مقياس عقلي للتفرقة بين الحق والباطل بالنسبة لما وراء الطبيعة، وكل ما يمكن أن يصل إليه العقل احتمالات وترجيحات لا تنتهي إلي **اليقين**.

1 – مقدمة المنقذ من الضلال ص 397 .

المبحث الأول
أثر الدلائل القرآنية العقلية على إثبات الوجود الإلهي
في الفكر الإسلامي

أولاً : أثر الدلائل القرآنية العقلية عند مفكري الأشاعرة.

أ – دليل الخلق وما يلحقه من عناية :

إن ممن تناول هذا الدليل العقلي بالحث والبيان إمام الأشاعرة أبو الحسن الأشعري ت 330 هـ وقد أقامه على النظر والتأمل في النفس الإنسانية، فرأى الإنسان لا يمكن أن يكون علة في خلق نفسه ورأى مراحل خلقه المختلفة وتقلبه فيها من نطفة إلى مضغة إلى علقة ثم إلى عظام إلي لحم ارتدته العظام مكسوة به ثم أنشأ بعد ذلك إنسانا سويا قد نفخت فيه الروح، فكان في هذه الحياة خلقا آخر يتقلب في مختلف مراح لعمره من طفل إلى صبي إلى شاب فتى وإلى رجل ثم إلي شيخ هرم فدل تحول الإنسان كما مر من حالة إلي حالة أخرى على وجود إله حكيم قلبه في مختلف هذه المراحل إذ لا يمكن أن يحدث هذا اتفاقا أو مصادفة، فكما يبين الإمام الأشعري أن من ذهب إلي برية مقفرة فانتظر أن يتحول الطين فيها إلي طوب ثم إلي قصر منيف مفروش بالأرائك والشرر من غير بان ولا صانع ففي عقله خبال، فكذا يكون الحال في تقلب الإنسان في مختلف مراحل خلقه لا يمكن أن يحدث من غير مقلب ولا فاعل مدبر حكيم .

يقول الإمام الأشعري : إن سأل سائل فقال ما الدليل على أن للخلق صانعًا صنعه ومدبرًا دبره.

قيل له: الدليل على ذلك أن الإنسان الذي هو في غاية الكمال والتمام كان نطفة ثم علقة ثم لحما ودما وعظما، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال إلي حال؛ لأننا نراه في حال لكمال قوته وتمام عقله لا يقدر أن يحدث لنفسه سمعًا ولا بصرًا ولا أن يخلف لنفسه جارحة .

يدل ذلك على: أنه في حال ضعفه ونقصانه عن فعل ذلك أعجز؛ لأن ما قدر عليه في حال النقصان، فهو في الكمال عليه أقدر وما عجز عنه في حال الكمال، فهو في حال النقصان عنه أعجز، ورأيناه طفلا ثم شابا كهلا ثم شيخا، وقد علمنا أنه لم ينقل نفسه من حال الشباب إلي حال الكبر والهرم؛ لأن الإنسان لو جهد أن يزيل عن نفسه الكبر والهرم ويردها إلي حال الشباب لم يمكنه ذلك، فدل ما وصفنا على أنه ليس هو الذي ينقل نفسه في هذه الأحوال، وأن له ناقلًا نقله من حال إلي حال ودبره على ما هو عليه؛ لأنه لا يجوز انتقاله من حال إلي حال بغير ناقل ولا مدبر، مما يبين ذلك أن القطن لا يجوز أن يتحول غزلا مفتولا ثم منسوجا بغير ناسخ ولا صانع ولا مدبر، ومن اتخذ قطنا ثم انتظر أن يصير غزلا مفتولا ثم ثوبا منسوجا بغير صانع ولا ناسج كان عن المعقول خارجا وفي الجهل والجا، وكذلك من قصد إلي برية لم يجد فيها قصرا مبنيا فانتظر أن يتحول الطين إلى الآخر ويتنضد بعضه على بعض بغير صانع ولا بانٍ كان جاهلا، وإذا كان تحول النطفة عقلة ثم مضغة ثم لحما ودما وعظما أعظم في الأعجوبة كان أولى أن يدل على صانع صنع النطفة ونقلها من حال إلي حال [1] .

ولعلنا لاحظنا من خلا لحديث الإمام الأشعري عن دليل الخلق تأثره بالنظم القرآني الكريم المخاطب للعقول في قول الله سبحانه وتعالى في سورة المؤمنون ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا

---

1 – الإمام الأشعري اللمع ص 18 ت د / حمودة غرابة، ط الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية 1975، ويراجع د/ إبراهيم بيومي مدكور في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه جـ 2 ص 48، ط دار المعارف .

ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ **[المؤمنون:12-14]**

وإذا كنا قد أدركنا من خلال التأمل في الكلام السابق للإمام الأشعري مدى دلالته العقلية على برهان الخلق وإثبات الوجود الإلهي من خلاله أيضا نجده بقليل من التأمل العقلي يرشد إلي إثبات الوجود ذاته عن طريق دليل الحدوث حيث لاحظنا أن الإنسان قد تقلب في مختلف مراحل حياته من نطفة إلي علقة إلى مضغة الخ، وهذا التغير من أمارات الحدوث وعلامته مما يدل عقلا على أن الإنسان حادث وكل حادث لابد له من محدث وهو الله تعالى.

ودليل الخلق تناوله اللاحقون للإمام الأشعري من أعلام مدرسته إذ نجد للإمام الباقلاني ت 403 حديثا عنه يقول فيه : إذا صح وجوب النظر فالواجب على المكلف النظر والتفكر في مخلوقات الله لا في ذات الله، والدليل عليه قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا﴾ **[آل عمران:191]**

وأيضًا قوله تعالى في سورة الغاشية ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ **[الغاشية:17]** فالنظر والتفكر يكون في المخلوقات، وأيضا فإن موسى عليه السلام لما سأله اللعين فرعون عن ذات الله أجابه: بأن مصنوعاته تدل على أنه إله ورب قادر لا إله سواه إذا نظر فيها وتأمل؛ لأنه لما قال له كما حكت سورة الشعراء ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ **[الشعراء:23]**

قال: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ **[الشعراء:24]** إلي أن كرر عليه السؤال وأجابه بمثل الأول إلى آخر الآيات، فمهما سأله عن الذات أجابه بالنظر في المصنوعات التي تدل على معرفته، فالمتفكر إذا تفكر في خلق السماوات والأرض وخلق

نفسه وعجائب صنع ربه أداه ذلك إلي صريح التوحيد؛ لأنه يعلم بذلك أنه لابد لهذه المصنوعات من صانع قادر عليم حكيم [1].

و ظهر هذا الدليل بوضوح بعد ذلك عند الإمام الغزالي ت 505 والذي يحدثنا أيضا عن هذا البرهان العقلي متخذًا من الآيات القرآنية في الآفاق وفي الأنفس أساسًا ومنطلقًا.

يقول الإمام الغزالي في حديثه عن معرفة وجود الله تعالى : وأول ما يستضاء به الأنوار ويسلك من طريق الاعتبار ما أرشد إليه القرآن فليس بعد بيان الله سبحانه وتعالى بيان وقد قال تعالى في سورة النبأ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ **[النبأ: 6-16]** وقال تعالى في سورة البقرة ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ **[البقرة:164]** وقال تعالى في سورة نوح ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ **[نوح:15 - 18]** وقال تعالى في سورة الواقعة ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ

1 - الإمام الباقلاني، الإنصاف ص 29، 30، تح الشيخ زاهد الكوثري ، ط 2 الخانجي 1383 هـ 1963م .

﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ **[الواقعة:58 - 73]**

فليس يخفى على من معه أدنى مسحة من عقل إذا تأمل بأدنى فكره مضمون هذه الآيات، وأدار نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسماوات وبدائع فطرة الحيوان والنبات إن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغني عن صانع يدبره وفاعل يحكمه ويقدره [1] .

ثم نرى الإمام الغزالي بعد ذلك يؤكد على دلالة الأنفس ودروها في إثبات الوجود الإلهي وكيف أن أقرب شيء إلي الإنسان ذاته فمن نظر فيها متفكرًا علم أنه لم يستفد وجوده من ذاته أو نفسه، وإنما هناك خالق لولا أن تفضل عليه بالإيجاد لم يكن ليوجد.

يقول الإمام الغزالي : إن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا أنه لا وجود له من ذاته وإنما وجود ذاته من الله وإلى الله وبالله فهو المخترع الموجد له، وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته بل هو محو محض وعدم صرف لولا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد [2] .

وعلى هذا فلا يمكن أن يكون الإنسان قد استفاد وجوده من غيره ممن يشاركه في نوعه؛ لأن غيره من بني الإنسان يشترك معه الوجود الغيري، ومن ثم فهو مخلوق ومصنوع لمن هو وجوده مستمد من ذاته وهي الله تعالى عند خلقه والتي تكمن في أن ما في الكون من خلائق انفرد الحق سبحانه وتعالى بإيجادها دون أن يشاركه في ذلك أحد.

---

1 – الإمام الغزالي قواعد العقائد ص 85 ن 86 ، تح د/ رؤف شلبي، ط مجمع البحوث الإسلامية 1970، ويراجع د/ فيصل بدير عون الفلسفة الإسلامية في المشرق ص 404، ط مكتبة الحرية .

2 –إحياء علوم الدين جـ 3 ص 277 .

يقول الإمام الغزالي: الخاصية الإلهية هي الموجود بذاته الذي يوجد عنه كل ما في الإمكان وجوده على أحسن وجوه النظام والكمال وهذه الخاصية لا يتصور فيها مشاركة ألبتة والمماثلة لها لا تحصل [1].

وعلى هذا فمن المحال الذي لا يجيزه العقل الصحيح أن يكون الإنسان قد استمد وجوده من ذاته أو من إنسان آخر مماثل له ومن ثم ثبت أن موجده وخالقه هو الله تعالى .

ويتضح أثر هذا الدليل عند الإمام الرازي بل إنه يقرر أن هذا النوع من الدلائل العقلية لم يؤت كتاب قط من الكتب منه نصيب مثل ما أوتى القرآن الكريم إذ القرآن الكريم قد ملئ بالحديث عنه في كثير من آياته، وذلك في الحديث عن خلق السماوات والأرض وتعاقب الليل والنهار وتستخير الفلك في البحار وهطول المطر من السماء وتسخير الرياح والسحاب وغير ذلك كثير مما يدل على وجود الصانع الحكيم، ومن ثم فلا غرابة إن رأينا القرآن الكريم في حديثه عن هذه الظواهر قد ذيل بالحض على التعقل والتدبر والذي من خلاله يكون امتطاء هذه الظواهر كوسيلة لإثبات صانعها وخالقها.

يقول الإمام الرازي : واعلم أن هذا النوع من البحث بحر لا ساحل له وليس في شيء من الكتب بيان هذا النوع من الدلائل كما في القرآن فإنه مملوء من هذا النوع من البيان قال تعالى في سورة البقرة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ **[البقرة:164]** فهذه الآية مشتملة على ثمانية أنواع من الدلائل فالثلاثة الأولى الدلائل

---

1 – الإمام الغزالي معارج القدس ص 180، ط دار الآفاق بيروت ونلاحظ أن هذا الكتب مشكوك في نسبته إلي الإمام الغزالي .

الفلكية وهي قوله تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ **[البقرة:164]**

والخمسة الباقية من الدلائل هي عالم العناصر وهي قوله تعالى ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ **[البقرة:164]**

ثم ذكر بعده دلائل النبات فقال ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ **[البقرة:164]**

ثم ذكر بعده دلائل الحيوان فقلا ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ﴾ **[البقرة:164]**

ثم ذكر دلائل الآثار العلوية وذكر فيها نوعين : الرياح والسحاب فقال ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ **[البقرة:164]**

ولما ذكر هذه الدلائل الثمانية قال ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤﴾ **[البقرة:164]** [1] .

ويصوغ لنا الإمام الرازي هذا الدليل العقلي في موضع آخر من كتبه بعبارات موجزة فيقول: لما ثبت أن العالم ما كان موجودا ثم صار موجودا فحقيقة العالم قابلة للعدم، وقابلة للوجود، وكل ما كان كذلك فرجحان وجوده على عدمه يكون لأجل ترجيح مرجح، فثبت أن وجود العالم محتاج إلي مؤثر وموجد [2] .

ثم نرى الإمام الرازي في كتابه أسرار التنزيل يتحدث عن دلائل الوجود الإلهي مستندًا في تحقيقه لهذه الدلائل على الآيات القرآنية وما تشع به من معان تخاطب العقول فنجده مثلا يحدثنا عن بعض هذه الدلائل من خلال قول الحق سبحانه وتعالى في سورة البقرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

1 –المطالب العالية جـ 1 ص 235، 236

2 – الإمام الرازي المسائل الخمسون في أصول الدين ص 23، 42، تح د/ أحمد حجازي السقا، المكتب الثقافي .

ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ **[البقرة21 - 22]**

فينطلق الإمام الرازي من خلال هاتين الآيتين الكريمتين ليبين لنا كيف يثبت الوجود الإلهي من خلال التأمل في النفس وكيف خلقت والتأمل في خلق الأجداد والإسلاف ثم التأمل في أحوال الأرض ونباتها والسماء وبناءها وما إلى ذلك من أشياء تدل دلالة واضحة على وجود إله مدبر حكيم .

يقول الإمام الرازي في تعقيله على هذه الآية الكريمة : لقد استدل على إثبات الصانع بخمسة أنواع من الدلائل أولها الأنفس وإليه الإشارة بقوله ﴿رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [(1)] .

وثانيها : بأحوال آبائهم وأجدادهم وإليه الإشارة بقوله ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ .

وثالثها : بأحوال الأرض وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ **[البقرة:22]**

وربعها: بأحوال السماء وإليه الإشارة بقوله (والسماء بناء).

وخامسا : الأحوال الحادثة المتعلقة بالسماء والأرض وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ﴾ **[البقرة:22]**

1 – كان الأولى في إثبات هذه الدلالة أن يقف على قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ لأن قوله ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ﴾ لها دلالة أخري وهي خلق الأسلاف والأجداد .

فإن السماء كالأب والأرض كالأم تنزل قطرة من صلب السماء إلي رحم الأرض فيتولد منها أنواع النبات فإن هذه الأشياء من حيث أنها حدثت مع جواز أن لا تحدث ومع جواز أن تحدث على خلاف ما حدثت تدل على وجود الصانع القادر [1].

ويستهدون بهديه ومعانية التي تخاطب العقول فتأخذ بالألباب .

ثانيا :دليل الحدوث عن مفكري الأشاعرة :

إن من الدلائل العقلية التي بها يبرهن على الوجود الإلهي كذلك دليل الحدوث، والذي يقول على إثبات الحدوث للعلم وحدوث العالم إنما يكون باحتوائه على الحوادث واشتماله على المتناقضات من حركة وسكون، وانطوائه على المتغيرات وكونه بعد عدمه وغير ذلك من أمارات الحدوث التي ينطوي عليها العالم وما دام الأمر كذلك فإنه يثبت الحدوث له ومادام العال محادث فلابد له من محدث .

ونجد للإمام الباقلاني حديثًا عن هذا الدليل بين فيه أن العالم متغير وكل متغير حادث إذا فالعالم حادث، ومادام العالم حادث فلابد له من محدث.

ونراه كذلك في حديثه عن إثبات الحدوث للعالم عن طريق التغير يستند في ذلك إلى الآيات القرآنية في قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الأنعام﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦﴾**[الأنعام:76]**.

يقول الإمام الباقلاني متحدثا عن الحدوث وكيفية الاستدلال به على وجود الله : يجب أن يعلم أن العالم محدث وهو عبارة عن كل موجود سوى الله تعالى، والدليل على حدوثه تغيره من حال إلى حال ومن صفة إلي صفة، وما كان هذا سبيل هو وصفه كان محدثا، وقد بين نبينا

---

1 – الإمام الرازي أسرار التنزيل وأنوار التأويل ج1 رسالة دكتورارة كلية أصول الدين بالقاهر 1994، تح د/ عبد الغني الغريب ط راجح .

صلى الله عليه وسلم هذا بأحسن بيان يتضمن أن جميع الموجودات سوى الله محدثة مخلوقة لما قالوا " يا رسول الله أخبرنا عن بدء هذا الأمر فقال نعم كان الله تعالى ولم يكن شيء ثم خلق الله الأشياء "[1]

فأثبت أن كل موجود سواه محدث مخلوق وكذلك الخليل عليه السلام إنما استدل على حدوث الموجودات بتغيرها وانتقالها من حالة إلي حالة؛ لأنه لما رأى الكوكب ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78)﴾ **[الأنعام:76 - 78]**[2].

فعلم أن هذه لما تغيرت وانتقلت من حال إلى حال دلت على أنها محدثة مفطورة مخلوقة، وأن لها خالقا فقال عند ذلك في سورة الأنعام ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)﴾ **[الأنعام:79]**

وإذا صح حدوث العالم، فلابد له من محدث أحدثه ومصور صوره، والدليل على ذلك أن الكتابة لابد لها من كاتب كتبها، والصورة لابد لها من مصور صورها والبناء لابد له من بان بناه، فإنا لا نشك في جهل من أخبرنا بكتابة حصلت بنفسها لا من كاتب وصناعة لا من صانع وحياكة لا من ناسج، وإذا صح هذا وجب أنتكون صور العالم وحركات الفلك متعلقة بصانع صنعها ومحدث أحدثها[3]

1- أخرجه البخاري بمعناه في كتاب بدء الخلق باب " وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده " حديث رقم (3191) وكتاب التوحيد باب " وكان عرشه على الماء " ، " وهو رب كل شيء " في قصة وفد بني تميم حديث رقم (7418) .

2 – يراجع الأنعام آيات 76، 79 .

3 – الإنصاف ص 30، 31 .

وبعد أن برهن الإمام الباقلاني على وجود الصانع من خلال مسلك الحدوث العقلي القائم على التغير نراه يعود مرة أخرى ليبرهن عل وجود الحق سبحانه وتعالى من خلال الأشياء الحادثة وكيف أنها مع تجانسها وتشاكلها نرى بعضها متقدما عن بعض، والآخر متأخر، فلو كان التقدم والتأخر في الأشياء ذاتها فيها لم يكن المتقدم من الأشياء أولى بالتقدم وذلك للتجانس الموجود بين الأشياء وكذا الحال بالنسبة للتأخر فدل هذا على وجود إله جعل كل شيء على هيئة ومسيرته مما هو معلوم لدينا .

يقول الإمام الباقلاني : ومما يدل على أن العالم محدث وله محدث عِلمُنا بتقدم الحوادث بعضها على بعض وتأخر بعضها عن بعض مع علمِنا بتجانسها وتشاكلها، فلا يجوز أن يكون المتقدم فيها متقدمًا لنفسه؛ لأنه لو تقدم لنفسه لوجب تقديم كل ما هو من جنسه وكذلك المتأخر منها لو تأخر لنفسه وجنسه لم يكن المتقدم فيها بالتقدم أولى منه بالتأخر، وفي علمنا بأن المتقدم من المتماثلات بالتقدم أولى منه بالتأخر دليل على أن له مقدما قدمه وعاجلا عجله في الوجود مقصورا على مشيئته (1) .

ويدلل الإمام الباقلاني أيضا على إثبات الصانع عن طريق تباين الأشياء بالحياة والموت هذا التباين يعطي دلالة واضحة على أن الأشياء لم تكن أبدا لتحدث نفسها إذ من صفات الصانع الحياة، فدل هذا على وجود محدث أحدث الأشياء وصفاتها .

يقول الإمام الباقلاني : ويدل على صحة ما ذكرناه : أن الموجودات لا يجوز أن تكون فاعلة لنفسها، فإنا وجدنا فيها الموت والأعراض أعني الجمادات التي لا حياة فيها لا يجوز أن

1 - الإنصاف ص 31 .

تكون فاعلة لنفسها، ولا لغيرها لأن من شرط الفاعل أن يكون حيًا قادرًا فبطل كونها محدثة لنفسها بل لها محدث أحدثها [1].

ونجد الإمام الغزالي ممن اعتمدوا برهان الحدوث كدليل به يبرهن على الوجود الإلهي منتهجا في البرهنة به نهج سابقيه من مفكري الأشاعرة من التدليل على حدوث يبرهن على صدق المقدمات أثناء حديثه عن هذا الدليل، فنراه يبرهن على كون الجسم إمَّا ساكنًا أو متحركًا ويبرهن على حدوث الحركة والسكون ويبرهن على صدق المقدمة القائلة أن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث .

يقول الإمام الغزالي في جانب من تناوله لهذا الدليل: من بداهة العقول أن الحادث لا يستغني في حدوثه عن سبب يحدثه، والعالم حادث فإذا لا يستغني في حدوثه عن سبب.

أمَّا قولنا إن الحادث لا يستغني في حدوثه عن سبب فجلي، فإن كان حادث مختص بوقت يجوز في العقل تقدير تقديمه وتأخيره، فاختصاصه بوقته دون ما قبله وما بعده يفتقر بالضرورة إلي المختص.

وأمَّا قولنا العالم حادث فبرهانه أن أجسام العالم لا تخلو عن الحركة والسكون، وهما حادثان وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، ففي هذا البرهان ثلاث دعاوى الأولى : قولنا إن الأجسام لا تخلوا عن الحركة والسكون وهذه مدركة بالبديهة والاضطرار، فلا يحتاج فيها إلي تأمل وافتقار، فإن من عقل جسما لا ساكنا ولا متحركا كان لمتن الجهل راكبا وعن نهج العقل ناكبًا

---

1 - الإنصاف ص 31، ويراجع هنري كوربان تاريخ الفلسفة الإسلامية ص 180 وما بعدها ترجمة نصير مرة، وحسن قبيس، ط بيروت .

الثانية : قولنا إنهما حادثان ويدل على ذلك تعاقبهما ووجود البعض منها بعد البعض وذلك شاهد في جميع الأجسام ما شوهد منها وما لم يشاهد فما من ساكن إلا والعقل قاض بجواز حركته، وما من متحرك إلا والعقل قاض بجواز سكونه، فالطارئ منها حادث لطروئه والسابق حادث لعدمه؛ لأنه لو ثبت قدمه لاستحال عدمه.

الثالثة :قولنا ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، وبرهانه أنه لو لم يكن كذلك لكان قبل كل حادث حوادث لاأول لها، ولو لم تنقض تلك الحوادث بجملتها لا تنتهي النوبة إلي وجود الحادث الحاضر في الحال وانقضاء مالا نهاية له محال فيحصل من هذا أن العالم لا يخلو عن الحوادث فهو إذا حادث، وإذا ثبت حدوثه كان افتقاره إلي المحدث من المدركات بالضرورة (1)

وإذا كنا قد وقفنا على هذا الدليل العقلي الذي نحن بصدد الحديث عنه من خلال فكر الإمام الغزالي الذي تبين لنا من خلاله مدى تأثره بالصياغة العقلية لهذا الدليل من خلال الآيات القرآنية فإنه يلوح لنا في الأفق علم آخر من أعلام المدرسة الأشعرية وهو إمام الحرمين الجويني ت 478هـ والذي يحدثنا عن دليل الحدوث كبرهان به يستدل على الوجود الإلهي حيث يبين أن العالم حادث وما دام الأمر كذلك فلابد له من فاعل محدث لا يمكن أن يصدر العالم عنه على سبيل العلية والإيجاد، وإلا لانتفى الحدوث عن العالم، ولا يجوز كذلك أن يكون محدثه حادثًا وإلا لتسلسل الأمر، وهذا ظاهر البطلان فلابد من الانتهاء إلي إله قديم أحدث العالم على وفق علمه وإرادته وقدرته.

1 – قواعد العقائد ص 80، 88 .

يقول الإمام الجويني: لقد ثبت حدوث العالم ووجب افتقاره إلى موقع يوقعه على ما هو عليه، فاستحال وقوعه بنفسه.

لم يخل موقعه إما أن يكون موجبا لا إيثار له أو يكون مختارًا، وباطل أن يكون موجبا لا إيثار له فإنه لا يخلو إما أن يكون قديما أو حادثا فإن كان قديما وجب قدم موجبه، وأثره واستحال تخصيص أثره بوقت دون وقت في حين أن العالم حادث، وإن كان موجبه حادثا افتقر هو إلى موقع ويتسلسل القول فيه إلي أعداد غير متناهية، وهذا مستحيل ببدائه العقول....فبطل أن يكون موقع العالم حادثا وبطل أن يكون موجبا لا إيثار له ووجب القول بصانع مختار مريد أوقع العالم على موجب مشيئته وتبين بما قدمناه وجوب قدمه إذ لو كان صانع العالم لافتقر إلي محدث افتقار العالم إليه ثم ينجر الأمر إلي ما سبق وضوح استحالته [1].

ونرى الإمام الجويني في موضوع آخر من كتبه يحدثنا عن دليل الحدوث ودلالته العقلية على إثبات الصانع مبينا أن العالم حادث وعلى هذا فجائز أن يوجد وجائزا أن لا يوجد، وإذا وجد في وقت ما فمما يجوز العقل أن يوجد أيضًا في وقت متقدم عنه، أو متأخر ولما كان الأمر كذلك ثبت وجود محدث للعالم أخرجه من العدم إلي الوجود مريدا وقوعه في اللحظة التي قضى بوجوده فيها.

يقول إمام الحرمين: إذا ثبت الحدوث للعالم وتبين أنه مفتتح الوجود فالحادث جائز وجوده وانتفاؤه وكل وقته بساعات، فإذا وقع الوجود الجائز بدلًا من استمرار العدم المجوز قضت العقول ببداهتها بافتقاره إلي مخصص خصصه بالوقوع، وإذا وضح افتقار الحادث إلي

---

1 – الإمام الجويني العقيدة النظامية ص 20، تح د/ أحمد حجازي السقاط مكتبة الكليات الأزهرية 1978، ويراجع الإمام الجويني الشامل في أصول الدين ص 145، تح هلموت كلويفرط ، دار العرب 1988 .

مخصص على الجملة فإنه يبطل أن يكون مخصص العالم علة توجبه أو طبيعة تواجده بنفسها لا على الاختيار فيتعين بعد ذلك القطع بأن مخصص الحوادث فاعل لها على الاختيار [1].

وإذا كان هذا دليل الحدوث كما تصوره إمام الحرمين الجويني فإننا نرى بعد ذلك الإمام الشهرستاني ت 548 وقد استخدم هذا المسلك العقلي في البرهنة على الوجود الإلهي أيضًا، وذلك من خلال خلق الإنسان وتقلبه في مراحل الخلق المختلفة، والذي ليس لأحد دخل فيها وفي حدوثها سواء من ذات الإنسان أو أبويه مما يدل على أن محدثه وموقعه فاعل قادر حكيم يقول الإمام الشهرستاني: إن حدوث الإنسان وتكونه من نطفة أمشاج وتقلبه في أطوار الخلقة وأكوار الفطرة، ولسنا نشك في أنه ما غير ذاته ولا بدل صفاته ولا الأبوان ولا الطبيعة فيتعين احتياجه إلى صانع قديم قادر عليم [2].

هذا هو دليل الحدوث كما تناوله الإمام الشهرستاني مثل سابقيه من أعلام الفكر الأشعري ولا يزال الحديث موصلا بنا عن هذا المسلك العقلي من خلال المدرسة الأشعرية إذ نجد الإمام الرازي وقد تناول هذا الدليل بالحديث أيضا، فنراه بعد أن يذكر لنا براهين الحدوث بالنسبة للعالم والتي مر الوقوف عليها في غير موضع سبق نراه يعد ذلك يقول عند تناول للحديث عن وجود الصانع تعالى : إن مما يستدل به على وجود واجب الوجود حدوث الذوات، وذلك المحدث يمتنع أن يكون جسمًا أو جسمانيًا وإلا لزم كونه محدثا لنفسه وهو محال [3].

---

1 – الإمام الجويني الإرشاد إلي قواطع الأدلة ص 28، 29 ، ط م الخانجي ويراجع الشامل في أصول الدين ص 48، ويراجع الإمام الجويني لمع الأدلة ص 80، 81، د / فوقية حسين، ط القاهرة 1965، وكذا محمد جلال شرف، الله والعالم والإنسان ص 395، ط دار النهضة .

2 – الإمام الشهرستاني، نهاية الإقدام ص 12، تح الفردجيوم ، ط م زهران .

3 – معالم أصول الدين ص 39 .

ويحدثنا الإمام الرازي في موضع آخر من كتبه عن هذا الدليل مبينا في بداية تناوله لهذا البرهان العقلي " كيفية إثبات الحدوث للعالم عن طريق أعيانه وأعراضه من الحركة السكون والاجتماع والافتراق والألوان والطعوم"، وغير ذلك من الأشياء الحادثة التي لا ينفك العالم عنها، ومن ثم نقول إن العالم باحتوائه على هذه الأشياء يثبت له الحدوث، ولذا فلابد له من محدث .

يقول الإمام الرازي : في العالم أعيان وأعراض والأعراض لا تخلو من حركة أو سكون أو اجتماع أو تفرق أو لون أو طعم، فهي حادثة وحدوثها ثابت بالحس والمشاهدة، وكل ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، فالعالم إذا بما فيه من جوهر وأعراض حادث وكل حادث لابد له من محدث، ويستحيل التسلسل إلي غير نهاية فيحكم العقل بضرورة وجود محدث ليس بحادث ولا مخلوق [1] .

وإذا كان الإمام الرازي قد تناول دليل الحدوث في كتابه المباحث المشرقية، والذي يمثل في فكره منزلة كتاب مقاصد الفلاسفة في فكر الإمام الغزالي= بمعنى أن كلا الكتابين بمثابة حكاية صاحبيهما لأقوال وآراء الغير من المفكرين والفلاسفة، فليس معني هذا أن الإمام الرازي لم ينتهج دليل الحدوث كوسيلة بها يتم البرهنة على وجود الصانع، وبدليل أنه في كتبه الأخرى المصفاة لآرائه نراه وقد حدثنا عنه كثيرًا في غير موضع منها، فيقول في كتابه المطالب العالية: إن الأجسام وكل محدث فله علة وصانع ينتج أنَّ كل جسم فله فاعل وصانع، وذلك الفاعل إن كان محدثا لزم التسلسل أو الدور، وإن كان قديما فهو واجب لذاته وهو المطلوب[2]

1 – الإمام الرازي، المباحث المشرقية جـ2 ص 450، ط حيدر أباد الدكن 1343هـ، 1924 م .

2 –المطالب العالية جـ 1 ص 200 ويراجع الإمام الرازي، اعتقادات فرق المشركين ص 143، ط الكليات الأزهرية .

وإذا كان هذا جانبا من دليل الحدوث كما عول عليه الإمام الرازي فإننا نجد كذلك الإمام البيضاوي ت، 685 وقد تكلم عن هذا الدليل أيضا قارنًا إياه بالحديث عن الإمكان بمعني أن ما نشاهده ونراه من الأشياء الحادثة من أمارات حدوثها كانت بعد أن لم تكن، ولذا فهي ممكنة، ومادامت ممكنة فلابد من سبب أخرجها من العدم إلى الوجود، ومن ثم وجب الانتهاء إلي الواجب لذاته، وإلا دار الأمر وتسلسل، وكلاهما باطل .

يقول الإمام البيضاوي: إنه لا شك في وجود حادث، وكل حادث ممكن، وإلا لم يكن معدومًا تارة وموجودًا أخرى، وكل حادث ممكن فله سبب، وذلك لابد أن يكون واجبًا، أو منتهيًا إليه [1] .

هكذا وقفنا على برهان الحدوث لدى الإمام البيضاوي مبطلًا في الوقت ذاته القول بالدور والتسلسل، ومنتهيًا من خلاله إلى إثبات الواجب سبحانه وتعالى وإذا ودعنا الإمام البيضاوي، فإننا لا نلبس إلا أن نصافح فكر القاضي الإيجي : حيث نجده وقد دلل على إثبات الصانع عن طريق مسلك الحدوث مبينا أن هذا المسلك العقلي من مسالك الاستدلال هو ما عول عليه الخليل عليه السلام في برهنته على إثبات الصانع.

يقول الإيجي: يُستدل على إثبات الصانع بحدوث الجواهر وهذه طريقة الخليل صلوات الله وسلامه عليه حيث قال: ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ **[الأنعام:76]**

وهو أنَّ العالم الجوهري أي: المتحيز بالذات حادث وكل حادث فله محدث كما شهد به بديهية العقل، فإن من رأى بناءً رفيعًا حادثًا جزم بأن له بانيا [1] .

1 – الإمام البيضاوي، طوالع الأنوار من مطالع الأنظار ص 166، تح عباس سليمان، ط دار الجيل بيروت، المكتبة الأزهرية للتراث القاهرة .

وإذا كان هذا جانبا من حديث صاحب المواقف حول إثبات الصانع فإننا نجد الإمام سعد الدين التفتازاني ت 793 هـ يعتمد هذا المسلك كبرهان به يدلل على إثبات الواجب سبحانه وتعالى مبطلا في الوقت ذاته الدور والتسلسل الفاسدين فيقول : إنه قد ثبت حدوث العالم= إذ لا شك في وجود حادث وكل حادث فيها بالضرورة له محدث، فإما أن يدور أو يتسلسل= وهو محال، وإما أن ينتهي إلي قديم لا يفتقر إلي سبب أصلا= وهو المراد بالواجب [2] .

هكذا رأينا دليل الحدوث كبرهان عقلي به يدلل على إثبات الوجود للواجب سبحانه وتعالى وقد ذاع ذكره في الفكر الأشعري والواقع أن هذا البرهان من أقوى الدلائل التي يكمن التمسك بها في البرهنة على وجود الله وهذا المسلك وإن كان البعض يأخذ عليه بأن مقدماته يعتريها النظر حيث إنها ليست بمسلمة عند كثير من الفلاسفة الإسلاميين إلا أن هذا المأخذ قد تلاشى وجوده الآن حيث أثبت العلم الحديث بطرقه العلمية البرهانية الحدوث بالنسبة للعالم مما أعطى هذا الدليل قوة كأحد المسالك العقلية التي بها يستدل على الوجود الإلهي.

ثالثًا:دليل الإمكان.

إن من الدلائل التي يمكن من خلالها البرهنة على وجود الحق سبحانه وتعالى دليل الإمكان والذي يقول على أن الأشياء تتمتع بصفات وخواص معينة وبها أنها ممكنة، فكان مما

---

1 - القاضي الإيجي المواقف جـ 7 ص 3، 4، ط الأولى 1907، ط السعادة ويراجع د / نشأت عبد الجواد ضيف، النهج الجديد في شرح جوهرة التوحيد ص 312 بدون طبعه .

2 - الإمام التفتازاني، شرح المقاصد جـ 4 ص 616، تح د/ عبد الرحمن عميرة، ط عالم الكتب بيروت م الكليات، ويراجع شيخ الإسلام البيجوري تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص 65 ط الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية 1981م .

يجوز في حقها أن تكون على غير هذه الصفات والهيئات والخواص، فنحن نرى ماء النهر عذبا فراتا وماء البحر ملحا أُجاجًا، وليس مما يحيله العقل إمكان تبدل الخواص بينهما فهذا أمر جائز عقلًا بيد أنهما لما وجدا على هذا النحو بما لهما من صفات معهودة دل هذا على أن ثمة مخصص خص كل واحد منهما بصفاته وخواصه .

هذا مجمل لدليل الإمكان وكيفية تطويعه في البرهنة به على وجود الله .

وإذا أتينا إلي الفكر الأشعري لنلتمس هذا الدليل من خلاله وهذا على سبيل التمثيل، فإننا نجد الإمام الباقلاني ممن تناولوا هذا الدليل بالحديث إذ يبين أننا نرى ونشاهد كثيرًا من الحوادث بعضها متقدم وبعضها متأخر .

والحوادث كما هو معروف أمور ممكنة فكان مما يجوز أن ينتقض الأمر ويأخذ كل واحد منها موضع صاحبة ولكن لما كانت الأمور الحادثة على هذه الهيئة والصورة المعهودة دل ذلك على وجود مخصص قدر كل شيء على هيئته ووضعه .

وأيضا نرى الأشياء المتجانسة بعضها يكون مدورًا وبعضها يكون مربعا، فإن هذا الاختلاف لا يمكن أن يكون ذاتيا لوجود الاشتراك من ناحية التجانس، ولكن لما وجد هذا الاختلاف مع التجانس دل ذلك على وجود إله أعطي كل شيء هيئته وصورته وقدره على حسب حاله .

يقول الإمام الباقلاني : لقد علمنا بتقدم بعض الحوادث على بعض وتأخر بعضها عن بعض مع العلم بتجانسها ولا يجوز أن يكون المتقدم منها متقدما لنفسه وجنسه ؛ لأنه لو تقدم لنفسه لوجب تقدم كل ما هو من جنسه وكذلك لو تأخر المتأخر منها لنفسه وجنسه لم يكن بالتقدم أولى منه بالتأخر، وفي العلم بأن المتقدم من المتماثلات لم يكن بالتقدم أولى منه بالتأخر دليل على أن له مقدما قدمه وجعله في الوجود مقصورا على مشيئته .

ويدل على ذلك أيضا علمنا بصحة قبول كل جسم من أجسام العالم لغير ما حصل عليه من التركيب، وصحة كون المربع منها مدورا وكون المدور مربعا، وكون ما هو بصورة بعض الحيوان بصورة غيره، وانتقال كل جسم عن شكله إلي غيره من الأشكال فلا يجوز أن يكون ما اختص منها بدء كل معين مخصوص إنما اختص به لنفسه أو لصحة قبوله له؛ لأن ذلك لو كان كذلك لوجب قبوله لكل شكل يصح قبوله له في وقت واحد حتى يجتمع فيه جميع الأشكال المتضادة وفي فساد ذلك دليل على بطلان هذا القول، ووجوب العلم بأن كل ذي شكل منها إنما حصل كذلك بمؤلف ألفه وقاصد قصد كونه كذلك [1].

ويحدثنا الإمام الغزالي عن هذا الدليل مبينا أن كل جائز وممكن فلابد وأن يكون له سبب رجح فيه طرف الوجود على العدم، وهذا السبب هو الذي أعطاه هيئته وصورته كان ذلك لأجل وجود مخصص ومقدر يقول الإمام الغزالي: كل جائز فله سبب واختصاص العالم أو الإنسان بمقداره الذي اختص به جائز، فإذا يلزم منه أن له سببا [2].

هكذا وقفنا على دليل الإمكان من خلال تصور الإمام الغزالي له ثم نجد بعد ذلك الإمام الرازي وقد تناول هذا الدليل مبينا أن الأجسام من حيث الجسمية متماثلة ومع هذا نراها مختلفة في صفاتها من حيث الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة إلي آخر كل هذا. من هنا نقول إنه لابد من وجود مؤثر في هذه الأجسام خص كل جسم بصفاته ذلك المؤثر لا يمكن أن يكون جسمًا؛ لأن الأشياء متماثلة من حيث الجسمية، ومن ثم فلا يمكن لجسم أن يكون لجسم آخر مدخل في حدوث التمايز فيها بينهما، إذا فالمؤثر فيها ليس بجسم ولا يمكن أن

---

1 - تمهيد الأوائل ص 43، 44 .

2 - القسطاس المستقيم من مجموع القصور العوالي ص 26 .

يكون تأثيره فيها على سبيل الطبع والإيجاب، وإلا لكان أثره في المتماثلات من حيث الجسمية واحدا فلابد من مؤثر ليس بجسم فاعل بالقصد والاختيار.

يقول الإمام الرازي : إنا وجدنا الأجسام متماثلة في الجسمية مخالفة في الصفات القائمة بها كما أن بعضها حارة وبعضها باردة وبعضها رطبة وبعضها لطيف وبعضها سفلي وبعضها علوي، فالمؤثر في وجود هذه الصفات المختلفة يمتنع أن يكون جسمًا؛ لأن ما به الاشتراك لا يمكن أن يكون علة لما به الامتياز، فلابد من وجود شيء آخر يؤثر في حصول هذه الصفات المختلفة، ثم هذا المؤثر إن كان جسما عاد الكلام الأول فيه ويلزم التسلسل وهو محال .

فثبت أن المؤثر في حصول هذه الصفات المختلفة شيء آخر سوى هذه الأجسام، وذلك المؤثر إما أن يؤثر بالطبع والإيجاد أو بالقصد والاختيار، والأول باطل؛ لأن تأثيره في جسم بالحرارة، وفي جسم آخر بالبرودة وفي جسم بالطاقة وفي جسم آخر بالكثافة، فثبت أن المؤثر في وجود هذه الأشياء ليس بجسم ولا جسماني وأنه فاعل بالقصد والقدرة والاختيار لا بالطبع والإيجاد [1]

ويقرر الإمام الرازي هذا الدليل بطريقة أخرى، فيقول: إن كل واحد من السماوات والأرضيين مختص بحيز معين وصفة معينة، وخاصية معينة ومقدارٍ معين مع أنه لا يمتنع وقوعه في العقل على خلاف تلك الخاصية والصفة والحيز، وإذا كان كذلك كان اختصاص كل واحد منهما بصفته وحيزه وشكله لابد وأن يكون بتخصيص مخصص وتدبير مدبر وتقدير مقدر فدل وجود السماوات والأرض من هذه الجهة على وجود القادر المختار [2] .

1 – الإمام الرازي المسائل الخمسون ص 26 ن 27 تح د/ أحمد حجازي السقا، ط المكتب الثقافي .

2 – أسرار التنزيل جـ2 ص 564 .

ويبين لنا صاحب المواقف أن الاستدلال بدليل الإمكان على هذا النحو السابق هو مسلك وطريقة قرآنية استخدمها موسى عليه السلام في حديثه عن إثبات الصانع كما حكى القرآن الكريم عنه في سورة طه ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ **[طه:50]** فاختص الحق سبحانه وتعالى الأشياء المتجانسة بصفتها التي بها تتمايز عن بعضها مع جواز أن تعطى نقيضها مما يدل هذا عقلا على وجود مقدر ومخصص فاعل حكيم يقول القاضي الإيجي : لقد استدل موسى عليه السلام بهذا الدليل حيث قال ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾ **[طه:50]** أي أعطى صورته الخاصة وشكله المعين المطابقين للحكمة والمنفعة المنوطة به وهو أن الأجسام متماثلة متفقة الحقيقة لترقبها من الجواهر المتجانسة فاختصاص كل من الأجسام بما له من الصفات جائز، فلابد في التخصيص من مخصص له، ثم بعد ذلك نقول مدبر العالم إن كان واجب الوجود فهو المطلوب، وإلا كان ممكنا فله مؤثر ويعود الكلام فيه ويلزم إما الدور أو التسلسل وإما الانتهاء إلى مؤثر واجب الوجود لذاته والأول بقسميه باطل [1] .

هكذا وقفنا على برهان الإمكان في الفكر الأشعري وأدركنا كيف أن أقطاب الفكر الأشعري قد عولوا عليه كمسلك يمكن من خلاله البرهنة على وجود الله سبحانه وتعالى ولعلنا أدركنا كيف جمعوا بينه وبين الحدوث في وحدة واحدة وذلك كي يتم التمايز بين دليل الإمكان عند علماء الكلام من رجالات الفكر الأشعري ودليل الإمكان عند الفلاسفة الإسلاميين .

خامسا : الدليل الفطري .

---

1 – المواقف جـ 8 ص 4، 5 .

ومن الدلائل العقلية التي عول عليها القرآن الكريم في البرهنة على إثبات الصانع الدليل الفطري والذي يقوم على أن معرفة الحق سبحانه وتعالى أمر مركوز في الفطرة الإنسانية هذه المعرفة لم يكن لينسب إلي الإنسان ابتكارا أو اختراعا لها في نفسه، وإنما هي فطرة من قبل الله سبحانه وتعالى مودعة فيه .

بيد أن الإنسان قد يتنكب عن هذه الفطرة ويتنكر لها، ولكنه سرعان ما يعود إليها مفتشا في نفسه عنها، فالحياة لا تصفو للإنسان على طولها فقد تحيط بالإنسان كرب وشدائد تجد إرادته أمامها قصورًا عن مجابهتها، وهنا يعلو صوت الفطرة رغما عن الإنسان مستعينا بالظهير الذي هو فوق كل ظهير، والنصير الذي هو فوق كل نصير فالإنسان باستغاثته هذه وطلبه المعونة من خالق القوي والقدر اعتراف صريح صحيح بوجود الحق سبحانه وتعالى فإذا أتينا إلي الفكر الأشعري لنقف من خلاله على هذا الدليل .

فإننا نجد الإمام الغزالي يحدثنا عنه في كثير من كتبه فنجده يقرر أن أفضل شيء للإنسان هو أن يكون مستعدًا لمعرفة ربه هذه المعرفة التي مكمنها القلب، أو النفس فمن عرف نفسه جيدًا أدرك أن معرفة الله مفطورة فيها، ومن ثم نراه يقول : فشرف الإنسان وفضيلته باستعداده لمعرفة الله سبحانه وإنما استعد للمعرفة بقلبه [1] لا بجارحة فالقلب هو العالم بالله، وهو الذي إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه وإذا عرف نفسه عرف ربه [2] .

1- يري الإمام الغزالي أن النفس والروح والقلب من الألفاظ المترادفة ويرى أيضا أن القلب له معنيان الأول وهو اللحم الصوبري المودع في الجانب الأيسر من الصدر والمعني الثاني أنه لطيفة ربانية متعلقة بهذا القلب الجسماني وهو المدرك للعالم العارف من الإنسان وهو المخاطب والمعاقب، معارج القدس ص 150 الإحياء ص 4 .

2 – الإحياء جـ 3 ص 3 .

ونجد الإمام الغزالي في مختلف كتبه يبين لنا أن الإنسان ينبغي عليه أن يعرف نفسه؛ لأنه من خلال هذه المعرفة يعرف ربه فنراه يسوق لنا في كتابه ميزان العمل أعرف نفسك يا إنسان تعرف ربك [1].

لأن القرآن الكريم نبه على ما بينهما من تلازم إذ يبين أن نسيان الإنسان لربه يكون سببا في نسيانه لنفسه قال تعالى في سورة الحشر ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾**[الحشر:19]** [2].

وإذا كان الإمام الغزالي قد نبه في كتابه ميزان العمل على التلازم بين استكناه النفس ومعرفة الإنسان بربه؛ لكون الثانية موجودة في الأولى فإننا نراه أيضا ينبه على هذا المعني في كتابه معارج القدس : إذ يقول : ثم إذا ختمنا فصول معرفة النفس فحينئذ ننعطف على معرفة الحق جل جلاله فمن عرف نفسه فقد عرف ربه وعرف صفاته وأفعاله [3].

ويبين الإمام الغزالي بعد ذلك كيف أن الله أنعم على آدم فعلمه العلوم والأسماء ومن رحمته به أن أودع معرفته في نفسه، فإذا عرف نفسه عرف الله ولولا هذه الرحمة التي من خلالها هدى الله الإنسان إلى فطرته لعجز بنو آدم عن معرفة الله تعالى.

يقول الإمام الغزالي : ثم أنعم الله على آدم فأعطاه صورة مختصرة جامعة لجميع أصناف ما في العالم، ولولا هذه الرحمة لعجز الآدمي عن معرفة ربه إذ لا يعرف ربه إلا من عرف نفسه[4]

1 – الإمام الغزالي ميزان العمل ص 200، تح د/ سليمان دنياط ، دار المعارف .

2 – يراجع ميزان العمل ص 200 .

3 – معارج القدس ص 7 .

4 – الإمام الغزالي، مشكاة الأنوار ص 60، ط الجندي ، ويراجع المنهج الفلسفي ص 87 .

ويوضح الإمام الغزالي أيضا أن القلب الإنسان فطر من قبل الله تعالى على غريزة النور الإلهي وبهذا القلب يدرك افتقار العالم إلي الله ومن قبل ذلك يدرك معرفة الله سبحانه وتعالى، فبهذه الغريزة تظهر حقائق الأمور، وبها يعرف الله سبحانه الذي هو فطرة فيها، فتجد في هذه المعرفة لذتها يقول الإمام الغزالي : في القلب غريزة تسمى النور الإلهي لقوله تعالى في سورة الزمر ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ **[الزمر:22]**

وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة، وقد تسمى نور الإيمان واليقين بها يدرك المعاني التي ليست متخلية ولا محسوسة، كإدراكه خلق العالم أو افتقاره إلى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات الألوهية وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغي أن تذم وهذه الغريزة خلقت ليعم بها حقائق الأمور كلها فمقتضى طبعها المعرفة والعلم وهي لذاتها[1]

وبعد أن بين لنا الإمام الغزالي أن الله تعالى أودع المعرفة به في الفطر الإنسانية نره يعود بعد ذلك ليوضح لنا أن هذه المعرفة بالنسبة لله تعالى إنما تكون على وجه الكمال والجلال فلا يتصور في الوجود من هو أكمل وأجل وأشرف وأعظم من الله سبحانه وتعالى الذي أودع معرفته النفوس.

يقول الإمام الغزالي: إن كان في المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم، فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها، وليت شعري هل في الوجود شيء أجل وأعلا وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها ومزينها ومبدئها ومعيدها

1 - الإحياء ج 3 ص 283 .

ومدبرها ومرتبها وهل يتصور أن تكون حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء أعظم من الحضرة الربانية [1] .

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد اتصف بالكمال الأعظم والبهاء والأكبر، فلا يوجد في الوجود من أجلي وأظهر منه سبحانه ولذا فقد سبقت معرفته إلي العقول والإفهام .

يقول الإمام الغزالي : اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى، وهذا يقتضي أن تكون من معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول [2] .

ولذا كانت النفس الإنسانية متحملة للأمانة الإلهية وذلك بمعرفته تعالى عن طريق الفطرة وهذه النفس الإنسانية بما حوتها في فطرتها هي بمثابة الأصل للآدمي.

يقول الإمام الغزالي : إن نفس الإنسان المتحمل لأمانة الله المتحلي بالمعرفة المركوز العلم فيه بالفطرة الناطق بالتوحيد بقوله " بلى " هو أصل الآدمي [3] .

ونجد الإمام الغزالي دائما ما يركز على أن القلب الإنساني هو محل للمعرفة الفطرية بالله ومن ثم يقول في كتابه المنقذ من الضلال وأعني بالقلب حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله .. [4] .

ومادام الحق سبحانه وتعالى قد جبلت الفطر والأنفس والقلوب على معرفته سبحانه فهو ظاهر لا يخفى إلا على أكمه لا يدرك بالبصر وهو مع كل شيء وقبل كل شيء.

---

1 - الإحياء جـ3 ص 283 .

2 -الإحياء جـ 3 ص 294 .

3 - معارج القدس ص 17 .

4 -الإمام الغزالي، المنقذ من الضلال ص 172، تح الحليم محمد، ط الخامسة دار الكتب الحديثة .

و على الرغم من أن معرفة الحق سبحانه أمر فطري لدى كل البشر، وأن ما ينبغي أن يلتزم به الإنسان أن يعمل على تحقيق المعرفة الفطرية فإن معرفة الحق سبحانه بصورة كاملة تظل ممتنعة عليه، فمعرفة الله من ناحية تعتبر مبدأ للمعرفة الحقيقة للأشياء وأن ما ينبغي أن يلتزم به الإنسان أن يعمل على تحقيق المعرفة الفطرية، فإن معرفة الحق سبحانه بصورة كاملة تظل ممتنعة عليه فمعرفة الله من ناحية تعتبر مبدأ للمعرفة الحقيقية للأشياء، ومن ناحية أخرى لا يستطيع الإنسان بفهمه أن يدرك الله، ثم نجد الإمام الغزالي بعد ذلك يربط لنا بين برهان الخلق والبرهان الفطري في وحدة واحدة حيث يبين أن من أجال بصره في عجائب الكون يدرك عظمة الخلق التي تنبئ عن وجود الخالق، وذلك من خلال عجيب صنعه مما يترك في نفس المعتبر أثرًا وانطباعًا بأن تلك المعرفة الإلهية أمر تشهد به الفطر والنفوس؛ لأنها مقهورة تحت تسخيره.

يقول الإمام الغزالي: إن من أدار نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسماوات، وبدائع فطرة الحيوان والنبات يعلم أن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغني عن صانع يديره وفاعل بحكمه وبقدره، بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره ومعرفة بمقتضي تدبيره [1].

وهذا ما يسطع وتشرق شمسه إذا أحدقت الكرب والشدائد محيطة به إحاطة السوار بالمعصم.

ويحدثنا الإمام الشهرستاني عن هذا الدليل وأهميته مبينا كيف أن هذا الدليل يبزغ ضوءه عند اشتداد الكرب بالإنسان هنا يكون الرجوع والعودة واللجوء إلي صوت الفطرة الذي

1 -قواعد العقائد ص 86.

يطلب المعونة ممن هو أعلى وأقدر، ويبين الإمام الشهرستاني :كذلك أن القرآن الكريم قد نبه على هذا الطريق في كثير من الآيات التي تدور في حديثها ومعانيها عن حالة يمر الإنسان بها، فينزل به من الضر والبلاء ما لا يملك له بقدرته دفعا هنا يعلو صوت الفطرة بالنداء مثبتا الوجود الإلهي عن طريق اللجوء إليه سبحانه وتعالى.

يقول الإمام الشهرستاني في معرض حديثه عن الفطرة وعلاقتها بالوجود الإلهي : إن من الطرق التي يطلب بها المعرفة الإلهية الاستشهاد بالأفعال، ولا شهادة للفعل إلا من حيث احتياج الفطرة واضطرار الخلقة، فحيثما كان العجز أشد كان اليقين أوفر وآكد يقول سبحانه وتعالى في سورة الإسراء ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ **[الإسراء:67]**

لا جرم ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ **[النمل:62]** والمعارف التي تحصل من تعريفات أحوال الاضطرار أشد رسوخا في القلب من المعارف التي هي نتائج الأفكار في حال الاختيار ومن دعاء الأبرار إلهي فكم من بلاء جاهد صرفت عني وكم من نعمة سابقة أقررت بها عيني وكم من صنيعة كريمة لك عندي أنت الذي أجبت عند الاضطرار دعوتي وأقلت عند العاثر ذلتي وأخذت ليه من الأعداء بظلمتي (1).

خامسًا: الدليل الأنطولوجي الوجودي :

إن من الدلائل التي ساقها القرآن الكريم للبرهنة على وجود الله الدليل الوجودي فإذا كنا في دليلي الخلق والحدوث مثلا نتخذ من الوجود العني سلما ومعراجا لإثبات الوجود

---

1 - نهاية الإقدام ص 4، ويراجع شرح المقاصد جـ 4 ص 24 .

الحق، فإننا في هذا الدليل على العكس من ذلك نتخذ من الوجود الحق شاهدًا وبرهانًا على إثبات الوجود المشاهد، إذ لولا الوجود الإلهي لما قام للأشياء وجود فالوجود الإلهي هو الضامن لوجود الأشياء إذ لولاه ما كان للكائنات وجود وعلى هذا الاعتبار، فإن هذا الدليل يقوم على التأمل في الوجود ذاته لنثبت من خلاله للأشياء وجودًا وهذا الدليل كما سبق وأشرنا لا يتسنى لكل أحد استخدامه وكما لاحظنا أن القرآن الكريم كما مر استخدمه في العديد من آياته، وكأن القرآن الكريم بهذا يعطي للعقل ولجميع المدارك الإنسانية من الدلائل ما يمكن أن تشرأب إليه كل نفس وترنو إليه كل بصيرة أو ملكة، وكما استخدم القرآن الكريم هذا الدليل نجد أن أعلام الفكر الأشاعري قد تحدثوا عنه أيضا متناولين إياه بالكلام.

يقول الإمام الرازي : إن تفسير الواجب لذاته بأنه الذي يكون غنيا في وجوده عن السبب، وتفسير الممكن لذاته بأنه الذي يكون محتاجًا في وجوده إلي السبب على هذا التفسير يكون القول بإثبات واجب الوجود لذاته من أزهر المطالب، ومن أوضح المقاصد ... فإنا نقول لا شك أن في الوجود موجودًا، فذلك الموجود إما أن يكون غنيًا في وجوده إلى السبب، فإن كان الأول= فقد ثبت القول بوجود موجود واجب الوجود لذاته، وإن كان الثاني =فلابد له من سبب؛ لأن التقدير هو تقدير كونه محتاجا إلى السبب، ثم يعود التقسيم الأول في سببه، والدور والتسلسل محالات، فوجب الانتهاء بالآخرة إلى وجود موجود غني عن السبب، وذلك هو الموجود الواجب لذاته وهو المطلوب [1].

1 - المطالب العالية جـ1 ص 134، 135 .

هذا جانب من حديث الإمام الرازي عن هذا الدليل أقامه على أن من تأمل في خواص الوجود يجد الحق سبحانه وتعالى مستوجدا للوجود من ذاته، ولذا فهو غني عما سواه، ومن هذا المنطلق موجود سبحانه. ويثبت الوجود للأشياء العنصرية؛ إذ لا قوام لها من ذاتها، فلولا وجوده لم يكن ليوجد موجود.

وقد قرر الإمام البيضاوي هذا الدليل : قائلا : لاشك في وجود موجود، فإن كان واجبًا فهو المطلوب، وإن كان ممكنا كان له سبب واجب ابتداء، أو بواسطة، ولا يعارض بأنه لو كان واجبًا لزاد وجوده، فيحتاج إلي ذاته فيكون له سبب ملاق أو مباين فليزم تقدم ذاته بوجوده على وجوده وإمكانه لما ثبت أن ذاته من حيث هي توجب وجوده .

ثانيًا

أثر الدلائل القرآنية العقلية عند مفكري المعتزلة

أولا: دليل الخلق .

لقد اعتمد مفكرو المعتزلة هذا الدليل كبرهان به يثبت الوجود الإلهي متأثرين في ذلك بالآيات القرآنية التي تحدثت عن الخلق.

يقول أبو محمد القاسم الرسي ت 246 : لقد بين الله في العقول من أدلته وأعلامه ما يدعو إلي معرفته وتوحيده من خلق السماوات والأرض، وما فيهما، وما بينهما، ومن الأنفس إذا أحسن النظر وأعمل في ذلك الفكر؛ لذا استحق الحمد وكان حامدًا لنفسه قبل أن يحمده أحد من خلقه فقال تعالى في سورة الأنعام ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ **[الأنعام:1]** (1) .

فقد قرر في كلامه السابق: أنَّ الإنسان إذا أمعن النظر بعقله في خلق السماوات والأرض وفي نفسه يصل من خلال هذا النظر إلى معرفة خالقه وتوحيده هذه المعرفة التي تورث المتأمل اعترافًا بالحمد باللسان وبالجنان على ما أدركه من نعم سطعت فيها شاهده من دلائل الصنع والإتقان.

وبعد هذه العبارات الموجزة التي ساقها الرسي لتقرير هذا الدليل العقلي نجد الجاحظ ت 255هـ يحدثنا عنه بشيء من الإسهاب مبينا دلالة هذا الوجود وما فيه من خلق وعناية وترتيب وإحكام ونظام على وجود الإله القدير، فإن من تدبر أدنى تدبر في حال هذا العالم

---

1 – الأنعام آية 1، ويراجع القاسم الرسي، كتاب العدل والتوحيد ونفي التشبيه عن الواحد الحميد ص 132، دراسة وتح د/ محمد عمارة، ط دار الشروق .

علويه وسفليه، وما نثر فيه من نظام دقيق، وترتيب بديع يجده يدل دلالة واضحة على وجود إله قدير مدبر لهذا العالم، ومن لم يدرك ذلك بعين بصره وبصيرته، فليتهمهما، فإن من تجول في دار أعدت على أجمل ما يكون بناية وصنعا وإحكاما وترتيبا ووضع فيها كل شيء في موطنه الملائم له، بيد أنه في حال تجواله كان معصوب العينين، فهل يجوز له والحالة هذه أن ينكر لصانعها وجودًا أو يعيب عليه صنعًا؟

إن المنطق السليم يقول: إنَّ عليه أن يتهم نفسه معنفًا إياها تقصيرها في درك الحقيقة والصواب.

يقول الجاحظ: إن ناسًا حين جهلوا الأسباب والمعاني وقصروا في الخلقة عن تأمل الصواب والحكمة فيها خرجوا إلي الجحود والتكذيب حتى أنكروا خلق الأشياء، وزعموا أنَّ كونها بإهمال لا صنعة فيه، ولا تقدير، فكانوا بمنزلة عميان دخلوا دارًا قد بنيت أتقن بناء، وفرشت أحسن فرش، وأعد فيها ضروب الأطعمة والأشربة والمآرب، ووضع كل شيء من ذلك في موضعه على صواب وتقدير، . فجعلوا يسعون فيها محجوبة أبصارهم، فلا يبصرون هيئة الدار وما أعد فيها، وربما عثر الواحد منهم بالشيء قد وضع موضعه، وأعد لشأنه وهو جاهل بالمعنى فيه، فتذمر وتسخط وذم الدار وبانيها، فهذه حال هذا الصنف في إنكارهم ما أنكروا من الخلقة، وأنهم لما غيبت أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل في الأشياء صاروا يجولون في هذا العالم كالحيارى لا يفقهون ما هو عليه في إتقان خلقته وصواب هيئته، وربما وقف الواقف منهم على الشيء يجهل سببه والأرب فيه، فيسرع إلى ذمه وعيبه ووصفه بالخطأ والإحالة، فحق على من أنعم الله عليه بمعرفته ووفقه لتأمل هذه الخلقة والوقوف على ما في خلقها من لطف التدبير، وصواب التقدير بالدلائل القائمة فيها ألا يقصر إظهار ما بلغه علمه من ذلك... فأولُ العبر بهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على ما هي عليه، فإنك إذا

تأملت العالم بفكرك وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع عتاده السماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منضوده كالمصابيح، والجواهر مخزونة في معادنها كالذخائر، وكل شيء فيها لشأنه وما يراد به، والإنسان كالمالك للبيت المخول لما فيه، وضروب النبات مهيأة لمآربه، وصنوف الحيوان مصرفة في مصالحه، ففي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتدبير وتقدير ونظام، وأنَّ له خالقا ألفه ونظم بعضه إلى بعض [1].

وبعد أن بين لنا الجاحظ دليل الخلق وما يلحقه من عناية بنبرة يكسوها التأثر بأسلوب القرآن الكريم في المعالجة، فإننا نجد كذلك يحيي بن الحسين المعتزلي ت 298 ه وقد تناول هذا البرهان عن طريق دلائل الآفاق والأنفس.

فإن الإنسان إذا أجال بصره فيما يحيط به من كون فسيح فإنه سيشاهد الخلائق، وقد نطقت مسبحة بجمال الصنع وإحكام التدبير سواء في السماء وكواكبها وأقمارها وشموسها ونجومها، أو في الأرض وجبالها وبحارها وأنهارها ونباتها، وما بين ذلك.

كذلك إذ تحول الإنسان إلى نفسه، أو إلى بني نوعه ؛ ليدرك عظم الخلق والتدبير فيهم، فإنه سيقف على مبتغاه بيسر مقترن بوضوح لا لبس فيه، ولا خفاء.

يقول يحيي بن الحسن: إن سئل منشر سائل، أو قال متعنت أو ملحد ماذا يعبد الخلق؟

قيل له: يعبدون الخالق الذي فطرهم وصورهم وابتدعهم وأوجدهم، فكان درك معرفته سبحانه بأفعاله وما أظهر من آياته، ودل به على نفسه من دلالاته من خلق أرضه وسماواته، وما ابتدع بينهما من خلقه، فكان الدرك بالصنع والأفعال للصانع الفاعل، كالدرك بالعيان سواء بسواء عند كل ذي فهم وعقل، وكان الدرك بالصنع والأفعال للصانع الفاعل كالدرك

---

1 – الدلائل والاعتبار ص 5، 6 .

بلا عينان سواء بسواء عند كل ذي فهم وعقل، وكان درك الحواس لما شاكلها وما كان منها ومثلها في التحديد والعيان، وكان يدركها لما باينها فلم يشاكلها، وكان على خلاف ما هي عليه من تقديرها و تصويرها متقدسا عن مشاكلها بما تدركه من أفعاله، وتقف عليه من آياته في أنفسها دون غيرها، ثم في غيرها من بعدها، فلما أن وجدت العقول والحواس أجسامًا مثلها مصورات في الخلق كتصويرها وأعراضا لا تقوم إلا بغيرها = استدلت على الفاعل بفعله، وقفت على معرفة الخالق بخلقه، كما نعرف كل ذي عمل بعمله، ونستدل على كل صانع بفعله؛ لأنك متى وقفت على جدار مبين علمت أنه فاعلا بانيا، وكذلك إذا وقفت على ثوب معمول علمت أنَّ له عاملا غير مجهود، وكذلك لو سمعت حاسة السمع صوتا لعلم السامع أنَّ له مصوتا منه كان ومن بعد خروجه من خلقه بان لسامعه ووضح علمه لعامله، وكذلك لما رأت حاسة البصر الآيات المجعولات، وما فطر الله الأرضيين والسماوات علم ذو الحاسة بعقله وتميزه أنَّ لذلك مدبرًا جاعلًا وخالقًا محدثًا فاعلًا ليس لشيء من خلقه مشابهًا ولا مشكلًا؛ لأن كل ما يدرك بالتحديد، ولا تبعيض والعيان من الأشياء لا تخلو من أن يكون غيرها جعلها، أو هي جعلت أنفسها، فلما أن كان ذلك كذلك نظرنا في خلقها لأنفسها، فاستحال عندنا، وامتنعت من قبوله عقولنا؛ لأنها كانت من قبل الجعل عدمًا، والعدم لا يجعل موجودًا ولا يخلق جسما؛ لأنه ليس بشيء، وما لم يعن شيء، فلا يفعل شيئًا، فلما أن بطل لما ذكرنا أن تكون جعلنا أنفسها ثبت أنَّ الفاعل لها غيرها المصور المقدر لخلقتها، وأنه مباين في كل الأمور غير مشاكل لشيء منها [1] .

---

1 – الإمام يحيي بن الحسن، الرد على أهل الزيغ من المشبهين ص 296، 299، تح د/ محمد عمارة، ط دار الشرق، ويراجع د/ محمد عمارة المعتزلة ومشكلة الحرية ص 49، ط دار الشروق .

وإذا أتينا إلي أبي الحسين الخياط ت 300هـ [1] فإننا نجده قد تناول هذا الاستدلال بالحديث أيضًا مبينا أنَّ الحق سبحانه وتعالى قد نصب الدلائل على معرفته حتى تنقطع الأعذار، ولا يكون ثمة حجة لأحد من خلقه، فمن تأمل في المخلوقات وخواصها وصفاتها = أبصر أنَّ لها خالقا، ويقف وراءها مدبر.

يقول أبو الحسين الخياط: إنَّ الله تعالى إذ دل خلقه على نفسه، فقد قطع عذرهم وأزاح عللهم، ولابد في حكمته من أن يعرفهم ما نصب لهم من الأدلة على نفسه، فالأشياء بأجسامها وألوانها وطعومها وأراييحها، وتأليفها وافتراقها وحرها وبردها، ويبسها وبلتها دلائل على الله أنه خلقها ودبرها [2].

ونجد علمًا آخر من أعلام الفكر الاعتزالي، وهو القاضي عبد الجبار ت 415 هـ والذي يحدثنا عن هذا المسلك موضحًا أنَّ المتأمل في النظام الكوني يدرك أنَّ ثمة إله يقف وراء هذا التناسق الذي لا عوج فيه ولا تفاوت.

يقول القاضي عبد الجبار: يصل الإنسان بالعقل إلى وجود الله، ففي الكون برهان على وجوده تعالى، ويتمثل هذا في برهان النظام الموجود منه الكون، فعندما يدرك العقل الصنع والنظام لابد أن يدرك أنَّ له صانعًا ومدبرًا نظمه ودبره [3].

---

1 - اختلف في تاريخ وفاته فمن قائل أنه كان قبل الثلاثمائة بقليل ومن قائل أنه بعدها بقليل وقد ذكرت ما رجحه البروفسير نيبرج المحقق لكتابه الانتصار حيث ذكر هذا صدر تقديمه للمؤلف.

2 - أبو الحسن الخياط، الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد، تح د/ نبرج ص 83، ط م الكليات الأزهرية، دار الندوة الإسلامية.

3 - القاضي عبد الجبار، المنية والأمل ص 134 ن135 جمع ابن المرتضى، تح د/ عصام الدين محمد على، ط دار المعرفة الجامعية 1985، ويراجع القاضي عبد الجبار، المختصر، ص 200، 202، تح د/ محمد عمارة، ط دار الشروق.

يقول القاضي عبد الجبار في موضع آخر مبينًا كيف ينبغي على الإنسان أن يعتبر بالنظر في الخلائق؛ ليصل إلى خالق الخلائق مدللًا على ذلك بقول الحق سبحانه وتعالى في سورة آل عمران ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾ **[آل عمران:190]**

يقول القاضي عبد الجبار: إنَّ المراد بذلك أن يعيد الخلق بالنظر في ذلك ويستدلون به على معرفة الله تعالى [1].

هكذا وقفنا على جانب من برهان الخلق في الفكر الاعتزالي، ولعلنا لاحظنا أنَّ صياغة مفكري المعتزلة لهذا البرهان جاءت في أغلب الأحيان بعيدة عن الأساليب الكلامية المعقدة والفلسفية الغامضة.

ثانيا : دليل الحدوث :

إنَّ من الدلائل العقلية التي عول عليها مفكرو المعتزلة في البرهنة على وجود الله دليل الحدوث، فنرى أبا الحسين الخياط : يحدثنا عن هذا البرهان موضحًا أنَّ العالم وما فيها مليء بالمتناقضات، كالحر والبرد والحركة والسكون، وهذا بأسره من أمارات الحدوث وعلاماته، ثم ما فيه من متناقضات دالة على حدوثه، ولذا دلت كذلك على أنَّ له محدثا أحدث فيه هذه المتناقضات، وفي قدرته الجمع بينها.

يقول أبو الحسين الخياط : ووجدت الحر مضادًا للبرد ووجدت الضدين لا يجتمعان في موضع واحد من ذات أنفسهما، فعلمت بوجودي لهما مجتمعين أنَّ لهما جامعا جمعهما وقاهرًا قهرهما على خلاف شأنهما، وما جرى عليه القهر والمنع، فضعيف وضعفه ونفوذ تدبير قاهره فيه دليل على حدثه وعلى أنَّ محدثا أحدثه، ومخترعًا اخترعه لا يشبهه؛ لأنه حكم ما أشبهه

1 – القاضي عبد الجبار، تنزيه القرآن عن المطاعن ص 80، ويراجع المختصر ص 200، 201 .

حكمه في دلالته على الحدث، وهو الله رب العالمين، فأمَّا جمع ما سوى بين النار والماء والتراب والهواء = فذلك دليل أيضًا على حدثها غير أنَّ محدثها ليس هو الإنسان الذي جمعها؛ لأنَّ الإنسان يجرى عليه من القهر ما يجرى عليها، فمخترع هذه الأشياء ومخترع الإنسان المشبه لها هو الله الذي لا يشبهه شيء، فتصريف هذه الأشياء ونفوذ التدبير فيها، وصرفها عما في طبعها على ضعفها، وضعفها دال على حدثها، وحدثها يوجب أنَّ لها محدثا أحدثها إذا كان محالا أن يكون حدث لا محدث له [1].

ولعلنا لاحظنا في كلام أبى الحسين الخياط أنه جعل للإرادة الإلهية مدخلًا في حدوث الفعل ووقوعه من العبد، وهذا مخالف لما هو معروف عن مذهب الاعتزال في خلق الأفعال.

وإذا تركنا أبا الحسين الخياط، فإننا نجد ذلك القاضي عبد الجبار يحدثنا عن هذا الدليل مبينا أن العالم مليء بعلامات الحدوث، وأماراته والتي من خلالها يثبت الحدوث للأجسام مما يدل على أنَّ لها محدثًا.

يقول القاضي عبد الجبار : لقد دللنا على إثبات الحدوث للأشياء بما وجد فيها من الاجتماع والافتراق والحركة والسكون وغير ذلك مما يدل على حدوثها...ثم أول ما يحصل من العلم بالله تعالى جملة هو العلم بأنَّ هذه الحوادث التي هي الأجسام والألوان وغيرهما مفتقرة في حدوثها إلي محدث ما؛ إذ لابد عند العلم بذلك من أن يكون له معلوم، وليس معلومه إلا الله عز وجل [2].

1 - الانتصار ص 75، 76 .

2 - القاضي عبد الجبار المحيط بالتكليف ص 75، 76، تح عمر عزمي، مراجعة د/ أحمد فؤاد الأهواني ، ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر .

ويحدثنا القاضي عبد الجبار عن هذا المعني في موضع آخر موضحا دلالة حدوث الأشياء على وجود محدث لها كما تدل الأفعال الإنسانية على وجود فاعل لها مع بيان أنَّ الأشياء لا يمكن في حدوثها أن تقع من ذاتها، أو من فاعل مشابه لها حادث مثلها، بل لابد من إله قديم موجود من ذاته مخالف للحوادث وهو المحدث للأشياء الخالق لها يقول القاضي عبد الجبار: فإن قال فما الدليل على أن الأجسام لها محدث وفاعل، وقد خالفكم في ذلك أصحاب الطبائع وغيرهم.

قيل له: لأنَّ أفعالنا إذا وجبت وجب حاجتها إلي فاعل من حيث كانت محدثة، فكذلك الأجسام المحدثة؛ لأنَّ المشاركة في العلة توجب المشاركة في الحكم، كما أنَّ قيامنا كقعودنا في حاجتهما إلي فاعل لما اشتركا في الحدوث، فإن قيل: فكيف تعلمون أنَّ محدث الأجسام هو القديم الإله.

قيل له: لأنَّ القادر منا لا يمكنه أن يفعل الأجسام البتة ؛ لأنه في جميع حالاته يتعذر عليه فعلها، فلابد من أن يكون فاعلها مخالفًا للأجسام، وهو الله تعالى، وكذلك فقد علمنا أنَّ انقلاب النطفة والعلقة إنسانًا مصورًا وأعضاء مركبة، ثم كونها حية قادرة حساسة، ثم تنقلها من حال إلي حال ومن رتبة إلي رتبة لا يصح أن يكون من الواحد منا ولا مما هو من أمثالنا، فيجب أن يكون فاعل هذه الأعراض مخالفًا، وهو الله جل جلاله.

فإن قيل: هل جوزتم حدوث ذلك بالطبع أو بقوة من القوى.

قيل له: إنَّ حدوث ذلك بالطبع لا يتم من وجهين إما أن يحصل للحق، وهو موجب غير مختار = فلم حصل في حال وجوده، فكيف يقع به ويوجد ويحدث .

وإن حدث وهو موجب غير مختار = فلم صار بأن يحدث في وقت أولى من وقت، وكذلك لم يكن بأن يتركب إنسان في وقت أولى من وقت .

إنما يجوز ذلك على قولنا بأننا نثبته محدثًا من جهة مختارًا فاعلا يفعله بحسب المصلحة كما يختار، وكما يفعل أحدنا فعله بحسب اختياره في حال دون حال [1].

وإذا كان ما تقدم جانب من حديث أئمة الفكر الاعتزالي عن برهان الحدوث، فإننا نلاحظ فيما سبق ذكره أن بعض مفكري المعتزلة ينتهي من إثبات الحدوث إلي إثبات الوجود الإلهي بصورة مباشرة، ومنهم من يشرع بعد إثبات الحدوث إلي إبطال أن يكون الخلق في الأشياء ذاتي فيها أو يكون حدوثها من مماثل لها ثم يشرع بعد ذلك إلي نسبة الأحداث إلي القديم سبحانه وتعالى، وعلى هذا فإننا نقول أن من انتهى بعد الحدوث إلي إثبات الفعل إلي الله تعالى جعل قولنا وكل حادث لابد له من محدث وهو الله تعالى نتيجة ضرورية لا تحتاج إلي استدلال .

ومن أثبت الحدوث ثم نفى الخلق الذاتي، أو من مماثل جعل القول السابق نتيجة نظرية وعلى كلا الرؤيتين، فإن المستدل يجد نفسه وقد انتهي المطاف به إلي إثبات واجب الوجود سبحانه وتعالى وهذا هو المقصد والغاية من إقامة هذا النوع من البرهنة والاستدلال .

ثالثا: استمرار الوجود :

إنَّ من البراهين التي عول عليها الفكر الاعتزالي في مسألة الاستدلال على وجود الله سبحانه وتعالى برهان استمرار الوجود الذي يقوم على أن الوجود لم يقف عند حاجته إلي موجد في بدء الإحداث والإيجاد فقط .

بل يحتاج أيضًا إلي من يحفظ عليه وجوده ويديمه عليه ومن ثم يقرر الجاحظ أنَّ الحق سبحانه وتعالى خلق الأشياء بداية، ثم هو أيضًا يدبرها ويحفظ عليها وجودها، ولا يمنع من

---

1 - المختصر في أصول الدين ص 208، 209 .

هذا التدبير والحفظ إلا عجز أو جهل أو كونه تعالى عن ذلك شريدا، والله تعالى منزه عن ذلك فدل هذا على وجود إله متصف بصفات الكمال حافظ وممسك على الخلائق وجودها.

يقول الجاحظ : إنَّ الشواهد تشهد بأنَّ للأشياء خالقًا حكيمًا قادرًا فما يمنعه أن يدبر خلقه ويحفظ عليهم وجودهم، فإنه لا يصح في القياس أن يكون الصانع مهما صنعته إلا لأحدي خلال ثلاث إما عجز، وإمَّا جهل وإما شرارة، وكل هذا محال في صفة الخالق القديم تعالى ذكره، وذلك أنَّ العاجز لا يستطيع أن يأتي بمثل هذه الخلائق العجيبة الجليلة، والجاهل لا يهتدي لما فيها من الصواب والحكمة والشريد لا يطول بخلقها وإتقانها، فإذا كان هذا هكذا = وجب أن يكون الخالق لهذه الخلائق يدبرها ويمسك عليها وجودها لا محالة وإن كنا لا ندرك كنه ذلك التدبير ومجاريه، فإنَّ كثيرًا من تدبير الملوك أيضًا لا يفهمه العامة ولا تعرف أسبابه؛ لأنه لا يعرف داخله أمر الملوك وأسرارهم، فإذا عرف سببه وجد صوابًا [1].

أيضًا من الذين تحدثوا عن هذا النوع من الاستدلال والبرهنة على وجود الله تعالى إبراهيم بن سيار النظام ت 231 هـ والذي يبين أن صلة الله تعالى بالمخلوق لا تنتهي عند خلقه الأول له وغنما بحفظه تعالى للمخلوق، وإمساك الوجود عليه، ومن ثم يذكر لنا صاحب الانتصار قوله : إن الله يخلق الدنيا وما فيها في كل حال من غير أن يفنيها ويعيدها[2]

ويشرح ابن حزم في الفِصل رأي النظام في الخلق المستمر مبينا أنه إذا كان الله تعالى قد خلق الأشياء حين مبتدئها، فإن خلقه لها قائم في كل موجود دومًا مادام ذلك الموجود موجودا، ومن ثم يقول ابن حزم معبرًا عن رأي النظام ومؤيدا إياه :فأخبرونا أليس الله تعالى

1 – الدلائل والاعتبار ص 66 .

2 – الانتصار ص 55 .

موجدا لكل موجود أبدًا مدة وجوده، فإن أنكروا ذلك فقد أوجبوا أنَّ الأشياء موجودة، وليس الله موجدًا لها الآن حال وجودها...فالله تعالى خالق لكل مخلوق في كل وقت وإن لم يفنه قبل ذلك [1].

وقال النظام في حديثه عن الخلق المستمر ملتمسا ذلك في آيات القرآن الكريم معضدًا ما ذهب إليه مثل قول الحق سبحانه وتعالى في المؤمنون ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ **[المؤمنون:14]**

وقوله سبحانه في سورة الزمر ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ **[الزمر:6]**

ومعني هذا أنَّ الحق سبحانه وتعالى في كل حين يحفظ على الخلائق وجودها، فليست علاقة الحق تبارك وتعالى بمخلوقاته علاقة إيجاد عند مبتدأ الوجود، والذي يهمنا أنْ نلاحظه أنَّ فكرة النظام وغيره حول الخلق المستمر تتسق مع فكرتين:

أولاهما : أنَّ الأجسام لا تبقي زمانين إذ ليس لها من ذاتها ما يحفظ لها بقاءها، ثم إنَّ بقاءها يقتضي قدرة خارجية من الله تعالى بها يكون ضمان البقاء لها .

أمَّا ثانيهما : فهو قهر الله تعالى للأجناس المتضادة على الاجتماع ذلك أن هذا القهر المستمر من جانب الله تعالى للأجناس المتضادة على الاجتماع لا يكون إلا بفعل مستمر، غير منقطع من الله ما دام الجسم قائما موجودا حتى إذا انحل بفعل الأطرف أو غيره افترقت مكوناته من عناصر وعاد كل عنصر إلي أصله، وزال عنه خلق الله المستمر له أو حفظه المستمر لوجوده.

---

1 - الفصل ج 3 ص 33 .

وإذا تركنا النظام وحديثه عن الخلق المستمر، فإننا نجد ابن متويه يحدثنا عن هذا البرهان أيضا الذي به يستدل على وجود الحق سبحانه وتعالى.

فيقول: فكما أن حال الحدوث للجسم لابد من وجود الكون فيه، وإلا لم يصح وجوده، فكذلك في حال البقاء ؛ لأن هذه سبيل ما يتضمن بغيره [1].

ومعني هذا كما سبق وذكرنا : أنَّ الجسم لا يفتقر عند بدء الإيجاد إلي الخالق فقط، بل يفتقر أيضًا لحفظ ودوام وإمساك الوجود إلي الخالق سبحانه وتعالى أيضا، وعلى هذا فاستمرار وجود الأشياء دليل وبرهان واضح على وجود إله قادر حكيم مدبر للأشياء ابتداء وجودها، وهو تعالى أيضا ممسك وحافظ لها في استمرار ذلك الوجود .

رابعا: دليل الإمكان .

إن من البراهين التي اعتمدها المعتزلة في الاستدلال على الوجود الإلهي دليل الإمكان أي يقوم على أنَّ الأشياء يمكن أن توجد على غير هيئتها وصفاتها، ولكنَّ وجودها على هذا النحو من الهيئة والصورة والصفات دل على وجود مخصص لها، فالكائن الحي مثلا كان من الممكن أن يجعل الخالق سبحانه وتعالى كل نسله ذكورًا، ولكن مع هذه القدرة جعل منه الزوجين الذكر والأنثى؛ ليكون التناسل باقيًا، فإذا كان هذا مرده إلي فعل الطبيعة العمياء لما وجدنا هذا التنوع في التناسل الكائن الحي، ولما وجدنا كائنا اختص رزقه من الله بنسل الإناث وآخر بالذكور بالذكور والإناث، فما وجد هذا التنوع من إمكان غيره دل هذا على وجود مخصص، وهكذا يمكن أن يقال في أشياء كثيرة يدل وجودها على الهيئة والصورة

1 - التذكرة في أحكام الجواهر والأعراض ص 468 .

المعهودة على وجود مخصص لها كان من الممكن في قدرته أن يهبها غير ما هو معروف، أو متآلف عليه.

يقول الجاحظ : لو لم يلد من الحيوان إلا ذكورًا فقط أو إناثا فقط ألم يكن سينقطع النسل وتبيد أجناس الحيوان؟! فمع إمكان ذلك لم صار بعض الأولاد يأتي ذكرًا وبعضها إناثًا إلا ليدوم النسل ولا ينقطع لو رأيت تمثال إنسان مصورًا في حائط، فقال لك قائل: أن هذا ظهر من تلقاء نفسه هنا لم يصنعه صانع ألم تكن تستهزئ به، فكيف ينكر هذا في تمثال كالخيال ولا ينكره في الإنسان الحي الناطق ..لم صارت أبدان الحيوان وهي تتغذي أبدا لا تنمو أبدا بل تنتهي إلي غاية من النمو ثم تقف؛ لولا التدبير في ذلك؟

فإن من التدبير الحكيم فيها أن يكون أبدا أن كل صف فيها على مقدار معلوم غير متفاوت في الكبر والصغر فصار ينموا حتى ينتهي إلى غايتها ثم يقف .

والغذاء مع ذلك قائم لا ينقطع ولو كانت تنمو نموا دائما مع إمكان ذلك؛ لعظمت أبدانها واشتبهت مقاديرها حتى لا يكون لشيء منها حد معروف، ثم لا يتشابه الإنسان واحد بالآخر كما تتشابه الطير والوحش وغير ذلك، فإنك ترى السرب من الظباء والقطا تتشابه حتى لا يفرق بين واحد منها وبين الآخر، وترى الناس مختلفة صورهم وخلقهم حتى لا يكاد اثنان منهم يجتمعان في صفة واحدة، والعلة في ذلك أنَّ الناس يحتاجون إلي أن يتعارفوا بأعينهم وحليتهم لما يجري بينهم من المعاملات، وليس يجري بين البهائم مثل هذا، فيحتاج إلي معرفة كل واحد بعينه وحليته ألا ترى أن المتشابه في الطير والوحوش لا يضرها شيء، وليس كذلك الإنسان، فإنه ربما تشابه التوأمان تشابها شديدًا، فتعظم المؤنة على الناس في معاملتهما حتى يعطي أحدهما ما للآخر، ويؤخذ أحدهما بذنب الآخر، فمن لطف هذه

الدقائق التي لا تكاد تخطر بالبال حتى وقف بها على الصواب في إمكان غيرها إلا من وسعت حكمته كل شيء [1].

وإذا تركنا الجاحظ فإننا نجد أبا الحسين الخياط يحدثنا عن هذا الدليل مبينا حال إجابته على سؤال مؤداه هل يجوز أن تنتقل خصائص المتضادات إلى بعضها.

فيجيب أن هذا مما يحكم العقل بإمكانه، ولكن وجود كل خلق بخاصيته وصفته المعهودة لحكمة، فاختصاصه بها يدل على وجود مخصص له.

يقول صاحب الانتصار: لو قيل أيقدر الله أن يخترع الحر مبردا والبرد مسخنا وقهرهما على ما ليس في جوهرهما؟

نقول: اعلم علمك الله الخير إنه تعالى يقدر أن يخترع البرد مسخنا والحر مبردا، فهذا شيء أهل التوحيد كلهم يوافقون عليه، ولكنَّ وجود الأشياء بصفاتها لغاية تدل على مخصص لها[2]

وإذا كان هذا جانبا من حديث أبا الحسين الخياط عن هذا الدليل، فإننا نجد أبا رشيد النسيابوري يحدثنا عنه أيضا موضحًا أنَّ اجتماع الأشياء مثلا مع جواز أن لا تجتمع يدل وجود مخصص لها أراد لها هيئة الاجتماع والحال واحدة والشرط واحد، فيجب أن يكون ذلك لمخصص [3].

من هنا نعلم أن اختصاص الأشياء بهيئتها وصفاتها مع إمكان انتقاض تلك الهيئات والصفات إلي ما يخالفها يدل على وجود إله حكيم خص كل جسم بصفته وهيئته ويسره لما يتلاءم معه.

---

1 - الدلائل والاعتبار ص 59، 60.

2 - الانتصار ص 76 وما بعدها.

3 - في التوحيد ص 55.

هذا جانب من دلائل الوجود في الفكر الاعتزالي وقفنا عليها من خال كتبهم، بيد أني لم أوفق فيما اطلعت عليه مما كتب عنهم أن أعثر على نصوص لهم تبين لنا حديثهم عن الدليل الفطري أو الوجودي، والواقع أنهم في مسألة الدليل الفطري يستبعدونه بعض الشيء لعدم ملاءته لتقديس العقل عندهم ومن ثم فإنهم عندما يتحدثون عن معرفة الله وعن وجوده يقولون إنها عقلية ويفسرون الفطرة بأنها اجتناب الغفلة، والنظر في الأشياء لمعرفة الله وعن وجوده يقولون :إنها عقلية ويفسرون الفطرة: بأنها اجتناب الغفلة والنظر في الأشياء لمعرفة خالقها وموجدها.

ومما يجدر ملاحظته من خلال ما تقدم أن تناول رجال الفكر الاعتزالي لتلك الدلائل السابقة لم يكن بالتوسع الذي تناوله به رجال الفكر الأشعري على حسب ما اطلعت عليه من تراث كلتا الفرقتين، ولعل هذا يرجع إلي قلة تراث الفكر الاعتزالي الموجود بين أيدينا مقارنة بالتراث الأشعري هذا من ناحية ومن ناحية أخرى انحسار المذهب الاعتزالي عند فترة زمنية محددة وانعدم المروجين لهذا المذهب بخلاف الأمر بالنسبة للفكر الأشعري .

البحث الثاني

أثر الدلائل القرآنية العقلية على إثبات الوحدانية

في الفكر الإسلامي

لقد مر بنا الحديث في الفصل الثاني من الباب الأول على جانب من الدلائل العقلية التي بثها القرآن الكريم في آياته مبرهنا بها على وحدانية الخالق جل في علاه .

وعرفنا من خلال ذلك كيفية إثبات الوحدانية من خلال النصوص القرآنية التي نبهت على برهان التمانع ورأينا كذلك كيف نص القرآن الكريم عليها من خلال إثبات طلاقة القدرة لله عز وجل مع بيان القصور الذي يعتور كل ما سواه بالنسبة لهذه الصفة الجلية وقفنا على هذا من خلال النصوص القرآنية التي لمسنا فيها الموضوعية التي لا يملك أمامها صاحب عقل منصف وفكر ثاقب إلا الخضوع لما تضمنته من معان ونبهت لهي من أحكام .

والآن يدور بنا الحديث مرة أخرى عن هذا الدلائل العقلية القرآنية المتعلقة بصفة الوحدانية؛ لنقف على أثرها في الفكر الإسلامي .

أولا : الأشاعرة.

أ – برهان التوارد والتمانع :

لقد مر بنا في موضع سابق تفصيل الحديث عن هذا البرهان العقلي وأحطنا علما أن هذا البرهان كان منشأه قول الحق سبحانه تعالى في سورة الأنبياء ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ **[الأنبياء:22]** وغير ذلك من الآيات التي نبهت على هذا المسلك العقلي، والواقع أن الباحث في الفكر الأشعري وحديث أصحابه عن عقيدة التوحيد يستطيع أن يلتمس هذا الدليل فيه بيسر وسهولة إذ له مقام الصدارة عندهم، ولذلك

رأينا شيخ الأشاعرة الإمام أبو الحسن الأشعري وقد تناول هذا الدليل بالشرح والتفصيل منطلقًا من الآية الكريمة السابق ذكرها من سورة الأنبياء فيقول : فإن قال قائل : لم قلتم إن صانع الأشياء واحد؟

قيل له: لأن الاثنين لا يجري تدبيرهما على نظام، ولا يتسق على إحكام ولابد أن يلحقهما العجز، أو واحد منهما؛ لأن أحدهما إذا أراد أن يحيي إنسانا وأراد الآخر أن يميته لم يخل أن يتم مرادهما جميعا أو لا يتم مرادهما، أو يتم مراد أحدهما دون الآخر ومستحيل أن يتم مرادهما جميعًا؛ لأنه يستحيل أن يكون الجسم حيًا ميتًا في حال واحد، وإن لم يتم مرادهما جميعا وجب عجزهما، والعاجز لا يكون إلهًا ولا قديمًا، وإن تم مراد أحدهما دون الآخر = وجب عجز من لا يتم مراده منهما، والعاجز لا يكون إلها ولا قديمًا فدل ما قلناه على أنَّ صانع الأشياء واحد [1].

إذا فليس من المستقيم لدى العقل السليم أن يكون للعالم وما فيه إلهان خالقان، بل المرتضى المستساغ أن يكون له إله واحد.

وهكذا قرر الإمام الأشعري هذا البرهان العقلي منطلقًا من الآية الكريمة التي مر ذكرها من سورة الأنبياء، ولأهمية هذا المسلك في البرهنة على عقيدة التوحيد نرى أعلام الفكر الأشعري وقد عولوا عليه في حديثهم عنها وإثباتهم لها، وسنذكر أمثلة لذلك :

ومن أمثلة ذلك الإمام الباقلاني يتناوله على نحو تناول شيخ الأشاعرة له، بيد أنه يضيف إلى ما سبق من حديث إمام المذهب أن سير العالم على وتيرة واحدة لا اعوجاج، ولا اختلاف فيه لحجة وبرهانا على أن فاطره ومليكه واحد؛ إذ لو كان معه آلهة كما يقول الظالمون لاختل

---

1 – اللمع ص 20، 21، ويراجع الإمام أبا عبد الله السنوسي، شرح عقيدة أهل التوحيد الكبرى ص 308، 310، ط الأولى 1936 م، ط مصطفي البابي الحلبي .

هذا النظام، ولانفطر هذا الترتب حيث تحصل المشاحنة بين الآلهة كلٌ يبتغي سبيلًا إلي منازعة الباري تعالى في ملكه .

ولكن لما لم يحدث هذا، أو تظهر مثقال ذرة من أمارة تدل عليه علمنا أن مدبر العالم إله واحد لا إله معه ولا شريك .

يقول الإمام الباقلاني: والدليل على أن صانع العالم واحد قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ **[الأنبياء:22]**

والدليل المعقول مستنبط من هذا النص المنقول، فإنَّا نرى الأمور تجري على نمط واحد في السماوات والأرض، وما فيهما من شمس وقمر وغير ذلك، ولو كانا اثنين أو أكثر = فلابد أن يجري خلاف أو نفير من أحدهما على الآخر، وقد بينه سبحانه وتعالى فقال في سورة الإسراء ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ ﴾ **[الإسراء:42 - 43]**.

وأيضًا فلو جاز أن يكون اثنين أو أكثر يريد أحدهما شيئًا، ويريد الآخر ضده فلا يخلو أن يتم مرادهما أو يتم مراد أحدهما دون الآخر، ولا يجوز أن يتم مرادهما؛ لأن في إتمام مراد أحدهما عجز للآخر؛ لأنه تم ما لا يريد، وفي ذلك تعجيز لكل منهما؛ لأنه تم ما لا يتم مراد واحد منهما، فقد ثبت عجزهما أيضًا ومن يكون عاجزًا فليس بالإله أو يتم مراد أحدهما دون الآخر، فالذي تم مراده هو الإله، والذي لم يتم عاجز ليس بالإله فلم يكن إلا إله واحد [1] .

هكذا صاغ الإمام الباقلاني من النصوص النقلية دليلا عقليا صرفا به برهن على وحدانية الخالق سبحانه وتعالى .

1 – الإنصاف ص 34 .

وبعد أن وقفنا على هذا الدليل العقلي في صياغته القائم على النقل في أساسه من خلال فكر الإمام الباقلاني، فإننا نجد بعد ذلك علمًا آخر من أعلام الفكر الأشعري وهو يتناول هذا الدليل بالحديث ألا وهو الإمام الإسفرايني الذي يبين أن خالق العالم لابد وأن يكون واحدًا؛ لأنه لو فرض إلهين ولم يقدر كل منهما كتمان شيء عن صاحبه؛ لأدي ذلك إلى النقص والتناهي في القدرة بالنسبة لكل منهما وإن قدر أحدهما على كتمان شيء عن صاحبه ؛ لأدي ذلك إلي النقص والتناهي في القدرة بالنسبة لكل منهما وإن قدر أحدهما على كتمان شيء عن الآخر لم يكن الآخر ليصلح للألوهية.

يقول الإمام الإسفرايني : يجب أن تعلم أن خالق العالم واحدٌ؛ لأنه لو كان اثنين ولم يقدر أحدهما على كتمان شيء من صاحبه كانت قدرتهما ناقصة متناهية، وإن قدر أحدهما على كتمان شيء من صاحبه كان علم كل واحد منهما ناقصا متناهيًا، ومن كان علمه أو قدرته متناهيا ناقصا لم يكن إله صانعًا، بل كان مخلوقا مصنوعًا، وقد نبه الله على هذه الدلالة بقوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ﴾ **[الأنبياء:22]** وقال ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ **[الإسراء:42]** [1] .

هكذا نظم الإمام الإسفرايني برهان التمانع كما تراءى له مستشهدا عليه بالآيات القرآنية التي تشير إليه.

والواقع أن المتأمل في كلام الإمام الإسفرايني السابق يلحظ أنه أقرب إلى إثبات الوحدانية عن طريق إثبات طلاقة القدرة والعلم للباري سبحانه وتعالى وفي الوقت ذاته ينأى

1 – التبصير في الدين ص 141، 142 ويراجع الفرق بين الفرق ص 334 .

عن برهان التمانع الذي يقوم على بيان ما يحيق بالأشياء من خلل أو فساد= إذا وجد مع الله تعالى آلهة أخرى .

وبجانب الحديث السابق نجد لإمام الحرمين حديثا آخر به يثبت الوحدانية للباري سبحانه وتعالى وهو في حديثه يتشابه مع سابقيه في بيان وجه الدلالة إلا أننا نراه يضرب لنا مثلًا آخر؛ ليقرب به المسألة إلي العقول والأذهان حيث يختلف عن المثال السابق الذي مثل به الإمام الأشعري وغيره من علماء المذهب، والذي كان يكمن في تنازع الآلهة حول إحياء جسم وإماتته، فنرى إمام الحرمين الجويني يؤسس هذا الدليل على مثال آخر يقوم على تنازع الآلهة المفروضة حول حركة جسم أو سكونه وإن كان المغزى الذي يتم الانتهاء إليه واحد عند جميع مفكري الأشاعرة ألا وهو إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى.

يقول الإمام الجويني : المقصود من عقد هذا الباب إيضاح الدليل على أن الإله واحد و يستحيل تقدير إلهين .

والدليل عليه أنَّا لو قدرنا إلهين، وفرضنا الكلام في الجسم وقدرنا من أحدهما إرادة تحريكه، ومن الثاني إرادة تسكينه، فيتصدى لنا وجوه كلها مستحلية، وذلك أنَّا لو فرضنا نفوذ إرادتيهما ووقوع مراديهما؛ لأفضى ذلك إلي اجتماع الحركة والسكون في المحل الواحد، والدلالة منصوبة على اتحاد الوقت والمحل، ومستحيل أيضًا أن لا تنفذ إرادتهما، فإن ذلك يؤدي إلي خلو المحل القابل للحركة والسكون عنهما، ثم مآله إلي إثبات إلهين عاجزين قاصرين عن تنفيذ إرادته ويستحيل ثبوت قديم عاجز [1] .

1 - الإرشاد إلي قواطع الأدلة ص 53، ويراجع الشامل ص 130، وكذا الكافية في الجدل ص 44 .

ثم نجد الإمام الغزالي بعد ذلك، وقد تحدث عن هذا الدليل أيضًا من خلال الآيتين السابق ذكرهما من سورتي الإسراء والأنبياء شارحًا له في هيئة قياس منطقي من خلال ما أسماه ميزان التلازم، والذي هو بلغه المناطقة قياس استثناني متصل؛ لأن الإمام الغزالي قد جعل مقدمته الأولى شرطية متصلة، وقد استثنى فيها نفي التالي، فنتج عن ذلك نفي المقدم.

يقول الإمام الغزالي : إنَّ ميزان التلازم مستفاد من قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ **[الأنبياء:22]**، ومن قوله تعالى﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ **[الإسراء:42]** وتحقيق صورة هذا الميزان أن نقول لو كان للعالم إلهان لفسدا فهذا أصلٌ ومعلوم أنه لم يفسد، وهذا أصل آخر، فيلزم عنهما نتيجة ضرورية وهي نفي أحد الإلهين، ولو كان مع ذي العرش آلهة لابتغوا إلي ذي العرش سبيلا، ومعلوم أنهم لم يبتغوا، فليزم نفي الآلهة سوى ذي العرش [1].

وبعد أن حدثنا الإمام الغزالي عن هذا الدليل في صورة منطقية نراه يعود فيحدثنا عنه أيضا في صورة كلامية منطلقًا من الآية الكريمة السابق ذكرها من سورة الأنبياء بيد أن كلامه أقرب إلي إثبات الوحدانية من جهة إثبات طلاقة القدرة للإله الحق سبحانه وتعالى منها إلي التمانع.

يقول الإمام الغزالي : لو كان اثنين وأراد أحدهما أمرا، فالثاني إن كان مضطرا إلي مساعدته كان هذا الثاني مقهورًا عاجزًا، ولم يكن إلهًا قادرًا [2].

---

1 – القسطاس المستقيم ص 36، 37 .

2 – قواعد العقائد المستقيم ص 97، 98، ويراجع الاقتصاد في الاعتقاد ص 43 .

و ننتقل إلى علم آخر من أعلام المدرسة الأشعرية وهو الإمام البيضاوي الذي يثبت لنا إفراد المعبود بالعبادة من خلال برهاني التوارد والتمانع إذ يجمع بين الدليلين في وحدة واحدة يصل القارئ في منتهاها إلي بغيته المنشودة = وهي الإذعان بأنه لا إله إلا الله.

يقول القاضي البيضاوي متحدثا عن طريقة المتكلمين في إثبات الوحدانية لله تعالى : احتج المتكلمون في إثبات التوحيد بأن لو فرضنا إلهين لاستوت الممكنات بالنسبة إليهما، فلا يوجد شيء منهما، فاستحال الترجيح بلا مرجح وامتناع اجتماع مؤثرين على أثر واحد، وأيضًا فإن أراد احدهما حركة جسم، فإن أمكن للآخر إرادة سكونه =فلنفرض، وحينئذ إما أن يحصل مرادهما أو لا يحصل مراد كل واحد منهما، وكلاهما محال، أو يحصل مراد أحدهما وحده، فيلزم عجز الآخر وإن لم يكن= فيكون المانع إرادة الآخر = فيلزم عجزه، والعاجز لا يكون إلها [1] .

ونختم هذا المبحث بقول صاحب المواقف، فإننا نجد ه يحدثنا عن الوحدانية مثبتًا إياها من خلا ل الوجهين السابقين في الاستدلال وإن كنا نلحظ في كلامه تبيانا أكثر عما ذكره الإمام البيضاوي بالنسبة لبرهان التوارد.

يقول صاحب المواقف :يمتنع وجود إلهين مجتمعي الشرائط الألوهية لوجهين :

الأول: لو وُجِدَ إلهان قادران على الكمال؛ لكان نسبة المقدورات إليهما سواء؛ إذ المقتضي للقدرة ذاتها وللمقدورية الإمكان؛ لأن الوجوب والامتناع يحيلان المقدورية، فتستوي النسبة بين كل مقدور بينهما، فإذًا يلزم وقوع هذا المقدور المعين إما بهما، وأنه باطل؛ لامتناع مقدور

---

1 – طوالع الأنوار ص 174، ويراجع أضواء على الفكر الأشعري ص 63 وما بعدها .

بين قادرين، وإما بأحدهما ويلزم الترجيح بلا مرجح، فلو تعددت الآلهة= لم يوجد شيء من المكنات؛ لاستلزامه أحد المحالين إما وقوع مقدور بين قادرين، وإما الترجيح بلا مرجح[1].

و الثاني : إذا أراد أحدهما شيئًا فإما أن يمكن من الآخر إرادة ضده أو يمتنع، وكلاهما محال.

أمَّا الأول؛ فلأنا نفرض وقوع إرادته له لأن الممكن لا يلزم من فرض وقوعه محال، فليزم إمَّا وقوعهما معًا، فيلزم اجتماع الضدين، وإما لا وقوعهما، فيلزم ارتفاعهما، فليزم عجزهما؛ لعدم حصول مرادهما، وأيضًا يلزم اجتماعهما؛ لأن المانع من وقوع مراد كل منهما هو حصول مراد الآخر لا قادريته عليه، فإذا امتنع مراد كل منهما، فقد حصل مرادهما معا، وهذا خلف. وأيضًا فإذا فرض ما ذكرناه في ضدين لا يرتفعان كحركة جسم وسكونه = لزم المحال وهو : ارتفاعها معا.

وأما وقوع أحدهما دون الآخر، فالذي لا يقع مراده لا يكون قادرا كاملًا فلا يكون إلها .

وأما الثاني : وهو أن ينتع إرادة الآخر ضده فلأن ذلك الشيء الذي امتنع تعلق إرادة الآخر به هو لذاته يمكن تعلق قدرة كل من الإلهين وإرادته به فالذي امتنع تعلق قدرته به فالمانع عنه هو تعلق قدرة الآخر وإرادته فيكون هذا عاجزا فلا يكون إلها وهذا خلق؛ لأنه خلاف المقدر [2].

وإذا كان هذا ما ذكره صاحب المواقف في بان دلالة برهان التوارد والتمانع على إثبات الوحدانية للخالق سبحانه وتعالى فإننا نجد أيضا كلاما مشابها لكلام صاحب المواقف ذكره

---

1 – شرح المواقف جـ 8 ص 42 .

2 – شرح المواقف جـ8 ص 42، 43 .

الإمام التفتازاني في شرح المقاصد كذا في شرحه على العقائد النسفية وهو في حقيقته لا يخرج عما سبق فلا داعي لأن نطول به [1]

هكذا ووقفنا على نماذج من برهان التوارد التمانع في الفكر الأشعري وهي وإن تباينت في عبارتها أو أمثلتها في بعض الأحيان إلا أنها في النهاية تهدف إلي معنى ومغزى واحد، وتتكاتف بأسرها على إثبات الوحدانية لله تعالى .

ثانيا: طلاقة القدرة الإلهية وقصورها فيما سواه تعالى.

وهذا نوع من البراهين والأدلة يعتمد على إثبات الطلاقة في القدرة والفعل للحق سبحانه وتعالى في حين أن كل ما سواه يعتريه النقص في قدرته وفي فعله، وغير ذلك وهذا بين وواضح، فالقدرة الإلهية المطلقة الفاعلة بلا حدود كان الخلق للعالم علويه وسفليه أرضه وسمائه شموسه وأقماره بحاره، وأنهاره سهوله ووديانه وبها أيضًا كان الخلق والإيجاد للإنسان وذاته، وإذا كان هذا كله يتأتي في جانب الحق سبحانه وتعالى، فإن كل من دعيت له العبادة من دون الله من إنسٍ أو جنٍ أو حجرٍ أو شجر أو شمس أو قمر أو نور أو ظلمة= يفتقر لكل ما تقدم، بل يفتقر أيضا إلي إيجاد تكوينه وذاته، وعلى هذا، فإذا عرض هذا المشهد أمام قوانين الفكر، فإن الصاحب العقل المنصف واللب الرشيد لا يسعه إلا أن يتوجه بالعبودية لمن كملت قدرته، وأسبغت نعمة الإيجاد من قبله على جميع خلقه أما من قصرت قدرته عن هذا وغيره = فلا يصلح أن يكون إلها بحال من الأحوال .

ومن ثم كان التنبيه على هذه الدلالة في كثير من الآيات القرآنية، فنطالع منها قول الحق سبحانه وتعالى في سورة مريم، والذي ساقه على لسان خليله عليه السلام﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ

---

1 - يراجع شرح المقاصد ص 34 وما بعدها وكذا شرح العقائد النسفية ص 29 .

لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾﴾ **[مريم:42]**، وقوله تعالى في سورة الحج : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ **[الحج:73]** .

إذا فقد نبه القرآن الكريم على هذا الدليل مستخدمًا إياه في البرهنة على وجود الله تعالى، وإذا أتينا إلي الفكر الأشعري لنتعرف على هذا الدليل من خلاله، فإنَّنا نجد الإمام الغزالي يحدثنا عن هذا المسلك في نبرة تكسوها الصبغة الكلامية فيقول : وأما قولنا فلابد له فنعني به أنَّ ما سواه هو خالقه لا غير وبرهانه أنه لو قدر له شريك لكان مثله في كل الوجوه أو أرفع منه، وكان دونه، وكل ذلك محال فالمفضى إليه محال، ووجه استحالة كونه مثله من كل وجه أنَّ كل اثنين هما متغيران، فإن لم يكن تغاير لم تكن الإثنينية معقولة لا نعقل سوادين إلا في محلين، أو في محل واحد في دقيقتين في كون أحدهما مفارقًا للآخر ومباينا له ومغايرًا إمَّا في المحل، وإمَّا في الوقت، والشيئان تارة يتغايران بتغاير الحد والحقيقة، كتغاير الحركة واللون فإنهما وإن اجتمعا في محل واحد في وقت واحد= فهما اثنان؛ إذ أحدهما مغايرٌ للآخر بحقيقته، فإن استوى اثنان في الحقيقة والحد كالسوادين = فيكون الفرق بينهما إما في المحل، أو في الزمان، فإن فرض سوادان مثلًا في جوهر واحد في حالة واحدة = كان محالًا إذ لم تعرف الاثنيينة ولو جاز أن يقال هما اثنان ولا مغايرة لجاز أن يشار إلى إنسانٍ واحدٍ، ويقال إنه إنسانان بل عشرة، وكلها متماثلة متساوية في الصفة والمكان وجميع العوارض واللوازم من غير فرقان، وذلك محال بالضرورة، فإن كان ندا له سبحانه وتعالى مساويًا له في الحقيقة والصفات استحال وجوده؛ إذ ليس مغايره بالفعل والمكان والزمان إذ لا مكان ولا زمان فإنهما قديمان، فإذًا لا فرقان، وإذا ارتفع كل فرق ارتفع العدد بالضرورة، ولزمت الوحدة،

ومحال أن يقال يخالفه بكونه أرفع منه، فإن الأرفع هو الإله، والإله عبارة عن أجل الموجودات وأرفعها، والآخر المقدر ناقص ليس بالإله، ونحن إنما نمنع العدد في الإله، والإله هو الذي يقال فيه بالقول المطلق أنه أرفع الموجودات وأجلها، وإن كان أدنى منه كان محالا؛ لانه ناقص، ونحن نعبر بالإله عن أجل الموجودات، فلا يكون الأجل إلا واحد، وهو الإله ولا يتصور اثنان متساويان في صفات الجلال إذ يرتفع عند ذلك الافتراق ويبطل التعدد كما سبق [1].

وإذا كنا وقفنا على هذا المسلك العقلي من خلال فكر الإمام الغزالي فإننا نجد الإمام الرازي يحدثنا عن هذا الدليل، كذلك من خلال قصة الخليل عليه السلام موضحًا كيف احتج على قومه به في مواطن كثيرة من دعوته لهم، فمن هذا المواطن ما أجاب به على قومه عندما سئل من قبلهم عن الله لرب العالمين، فكانت إجابته لهم بتعديد جانب من نعم الله على الإنسان، والتي لولا القدرة الإلهية المطلقة ما كانت، وما كان سوق الرزق والشراب والطعام للإنسان، ولولاها كذلك ما كان الشفاء من الأمراض والأسقام وغير ذلك .

أيضًا كان تقريره عليه السلام لهذا الدليل في معرض محاجاته مع والده حيث بين له فيها أن من يتوجه إليهم بالعبادة من الأوثان والأصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تملك لنفسها فضلا عن غيرها ضرًا ولا نفعًا، ومن كان هذا شأنه وحاله من النقص والمصور في القدرة فلا يستحق أن يعبد، ثم كان تقرير هذا الدليل أيضًا مع جبار قومه النمرود، فأبطل عبادته وألوهيته عن طريق إثبات الطلاقة للقدرة الإلهية في الإحياء والإماتة وفي شروق الشمس

---

1 - الاقتصاد في الاعتقاد ص 41، 42 .

وأفولها حيث كان يعلم يقينا أن ذلك المستكبر فاقد للقدرة التي يستطيع بها أن يأتي كل هذا، ومن ثم تمت له الحجة عليه.

يقول الإمام الرازي في معرض حديثه عن دلائل التوحيد من خلال قصة إبراهيم عليه السلام: وأما إبراهيم عليه السلام فالاستقصاء في شرح أحواله يطول في هذا الكتاب وله مقامات :

إحداها : كان في وقت دعائه مما هو محض الاستدلال وهو قوله في سورة الشعراء ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾ **[الشعراء:78 - 79]**إلي آخر الآيات .

وثانيهما : مناظرة إبراهيم مع أبيه وهي قوله تعالى في سورة مريم ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ **[مريم:42]** .

وثالثها : حاله مع قومه تارة بالقول، وأخرى بالفعل . أمَّا القول فهو قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ **[الأنبياء:52]**وأمَّا بالفعل فقوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ **[الأنبياء:58]** .

ورابعها : حاله مع ملك زمانه حيث قال في سورة البقرة ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ **[البقرة:258]**

إلي آخر الآية فهذا كل مباحث إبراهيم عليه السلام في معرفة توحيد الخالق [1] .

هكذا تناول الإمام الرازي هذا البرهان بعبارات سهلة ميسرة اعتمد في تقريره على الآيات القرآنية الكريمة، ومن ثم نراه بعد تقريره إياه من خلال قصة الخليل عليه السلام يعمد إليه مرة أخرى مقررًا له من خلال حديث القرآن عن نبي الله سليمان عليه السلام، وحواره مع

---

1 - أسرار التنزيل جـ 1 ص 282، 283 .

الهدهد، وكيف أن الهدهد برهن على توحيد خالقه عن طريق كمال علمه وقدرته هذه الحقيقة التي فطن إليها طائر أعجم لا ذكر له بجانب الإنسان وعقله وفكره الذي عبد الشمس من دون الله، مع أنها لا توصف بعلم أو بقدرة يقول الإمام الرازي: وأما سليمان عليه السلام فله مقامات إحداها في بيان إثبات التوحيد والذي ذكر في قوله سبحانه وتعالى في سورة النمل ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل:25 - 26]، فالآيتان تثبتان التوحيد لله تعالى بالقدرة والعلم .

وأما القدرة فقوله وسمى الخبء بالمصدر وهو يتناول جميع الأرزاق والأحوال، وإخراجه من السناء بالغيث ومن الأرض بالنبات. وأما العلم فيدل على ثبوته قوله ﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾، واعلم أنَّ المقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس، وتلخيص الدلالة على أن قانون الجدل على وجهين :

الأول: الإله يجب أن يكون قادرًا على إخراج الخبء، ويكون عالمًا بالخفيات والشمس ليست كذلك، فهي لا تكون إلها أما إنه سبحانه يجب أن يكون قادرا عالما على الوجه المذكور، فكما أنه واجب الوجود لذاته، فلا تختص قدرته وعلمه ببعض المقدورات وبعض المعلومات دون البعض .

وأما أنَّ الشمس ليست كذلك = فلأنها جسم متناه، وكلما كان متناهيا في الذات كان متناهيا في الصفات، وإذا كان الأمر كذلك= امتنع أن تكون الشمس قادرة على إخراج الخبء، وعالمة بالخفيات، وإذا لم يعلم من حالها كونها قادرة على جلب المنافع ودفع المضار=

فرجع حاصل هذا الدليل إلي ما ذكره إبراهيم عليه السلام في قوله في سورة مريم ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢﴾ **[مريم:42]** (1) .

ويبين الإمام الرازي بعد ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد استخدم هذه الدلالة حال تبكيته لقوم نحوا عقولهم عن الصواب ومرماه، فعبدوا من لا قدرة له على الخلق وتركوا الخالق.

يقول الإمام الرازي : وأمَّا محمد صلى الله عليه وسلم = فاعلم أن اشتغاله بتقرير دلائل التوحيد أظهر من أن يحتاج فيه إلي مزيد تقرير ذلك ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان مبتلى بالرد على جميع فرق الكفار، فمن قال إنَّ الوثن مع الله تعالى أبطله بقوله من سورة النحل : ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُ ﴾ **[النحل:17]** بمعنى :أنَّ من ثبت له طلاقة القدرة، وكانت الأشياء من جملة خلقه = يجب أن يعبد دون سواه ممن هو مفتقد لهذه القدرة أو قاصرة فيه .

هكذا وقفنا على إثبات التوحيد لله تعالى وذلك من خلال البرهنة بطلاقة قدرته تعالى في الخلق والإيجاد والفعل والإحداث والتي وقفنا عليها من مطالعتنا للفكر الأشعري، ولعلنا لاحظنا أن الإمام الرازي في تقريره لهذا الدليل السابق أقرب في الصياغة من الإمام الغزالي لروح القرآن الكريم، ولعل مرجع ذلك ما عرف عن الإمام الرازي من معالجته للآيات القرآنية الكريمة بالشرح والتفسير وبانتهائنا من الحديث عن هذا الدليل السابق نكون قد وقفنا على جانب من دلائل التوحيد المنثورة في الفكر الأشعري ولعلنا لاحظنا أنها في مجملها دلائل مفعمة بروح القرآن ومعانيه ومنطلقة مما أمر به العقول من نظر وتفكر وتدبر والآن

---

1 – أسرار التنزيل جـ 1 ص 285، 286 .

نريد أن نولى وجوهنا شطر الفكر الاعتزالي وسنذكر بعض النماذج ؛ لنقف على هذه الدلائل فيه .

ثانيا
الفكر الاعتزالي

بعد أن تعرفنا على دلائل التوحيد التي تأثر بها الفكر الأشعري من خلال القرآن الكريم يطيب لنا الحديث الآن أن نتناول هذا الدلائل من خلال الفكر الاعتزالي ولنبدأ بالكلام عن

أولا: برهان التوارد والتمانع.

عند مطالعتنا لتراث الفكر الاعتزالي نلمح للقاضي عبد الجبار بن أحمد المعتزلي حديثًا عن برهان التمانع في غير موضع من كتبه منطلقًا في تقريره من قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الأنبياء ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ **[الأنبياء:22]** ومبينًا من خلال هذه الآية الكريمة أنَّ المفترض في الإله أن يكون تام القدرة لذاته، فلو فرضنا إلهين وقد اختلفا حول إيجاد شيء من الأشياء بحيث أراد أحدهما وقوعه وأراد الآخر خلافه، فمحال أن ينفذ مرادهما معا؛ لما يترتب عليه من جمعٍ بين النقيضين، ولكن إذا نفذ مراد أحدهما، ولم يستطع الآخر أن ينفذ مراده، فإن هذا عجز يترتب عليه عدم صدق وصف الألوهية له.

يقول القاضي عبد الجبار :فإن قالوا : فبينوا أن الله تعالى واحد.

قيل لهم: لو كان مع الله تعالى ثان لم يخل من أن يكون غير واحد، وهذا لا يصح؛ لأنه يجب إذا كان قديمًا أن يكون مثلا له، فإذا كان قادرًا لذاته فكذلك الثاني لو كان معه، وهذا يبطل القول بأن معه ثانيًا عاجزًا، أو يكون قادرًا، ولو كان كذلك لوجب إذا أراد أحدهما إحياء جسم، وأراد الآخر إماتته أن يكون فعل أحدهما بالوجود أولى من فعل الآخر، وهذا يوجب إمَّا أن لا يوجد مرادهما جميعًا، وفي ذلك إيجاب صنعتهما، أو أن يوجب مراد أحدهما دون الآخر، وذلك يدل على ضعفه، وعلى أنه ليس بقديم مع الله، فلذا لم يجب أن يكون تعالى إلا واحدا .

وهذا معنى قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ (٢٢)﴾ **[الأنبياء:22]**؛ لأنه كان لا يمتنع أن يريد أحدهما تسكينهما، ودوران الفلك فيهما على هذا الحد ويريد الآخر ضد ذلك، فيقع الفساد ويزول الصلاح [1].

وإذا تمثلنا هذه الدلالة، فإننا نراها مبنية على التوارد والتمانع، ومن ثم فهي مؤسسة على أن الحق سبحانه وتعالى يجب أن يكون متصفا بالقدم الذاتي وهذا لا ينبغي أن لا تتناهى مقدورته.

ومن ثم نقول: إن القاضي عبد الجبار قد بين هذه الدلالة على نحو ما سبق فإننا نراه يوضح أن هذا النوع من التدليل والبرهنة على وحدانية الصانع سبحانه وتعالى أمر أطبق على الاستدلال به شيوخ المعتزلة، فليس مقصورا عليه فقط.

يقول القاضي عبد الجبار: وقد استدل شيوخنا رحمهم الله على أنه جل وعز لا ثاني له بأنه لو كان له ثان؛ لوجب كونه قادرًا لنفسه من حيث شاركه في كونه قديمًا، ومن حق كل قادرين أن يصح من أحدهما ممانعة الآخر من حيث وجب كل واحد منهما قادرًا على الشيء وضده، وصحة التمانع موقوف على ذلك، فإذا صح التمانع بينهما، فلو أراد أحدهما تحريك جسم وأراد الآخر تسكينه في تلك الحال لم يخل القول في ذلك من وجوه ثلاثة :

1 -إما أن يقال إن كلا المرادين يوجدا، وقد علم استحالة ذلك لتضادهما 2 - أو يقال كلاهما لا يوجدا وذلك يوجب كون كل واحد منهما مانعا لصاحبة، وذلك يدل على تناهي مقدرورهما وفي ذلك إبطال القديم الواحد فضلا عن قديم ثان، فلم يبق إلا الوجه الثالث.

---

1 - المختصر في أصول الدين ص 229 .

3- وهو: أن مراد أحدهما يوجد دون مراد الآخر فيجب أن يكون هو الأقدر، ولا يصح أن يكون أقدرُ من صاحبه إلا ويجب كون صاحبه متناهي المقدور، ولذا صح أنَّ القول بإثبات ثان مع الله يؤدي :

إما إلي اجتماع الضدين.. أو إبطال القديم الواحد.

وكون ذلك الثاني محدثا وكل ذلك فاسد، فيجب القضاء بأنه تعالى واحد لا ثاني له [1] .

وإذا كنا قد أحطنا علما بجانب من برهان التوارد والتمانع كما تمثل في فكر القاضي عبد الجبار فإننا نجد بعد ذلك الإمام الزمخشري قد انطلق من الآيات القرآنية الكريمة؛ ليقرر لنا هذا المسلك العقلي من مسالك البرهنة على وحدانية الله سبحانه وتعالى، فنراه يقول في تعليقه على قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ **[الأنبياء:22]**: والمعني لو كان يتولاها ويدبر أمرها آلهةً شتى غير الواحد الذي هو فطرهما لفسدتا وفيه دلالة على أمرين :

أحدهما: وجوب أن لا يكون مدبرها إلا واحد .

والثاني : أن لا يكون ذلك الواحد إلا إياه وحده لقوله﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ **[الأنبياء:22]**.

فإن قلت: لما وجب الأمران؟

قلت: لعلمنا أن الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من لتغالب والتنكر والاختلاف .

وعن عبد الملك بن مروان حين قتل عمرو بن بن سعيد الأشدق قال: كان والله أعز علي من دم ناظري ولكن لا يجتمع فحلان في شول، وهذا ظاهر[2] .

---

1 - المغني جـ 4 ص 275 .

2 - الكشاف جـ 3 ص 115 والشول النوق التي خف لبنها وارتفع ضرعها .

وبعد أن قرر لنا الإمام الزمخشري هذه الدلالة من خلال الآية الكريمة من سورة الأنبياء نراه يقررها كذلك من خلال قول الحق سبحانه وتعالى في سورة المؤمنون ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ **[المؤمنون:91]**

يقول الإمام الزمخشري في جانب من تعلقيه على هذه الآية الكريمة إن نسبة الشريك لله باطلة ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾ **[المؤمنون:90]** حيث يدعون معه شريكا و﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا﴾ **[المؤمنون:91]** لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه واستبد به، ولرأيتم ملك كل واحد منهم متميزا عن ملك الآخرين ولغلب بعضهم بعضا كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متمايزة، وهم متغلبون، وحين لم تروا أثر لتمايز الممالك ولتغالب فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء [1].

وإذا كان هذا هو تقرير الدليل كما ربه الإمام الزمخشري موضحا إياه من خلال الآيات القرآنية الكريمة فإننا نجد بعد ذلك أبا رشيد النيسابوري يبينه لنا كذلك على نحو بيان القاضي عبد الجبار له، فيقول: والدليل على أنه لا يجوز أن يكون مع الله تعالى قديم ثان هو أنه لو كان مع الله تعالى قديم ثان لوجب أن يكون مثلا له لأن القدم صفة من صفات النفس [2] والاشتراك في صفة من صفات النفس يوجب التماثل، فإذا كان تعالى قادرا لذاته = وجب في الثاني أن يكون قادرا لذاته، ومن حق القادر على الشيء أن يكن قادرًا على جنس ضده إذا كان له ضد، وإذا كانت دواعيه متوفرة والآلات متكاملة والموانع زائلة يجب أن يحصل مراده

1 -الكشاف جـ 3 ص 200

2 - الواقع أن الصفات النفسية إنما تنحصر في صفة واحدة وهي الوجود أما القدم فهو من الصفات السلبية .

لا محالة، ومن حق كل قادرين صحة التمانع بينهم، فلو قدرنا التمانع بينهما، وأراد أحدهما تحريك جسم والآخر تسكينه لكان لا يخلو إما أن يحصل مرادهما أولا يحصل مرادهما، أو يحصل مراد أحدهما دون الآخر و لا يجوز أن يحصل مرادهما؛ لأن هذا يوجب أن يكونا ضعفين عاجزين، ولا يجوز أن يحصل مرادهما لأن هذا يوجب أن يكون الجسم متحركا ساكنا في حالة واحدة، وهذا محال فلم يبق إلا أن يحصل مراد احدهما دون الآخر، فالذي يحصل مراده يجب أن يكون هو الإله؛ لأن من لم يحصل مراده يكون متناهي المقدور[1] .

هذا جانب من حديث أعلام الفكر الاعتزالي عن إثبات الوحدانية لله تعالى عن طريق برهان التمانع والتوارد ونراهم، وقد انطلقوا فيه من خلال الآيات القرآنية صائغين إياه في هيئة كلامية منطقية، ولربما كانت أيسر الصياغات وأسهلها تلك التي وردت في حديث الإمام الزمخشري عن الآيات التي ورد فيها الحديث عن هذا البرهان .

ثانيا : طلاقة القدرة الإلهية.

لقد بينا في غير موضع سبق على أن مما يبرهن به على وحدانية الخالق سبحانه وتعالى إثبات طلاقة القدرة بالنسبة له جل شأنه في حين أنها تكون قاصرة بالنسبة لكل ما سواه، وهذه طريقة اعتمدها القرآن الكريم في البرهنة على توحيد الله سبحانه وتعالى، وتناقلها من قبل رجالات الفكر الأشعري متأثرين بما ورد في القرآن الكريم بهذا الشأن، وإذا أتينا إلي الفكر الاعتزالي فإننا نجد الإمام يحيي بن الحسين ينبهها على هذه الطريقة فيقول : أول ما يجب على العبد أن يعلم أن الله واحد أحد قادر صمد فرد ليس له شبيه ولا نظير ولا عديد، وما سواه فمحدود ضعيف محوي محاط به له كل وبعض وفوق وتحت ويمين وشمال وأمام وخلف [2] .

---

1 –في التوحيد للنيسابوري ص 624، 625 .

2 – الإمام يحيي بن الحسين الرد على الجبرة ولاقدرية ص 64، تح د/ محمد عمارة، ط دار الشرق .

إذا فمن مقومات إثبات الوحدانية لله تعالى إثبات طلاقة القدرة له سبحانه في الوقت الذي يعتور فيه النقص والضعف كل ما سواه من الخلائق، ولذا لا يصلح أن يكون أحدا منهم بمثابة ند له أو شريك .

ثم نرى بعد ذلك القاضي عبد الجبار بن أحمد وهو يتناول هذا الدليل بالحديث من خلال تعلقيه على قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الصافات ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ **[الصافات:95]** حيث يقول : لقد وبخهم الله بذلك من حيث بين أنه خلقهم، فلما عدلوا عن عبادته مع أنه الخالق المنعم وعبدوا ما لم يخلف شيئا [1] .

ويقول متحدثا عن هذا الموضوع من خلال تعلقيه على قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الرعد ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ **[الرعد:16]**

إن المراد إبطال قول الثانوية وعباد الأصنام الذين لا يوجبون أن الخالق والمنعم والمحيي والمميت والرازق واحد [2] .

ويقرر القاضي عبد الجبار هذا الدليل في موضع آخر من كتبه مبينا تهافت من اتخذ الأصنام آلهة من دون الله؛ لأنه توجه بالعبادة إلي من لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عن عابده شيئا ولا يملك لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون، وعدلوا به عن عبادة من له الطلاقة في القدرة والفعل والإيجاد والخلق، وهذا لا يستقيم لدى صاحب العقل النصف .

يقول القاضي عبد الجبار: إن الذي بقي من الكلام الحديث على من هو خارج عن الملة وهو عباد الأصنام ومن يجرى مجراهم وهم في ذلك يعتقدون كونها منعمة مستحقة للشكر والعبادة، وهذا لا يصح؛ لأن ذلك يقتضي كونها حية قادرة نافعة ضارة، بل لابد من كونها

---

1 - المختصر للقاضي عبد الجبار ص 244 .

2 -المختصر للقاضي عبد الجبار ص 244 .

قادرة للنفس؛ لتقدر على ما هو من أصول النعم، وهذه الأوصاف كلها منتفية عن هذه الأصنام ألا ترى أنهم ينحتونها ويصوغانها فكيف يثبت لها هذا الحكم [1].

ونرى الإمام الزمخشري يحدثنا عن هذا المسلك من خلال ما ورد على لسان خليل الرحمن عليه السلام في معرض محاجاته مع أبيه في شأن الأصناف كما حكت سورة مريم : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ **[مريم:42]** إنَّ العقل المنصف ليقرر أن الإنسان إنما يتوجه بالعبادة إلي من ثبتت له الطلاقة في القدرة على إيصال النفع ودفع الضر. أما من فقد مقومات الحياة = فلا يسمع ولا يبصر ولا يملك لعابده جلبًا لنفع، أو دفعا لضر، فهذا لا تجوز العبادة في حقه بحال من الأحوال.

يقول الإمام الزمخشري: إنَّ العبادة التي هي غاية التعظيم لا تحق إلا لمن له غاية الإنعام، وهو: الخالق، الرازق، المحيي، المميت، المثيب المعاقب الذي منه أصول النعم وفروعها، فإذا وجهت إلي غيره- سبحانه وتعالى علوا كبيرا- بأن تكون هذه الصفة لغيره = لم يكن إلا ظلما وعتوا وغيا وكفرا وجحودا وخروجا عن الصحيح النير إلي الفاسد المظلم، فما ظنك بمن وجه عبادته إلي جماد ليس به حس ولا شعور، فلا يسمع- يا عابده - ذكرك له وثناؤك عليه، ولا يرى هيآت خضوعك وخشوعك له فضلًا يغني عنك بأن تستدفعه بلاء = فيدفعه، أو تسنح لك حاجة = فيكفيكها [2].

وبعد أن قرر لنا الإمام الزمخشري هذا الدليل من خلال تناوله للآية الكريمة السابق ذكرها من سورة مريم نراه يعود مرة ثانية فيقرره لنا كذلك من خلال قوله الحق سبحانه وتعالى في سورة الحج (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين، الطالب والمطلوب)

---

1 - المحيط بالتكلف ص 227 .

2 - الكشاف جـ 3 ص 19 .

يقول الإمام الزمخشري في تناوله له﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ **[الحج:73]** هذه الآية الكريمة مبينًا إفراد المعبود بالعبادة ومبطلًا في الوقت ذاته عبادة كل ما سوى الله عن طريق بيان ما يتوفر في كل ما سوى الله من أمارات الضعف وقصور القدرة: " إن هذه الآية من أبلغ ما أنزل الله في تجهيل قريش واستركاك عقولهم والشهادة على أن الشيطان قد خذمهم بخذائمه حيث وصفوا بالألوهية التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها صورًا وتماثيل يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه وأذله وأصغره وأحقره، ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا، وأدل من ذلك على عجزهم وانتفاء قدرتهم أن هذا الخلق الأقل الأزل لو اختطف منهم شيئا فاجتمعوا على أن يستخلصون منها لم يقدروا [1] .

هكذا انتهي الحديث عن هذا المسلك العقلي الذي يتسني لنا من خلاله إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى، وبانتهائه نكون قد انتهينا من بيان أثر الدلائل القرآنية العقلية التي سيقت لإثبات الوحدانية في الفكر الاعتزالي والآن نعرج إلي الفكر الفلسفي؛ لنقف على أثر هذه الدلائل من خلاله .

1 – الكشاف جـ 3 ص 171 .

ثالثا

الفكر الفلسفي

بعد أن وقفنا على جانب من دلائل التوحيد في الفكرين الأشعري والاعتزالي نريد أن نتبين الآن تلكم الدلائل السابقة من خلال الفكر الفلسفي .

أولا : برهان التوارد والتمانع :

إن المتأمل في الفكر الفلسفي يجد هذا البرهان وقد تناوله أبو الوليد انب رشد بالحديث منطلقا في تقريره من قوله الحق سبحانه وتعالى من سورة الأنبياء ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾**[الأنبياء:22]** .

فيبين بان رشد مغرى هذه الآية ودلالتها على امتناع اجتماع فاعلين على أثر واحد مما يؤدي معه إلي فساد المفعول .

ومن ثم وجب أن يكون احدهما فاعلا والثاني صفة الألوهية .

كذلك يرى ابن رشد أن مما يبرهن به على هذا المعنى السابق قوله الله تعالى في سورة الإسراء﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴿٤٢﴾﴾**[الإسراء:42]** .

ثم ينطلق ابن رشد من خلال هاتين الآيتين الكريمتين ليتناول بعد ذلك برهان التمانع وذلك من خلال قول الحق سبحانه وتعالى في سورة المؤمنون ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ **[المؤمنون:91]** ودلالة هذه الآية الكريمة على إثبات الوحدانية لله تعالى كما يقول ابن رشد أنه لو حصل ثمة تنازع أو ممانعة بين الآلهة المتعددة لن يوجد عنها موجود واحد في حين أننا نرى العلم ونشاهده على ما هو عليه من وحدة واتساق وانتظام مما يدل معه على انتقاء التعدد

في الآلهة يقول ابن رشد : إما نفي الألوهية عن سواه فإن طريق الشرع فيذلك هي الطريق التي نص عليها الله تعالى في كتابه العزيز وذلك في ثلاث آيات : إحداها قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ **[الأنبياء:22]**

والثانية قوله تعالى ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ **[المؤمنون:91]**

والثالثة قوله تعالى ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ **[الإسراء:42]** فأما الآية الأولى فدلالتها مغروزة في الفطر بالطبع وذلك أنه من المعلوم بنفسه أنه إذا كان ملكان كل واحد منها فعله فعل صاحبه أنه ليس يمكن أن يكون عن تدبيرهما مدينة واحدة لأنه ليس يكون عن فاعلين من نوع واحد فعل واحد فيجب ضرورة إن فعلا معا أن تفسد المدينة الواحدة إلا أن يكون أحدهما يفعل ويبقى الآخر عطلا وذلك منتف في صفة الآلهة فإنه متى اجتمع فعلان من نوع واحد على محل واحد فسد المحل ضرورة هذا معنى قوله سبحانه ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ﴾ **[الأنبياء:22]**وأما قوله ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ **[المؤمنون:91]**فهذا رد منه على من يصنع آلهة كثيرة مختلفة الأفعال وذلك أنه يلزم في لا آلهة المختلفة الأفعال التي لا يكون بعضها مطيعا لبعض ألا يكون عنها موجود واحد وملا كان العالم واحدا وجب أن لا يكون موجودا عن آلهة متفننة الأفعال .

وأما قوله تعالى﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ **[الإسراء:42]** فهي كالآية الأولى أعني أنه برهان على امتناع إلهين فعلهما واحد ومعنى هذه الآية أنه لو كان فيهما آلهة قادرة على إيجاد العالم وخلقه غير الإله الموجود حتى تكون نسبته من هذه الآية أنه لو كان فيها آلهة قادرة على إيجاد العالم وخلقه غير الإله الموجود حتى تكون

نسبته من هذا العالم نسبة الخالق له لوجب أن يكون على العرش معه فكان يوجد موجودان متماثلان ينسبان إلي محل واحد كما لا يحلان فيمحل في نسبة واحدة لأنه إذا اتحدت النسبة اتحد المنسوب أعني لا يجتمعان في النسبة إلي محل واحد كما لا يحلان في محل واحد إذا كان مما شأنهما أن يقوم بالمحل وإن كان الأمر في نسبة الإله إلي العرش ضد النسبة [1] .

هكذا أثبت ابن رشد الوحدانية لله تعالى من خلال الآيات القرآنية والواقع أن المتأمل في الفكر الفلسفي يشق عليه أن يجد دلائل أخرى تتعلق بصفة الوحدانية تكون مرتبطة بالبراهين القرآنية الدائر حول هذه الصفة لذا فإن الباحث فيما اطلع عليه من تراث الفكر الفلسفي لم يستطع الوقوف إلا على ما تقدم من كلام ابن رشد المتعلق بالبرهنة على هذه الصفة وفي الوقت ذاته يكون هذا الكلام منطلقا من فحوى الآيات القرآنية .

بل إننا إذا ذهبنا إلي التماس دلائل التوحيد عند انب سينا من خلال تناوله التفسير لآيات من حيث عن بساطه المبدأ وما يترتب عليه من كونه لا يصدر عنه إلا واحد وانتهائه من وراء ذلك كله إلي الحديث الذي يكسوه الوهم والخرافة عن العقول العشرة [2] ومالها من أعمال .

ومن ثم فلم يقف الباحث فيما اطلع عليه من كتب الفلاسفة على حديث لهم به يتم إثبات الوحدانية لهل سبحانه وتعالى عن طريق استخدم طلاقة القدرة الإلهية مثلا .

وقهذا نكون قد انتهينا من تتبع أثر البراهين القرآنية المتعلقة بصفة الوحدانية في الفكر الإسلامي حيث عرضنا لنماذج تتعلق بهذا وبانتهاء الحديث عن ذلك نكون قد فرغنا من الحديث عن الجانب الإلهي في الفكر الإسلامي والذي تمثل فيما عرضنا له خلال صفتي الوجود والوجدانية ولعلنا لاحظنا أن أعلام الفكر الأشعري كانوا أشد تأثرا بالدلائل

---

1 - مناهج الأدلة ص 156، 157 .

2 - يراجع ابن سينا تفسير سورة الإخلاص ص 1، 6 د/ حسن عاصي، ط المؤسسة الجامعية .

القرآنية من غيرهم إذ إنهم قد صاغوا الدلائل العقلية بعبارات عقلية سهلة ميسرة تتلاءم مع منبعها مع أنهم قد يعبرون عن المعنى القرآني في بعض الأحيان القليلة بتعبيرات قد يغلب عليها الروح الكلامية أو الفلسفية .

الخاتمة

فمن خلال ما تقدم يمكن أن نصل إلي النتائج الآتية :

1 – إن العقل الإنساني له من التكريم والمنزلة في القرآن الكريم مستقرا ومقاما لم يبلغه في كتاب قط سبقه أو تأخر عنه .

2– إن لفظة العقل كاسم لم يرد له ذكر في القرآن الكريم وإنما وردت بصيغة الفعل (يعقلون) (تعقلون) (عقلوه) وغيرها مما يعطي دلالة واضحة على أن البحث في ماهية العقل وهل هو مادي أم غير مادي والبحث عن موقعه في الجسم الإنساني أمر ليس ذا بال ولذا أهمله القرآن الكريم، ولم يتطرق إليه واستخدامه في التعبير عنه بصيغة الفاعل يدل على أن الأهمية تكمن فيما يترتب على وجود هذه الآلة في الإنسان من عمليات الإدراك والتفكير، ومن ثم فينبغي على الإنسان أن لا يبحث عن ماهية عقله، بل يبحث كيف يستخدمه كأداة فكرية فيها النفع لنفسه ولغيره .

3– إن العقل الإنساني من خلال ما تقدم يمكن أن نقول بأنه في ظل الإسلام وكتابه هو في ذروته وأعلى سنامه ومن ثم فليس هناك مدعاة للأبواق التي تنهق من حين لآخر بأنه في أزمة يريد الخلاص منها .

4 – إن القرآن الكريم في احتفائه بالعقل وجدناه وقد ذكر العديد من الحقائق العلمية والكونية بيد أنه ينبغي علينا أن نعتقد في أول الأمر وآخره بأن القرآن الكريم كتاب هداية من الحق إلى الخلق .

5 – ينبغي أن لا نعول على الكونيات العلمية في تأويل القرآن الكريم إلا إذا بلغت في الثبوت مبلغ النظرية أما ما دون ذلك من المراحل فيجب أن لا تعول عليها في التأويل للقرآن

الكريم لكونها عرضه للتغير مما يجعل كتاب الله سبحانه وتعالى محلا له لرفع الثقة عن نصه المعصوم .

6- ينبغي علينا أن لا نعتسف في لي عنق النص القرآني كي نجعله محلا للإشارة إلى اكتشاف علمي أو كوني .

7 - إن القرآن الكريم حفل بالعديد من الدلائل المنطقية التي عول عليها المناطقة بعد ذلك حيث أنجبت بها العديد من الأمور العقدية، كما تبين لنا بعد ذلك من خلال ما سبق .

8 - إن القرآن الكريم وإن كان قد عرف للعقل قدره ومنزلته إلا أنه ينبغي على الإنسان في كل زمان ومكان أن لا يغتر بعقله، فلا يطلق له العنان للتفكير في كل شيء، بل يجعل له حجبا يجب أن لا يتخطاها فلا يزج له في عالم الغيب مثلا الذي يعلو عنه كي لا يشت أو يشط

9- إن القرآن الكريم وإن دعى إلي التفكر والتدبر والنظر وحث الإنسان على استخدام عقله، فإن هذا قد طبقه القرآن الكريم بصورة عملية، ومن ثم كان الحوار العقلي مع أرباب العقائد المخالفة وكانت البرهنة العقلية على العقائد الإيمانية في القرآن الكريم.

10 - من خلال الوقوف على منزلة العقل في القرآن الكريم يمكن القول إن القرآن الكريم له السبق في وضع الأساس واللبنة الأولى للمعرفة اليقينية الكاملة المتعلقة بالفكر الإنساني.

11- إن القرآن الكريم في خطابه العقلي لم يكن متوجها بالحديث إلي فئة بعينها وإنما راعى في خطابه كافة المستويات وأرضى جميع الأذواق، فكان للعامي ذو النظرة البسيطة له من حديثه حظا ونصيبا، وكذا أولوا العقول النيرة والقرائح المتقدة لهم من ذلك الخطاب قسطا كبيرا .

12 - إن القرآن في مجادلته العقلية مع أرباب الملل المخالفة قد عول على بعض الوقائع التاريخية المذكورة في كتبهم بيد أن حديث القرآن الكريم عنها محفوف بالعصمة والكمال اللائقين بمن هم محل الحديث، سواء تعلق ذلك الحديث بالذات العلية أم بأنبياء الله ورسله. .

13- إن العقيدة الإسلامية من خلال حديثناالسابق في ثنايا بحثنا نعلم يقينا أنها عقيدة عقلية سهلة ميسرة، وهذا ما تفتقده العقائد في الملل الأخرى التي لحقها التحريف والتزييف.

14- أيضا يمكن من خلال الآيات القرآنية صياغة الأمور العقدية في لغة بسيطة سهلة خالية من التعقيدات الكلامية والفلسفية .

15- كذلك يمكن صياغة القضايا العقدية من خلال الآيات القرآنية المعصومة، ومن ثم يكون جمع الناس على أمر واحد بدلا من التشتت والتشرذم وراء مذاهب مختلفة وآراء بشرية متباينة .

16 - إن القرآن الكريم في مسألة البرهنة على الوجود الإلهي قد وقف موقفًا عقليا موضوعيًا بين القائلين بالفطرة، والقائلين بالدليل حيث بين أن ثمة صنف من البشر صفت فطرهم وهم المؤمنون، وهذا الصنف يترك لفطرته أمَّا من طمثت فطرهم حتى غيب الحق عنها هؤلاء نحم مطالبون معهم بالحجة والبرهان ولا نكلهم إلي أنفسهم؛ ليكتشفوا بمفردهم ما غاب عنها وقد وضح هذا من خلال حديثنا عن قول تعالى في سورة إبراهيم (أفي الله شك فاطر السماوات والأرض) .

17- أيضا نعلم من خلال بحثنا هذا أنَّ القرآن الكريم قد أثبت الوجود الإلهي بالعديد من البراهين العقلية مثل دليل الخلق في الآفاق والأنفس وبرهان الحدوث وبرهان الإمكان، وغيرها من البراهين العقلية .

18- إنَّ القرآن الكريم قد تنوع في مسالك التدليل العقلي على وجود الله حيث وجدنا من الدلائل ما اتخذت الخلق معراجا إلي الحق مثل دليلي الخلق والحدوث ومنها ما كان ثبوت الخلق فيها تبعا لوجود الحق مثل الدليل الانطولوجي الوجودي .

19 - إن الدليل الانطولوجي وإن كان يبرهن به على الوجود الإلهي إلا أنه لا يخاطب به جميع الناس، بل هناك فئة خاصة صفت بصائرهم، فعرفوا الخلق بمعرفة الحق فهم أهل الخطاب بهذا الدليل، ولذا لم يشأ القرآن الكريم أن يمنعهم عن هذا المسلك فأورده فيه .

20 - كذلك كان حديث القرآن الكريم عن دليل الإمكان بيد أن دليل الإمكان في القرآن الكريم مقترن بالحدوث للكائنات، وليس كما استعمله الفلاسفة مرتبطًا بالقدم .

21 - لقد عرفنا من خلال بحثنا أن المتكلمين قد عولوا على دليل الحدوث في البرهنة على الوجود الإلهي ووجدنا الفلاسفة وقد عولوا على دليل الإمكان، وكان دليل الإمكان قديمًا مقدما على برهان الحدوث لاعتماده على مقدمة بديهية مؤداها لابد من وجود موجود، أما دليل الحدوث فقد اعتمد على مقدمة نظرية مفادها العالم حادث بيد أن العلم الحديث أعطى هذه المقدمة النظرية قوة كبيرة حيث إنه برهن عليها بطرقه التجريبية مما جعل دليل الحدوث مقدمًا على دليل الإمكان؛ لكونه لا يترتب عليه من المفاسد ما يترتب على الآخر .

22- لقد حدثنا القرآن الكريم حال بيانه لبرهان الخلق عن خلق الإنسان الأول ورأينا كيف أن القدرة الإلهية قد تجلت في خلق آدم عليه السلام حيث ثبت بذلك الوجود الإلهي، وهذا الأمر وإن كنا لم نقف على بيانه عيانًا مثل سائر خلق الأنفس إلا أننا رأيناه عند نقص

الحياة بالموت فالروح وهي آخر شيء كان في تكوين الإنسان الأول نراه أول شيء يخرج منه ثم بعد ذلك بقية المراحل بصورة عكسية حتى يعود ترابا .

23 - أيضا نجد القرآن الكريم، وقد أورد العديد من الدلائل العقلية على إثبات الوحدانية صائغا إياها في أسلوب سهل ميسر محبب للعقول والأفهام .

24 - إن من الدلائل التي عول عليها القرآن الكريم في إثباته للوحدانية برهان أعتمد فيه على إثبات طلاقة القدرة للحق سبحانه وتعالى وبيان قصورها في كل ما سوى الله، وهذا البرهان غير ذائع في الفكر الإسلامي إذا قورن ببرهان التوارد والتمانع بيد أن القرآن الكريم قد عول عليه في غير موضع من آياته، والواقع أنه برهان قوي ذو شأن كبير في إثبات الوحدانية للحق سبحانه وتعالى إذ يراه الإنسان في نفسه وفي غيره .

25 - إن طريقة الاستدلال على إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى من خلال الآيات الكريمات من سورة الشعراء [1]، والتي تحدثت عن الخليل عليه السلام مع قومه قد أشارت إلي منهج جديد في البحث والدراسة زعم السبق فيه لفرنسيس بيكون حتى ألف فيه كتابا أطلق عليه الأرجانون ذلك المنهج في البحث والاستدلال يقوم على جانبين: جانب للهدم.... وجانب للبناء، أو بعبارة أخري جانب للسلب، وجانب للإيجاب. فجانب الهدم أو السلب يتم فيه إزالة ما علق بالذهن من أوهام قد تعوق الوصول إلي الحق وجانب البناء أو الإيجاب يتم فيه إعطاء الصفات الصحيحة للشيء المراد إثباته وقد استخدم القرآن الكريم هذا المنهج سابقًا بيكون بقرون عديدة ، إذ إن الخليل عليه السلام فيما مر من آيات قد بطل وهدم أولا خرافة عبادة الأوثان بالحجة والبرهان، وهذا هو جانب الهدم أو الجانب السلبي،

1 - يراجع الآيات من سورة الشعراء 69، 82 .

وفي هذا تمهيد لجانب البناء أو الجانب الإيجابي والذي تم فيه بناء العقيدة الصحيحة عن الإله الحق بتقرير صفاته التي بها استحق أن يعبد نقول هذا مع تكرار التأكيد على أن القرآن الكريم قبل كل شيء هو كتاب هداية للناس من رب الناس .

26- أيضا كما أثبت القرآن الكريم قضايا الألوهية بالدلائل العقلية المنطقية كذلك أثبت إعجازه بالعديد من الدلائل المنطقية التي تخاطب العقول والأفكار .

27 - وبالنظر إلي ما تقدم يمكن القول كذلك أن القرآن الكريم معجزة عقلية لكونه اشتمل على حقائق عملية وتقنينات تشريعية وحلول لمسائل العقيدة ودعوة إلي الفكر والتدبر واشتماله كذلك على الدلائل العقلية والمنطقية وغير ذلك مما سبق بيانه وهو في الوقت ذاته حمل في طيه الدلائل العقلية على إعجازه .

28- إن القرآن الكريم وإن كان معجزة عقلية إلا أن الحس له مدخل فيه حيث إنه مقروء بلسان مسموع بالآذان مكتوب باليد مرئي بالعين .

29- إن الحق سبحانه وتعالى سخر لكتابه من يقوم لخدمته حتى الكفرة أعداء الدين فوجدنا العديد من الكافرين وقد تفننوا بالعناية بالمصحف والحفاظ عليه مع أنهم لا يفعلون ذلك في الكتب الأخرى مما يد ل على أنهم مسخرون لذلك؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي تكفل بحفظ كتابه .

30- كذلك وكما أثبت القرآن الكريم بالبراهين العقلية دلائل إعجازه نراه وقد سلك مسلك الخطاب العقلي والبرهنة المنطقية في إثبات النبوة والرسالة حيث أورد على صدقها العديد من الدلائل والتي لا يرتاب فيها إلا جاحد كفور .

31 - أيضًا نلحظ أن القرآن الكريم حال خطابه للعقل الإنساني في مسألة النبوة جعلها محض هبة واصطفاء من الله تعالى لمن يشاء من عباده، وهذا يبطل في قوة وصراحة ووضوح

مذهب الفلاسفة وغيرهم في النبوة والنبي الذين جعلوا لها من الأسباب والمقدمات ما عدت لأجله من الأمور المكتسبة .

32 - أيضًا أتى القرآن الكريم بالعديد من البراهين العقلية المنطقية الواضحة الذي أثبت بها البعث ومن ثم وقفت بقوة في وجه القائلين بإنكاره .

33- كذلك كان حديث القرآن الكريم عن دلائل إمكان البعث يظهر فيه بوضوح تعويل هذه الآيات على المعاد الجسماني ومن ثم فهي حجة دامغة على منكريه من الفلاسفة الإسلاميين .

34 - أيضا كان من ضمن الدلائل التي أثبت بها القرآن الكريم إمكان البعث برهان الجزاء على الأعمال وقد اعتمد هذا البرهان مفكرو المعتزلة، بل كان له قصب السبق عندهم بيد أن هذا المسلك في القرآن الكريم محفوف بالتفضل من الله سبحانه وتعالى أما عند المعتزلة فمقرون بالوجود .

35 - أيضا كان مما أثبت به القرآن الكريم أمر البعث بجانب الدلائل العقلية السابقة على إمكان كان له دلائل على وقوعه التمسناها في سير الأولين وفيما نشاهده الآن في الواقع الإنساني من نوم الإنسان ويقظته وغير ذلك .

36- إن من دلائل إثبات البعث المقارنة بين فعل الله وفعل البشر والآيات القرآنية التي تناولت هذا البرهان منها آيات عولت على هذه المقارنة ولزم من خلالها إثبات البعث ومنها آيات بينت هذه المقارنة مع دلالتها الصريحة لإثبات البعث .

37 - إن دلائل وقوع البعث في القرآن الكريم للعقل في تقريرها مدخل كبير حيث ثبتت نبوة قائلها بالدلائل العقلية، ولمسنا في حديثها الموضوعية التي تجلها سائغة للعقول البشرية

كذلك كان تزييل بعضها بقول الله سبحانه وتعالى (لعلكم تتقون) مما يدل على أن الخطاب بهذه الآيات إنما هو لأصحاب العقل والنهي .

38- إن دلائل وقوع البعث في القرآن الكريم تثبت الإمكان له إذ الدال على الوقوع حال على الإمكان .

39- أيضا رأينا من خلال بحثنا كيف أيد العلم الحديث النظرة القرآنية في قضية البعث والمعاد الجسماني، بل نراه وقد جعل من الآخرة أمرا ضروريا حيث شهدت بذلك البحوث العلمية كما مر وذكرنا في ثنايا بحثنا .

40 - كذلك رأينا العلم الحديث بأبحاثه وعلومه وقد أيد وجهة النظر الكلامية المستقاة من الآيات القرآنية في الرد على الفلاسفة المنكرين للمعاد الجسماني حيث أزال بأبحاثه وتجاربه مناط شبههم وقد تم بيان ذلك في موضعهم من البحث .

41- إن التأثر بالدلائل القرآنية في الفكر الإسلامي قد تباين من طائفة إلي طائفة، فوجدناه واضحا وشديدا عند الأشاعرة ثم كان بدرجة أقل عند المعتزلة، ثم كان هنا التأثر عند بعض الفلاسفة في المنزلة الدنيا .

42- أيضا نقول إنه ينبغي على المسلمين في عالم اليوم أن يرجعوا إلي كتاب ربهم الذي رأيناه بهذه المثابة السابقة؛ ليستلهموا منه نهضة فكرية وعلمية تفيدهم في حاضرهم الأليم .

43- إن الدولة الإسلامية ما قامت في عزها ومجدها إلا عندما تمسكت بكتاب ربها وعملت بما فيه حيث رأوا في آياته حث على العلم والعمل والفكر والنظر والعقل والتعقل، فكان وقودهم في نهضتهم التي بها سادوا الدنيا ودانت بها لهم الأمم .

44 - إن ما يعيشه المسلمون اليوم من واقع مر أليم سببه في المقام الأول إعراضهم عن كتاب ربهم وجعله من ورائهم ظهريا، وعيشهم على فتات أعدائهم في حين أن كتابهم بما

حواه من تكريم للعقل والعلم اللذان هما أساس المدنية الحديثة فيه العماد لسعادتهم ورقيهم دنيا وأخرى .

45- أيضًا نلمح من خلال ما تقدم في بحثنا أن الإسلام وكتابه ليس فيه إرهاب للفكر، أو حجر على العقل وهذا ما ينبغي أن يتعلمه شباب الإسلام اليوم ويضعونه نصب أعينهم حين القصد لعمل الدعوة

46- أيضا نقول إن هذا البحث بما سبق بيانه فيه في مختلف مراحله يرد بصورة عملية على تتمان و فيكتور كوزان و ديبور وغيرهم من مستشرقي الغرب، ومتعاليميه الذين زعموا أن القرآن الكريم يعوق النظر الفكري الحر .

47- كذلك وقفنا من خلال هذا البحث على يسر وسهولة العقائد الإسلامية المختلفة، والتي كانت البرهنة الميسرة عليها بالدلائل العقلية، ومن ثم نعلم أنه ليس هناك داع لوجود الفكر العلماني في البيئة الإسلامية إذ إن العلمانية قامت عندما رأت التعقيد في العقائد النصرانية المحرف، ة ورأوا في دينهم المحرف حجر على العقول، وتغييب للفكر ومعاداة للابتكار حتى أصبح التفكير واستخدام العقل جرما عظيما يورد صاحبه مواطن التهلكة، ومن ثم كان الفصل بين الدين والدولة. أما في ظل الإسلام وكتابه، فالأمر كما سبق بيانه على النقيض من هذا مما يجعلنا نقول أنه ليس ثمة داع لوجود العلمانية في ظل الإسلام وكتابه.

وبعد ،،،

فإن طريق العلم طويل طويل وبحره عميق عميق جل أن يلج عبابه إلا الواحد بعد الواحد وأرى نفسي الآن وقد وقفت ببحثي هذا على شاطئه ألتمس الخوض فيه طارقا على باب محرابه آملا أن أكون من خدمه يحدوني الأمل في القبول ويعرو وجهي الرغبة والرهبة. أما الرغبة فهي مدارسة العلم قربة لربي ومخالطة أربابه الذين هم أخشى خلق الله من الله،

وأما الرهبة فلقصور ما ركب في من عقل قد يقودني إلي مواطن الزلل، وفي الأولى والآخرة إن أصبت فبتوفيق من الله وذالك فضله يؤتيه من يشاء، وإن تكن الأخرى فما إليها سعيت ولا بها رضيت ولا فيها رغبت، وعذري أني ما أردت إلا خيرا وفوق كل ذي علم عليم .

فإلى رب العزة والجلال إلي الله سبحانه وتعالى خالق الكون وما كان الفكر في حقيقة أمره إلا بحثا عنه وتأملا في جلال صنعه إليه سبحانه وتعالى خالق الكون، وما كان الفكر في حقيقة أمره إلا بحثا عنه، وتأملا في جلال صنعه إليه سبحانه وتعالى خالق الكون، وقد أعطى كل شيء خلقه ثم هدى خلق العقل، وأنزل هداه ومن رحمته أن جعل له أجرا حين يخطأ وأجرين حين يصيب إليه وحده؛ لأنه هو الحق المبين ولا عاصم من دونه إذا اختلطت أمام العقل رؤى الحق والباطل الخطأ والصواب إليه أتقرب ببحثي هذا الذي يحمل محاولة عقل آمن به، ورأى في دينه فسحة العقل، وفريضة التفكير فوفق أحيانًا، وذل أحيانا داعيا ربي أن يغفر للعقل زلاته وللفكر شروده إنه قريب مجيب ......

أهم المصادر والمراجع

أ. القرآن الكريم .

حرف (أ)

شيخ الإسلام إبراهيم البيجوري: تحفة المريد على جوهر التو حيد ، ط، الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية .

الدكتور إبراهيم بيومي مدكور : في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه، ط، دار الكتب العملية بيروت .

الدكتور إبراهيم عبد الرحمن : الجدل في القرآن، ط، دار الإشعاع .

الإمام الإسفرايني : التبصير في الدين، تح الشيخ زاهد الكوثري، ط، دار الكتب العلمية بيروت.

الإمام الأشعري:

1. الإبانة عن أصول الديانة، تح الدكتور أحمد حجازي السقا، ط المكتب الثقافي .

2. اللمع، تح الدكتور حمودة غرابة، ط، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية سنة 1970 م .

3. مقالات الإسلاميين .

الإمام الألوسي : روح المعاني /ط، إحياء التراث العربي.

الآمدي :الإحكام في أصول الأحكام، ط، دار الكتب العلمية بيروت .

القاضي الإيجي : شرح المواقف ، ط الأولى سنة 1907 م مطبعة السعادة .

ابن بايويه القمي : التوحيد ، ط، دار المعرفة بيروت .

ابن باجه:

1. بين العقل والقوة المتخلية واتصال الإنسان بالعقل الأول، تح جمال الدين العلوي، ط، بيروت والدار البيضاء .

2. رسالة في ارتياض تصور القوة المتخلية والناطقة، تح جمال الدين العلوي ط بيروت والدار البيضاء .

3. رسالة في النظر الفائق والترتيب المعرفي، تح جمال الدين العلوي، ط، بيروت والدار البيضاء .

4. رسالة في واجب الوجود وممكن الوجود، تح جمال الدين العلوي، ط، بيروت والدار البيضاء .

الإمام ابن تيمية :

1. الإيمان، تح هاشم الشاذلي، ط دار الحديث القاهرة

2. درء تعارض العقل والنقل، ط، دار الكتب المصرية سنة 1973 .

3. الرد على المنطقيين، تح د/ محمد نصار وغيره ط مكتبة الكليات الأزهرية سنة 1977 م .

4. مجموعة التوحيد، ط دار الفكر .

5. مجموعة الرسائل الكبرى، ط صبيح .

6. مجموع الفتاوى، تح عبد الرحمن بن محمد العاصمي ط بيروت

7. النبوات، ط بيروت .

الإمام ابن حجر العسقلاني:

فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تح، طه عبد الرؤف سعد ، ط دار الغد العربي.

الإمام ابن حزم:

الفصل في الملل والأهواء والنحل، ط، دار المعرفة .

ابن خزيمة : التوحيد وإثبات صفات الرب، ط دار الكتب بيروت .

ابن الخطيب : أوضح التفاسير، ط المكتبة المصرية .

ابن رشد :

1. تهافت التهافت د: سليمان دنيا، ط دار المعارف .

2. فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، تح أ.د / محمد عمارة ، ط، دار المعارف .

3. مناهج الأدلة، تح الدكتور محمود قاسم، ط الثالثة الأنجلو .

ابن سعد : الطبقات الكبرى تح د / حمزة النشرتي وآخرون، ط الإيمان .

ابن سينا :

1. الإشارات والتنبيهات تح د / سليمان دينا، ط دار المعارف .

2. الأضحوية في المعاد تح د/ حسن عاصي، ط المؤسسة الجامعة للدراسات والتوزيع والنشر .

3 . تفسير سورة الإخلاص تح د/ حسن عاصي، ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع .

4 . تفسير سورة الأعلى تح د / حسن عاصي، ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر التوزيع .

5 . تفسير سورة الفلق ، تح د/ حسن عاصي، ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

6. رسالة حي بن يقظان، تح د / حسن عاصي، ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع .

7. رسالة الدعاء والزيادة ط الأولى حيدر آباد .

8. رسالة في سر الصلاة تح د/ حسن عاصي، ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع .

9. رسالة في سر القدر تح د / حسن عاصي، ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع .

10. رسالة السعادة ط الأولى حيدر آباد .

11. الرسالة العرشية ط الأولى حيدر آباد .

12. رسالة العشق تح د / حسن عاصي، ط المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع .

13. رسالة في الفعل والانفعال، ط الأولى حيدر آباد .

14. رسالة في الفيض الإلهي، مخطوط دار الكتب المصرية رقم 394 .

15. كتاب الشفاء، تح الدكتور محمد موسى والدكتور سليمان دنيا ط المطابع الأميرية سنة 1960 .

16. النجاة، تح د ماجد فخري، ط بيروت .

ابن طفيل : رسالة حي بن يقظان .

الإمام ابن عطا ء الله السكندري: الحكم. تح د/ عبد الحليم محمود و د/ محمود بن الشريف، ط دار الشعب .

الإمام ابن قيم الجوزية :

1. التفسير القيم، ط دار الفكر .

2. زاد لمعاد في هدى خير العباد ، ط دار المعرفة .

3. الفوائد ، ط الريان .

4. مدارج السالكين ، ط دار البيان العربي .

الإمام ابن كثير:

1. البداية والنهاية، ط دار الغد العربي .

2. تفسير القرآن العظيم، ط دار الفكر العربي .

3. معجزات النبي ، ط المكتبة القيمة ، تح د/ حمزة النشرتي وآخرون .

ابن المنير: الانتصاف، ط دار الريان للتراث .

ابن هشام :السيرة النبوية، ط دار البيان العربي .

أبو الأعلى المودودي :

1. تفسير سورة النور، ط، الجهاد .

2. تفهيم القرآن، ط الأولى، دار القلم سنة 1978م.

أبو البقاء الجعفري : الرد على النصارى تح د محمد حسين، ط وهبة .

أبو بكر الجزائري :

1. عقيدة المؤمن، ط بيروت .

2. منهاج المسلم، ط المدينة المنورة سنة 1964 .

أبو الحسن الخياط: الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد ، تح د/ دي نبيرج، ط م الكليات الأزهرية .

أبو حيان الأندلسي :

1. البحر المحيط ، ط الثانية دار الفكر .

2. النهر الماد، ط الثانية سنة 1983 م ، ط، دار الفكر .

أبو رشيد النيسابوري: في التوحيد، تح الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده، ط. المؤسسة المصرية للتأليف.

العلامة أبو السعود : إرشاد العقل السليم ، ط المصحف .

الإمام أبو عبد الله السنوسي :شرح عقيدة أهل التوحيد ، ط الأولى سنة 1963م .

الأستاذ أحمد حسين : من قضايا الرأي في الإسلام ، ط دار المعارف .

الدكتور أحمد شوقي: أطوار الخلق في تاريخ الإنسان ، ط روز اليوسف سلسلة القرآن والعلم .

الدكتور أحمد صبحي : في علم الكلام، ط مؤسسة الثقافة الجامعية .

الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح :

1. فلسفة الحضارة، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة 1980م .

2. مستقبل الحضارة، ط روز اليوسف سنة 1405 هـ .

الدكتور أحمد عبد العال الجعفاوي : الألوهية في ضوء القرآن الكريم، ط الأولى سنة 1989 م .

الدكتور أحمد علوش: الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها، ط الكتاب المصري .

الدكتور أحمد مصطفي المراغي : تفسير المراغي، ط دار الفكر .

آرنست رينان: ابن رشد والرشدية، تح عادل زعيتر، ط دار إحياء الكتاب العربي.

إميل برهيه : تاريخ الفلسفة في القرن السابع عشر، تح جورج طرابيشي، ط دار الطليعة .

الشيخ أمين الخولي : من هدي القرآن، ط الهيئة المصرية للكتاب .

حرف (ب)

الإمام الباقلاني :

1. إعجاز القرآن، ط الحلبي سنة 1968م .

2. الإنصاف ، تح الشيخ / زاهد الكوثري، ط الخانجي سنة 1382 هـ .

3 . تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، تح أحمد حيدر ، ط مؤسسة الكتب الثقافية .

برتراند رسل : تاريخ الفلسفة الغربية ن تح د / محمد فتحي الشنيطي، ط القاهرة سنة 1977 م .

القاضي البيضاوي:

1. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ط الحلبي .

2. معراج المنهاج، شرح شمس الدين الجزري تح د/ شعبان إسماعيل، ط الأولى سنة 1993 م .

3. طوالع الأنوار من مطالع الأنظار، تح عباس سليمان، ط دار الجيل .

الإمام البيهقي:

1. الأسماء والصفات، ط دار الكتب العلمية بيروت .

2. الاعتقاد على مذاهب السلف، ط دار الكتب العلمية بيروت سنة 1984 م .

3. البعث والنشور، تح الشيخ عامر أحمد حيدر، ط مكتب الخدمات والأبحاث الثقافية .

حرف (ت)

الشيخ توفيق محمد سبع: قيم حضارية في القرآن الكريم ، ط دار المنار القاهرة .

حرف (ج)

الجاحظ : الدلائل والاعتبار، ط مكتبة الكليات الأزهرية، دار الندوة .

الشيخ جاد الحق على جاد الحق : بيان للناس ، ط جامعة الأزهر .

الدكتور جمال الدين الفندي : القرآن والعلم، ط دار المعرفة .

الشيخ جمال الدين القاسمي : دلائل التوحيد، ط مطبعة الثقافة .

الأستاذ جمعة أمين عبد العزيز :الدعوة قواعد وأصول، ط الثانية دار الدعوة .

الجمل: الفتوحات الإلهية على حاشية الجلالين ، ط الحلبي .

الدكتور جميل صليبا : تاريخ الفلسفة العربية، ط دار لبنان.

جون كلوفر : الله يتجلي في عصر العلم، تح د/ الدمرداش عبد المجيد سرحان، ط الحلبي .

الإمام الجويني :

1. الإرشاد إلي قواطع الأدلة، ط مكتبة الخانجي .
2. الشامل ، ت هيلموت كلوفر، ط دار العرب .
3. العقيدة النظامية، تح الدكتور أحمد حجازي السقا، ط مكتبة الكليات الأزهرية سنة 1988 م .
4. الكافية في الجدل ، تح الدكتورة فوقية حسن، ط مكتبة الكليات الأزهرية سنة 1988 .
5. لمع الأدلة، تح الدكتورة فوقية حسن، ط القاهرة سنة 1965 / .

حرف (ح)

الحسن بن متويه: التذكرة في أحكام الجواهر والأعراض تح د/ سامي نصر لطف، و/ فيصل بدير عون، ط دار الثقافة القاهرة سنة 1975 .

الدكتور حسن عبد الحميد حسن، محاضرات في الدعوة ، ط سنة 1974 م .

الدكتور الحسيني أبو فرحة وآخرون، من هدي القرآن الكريم، ط الكتاب الجامعي سنة 1995 م

الدكتور حمودة غرابة : ابن سينا بين الدين والفلسفة، ط مجمع البحوث الإسلامية .

الأستاذ حنفي أحمد : التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن الكريم ، ط الثالثة دار المعارف .

الدكتور حنا الفاخوري والأستاذ خليل الجر : تاريخ الفلسفة الإسلامية، ط بيروت .

حرف (خ)

الشيخ خالد عبد الرحمن الكعك: معالم النبوة في الكتاب والسنة، ط دار النقاش .

الخطيب الشربيني: السراج المنير، ط دار المعرفة .

الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ط الثالثة مكتبة الكليات الأزهرية سنة 1981م .

حرف (د)

دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، تح د/ محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر.

حرف (ر)

الإمام الرازي:

1. أساس التقديس، تح د/ أحمد حجازي السقا، ط مكتبة الكليات الأزهرية .

2. أسرار التنزيل وأنوار التأويل ، تح د/ عبد الغني الغريب طه، راجح رسالة دكتوراة كلية أصول الدين بالقاهر ة سنة 1994م .

3. اعتقادات فرق المشركين، ط مكتبة الكليات الأزهرية .

4 . خلق القرآن ، تح الدكتور محمد عمارة القاهرة .

5. لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات، تح طه عبد الرؤف سعد، دار الكتاب العربي.

6. المباحث المشرقية ، ط حيدر آباد سنة 1343هـ .

7 . المحصل تح طه عبد الرؤف سعد، ط مكتبة الكليات الأزهرية .

8. المسائل الخمسون في أصول الدين، تح الدكتور أحمد حجازي السقا، ط لمكتب الثقافي .

9. معالم أصول الدين، تح الدكتور أحمد حجازي السقا، ط المكتب الثقافي .

10. المطالب العالية، تح الدكتور أحمد حجازي السقا، ط بيروت .

11 . مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، ط دار الغد .

12 . نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، ط القاهرة سنة 1317 هـ .

الدكتور رؤف شلبي: الدعوة الإسلامية في عهدها الملكي، ط مجمع البحوث الإسلامية .

رحمة الله الهندي : إظهار الحق ، ط دار الجبل بيروت .

الدكتور رشدي عزيز محمد:

1. الإسلام عقيدة ونظام، ط مكتبة حسان سنة 1988م .

2. بين الغزالي وابن رشد في المسائل 14 التي عارض فيها الغزالي الفلاسفة .

3. عقيدة التوحيد في الرسالات السماوية ، ط قطر.

4 . الشيخ رشيد رضا: تفسير القرآن الكريم ، ط دار الفكر .

الدكتور رفقي زاهر : أعلام الفلسفة الحديثة، ط 1 دار المطبوعات الدولية سنة 1979 م .

حرف (ز)

الإمام الزركشي : البرهان في علوم القرآن، ط دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت .

الدكتور زكي نجيب محمود والأستاذ أحمد أمين : قصة الفلسفة الحديثة، ط النهضة .

الإمام الزمخشري : الكشاف، ط دار الريان .

حرف (س)

الدكتور سامي عفيفي حجازي : مدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية، ط الطباعة المحمدية .

الإمام سعد الدين التفتازاني :

1. شرح المقاصد، تح د/ عبد الرحمن عميرة، ط مكتبة الكليات الأزهرية وعالم الكتب بيروت .

2. العقائد النسفية ، تح د/ أحمد حجازي السقا، ط مكتبة الكليات الأزهرية .

الدكتور سعد الدين صالح: العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث ، ط دار الصفا .

الأستاذ سعد المرصفي : معالم في السلوك الإسلامي، ط دار الإشعاع .

الأستاذ سعيد حوي :

1. الله، ط مكتبة وهبه .

2. جولات في الفقهين الكبير والأكبر، ط مكتبة وهبه .

الدكتور سليمان خميس :

1. نهاية الفلسفة الإسلامية في المشرق وبدايتها في المغرب، ط دار الطباعة المحمدية سنة 1965 م.

2. نحو عقيدة قرآنية ، ط الأولى دار الطباعة المحمدية سنة 1969 م .

الدكتور سليما دنيا : الحقيقة في نظر الغزالي، ط دار المعارف .

الإمام السيوطي :

1. الإتقان في علوم القرآن ، ط المعرفة .

2. لباب النقول في أسباب النزول، ط الجمهورية سنة 1989 م .

3. تفسير الجلالين، ط الأولى المطبعة العاصرة 1318م.

حرف (ش)

الإمام الشافعي :

1. الأم، ط دار الغد العربي .

2. الرسالة، تح أ: أحمد محمد شاكر، ط الأولى الحلبي سنة 1940 م .

الشريف التلمساني: مفتاح الأصول في بناء الفروع على الأصول، تح أحمد عز الدين خلق الله، ط الأولى السعادة، سنة 1981م.

الإمام الشعراني: اليواقيت والجواهر ، ط الحلبي .

شمس الدين الأصفهاني: شرح مطالع الأنظار على مطالع الأنوار، ط الأولى مصر .

الإمام الشهرستاني :

1. نهاية الأقدام في علم الكلام، تح ألفردجيوم ، ط مكتبة زهران .

2. الملل والنحل ، ط دار المعرفة .

الإمام الشوكاني: إرشاد الثقات، ط دار الفكر .

حرف (ص)

الدكتور صابر طعيمة: اليهود بين الدين والتاريخ ، ط مكتبة وهبة .

صالح سعد سحيمي : منهج السلف في العقيدة ، ط دار البحوث .

الصاوي : حاشية الصاوي على الجلالين، ط الأولى المطبعة العامرة 1318هـ .

حرف (ط)

الطبرسي : مجمع البيان، ط، دار إحياء التراث بيروت .

الإمام الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ط دار الغد العربي .

الطبطبائي : الميزان في تفسير القرآن، ط مؤسسة الأعلى للمطبوعات بيروت .

الإمام الطحاوي: أصول العقيدة الإسلامية، ط مؤسسة الرسالة .

الأستاذ طه جابر العلواني: العقل وموقعه في المنهجية الإسلامية، ط إسلامية المعرفة سنة 1996 م.

حرف (ع)

الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) : التفسير البياني للقرآن الكريم ، ط دار المعارف .

الدكتور عاطف العراقي: محاضرات في الفلسفة الإسلامية، ط معهد للدراسات الإسلامية .

الأستاذ عباس العقاد :

1. الإنسان في القرآن الكريم، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

2. الله، ط الأهرام التجارية .

3. التفكير فريضة إسلامية، ط دار المعارف .

4. حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، ط المؤتمر الإسلامية سنة 1975 م .

القاضي عبد الجبار :

1. تنزيه القرآن عن المطاعن، ط بيروت .

2. شرح الأصول الخمسة ، ط دار الكتب سنة 1965م .

3. المحيط بالتكليفات، تح د/ عمر عزمي، مراجعة دم أحمد فؤاد الأهواني، ط المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر.

4. المختصر، تح د/ محمد عمارة ، ط دار الشروق .

5 . المغني ط دار الكتب سنة 1960 م .

6 . المنية والأمل، جمع ابن المرتضي، تح د / عصام الدين محمد على، ط دار المعرفة الجامعية 1985 م .

الدكتور عبد الحليم محمود :

1. الإسلام والعقل، ط دار الكتب الحديثة .

2.التفكير الفلسفي في الإسلام، ط الخامسة دار المعارف.

3. الرسول لمحات من حياته ونفحات من هديه، ط مجمع البحوث الإسلامية سنة 1969 م .

4. القرآن في شهر القرآن ، ط دار المعارف .

الأستاذ عبد الحليم الجندي: القرآن والمنهج العلمي المعاصر، ط دار المعارف .

الدكتور عبد الحي الفرماوي: زاد الدعاة من هدى القرآن ، ط مكتبة الفتح .

الأستاذ عبد الرازق الحسني: الصائبة في ماضيهم وحاضرهم، ط بيروت .

الأستاذ عبد الرازق نوفل: القرآن والعلم الحديث، ط دار الشعب سنة 1982 م .

الدكتور عبد الرحمن بيصار: المختصر في العقيدة والأخلاق، ط الأنجلو .

الدكتور عبد الرحمن المراكبي:

1. التصوف الإسلامي بين أنصاره وخصومه، ط دار الطباعة المحمدية .

2. قضية التأويل في الفكر الإسلامي ، ط الأولى دار الطباعة المحمدية سنة 1987 م .

الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد: مدخل إلي التفسير الموضوعي، ط دار الطباعة الإسلامية .

الدكتور عبد السلام الذهبي: تيسير الرحمن في سورة الفرقان، ط 1 دار الطباعة المحمدية سنة 1986م .

الدكتور عبد العزيز سيف النصر:

1. البراهين العقلية والنقلية، ط 1 سنة 1992م .

2. المختار من النصوص الفلسفية، ط دار الطباعة المحمدية .

الدكتور عبد الغفار عبد الرحيم : الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير، ط الحلبي .

الإمام عبد القاهر البغدادي:

1. أصول الدين، تح الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد .

2. الفرق بين الفرق، ط دار الآفاق .

الدكتور عبد الكريم زيدان : أصول الدعوة الإسلامية ، ط الرسالة .

الدكتور عبد الله الشاذلي:

1. الألوهية في الفكر الإسلامي، ط سنة 1989م .

2. التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة، ط دار الهداية .

الشيخ عبد المتعال الصعيدي : الحرية الدينية في الإسلام ، ط دار الفكر العربي .

الدكتور عبد المعبود سالم: أسس العقيدة من القرآن الكريم، ط الأمانة .

الدكتور عبد المعطي بيومي : الفلسفة الإسلامية من المشرق إلي المغرب، ط دار الطباعة المحمدية .

الدكتور عبد المنعم رماح:

1. تفسير سورة القيامة والإنسان، ط دار الإشعاع .

2. سؤال إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيي الموتى مقال في حولية أصول الدين بالمنوفية العدد العاشر سنة 1990م .

الدكتور على جبر:

1. محاضرات في مناهج البحث سنة ط 1975م .

2. محاضرات في علم الكلام ، ط سنة 1975 م .

الدكتور على سامي النشار: مناهج البحث عند مفكري الإسلام ، ط الرابعة دار المعارف سنة 1978م. الدكتور على عبد الواحد وافي: الحرية في الإسلام، ط دار المعارف .

حرف (غ)

الإمام الغزالي:

1. إحياء علوم الدين، ط دار الغد .

2. الأربعين في أصول الدين ، ط دار الجبل بيروت .

3. الاقتصاد في الاعتقاد ، ط صبيح سنة 1962 م .

4. تهافت الفلاسفة ، تح د / سليمان دنيا، ط دار المعارف .

5. شرف العقل وماهيته تح مصطفى عبد القادر عطا، ط دار الكتب العلمية .

6. القسطاس المستقيم من مجموع القصور العوالي ، تح الشيخ محمد مصطفى أبو العلا، ط م الجندي .

7. قواعد العقائد تح د/ رؤف شلبي، ط مجمع البحوث الإسلامية .

8. المستصفي، ط الأولى المطبعة الأميرية .

9. المقصد الأسني، تح الشيخ محمد مصطفى أبو العلا ط مكتبة الجندي .

10. معارج القدس، ط دار الآفاق بيروت .

11. المنقذ من الضلال ، تح د/ عبد الحليم محمود، ط دار الكتب الحديثة .

12. ميزان العمل، تح د / سليمان دنيا ، ط دار المعارف.

حرف (ف)

الفارابي:

1. أراء أهل المدينة الفاضلة، ط محمد صبيح .

2. تحصيل السعادة ، تح جعفر آل ياسين، ط دار الأندلس .

3. الثمرة المرضية نشر فردريش ديترص، ط ليدن سنة 1980م .

4. الجمع بين رأيي الحكيمين، ط الأولى السعادة سنة 1907م .

5. رسالة المدينة الفاضلة ، تح د / عبد الرحمن بدوي، ط الأندلس .

6 شرح فصوص الحكم، تح محمد بدر الدين الحلبي، ط الأولى سنة 1907 مطبعة السعادة .

7. عيون المسائل، ط الأولى السعادة سنة 1907م .

8. المسائل الفلسفية والأجوبة ، ط السعادة سنة 1907م .

الدكتور فتح الله خلف : فلاسفة الإسلام، ط دار الجامعات المصرية .

الدكتور فيصل بدير : الفلسفة الإسلامية في المشرق ، ط مكتبة الحرية .

حرف (ق)

القاسم بن إبراهيم الرسي :

1. أصول العدل والتوحيد ، تح الدكتور محمد عمارة، دار الشروق .

2. العدل والتوحيد ونفي التشبيه عن الواحد، دراسة وتحقيق د : محمد عمارة، ط دار الشروق.

الإمام القرطبي:

1. تفسير القرآن العظم ، ط دار الغد .

2. التذكرة، ط دار الريان للتراث .

حرف (ك)

الكندي :

1. الإبانة عن العلة الفاعلة القريبة للكون والفساد، تح د/ محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر .

2. رسائل الكندي الفلسفية ، تح د :محمد عبد لهادي أبو ريدة ، ط دار الفكر .

3. رسالة الكندي في الفلسفة الأولى ، تح د: محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط دار الفكر .

4. رسالة في كمية كتب أرسطو وما يحتاج إليه في تحصيل الفلسفة، تح د : أبو ريدة، ط دار الفكر .

5. وحدانية الله وتناهي الجرم، تح د/ محمد عبد الهادي أبو ريدة ، ط دار الفكر .

حرف (م)

الإمام الماتريدي:

1. تأويلات أهل السنة، تح د / إبراهيم عوضين وآخرون، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

2. التوحيد تح د : فتح الله خليف، ط الجامعات المصرية .

الإمام الماوردي : أدب الدنيا والدين ، ط الأولى القاهرة نشر المطبعة الأدبية .

الدكتور مبارك حسن حسين :

1. أضواء على الفكر الأشعري، ط الأمانة سنة 1987 م.

2. التيارات الفكرية، ط دار الطباعة المحمدية سنة 1983م.

3. علم التوحيد في ضوء العقل والنقل، ط الثانية سنة 1995 م، ط مطبعة حمادة الحديثة .
4. المنطق الحديث ومناهج البحث، ط الأمانة .
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية: المنتخب في تفسير القرآن الكريم ، ط الأهرام سنة 1977م.
محمد بن نظام الدين الأنصاري: فواتح الرحموت لشرح مسلم الثبوت، ط الأولى المطبعة الأميرية.
الدكتور محمد البهي:
1. الإسلام دين الإنسانية، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
2. الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، ط مطبعة وهبة
3. نحو القرآن ، ط مطبة وهبة .
4. طبقية المجتمع الأوربي، ط مطبعة وهبة سنة 1968م.
الدكتور محمد جلال شرف : الله، العالم ، الإنسان، ط دار النهضة .
الأستاذ محمد حسن الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، ط دار العلم .
الدكتور محمد حسين الذهبي: الإسرائيليات في التفسير والحديث، ط مجمع البحوث الإسلامية .
الشيخ محمد الخضري : نور اليقين، ط الأولى دار الفكر .
الدكتور محمد ربيع جوهري : عقيدتنا ، ط الثالثة سنة 1997م .
الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي : فقة السيرة ، ط دار الفكر .
الشيخ محمد سويد : الإسلام وغزو الفضاء، ط رابطة العالم الإسلامي سنة 1987 م .
الدكتور محمد السيد الجليند : نظرية المنطق بين فلاسفة السلام واليونان ، ط الثانية التقدم سنة 1985م .
الدكتور محمد صالح، فخر الرازي وأراؤه الكلامية والفلسفية ، ط دار الفكر .
الدكتور محمد صلاح عبده: اهتمام الخطاب القرآني بقوى الإدراك الإنساني ، ط سنة 1995م.

الدكتور محمد الطيب النجار: السيرة النبوية ، ط المطابع الأميرية .

الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني :مناهل العرفان، ط الحلبي.

الدكتور محمد عبد الفضيل القوصي: جوانب من التراث الفلسفي في الإسلام، ط الأولى دار الطباعة المحمدية سنة 1980م .

الدكتور محمد عبد الله دراز:

1. الدين ، ط دار القلم .

2. النبأ العظيم ، ط دار القلم .

الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي :

1. الرد على البهائيين في ضوء المنهج اللغوي، ط م مصر.

2. الفكر الإسلامي بين الأصالة والتجديد ، ط دار الجبل بيروت .

الدكتور محمد عبد الواحد : قضية البعث بين المنكرين والمثبتين، ط دار الإشعار سنة 1991م

الإمام محمد عبد ه :

1. تفسير جزء عم، ط المنار .

2. رسالة التوحيد ، ط مطبعة القاهرة .

الشيخ محمد على الصابوني: صفوة التفاسير، ط بيروت .

الدكتور محمد عمارة : المعتزلة ومشكلة الحرية ، ط دار الشروق .

الشيخ محمد الغزالي:

1. حقوق الإنسان، ط الثالثة دار الكتب الإسلامية .

2. دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، ، ط دار الكتب الإسلامية .

3. عقيدة المسلم، ط الدار الإسلامية .

4. ليس من الإسلام، ط الخامسة دار الكتب الإسلامية .

5. مائة سؤال عن الإسلام ، ط دار ثابت .

6. نظرات في الإسلام ، ط السادسة دار الكتب الإسلامية .

الأستاذ محمد الغمراوي: الإسلام في عصر العلم ، ط دار الإنسان .

الأستاذ محمد فريد وجدي : تفسير القرآن ، ط دار الشعب .

الأستاذ محمد ماضي أبو العزايم : تفسير القرآن، ط دار الشعب .

الإمام محمد متولي الشعراوي :

1. الأدلة المادية على وجود الله، ط الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية .

2. تفسير الشعراوي، ط دار التراث الإسلامي .

3. عقيدة المسلم ، ط، دار التراث الإسلامي .

4. مشاهد يوم القيامة ، ط دار أخبار اليوم سنة 1988م.

5. معجزة القرآن، ط دار أخبار اليوم سنة 1988م .

الدكتور محمد محمود حجازي:

1. الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ط دار الكتب الحديثة .

2. التفسير الواضح ، ط دار التفسير سنة 1977م .

الدكتور محمد يوسف موسى : القرآن والفلسفة، ط دار المعارف .

الدكتور محمود بن الشريف : الأديان في القرآن ، ط دار المعارف .

الدكتور محمود بسيوني فودة: المرشد الوافي في علوم القرآن ، ط الأمانة سنة 1982م .

الدكتور محمود حمدي زقزوق:

1. المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت، ط الأنجلو المصرية .

2. تمهيد للفلسفة ، ط الثالثة الأنجو.

3. دراسات في الفلسفة الحديثة ، ط دار الطباعة المحمدية سنة 1978م .

الشيخ محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، ط دار الشروق .

الدكتور محمود عبد المعطي بركات: أثر الإسلام في بناء المجتمع الفاضل، ط دار المنار سنة 1991م .

الدكتور محمود عمارة :

1. فقه الدعوة من قصة موسى عليه السلام، ط السلام العالمية .

2. من أجل حوار لا يفسد للود قضية ، ط الأولى الطباعة المحمدية سنة 1987م .

الدكتور محمود مزروعة:

1. دراسات في العقيدة الإسلامية ، ط جامعة الأزهر .

2. اليهودية، ط دار الطباعة المحمدية سنة 1987م .

الدكتور محي الدين الصافي: النبوات والسمعيات، ط الأولى سنة 1982م دار الطباعة المحمدية .

الدكتور مصطفى حلمي:

1. الإسلام والمذاهب الفلسفية، ط دار الدعوة .

2. دراسات في الفلسفة الإسلامية، ط مكتبة الشباب .

الشيخ مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ط الثالثة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

الدكتور مصطفى عبد الواحد: شخصية المسلم كما يصورها القرآن الكريم، ط جهاز للكتب الجامعية .

الأستاذ مصطفى عشوي: تصور الطبيعة الإنسانية أسلوب نفسي مقارن، ط إسلامية المعرفة .

الدكتور مصطفى محمود: الله ، ط دار المعارف .

الشيخ مناع القطان : مباحث في علوم القرآن، ط التاسعة مكتبة وهبة .

حرف (ن)

الأستاذ نديم الجسر:

1. القرآن والسنة في التربية الإسلامية، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

2. قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، ط المكتب الإسلامي .

حرف (و)

وحيد الدين خان:

1. الإسلام يتحدى، ت ظفر الإسلام خان، مراجعة د/عبد الصبور شاهين، ط المختار الإسلامي .

2. الدين في مواجهة العلم، ط الثانية المختار الإسلامي، ت ظفر الإسلام خان .

حرف (ى)

يحيي بن الحسين:

1. الرد على أهل الزيغ من المشبهين، تح د/ محمد عمارة، ط دار الشروق .

2. معرفة الله من العدل والتوحيد والإمامة في آل البيت، تح د/ محمد عمارة، ط دار الشروق .

3. الرد على المجبرة والجبرية، تح د/ محمد عمارة، ط دار الشروق .

الدكتور يحيي هاشم : الفكر الإسلامي في مواجهة التيارات الفكرية المعاصرة، ط1/1986م، مكتبة الجبلاوي .

الأستاذ يوسف كرم : قصة الفلسفة الحديثة، ط دار المعارف.

فهرس الموضوعات